تهذيب التفسير وتجريد التأويل
مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

تأليف

عبد القادر بن شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة سابقاً والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الثاني

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
الرياض

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
هاتف: ٤١١٤٥٣٥ - ٤١١٣٣٥٠
فاكس ٤١١٢٩٣٢ - برقياً دفتر
ص.ب: ٣٢٨١ الرياض الرمز البريدي ١١٤٧١
سجل تجاري ٦٣١٣ الرياض

قال تعالى: ﴿وأتمّوا الحجّ والعمرة لله، فإن أحصرتم فما استيسر من الهدْي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدْيُ محِلّه، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك، فإذا أمنتم فمن تمتّع بالعُمرة إلى الحج فما استيسر من الهدْي، فمَنْ لم يجد فصيام ثلاثة أيّام في الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرةٌ كاملة، ذٰلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، واتّقوا الله واعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أحكام الصيام وهو ركن من أركان الإسلام ثم بين بعض أحكام الجهاد في سبيل الله شرع هنا يذكر بعض أحكام الحج للصلة الوثيقة والرابطة القوية بين الحج والجهاد حتى وصف رسول الله ﷺ حجّ النساء أو عمرتهن بأنّ ذلك جهاد، فقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «لَكُنّ أفضل الجهاد حج مبرور». ووصفه بأنه جهاد لا قتال فيه كما روى أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، على النّساء جهاد؟ قال: «نعم، عليهن جهادٌ لا قتال فيه: الحجّ والعمرة» كما رتّب رسول الله ﷺ أفضل الأعمال فذكر الحجّ بعد الجهاد فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أيّ العمل أفضل؟ فقال: «إيمانٌ بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل ثم ماذا؟ قال: «حجٌّ مبرور». وقوله عز وجل: ﴿وأَتموا الحج والعمرة لله﴾ هو أمر من الله عز وجل بإتمام الحج والعمرة وإخلاص عملهما لله عز وجل، وقد تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر﴾ الآية تفسير الحج والعمرة وتعريفهما، ولا نزاع عند أهل العلم أن قوله تبارك

وتعـالى : ﴿وأتموا الحج والعمـرة لله﴾ الآية . نـزلت في السنـة السـادسـة من الهجرة بعد شروع النبـي ﷺ في العمرة عام الحديبية لما صـده المشركون ومنعوه من الوصول إلى البيت الحرام فأنـزل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكـريمة وأمر فيهـا بإتمام الحج والعمـرة وبين حكـم المُحْصَرِ الـذي تعـذر عليـه الإتمام ، ولذلك لما تم صلح الحديبية كان في شروط الصلح أن يعتمر رسول الله ﷺ في العام القابل ، وسميت العمرة التي اعتمرها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة سبع عمرة القضاء . وظاهر القـرآن العظيم يدل على أن الحج إنما فرض بقوله عز وجل : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ وقد نزلت هذه الآية الكريمة سنة تسع من الهجرة على الصحيح ، وأن الحج لم يفرض إلا في السنـة التاسعة بهذه الآية الكـريمة ، ولم يرد في صريـح القرآن ولا صحيح السنـة وجوب العمرة ابتـداء ، وإنما أوجب الله تبارك وتعالى بقوله عز وجل : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ إتمام الحج وإتمام العمرة بعـد الشروع فيهما ، وسائر الأحاديث الصحيحـة ليس فيها إلا إيجاب الحج وأنـه أحد أركـان الإسـلام الخمسة ، وأكثـر أهل العلم على أن المتطـوع بالصـلاة أو الصيام هـو أمير نفسه ، كما جـاء في حديث أم هـانئ عند أحمد والترمذي أن رسـول الله ﷺ قال : المتطوع أمير نفسـه إن شاء صـام وإن شاء أفطر» وقد جاء كذلك ما يؤيده عن أنس مع أبي طلحة رضي الله عنه في قصة أكله من البرد وقـد كان متطـوعا بـالصيام . فلـو شرع في صيام تطـوعا أو في صلاة تطوعا ثم بدا له أن لا يتم هـذه النافلة فله ذلك ولا قضاء عليه ، لكن أجمع أهل العلم على أن من شرع في الحج أو العمرة متطـوعا وجب عليه إتمام ما شرع فيه وليس له رفضه بحال . فلو أفسده وجب عليه قضاؤه مع ما يلزمه من الفديـة ، ولا شك أن ذلك الإجماع مستنده قـوله عـز وجل هنا : ﴿وأتمّوا الحج والعمرة لله﴾ ولم يرد في القـرآن ذكر العمرة إلا مقرونة بذكـر الحج كقوله

تبارك وتعالى: ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ وكما قال هنا: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ والمراد بإتمام الحج والعمرة وجوب المضي فيهما وإكمال أركانهما وشروطهما وسائر حقوقهما من غير إخلال بشيء منهما ابتغاء وجه الله عز وجل، مع الابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال، وقد بشر رسول الله ﷺ من حج لله وصان حجّه من الرفث والفسوق بالجنة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حجّ لله فلم يرفُث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». كما أخبر ﷺ أن العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وقوله عز وجل: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾ أي فإن مُنِعْتُم أيها المُحْرِمون بالحج أو بالعمرة من الوصول إلى البيت الحرام لإتمام حجكم أو عمرتكم بسبب عدو أو مرض أو غيرهما من الحوائل التي تحول بينكم وبين المضي في نسككم فانحروا أو اذبحوا ما تَيَسَّرَ لكم من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم والماعز، وقد بَيَّنَ رسول الله ﷺ أن البدَنَةَ تُجزئُ عن سبعة وأن البقرة تجزئ عن سبعة وأن الشاة تجزئ عن واحد، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق أبي جمرة أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن الهدي، فقال: فيها جَزُور أو بقرة أو شاة اهـ يريد أن الجَزُور والبقرة تجزئ كل واحدة منهما عن سبعة، كما روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البَدَنة عن سبعة والبقرة عن سبعة. وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُحْصِرَ رسولُ الله ﷺ فحلق رأسه وجامع نساءه ونحر هديه حتى اعتمر عاما قابلا. كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرجنا مع النبي ﷺ فحال

كفار قريش دون البيت فنحر النبي ﷺ هداياه وحلق وقصّر أصحابه. وقوله عز وجل: ﴿ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهَدْيُ محلّه﴾ أصل مَحِلّ الهدي الموضع الذي يحلّ فيه ذبحه وهو البيت العتيق كما قال عز وجل: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ وليس المرادُ من البيت العتيق عَيْنَ المسجد الحرام لأنه مَصُون عن الدماء والأقذار، وقد بين رسول الله ﷺ المقصود بذلك فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحرت هاهُنا ومِنى كلّها مَنْحَر فانحروا في رحالكم». الحديث. وقال أبو داود في سننه: حدثنا الحسن بن علي ثنا أبو أسامة عن أسامة بن زيد عن عطاء قال: حدثني جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «كل عرفة مَوقِف وكل مِنًى مَنْحَر وكل المزدلفة مَوقِف وكل فِجَاج مكة طريق ومَنْحَر» أما المُحْصَر فمَحِلّ هديه حيث أُحْصِر ما دام لا يتمكن من إيصاله إلى مكة، ولذلك وصف الله عز وجل هَدْي النبي محمد ﷺ وأصحابه يوم أُحْصِرُوا في الحديبية بقوله عز وجل: ﴿والهَدْيَ معكوفا أن يَبْلُغَ مَحِلّه﴾ وقد نحر النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم هداياهم بالحديبية، وقوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذًى من رأسه ففِدْيةٌ من صيام أو صَدَقة أو نُسُك﴾ أي فمن كان منكم أيها المُحْرِمون بحج أو بعمرة مصابا بمرض كصداع ونحوه، أو به أذى من رأسه كقمل ونحوه، فاحتاج إلى حلق رأسه فإنه يحلق وعليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك أي ذبح شاة، وقد أجمع أهل العلم على أن المُحْرِم ممنوع من حلق شعره وجزّه وإتلافه ولو بنُورة أو غيرها إلا في حالة العلة كما نص على ذلك القرآن الكريم، كما أجمع أهل العلم على وجوب الفدية على المحرم إذا حلق رأسه من غير علة. وقد أخرج البخاري في صحيحه قصة نزول قوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضا أَوْ به أذًى من رأسه ففِدْية من صيام أو صدقة أو نُسُك﴾. من طريق عبد الله بن مَعْقل

قال: جلست إلى كعب بن عُجْرَة رضي الله عنه، فسألته عن الفدية فقال: نزلت فيّ خاصة وهي لكم عامّة، حُمِلْتُ إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أُرى الوجَعَ بلغ بك ما أرى، أو ما كنت أُرَى الجَهْدَ بلغ بك ما أرى، تجد شاة؟» فقلت: لا، فقال: «فصُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع» وقد أخرجه البخاري كذلك من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى أن كعب بن عُجْرة حدثه قال: وقف عليّ رسولُ الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قملاً فقال: «يؤذيك هوامُّك؟» قلت: نعم، قال: «فاحلق رأسك» أو قال: «احلق» قال: فيّ نزلت هذه الآية: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه﴾ إلى آخرها، فقال النبي ﷺ: «صُمْ ثلاثة أيام أو تصدّق بفَرَق بين ستة أو انْسُكْ بما تيسّر». وقوله عز وجل: ﴿فإذا أمنتم فمن تمتّع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ هذا بيانٌ لأحد الأنساك الثلاثة التي يخيّر المسلم بينها في الحج وهي الإفراد والتمتع والقِرَان، وقوله عز وجل هنا: ﴿فإذا أمنتم﴾ أي فإذا تمكنتم من أداء مناسككم ولم تكونوا في حالة خوف، وغلب على ظنكم أمن الطريق إلى بيت الله الحرام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هنا بعض أحكام الحج من هذه الآية الكريمة إلى الآية الثالثة بعد المائتين، وذكر بعض أحكامه في سورة آل عمران من الآية السادسة والتسعين إلى الآية السابعة والتسعين، كما ذكر بعض أحكام الحج وشئون البيت الحرام في سورة الحج من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين منها، ولا شك أن ذكر أحكام الحج وصفاته قبل فرضيته لا إشكال فيه، وقد نقل غير واحد من أهل العلم الإجماع على أن المسلم مُخيَّر بين أحد الأنساك الثلاثة التي يعرف العرب الكثير منها من مواريثهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وليس ذكر التمتع

هنا وحده دليلا على أنه النّسـك الوحيد المشروع، كما أن أمر رسول الله ﷺ في حجة الـوداع من لم يَسُقْ الهَدْي من المُفْرِدين أو القَارِنين بـالتمتع ليس دليلا على بطلان الإفراد أو القران ممن لم يَسُقْ الهَدْي بل أراد رسول الله ﷺ أن يبطل اعتقادا جاهليا إذ كانوا يعتقدون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: كانوا يَرَوْن أن العمرة في أشهر الحج من أفجـر الفجور في الأرض، ويجعلون المحرم صَفَرًا، ويقولون: إذا برأَ الدَّبَـر، وعفَا الأثَر، وانسلخ صَفَر حَلّت العمرة لمن اعتمـر، قدم النبـي ﷺ وأصحابـه صَبيحـة رابعة مُهِلّين بـالحج فأمـرهم أن يجعلوها عمرة، فتعاظم ذلك عندهم، قالوا: يا رسول الله: أيّ الحِلّ؟ قال: «حِلّ كلّه». اهـ والتمتع هو أن يُحرم بالعمرة في أشهر الحج وبعد الانتهاء من أعمالها يتحلل ويقيم بمكـة حـلالا حتـي يحج من عـامـه، والقِـرَان أن يحرم بـالحج والعمرة معـا فيقول: لبيك حجـا وعمرة، وتـدخل العمرة في أفعـال الحج، أما الإفراد فهو أن يحرم بالحج وحده فيقول عند إحرامه: لبيك حجا، والواقع أنه لافرق في العمل بين المُفْرِد والقارِن فإن أداء النسُك للمُفْرِد كأدائه للقارن تماما لا يختلفان في شيء إلا في النية، وفي أن القارن عليه دم والمُفْرِد لا يجب عليه الهَدْي. وقـد أوجب الله تبارك وتعالى في هـذه الآية الكريمة هـديا على المتمتع حيث يقول: ﴿فمن تمتع بـالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرة كاملة﴾ أي فمن استمتع بأداء العمـرة في أشهـر الحج وتمتع بمكـة وبالمسجـد الحرام حيث أقام بها حـلالا إلى أن يُحرِم بالحج من عـامه فليـذبح ما قـدر عليه من الهدي وهـو شاة أو سُبْع بقـرةٍ أو سُبْع بَـدَنـةٍ، فمن لم يقدر على هـذا الهدي فعليـه بدل ذلك صيـام ثـلاثة أيـام في الحج أي في أيـام المناسك بأن يقـدّم إحرامه بـالحج قبل يوم عرفة بثـلاثة أيام ليتمكن من صيامهـا فيها أو بيومين

ليصومها ويصوم يوم عرفة كذلك، والأوْلَى أن يقدمها قبل يوم عرفة، وإذا لم يتمكن من ذلك صامها في أيام التشريق، ولم يرخص الإسلام في صيام أيام التشريق إلا لمن لم يجد الهدي، فقد روى البخاري من حديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهم قالا: لم يرخّص في أيام التشريق أن يُصَمْنَ إلا لمن لم يجد الهَدْي. ويجوز صيام هذه الأيام الثلاثة متتابعة ومتفرقة، وكذلك يجوز صيام الأيام السبعة متتابعة ومتفرقة، وهو مخير في صيام هذه الأيام السبعة كذلك إن شاء صامها بمكة بعد فراغه من أعمال الحج وإن شاء صامها بعد رجوعه إلى أهله، وصيامها بعد رجوعه إلى أهله أفضل لقوله تعالى: ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ ولأنه أرفق به وأيسر له، وقد ألحقت السُّنة القارِن بالمتمتع في وجوب الهَدْي عليه، ولا خلاف فيه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ أي ذلك التمتع ووجوب الهدي أو الصيام عند عدم القدرة على الهدي لغير أهل الحرم ومن كان ساكنا حول الحرم دون مسافة القصر، أما أهل الحرم ومن في حكمهم فلا يتمتعون بالعمرة إلى الحج، لأنهم متمتعون دائما بالحرم. وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ترهيب من مخالفة أوامر الله التي شرعها لعباده ليسعدوا في الدارين.

قال تعالى: ﴿الحجّ أشهر معلومات، فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التقوى، واتّقون يا أولي الألباب﴾.

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بإتمام الحج والعمرة ابتغاء مرضاة الله وبيّن حكم المحصر، وحكم من كان محرما بحج أو عمرة ثم أصابه مرض أو أذى في رأسه واحتاج إلى حلق شعر رأسه فحلق، وبيّن حكم المتمتع بالعمرة إلى الحج، وأن أهل الحرم المكي ومن في حكمهم لا يشرع لهم التمتع بالعمرة إلى الحج، وذيّل الآية بالأمر بتقواه وحذّر من شدة عقابه لمن يخالف أمره شرع هنا في بيان مواقيت الحج الزمانية، وحذّر من الرفث والفسوق والجدال في الحج حيث يقول عز وجل: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ أي وقت الحج أشهر معلومات إذ المعلوم للمخاطبين أن المراد: وقت الحج أشهر معلومات، لا أنّ نفس أفعال الحج هي الأشهرالمعلومات، والعرب في أساليبها البلاغية يحذفون من الكلام ما يكون معلوما للمخاطَبين، كما قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته:

وحذْفُ ما يُعلَم جائز كما تقول زيدٌ بعْدَ مَن عِندَكما

فإنّ العرب يستحسنون إذا سأل سائل فقال لك: من عندك؟ فتقول في جوابه: زيد، أي عندنا زيد فتحذف كلمة عندنا من جوابك لأنها معلومة للمخاطَب، فإذا سمع العربي قوله عز وجل: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ علم يقينا أن المراد: وقت الإحرام بالحج في أشهر معلومات، وهي شوال والقعدة وعشر ليال من ذي الحجة، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: معلوم أن أوقات الحج أشهر معلومات ليس المراد أن نفس الأفعال هي الزمان، ولا يفهم هذا أحد من اللفظ ولكن قد يقال: في الكلام محذوف تقديره: وقت

الحج أشهر معلومات، ومن عادة العرب الحسنة في خطابها أنهم يحذفون من الكلام ما يكون المذكور دليلا عليه اختصارا كما أنهم يوردون الكلام بزيادة تكون مبالغة في تحقيق المعنى اهـ وقد جعل الله تبارك وتعالى للحج ميقاتا زمانيا وميقاتا مكانيا، فالميقات الزماني هو المذكور في هذه الآية أما الميقات المكانيّ فقد حدّده رسول الله ﷺ كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: وقّت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحُلَيْفَة ولأهل الشام الجُحْفَة ولأهل نجد قَرْن المَنَازِل ولأهل اليمن يَلَمْلَم، فهُنّ لهنّ، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن لمن كان يريد الحج والعمرة، فمن كان دُونَهُنّ فمُهَلّه من أهله، وكذاك وكذاك، حتى أهلُ مكة يُهِلُّون منها. كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مُهَلُّ أهلِ المدينة من ذي الحُلَيْفة، والطريق الآخر الجُحْفة، ومُهَلّ أهل العراق من ذات عِرْق، ومُهَلّ أهل نجد قَرْن، ومهلّ أهل اليمن يَلَمْلَم». قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري في قول البخاري (باب فرض مواقيت الحج والعمرة): المواقيت جمع ميقات كمواعيد وميعاد، ومعنى فرض قدّر أو أوجب، وهو ظاهر نص المصنف، وأنه لا يجوز الإحرام بالحج والعمرة من قبل الميقات ويزيد ذلك وضوحا ما سيأتي بعد قليل حيث قال: ميقات أهل المدينة ولا يُهِلّون قبل ذي الحليفة، وقد نقل ابن المنذر وغيره الإجماع على الجواز وفيه نظر فقد نقل عن إسحاق وداود وغيرهما عدم الجواز وهو ظاهر بجواب ابن عمر، ويؤيده القياس على الميقات الزماني فقد أجمعوا على أنه لا يجوز التّقدم عليه، وفرّق الجمهور بين الزماني والمكاني فلم يجيزوا التّقدم على الزماني وأجازوا في المكاني اهـ وقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: فرض قدّر أو أوجب هو شرح من الحافظ رحمه الله لأول لفظة وردت في الحديث الذي ساقه البخاري تحت العنوان المذكور من طريق زيد بن جُبَيْر أنه أتى عبد الله

ابن عمر رضي الله عنهما في منزله وله فُسْطاط وسُرَادِقٌ، فسألتُه : مِن أين يجوز أن أعتمر؟ قال: فرضها رسول الله ﷺ لأهل نجد قرنًا ولأهل المدينة ذا الحليفة ولأهل الشام الجحفة. اهـ ولا شك أن العمرة ليس لها ميقات زماني فهي تجوز في جميع السنة، وقد وصف الله تبارك وتعالى أشهر الحج بأنها معلومات ولم يسمّها في كتابه الكريم لأنها كانت معلومةً عند العرب غير أنهم كانوا يَنْسِئُون فيقدمون بعض الشهور على بعض وقد يسمونها بغير اسمها ويجوز أن يكون المراد أنها معلومات ببيان الرسول ﷺ وعلى كل حال فالمراد أن الحج لا يكون في كل أيام السنة ولا في كل شهورها و إنما في وقته المعلوم المحدّد لا يجوز تقديمه ولا تأخيره عن وقته. وقد اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَرٍ كلّها في ذي القَعْدة إلا التي كانت مع حجته، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَرٍ كُلُّهُنَّ في ذي القعدة إلا التي كانت مع حَجَّته: عمرة من الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل، وعمرة من الجِعِرّانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة وعمرة مع حجته. وكان عمر وعثمان رضي الله عنهما يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج ويحضّان على ذلك حتى لا يهجر البيت الحرام، كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال: عمرة في رمضان تعدل حجة، أو تعدل حجّة معه ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق عطاء قال: سمعت ابن عباس يحدثنا قال: قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار سماها ابن عباس فنسيتُ اسمها: «ما منعك أن تحجي معنا؟» قالت: لم يكن لنا إلاّ ناضحان فحجّ أبو ولدها وابنها على ناضح وترك لنا ناضحًا نَنْضِح عليه، قال: «فإذا جاء رمضان فاعتمري فإنّ عمرة فيه تعدل حجّة». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما رجع النبي ﷺ من حجته قال لأم سنان الأنصارية:

«ما منعك من الحج؟» قالت: أبـو فلان تعني زوجها كان لـه ناضحان حج على أحـدهما والآخر يسقي أرضـا لنـا، قـال: «فإن عمرة في رمضـان تقضي حجة أو حجة معي». وقوله عز وجل: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي فمن ألزم نفسـه بالحج في هـذه الأشهر المعلـومات بأن أحـرم بالحج فيهـا فأصبح متحتما عليـه، وهذا التعبير مع قـولـه عز وجل: ﴿وأَتموا الحج والعمـرة لله﴾ يدل دلالة ظاهـرة بأن الحج لم يكن قد فرضه الله تبارك وتعـالى عند نزول آيات الحج هـذه في سـورة البقـرة، وأن من أحرم بـالحج في أشهـر الحج أو أحـرم بالعمـرة في أي وقت من السنة متطـوعا بذلك لـزمه المضيّ فيـه وتحتم عليه. وقوله عز وجل: ﴿فـلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي فلا يحل لمن أحرم بالنسك أن يرفث أو يفسق أو يجادل. وكما حذر رسول الله ﷺ الصائم من الرفث والفسـوق والرّد على من سابّـه أو شاتمه فقد نهى الله تبـارك وتعالى هنـا من صار مُحْرِمـا عن الوقـوع في الرفَث والفسـوق والجدال، والرفَث هـو غِشْيان النسـاء ودواعيه من المبـاشرة أو التقبيل أو نحو ذلك، والفسـوق هو عصيان الله عـز وجل بأي صورة من صـور المعاصي، ولما كـان الحج يكتنفه ضرورة مخالطـة الناس ومـزاحمتهم في الأسفـار والمشاعـر والمنازل والموارد فقـد طلب الإسـلام من المسلم الـذي دخل في الإحـرام أن يبتعد عن المخـاصمـة والمنازعة والمجـادلة مع أي أحد من الناس، وقـد بشر رسول الله ﷺ من ترك مجادلة الناس ومماراتهم وإن كان محقّا ببيت في ربض الجنة، فقد روى أبو داود واللفظ له وابن ماجه والترمذي وحسّنه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنـا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقّـا» اهـ فعلى الحاج أن يتجنب كلّ ما يـؤذي أحدا من المسلمين، وأن يصون لسـانه إلا من الخير، وأن يحفظ سَمْعَه فلا يستمع إلا إلى مـا يرضي الله عز وجل، وأن يحفظ بصره فـلا يتتبع به العورات، وأن يحفظ يـده فلا تبطش

في ضرر أحد، وأن يصون رجله فلا تمشي في أذية أحد وأن يجعل في فكره دائما قـول الله عـز وجل: ﴿لا خير في كثير من نجـواهم إلا من أمـر بصـدقـة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذٰلك ابتغاء مـرضاة الله فسوف نؤتيه أجـرا عظيما﴾ ولا شك أن من شـاهد مسيرة الحجيج ومنـازلهم وتنقـلاتهم في المشاعر عرف سموّ التشريع في الإسـلام، وسرّ تخصيص التحذير من الرفث والفسوق والجدال. وإذا كـان الرفَث مُحَرَّمـا مع الحليلة على المُحْـرِم فما بالك بـالـرفث مع غير الحليلـة في الإحرام أو في الشهـر الحرام أو في البلـد الحرام؟ وكذلك إذا كـان الفسوق محظورا في جميـع السنة وعموم الأوقـات فما بالك في الإحـرام والشهر الحرام والبلـد الحرام؟ ومع أن مَن هَمَّ بسيّئـة فلم يفعلهـا لا تكتب عليه فإن الله تبـارك و تعالى هدّد من همّ بسيئة في الحرم بأن الله يـذيقه من عذاب أليم حيث يقول عز وجل : ﴿ومَن يُـرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم نُذِقْه من عذاب أليم﴾ وقوله عز وجل: ﴿ومـا تفعلوا من خير يعلَمْه الله﴾ هو ترغيب في عمل الخير بعـــد الترهيـب من عمل الشر، فمـن يعمل خيرا ولا سيما في الأماكـن المقدسة يجد ثـوابه عنـد الله خيرا عظيما، ومن يعمل شرا ولا سيما في الأماكن المقدسة يجد عقابه عند الله عذابا أليما، ولن يضيع من عمل الإنسان شيء كما قال عز وجل: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شرا يـره﴾ وكما قـال تبـارك وتعـالى: ﴿ومـــا تفعلـوا من خير فإنّ الله بـه عليم﴾. وقوله عز وجل: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ قال البخاري في صحيحه: بـاب قول الله تعالى: ﴿وتـزوّدوا فإن خير الزاد التقـوى﴾ ثم ساق بسنـده إلى ابن عبـــاس رضي الله عنهما قـال: كـان أهـل اليمن يحجـون ولا يتزوّدون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قـدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وتـزودوا فإن خير الزاد التقـوى﴾ قال الحافظ ابن حجـر في الفتح: قال المُهَلَّب: في هذا الحديث من الفقه أن تـرك السؤال من التقوى، ويؤيده

أن الله مدح من لم يسأل الناس إلحافا، فإن قوله: ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ أي تزوّدوا واتقوا أذى الناس بسؤالكم إياهم والإثم في ذلك، قال: وفيه: أن التوكل لا يكون مع السؤال، وإنما التوكل المحمود أن لا يستعين بأحد في شيء، وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب كما قال عليه السلام: «اعقلها وتوكل» اهـ وقد اشتمل قوله عز وجل: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ على لون من الهدى والرشاد والبلاغة بديع حيث أمرهم بالزاد لسفر الدنيا ولفت انتباههم في نفس الوقت إلى الحرص على زاد الآخرة من تقوى الله عز وجل، وهو شبيه بقوله عز وجل: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يُوَارِي سَوْآتِكم وريشًا ولباسُ التقوى ذلك خير﴾ حيث ذكّرهم بنعمته عليهم فيما أوجد لهم من اللباس الحسّي الذي يستر عوراتهم ثم لفت انتباههم إلى اللباس المعنوي الجميل الذي لا يَبْلَى وهو لباس التقوى، الذي يجب أن يتَحَلَّى به الإنسان دائما، ولا يتخلّى عنه أبدا لأنه أجمل أنواع اللباس، وأكرم أنواع الزينة. وما أجمل قول الشاعر:

الموتُ بحر طامِحٌ مَوْجُه ... تذهب فيه حِيلة السابح
يا نفسُ إني قائل فاسمَعي ... مقالةً مِن مُشفِق ناصح
لا يَصْحَبُ الإنسانَ في قبره ... غيرُ التُّقى والعملِ الصالح

وما أحسن قول الأعشى ميمون بن قيس:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التُّقى ... ولاقَيْتَ بعد الموت مَن قد تَزوَّدا
نَدِمْتَ على ألاّ تكون كمثله ... وأنّك لم ترصُدْ كما كان أرْصدا

وقد نبه الله تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ إلى أن ذوي العقول المستنيرة والقلوب المبصرة هم الذين يحرصون على التزود بتقوى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين* ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة أول مناسك الحج وهو الإحرام به بقوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ وحذر من الرفث والفسوق والجدال فيه، وحضّ على فعل الخير في هذا العمل الصالح الذي صار أحد أركان الإسلام الخمسة، وعالج أحد الأمراض السلوكية في الإنسان الذي يزعم التوكّل على الله فيحج بغير زاد مع أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ولا خبزا، فأرشد هؤلاء الذين يسلكون هذا الطريق المعوج إلى الصراط المستقيم حيث أمرهم بالتزود بما تحتاجه أجسامهم في موسم الحج كما أمرهم بالتزود بتقوى الله التي تسعدهم في الدينا والآخرة، شرع هنا في هذا المقام الكريم يعالج سلوكا آخر من سلوك الإنسان المتّبع لهوى نفسه في التحريم والتحليل حيث كانوا يتأثمون من البيع والشراء وهم حُجّاج، فأرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى جواز البيع والشراء في موسم الحج وأن الاتجار في الحج لا ينافي إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى ما دام التاجر محافظا على مناسك الحج، مقيما له على الوجه المشروع مُريدًا بحجه وجه الله عز وجل، وأن حضوره الموسم ليس لمجرد التجارة، وإنما يَتَّجِر طلبا للفضل من الله والاستعانة على ما يحتاجه لمعاشه ومعاده، وهذا شبيه بأمر رسول الله ﷺ من لم يستطع الباءة من الشباب أن يصوم، والصيام لا يُقْبَل إلا إذا كان خالصا لوجه الله كسائر العبادات كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إني أُمِرْتُ أن أعبدَ اللهَ مخلصا له الدين﴾ وقال عز وجل: ﴿قُل اللّهَ أعبدُ مخلصا له ديني﴾ وقال عز وجل: ﴿ألا لله

الدين الخالص﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ ولكنّ هذه العبادة الخالصة تشتمل على منافع لدُنْيَا الإنسان وقمع شهوته الجنسية، فلذلك أمر بها رسول الله ﷺ الشباب لأن تعاليم الإسلام لنفع بدن الإنسان وروحه، فالاتجار في الحج لا يضر مناسك الحج، والأعمال بالنيات. قال البخاري في صحيحه: باب ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ حدثني محمد قال: أخبرني ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عُكَاظ ومَجِنّة وذو المَجَاز أسواقا في الجاهلية، فتأثّموا أن يتّجروا في المواسم، فنزلت: ﴿ليس عليكم جناحٌ أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ في مواسم الحج اهـ ومعنى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في أن تطلبوا فضلا ورزقا من الله الذي رباكم بإحسانه وجوده وفضله وأَنتم في موسم الحج حيث تتّجرون مع أدائكم لمناسك الحج. وقد وصف الله تبارك وتعالى التجار المسلمين بأنهم يبتغون من فضل الله في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ كما قال هنا: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ وكما قال أيضا: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ وقد قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: حدثنا طَلِيقُ بن محمد الواسطي قال أخبرنا أسباط قال: أخبرنا الحسن بن عمرو عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نُكْرَى، فهل لنا حجّ؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعَرَّف، وترمون الجِمَار، وتحلقون رءوسكم؟ فقلنا: بلى، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يَدْرِ ما يقول له حتى نزل جبريل عليه السلام عليه بهذه الآية: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ إلى آخر الآية فقال النبي ﷺ: «أنتم حُجّاجٌ». وقوله عز

وجل : ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ إلى قوله : ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي فإذا دفَعْتُم من عرفات بعد وقوفكم بها مندفعين إلى مزدلفة . والوقوف بعرفة من أهم أركان الحج ، وقد بين رسول الله ﷺ وقت الوقوف بعرفة والاندفاع إلى مزدلفة ثم الإفاضة منها إلى منى فمكة ، وخالف ما كان عليه أهل الجاهلية من قريش حيث كانوا لا يرون الوقوف بعرفة ولا يُفيضون منها ، وإنما كانت قريش ومَن دَانَ دينَها يقفون بمزدلفة ويُفيضون منها ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يُسَمَّوْن الحُمْس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ، ثم يُفِيض منها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ . وقد روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في وصف حجة رسول الله ﷺ ، وفيه : فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلّوا بالحج وركب النبي ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس وأَمَر بقُبَّة من شَعَر تُضْرَب له بنَمِرَة ، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبّة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أَمَر بالقَصْواء فرُحِلَتْ له فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال : «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قَدَمَيَّ موضوعٌ ، ودماءُ الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دَمَ ابن ربيعة بن الحارث وكان مُسْتَرْضَعًا في بني سعد فقتلته هُذَيْل ، ورِبا الجاهلية موضوعٌ ، وأول رِبًا أضع رِبَانَا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كلّه ، فاتقوا الله في النساء ،

فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتـم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرُشَكم أحدًا تكرهـونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهنّ وكسـوتهن بـالمعـروف، وقـد تـركت فيكم مـا لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تُسْأَلُون عني فَمَا أنتم قائلون؟»
قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت، فقـال بإصبعه السبّابة يرفعها إلى السماء وينكتهـا إلى الناس: «اللهم اشْهَـدْ» ثـلاث مرات ثم أذّن ثم أقـام فصلى الظهـر ثم أقام فصلى العصر ولم يُصَلّ بينهما شيئـا ثم ركب رسـول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن نـاقته القصواء إلى الصخـرات وجعل حبل المشاة بين يـديه واستقبل القبلة فلم يزل واقفـا حتى غربت الشمس وذهبت الصُّفْرة قليلا حتـى غاب القُرْصُ وأردف أسامة خلفـه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شَنَقَ للقصـواء الزّمام حتى إن رأسهـا ليصيب مَوْرِكَ رَحْلِه ويقـول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينـة السكينة» كلّما أتى حَبْـلاً من الحِبَال أرخى لها قليلا حتـى تصعد حتى أتى المزدلفـة فصلى بها المغرب والعشاء بـأذان واحد وإقامتين ولم يُسَبِّح بينهما شيئـا ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتـى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين لـه الصبح بأذان وإقامة ثـم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع قبل أن تطلع الشمـس وأردف الفضل بن عباس وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما فلما دفع رسول الله ﷺ مـرّت به ظُعُنٌ يَجْرِين فطَفِق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحوّل الفضلُ وجهَـه إلى الشِّقِّ الآخر ينظـر فحوّل رسـول الله ﷺ يده من الشِّقِّ الآخـر على وجـه الفضل يصرف وجهه، حتى أتى بطن مُـحَسِّرٍ فحرّك قليـلا ثم سلك الطـريق الوسطى التي تخرج على الجمـرة الكبرى حتى أتى الجمرة التي عنـد الشجرة فرماهـا بسبع حَصَيَات يكبّر مع كل حصاة منها مِثْلِ حصى الخَذْفِ

رمى من بطن الوادي ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بيده ثم أعطى عليا فنحر ما غبر وأشركه في هديه ثم أمر من كل بَدَنة ببَضْعةٍ فجُعِلَتْ في قِدْر فطُبِخَتْ فأكلا من لحمها وشربا من مرقها ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت. الحديث. وذكر البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه حديثا قال فيه: ثم لينطلق حتى يقف بعرفات من صلاة العصر إلى أن يكون الظلام ثم ليدْفعوا من عرفات إذا أفاضوا منها حتى يبلغوا جَمْعًا الذي يبيتون به ثم ليذكروا الله كثيرا، وأكثروا التكبير والتهليل قبل أن تصبحوا، ثم أفيضوا فإن الناس كانوا يُفيضون، وقال الله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ حتى ترموا الجمرة اهـ ولا شك أن بعض ما فعله رسول الله ﷺ يوم عرفة وليلة المزدلفة وصبيحة يوم النحر منه ما هو ركن من أركان الحج كالوقوف بعرفة وطواف الإفاضة، ومنه ما هو واجب كالمبيت بمزدلفة ورمي جمرة العقبة، ومنه ما هو سنة كالتهليل والتسبيح، وقد روى أحمد وأصحاب السّنن بإسناد صحيح عن عبد الرحمن ابن يَعْمَر الدِّيلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفة ـ ثلاثا ـ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» كما روى البخاري ومسلم من طريق محمد بن أبي بكر الثقفي أنه سأل أنس بن مالك وهما غاديان من منى إلى عرفة: كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ؟ فقال: كان يُهِلّ منا المُهِلّ فلا يُنكَرُ عليه، ويكبّر المكبر منا فلا يُنْكَرُ عليه. كما جاء في حديث مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وقفت هاهنا وعرفة كلّها موقفٌ ووقفت ههنا وجمعٌ كلّها موقف» كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: إنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يُعْتِقَ الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه لَيَدْنُو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟» كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن

عباس رضي الله عنهما أن أسامة بن زيد كان رِدْفَ النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى، فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يلبّي حتى رمى جمرة العقبة. اهـ والمَشْعَر الحرام هو جُبَيْل بالمزدلفة كان يقال له في الجاهلية قُزَح وكان يسمى الـمِيقَدَة لأن الناس كانوا يوقدون عنده. وأصل المشعر المعلم وسُمّي مَشْعَرا لأن الله جعله معلما من معالم العبادة ووصفه بالحرام لأنه من الحرم أو لحرمته، والمزدلفة يقال لها جَمْعٌ أيضا، وقوله عز وجل: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ أي واذكروا الله لهدايتكم لمعالم دينه ومناسك حجه، فالكاف هنا في قوله: ﴿كما﴾ للتعليل، وقوله: ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي وإنكم كنتم من قبل هداكم لمن الضالين، فـ(إنْ) مخفّفة من الثقيلة. وقوله عز وجل: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي ثم أفيضوا من المزدلفة إلى منى فمكة إذ كانت المزدلفة يفيض منها العرب جميعا بخلاف عرفات فلم تكن قريش تفيض منها في الجاهلية، ولا تقف بها. وقوله: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي واطلبوا في هذه الأماكن الطيبة وفي أعقاب هذه الأعمال الصالحة مغفرة الله ورحمته ولا تغتروا، وقد حض الإسلام المسلمين على الاستغفار في أعقاب الأعمال الصالحة كما كان رسول الله ﷺ يستغفر بعد الصلاة ثلاثا.

قال تعالى : ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أَشدّ ذكرا، فمن النّاس من يقول: ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾ ومنهم من يقول: ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ أولَئك لهم نصيبٌ ممّا كسبوا، والله سريع الحساب﴾ واذكروا الله في أيام معدودات، فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه، لمن اتّقى، واتّقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون. ﴾

بعد أن أذن الله تبارك وتعالى للحجاج بجواز الاتجار أثناء أداء مناسك الحج، وأرشدهم إلى ذكره عند المشعر الحرام بعد الإفاضة من عرفات، وأكّد عليهم بذكره لهدايتهم إلى مناسك الحج حيث كانوا قبل بَعْثَة رسول الله يضربون في مناسكهم على غير هدى من الله، ثم أرشدهم إلى الإفاضة من مزدلفة إلى منى فمكّة، وأمرهم بالاستغفار من خطاياهم، لرفع درجاتهم وتقبّل طاعاتهم، وعدم الاغترار بما قاموا به من أداء المناسك والوقوف بالمشاعر لأن الطاعة التي تورث فخرًا وعُجْبا واستكبارًا شرّ من المعصية التي تورث ذُلّا وتوبة وانكسارا، ولذلك أكّد هنا في هذا المقام الأمر بذكره بعد قضاء المناسك حيث يقول: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا﴾ وقوله عز وجل: ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ أي فإذا أديتم شعائر الحج إذ أن ﴿قضى﴾ تستعمل بمعنى أدّى وأتم ووفّى كما تستعمل بمعنى ألزم ووصّى، فإذا كان القضاء معلقا بفعل النفس فالمراد به الأداء والوفاء والإتمام ومنه قول الشاعر:

قضى كلُّ ذي دَيْن فوفّى غريمَه   وعَزّةُ ممْطولٌ مُعَنًّى غَريمُها

أما إذا كان معلّقا بفعل الغير فالمراد به الإلزام ومنه قوله عز وجل: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ والمراد بالمناسك التي أديت في هذا

المقام هي الوقوف بعرفة والإفاضة إلى المزدلفة وذكر الله عند المشعر الحرام ثم الإفاضة مع الناس من المزدلفة إلى منى لرمْي جمرة العقبة ونحر الهدي أو ذبحه والحلق أو التقصير ثم الإفاضة إلى مكة لطواف الإفاضة والسعي بين الصفا والمروة كما بين ذلك رسول الله ﷺ الذي أسند الله عز وجل له وظيفة بيان مجمل القرآن حيث قال عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾ وليس المراد قضاء جميع مناسك الحج والفراغ منها تماما لأن الله تبارك وتعالى ذكر بعد ذلك أعمال الحج في الأيام المعدودات وهي أيام التشريق من رمي الجمار والمبيت بمنى كما سيجيء في تفسير قوله عز وجل: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ وقوله عز وجل: ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ أي أكثروا من ذكر الله وتسبيحه وتحميده وتقديسه وتمجيده وأشغلوا ألسنتكم بالثناء عليه فإن كثرة الذكر تدل على الحب فإن من أحبّ شيئا أكثر من ذكره في سائر أحواله كما قال عنترة:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهِلٌ ... مِنّي وبيِضُ الهند تَقْطُرُ من دَمِي

ولما كان الإنسان لا يكاد ينسى أباه أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يلهجوا بالثناء عليه وذكره أعظم من ذكر الإنسان أباه، وقوله: ﴿أو أشد ذكرا﴾ أي بل أعظم ذكرا من ذكر الإنسان أباه، لأن الله عز وجل هو المنعم المتفضل على الإنسان وعلى أبيه. وقد نبّه الله تبارك وتعالى عباده إلى سؤاله حوائجهم وذكر ذلك هنا في مقام سياقه أحكام الحج كما نبههم إلى ذلك في مقام سياق أحكام الصيام حيث قال هناك: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ وأرشدهم هنا إلى أنه لا يحب من كان همّه الدنيا ولا تعلُّق له بالآخرة، وأنه يحبّ من يبتغي الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، فإنّ القسم الأول من الناس كالبهائم التي لا همّ لها إلا ما تأكله وهي غافلة عن أنها يطعمها صاحبها لتسمن ويذبحها، كما قال عز وجل:

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ فينبغي للمسلم أن يسأل ربه حسنة الدنيا وحسنة الآخرة والله ذو الفضل العظيم لا تنفد خزائنه، وقد نبه الله تبارك وتعالى إلى دناءة همة بعض الناس الذي يقرون بالله ويجعلون كلّ همهم حطام الحياة الدنيا فيسألون الله لدنياهم وينسون أخراهم، بخلاف المؤمنين أصحاب الهمم العالية الذين يسألون الله عز الدنيا وسعادة الآخرة في غير موضع من كتابه الكريم حيث قال هنا: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خَلاَق* ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ وقال عز وجل: ﴿من كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نُؤْتِهِ منها وما له في الآخرة من نصيب﴾. وقوله عز وجل: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ يشعر بأن هؤلاء لا يكادون يميزون بين ما ينفعهم من متاع الدنيا وما يضرهم، فكلّ همهم ما يجمعون دون التمييز بين ما ينفعهم منها وما يضرهم. وقوله عز وجل: ﴿وما له في الآخرة من خَلاق﴾ أي وما له حظ من نعيم الآخرة وإنما له عذاب النار. وقوله عز وجل: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ هذه أجمع آية في الدعاء أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين لسؤال الله عز وجل بها، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر في دعائه من ذكرها والدعاء بها فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» وفي لفظ مسلم من طريق عبد العزيز بن صُهَيْب قال: سأل قتادة أنسا: أيّ دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي ﷺ؟ قال: يقول: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه. كما روى

مسلم من حـديث أنس رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ عـاد رجـلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو الله بشيء أو تسألـه إياه؟» قال: نعم، كنـت أقول: اللهم مـا كنت مُعَاقِبي بـه في الآخرة فعَجِّلْـه لي في الـدنيـا، فقال رسـول الله ﷺ: «سبحـان الله، لا تطيقـه أوْلا تستطيعه، فهلاّ قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» اهـ وقد جمعت هذه الـدعوة الكـريمة التي اشتملت عليها هـذه الآية المبـاركـة كلّ خير في الدنيـا وصرفت كل شر، فإن حسنـة الـدنيـا تشمل كلّ مطلوب دنيـوي من العافيـة وطيب المسكن ورغد العيش والأمـن والاستقرار والعلم النـافع والعمـل الصـالح والمركب الحسن والثنـاء الجميـل وطمأنينـة النفس، وراحة القلب، واجتماع الأحبة وأن تكـون الزوجة والأولاد قرة عين. وقد جمع الله تبـارك وتعالى ذلك في قولـه عز وجل: ﴿فلَنُحْيِيَنَّهُ حيـاةً طيبة﴾ وأمـا حسنة الآخـرة فالأمن من الفـزع الأكبر في عرصـات القيامـة، وتخفيف الحسـاب، وتيسير المرور على الصراط، ودخول جنـات النعيم ورضـوان رب العالمين، والنظر إلى وجهـه الكريم. وقوله عز وجل: ﴿وقنـا عذاب النار﴾ أي واصرف عنـا عذاب جهنم وصُنّـا من لهيبها، ونجّنـا منها. وقـوله تبـارك وتعـالى: ﴿ أولَئك لهم نصيب ممـا كسبـوا والله سريع الحسـاب﴾ أي ولكل واحد من هؤلاء الفريقين حظ من عمله فللكافر عقاب شركه وللمؤمن ثواب عمله ودعائه في طاعة ربه، ومحاسبة كل عامل بعمله أمر سهل هَيِّن على الله عز وجل لأنـه عز وجل كامل القـدرة باهر السلطـان. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يـومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ المراد بالأيام المعدودات هي أيام التشريق الثلاثة التي تلي يوم النحـر، وسميت أيـام التشريق لأن العرب كـانوا يُشَرِّقُـون فيها لحوم الهدايـا والأضـاحي أي يُقَـدِّدُونها، أو لأن الهدي لا ينحـر حتى تشرق

الشمس، أما الأيام المعلومات الواردة في قوله عز وجل: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ فهي عشر ذي الحجة، ووصفها بأنها معلومات لحرص العرب على معرفتها، وقد علق البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما بصيغة الجزم أن الأيام المعلومات هي العشر يعني الأُوَل من ذي الحجة، كما روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺقال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء». اهـ وذِكْرُ الله تبارك وتعالى في الأيام المعدودات يتمثل في رمي الجمار الثلاث التي جعلتها الشريعة الإسلامية من مناسك الحج وواجباته حيث أوجبت على الحاج أن يبيت بمنى ليلتين بعد العيد إنْ تعَجَّل، وثلاث ليال إنْ تَأَخَّر، وأوجبت عليه أن يرمي الجمار الثلاث بعد الزوال كل يوم من اليومين الأوّلَيْن من أيام التشريق إن تعَجَّل وفي الثالث كذلك إن تأخر، وقد وصف رسول الله ﷺ أيام التشريق بأنها أيام أكل وشرب وذكر الله، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث نُبَيْشَة الهُذَلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله». وإنما كان رمي الجمار ذكرًا لله عز وجل لأن هدي رسول الله ﷺ في رمي الجمار أنه كان يذكر الله عند كل حصاة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه انتهى إلى الجمرة الكبرى فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ورمى بسبع حصيات يكبّر مع كل حصاة، ثم قال: هكذا رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة. يعني رسول الله ﷺ. كما أوضح رسول الله ﷺ أن رمي الجمار إنما جعل لإقامة ذكر الله عز وجل، فقد روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنما جعل رمي

الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكـر الله». وقوله عز وجل : ﴿ فمن تعجل في يـومين فـلا إثم عليه ومن تـأخر فـلا إثم عليـه﴾ أي من أحب أن يتعجل في أيام الرمي فيرمي في يومين فقـط وهي اليوم الثاني والثالث التي تلي يوم عيد النحـر فلا حرج عليه ولا إثم، ومن أحب أن يتأخـر فيرمي في ثلاثة أيام فـلا إثم عليه كذلك، فالأمـر على السعة إن شاء نَفَرَ في اليـوم الثاني من أيام التشريق وإن شـاء نَفَرَ في اليوم الثـالث منها بعد رمي الجمار الـذي حدّد رسول الله ﷺ وقته بما بعد الزوال. وقد روى أحمد في مسنده وأصحاب السنن بسند صحيـح من حديث عبـد الرحمن بن يَعْمَـر الدِّيليِّ رضي الله عنـه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «أيام مِنًى ثلاثة فمن تعجل في يـومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه». وقـوله عز وجل: ﴿لمن اتقى﴾ لإفادة مراعاة تقـوى الله عز وجل في إقـامة هـذه الشعائر ابتغـاء وجه الله، والـوقوف عنـد حدوده، فلا يغتر من يرمي في ثلاثـة بازدراء من رمى في يومين، لأن المقصود هو امتثـال أمر الله وأمـر رسوله ﷺ فيما يفعل المسلم أو فيما يـدعُ. وقولـه عز وجل : ﴿واتقوا الله واعلمـوا أنكم إليه تحشرون﴾ إشعار بالمقصود مـن إقامة الشعائر، وقد ذيـل بذكر التقوى عـامة الأحكام المتقدمـة كما أشرت سابقا إذْ أهلُها هم أهل هُـدَى الله المنتفعون بأحكام شرعه، المستقيمـون في سلوكهم، كما أنه لما كـان اجتماع الناس بعـرفة ومنى وقد جـاءوا من كل فج عميق، ثم نَفْرُهم من عرفة ومنى شبيها بالحشر والنشر والوقوف في عرصات القيامة لفت انتباه الخلق إلى ذلك حيث يقول: ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾.

قال تعـالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قولـه في الحياة الدنيـا ويُشهِد الله على مـا في قلبه وهـو ألـدّ الخصـام* وإذا تولّى سعـى في الأرض ليفسد فيهـا ويهلك الحرث والنّسل، والله لا يحبّ الفسـاد* وإذا قيل لـه اتّق الله أخذتـه العـزّة بالإثم، فحسبُـهُ جهنّم، ولبئس المهـاد* ومن الناس من يشري نفسـه ابتغاء مرضات الله، والله رءوف بالعباد﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالي صنفين من الناس أحدهما لا همّ له إلا الدنيا ولا يتعلق قلبه بغيرهـا، والثاني مسترشد بنـور الإسلام وهَـدْي الدين الحنيف فهو يعمل لـلآخرة ولا ينسى نصيبه من الـدنيا، ذكر هنـا صنفين من الناس أحدهما منـافق عليم اللسان، والثـاني باع نفسه ابتغـاء مرضـاة الله عز وجل يحرص على الجهـاد في سبيل الله لإعلاء كلمـة الله. ولا شك أن القسم الأول من هـذه الأقسـام الأربعـة ينطبق على ا لمشركين الـذين يقرون بـربـوبيـة الله ويعبـدون معـه غيره، والقسم الثـالث ينطبق على المنـافقين الـذي يكتمـون الكفر ويعلنـون الإسلام، أما القسم الثاني والقسم الـرابع فهم المؤمنون، ولا معـارضة بين هـذا التقسيم للنـاس في هذا المقـام وتقسيمهم في مطلع سـورة البقرة إلى ثـلاثة أقسـام: مؤمنين، وكافـرين صرحاء الكفـر ومنافقين، إذ أن المؤمنين ينقسمون إلى قسمين: أصحاب الدرجـات العُلَى من السابقين وبقية المؤمنين من أصحاب اليمين، ولـذلك يجمع الله الكافرين والمنـافقين معا في جهنم كما قـال: ﴿ إن الله جامع المنافقين والكـافرين في جهنـم جميعا﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿ليَميـزَ الله الخبيث من الطّيّب ويجعلَ الخبيثَ بعضَـه على بعض فيركُمَه جميعـا فيجعله في جهنم أولَئك هم الخاسرون﴾. ولـذلك قسّم الله تبـارك وتعالى النـاس يـوم القيـامة ثـلاثـة أقسام فجعل جميـع الكافـرين والمنـافقين مع اختـلاف نحلهم ومـذاهبهم قسما واحـدا، وجعل المؤمنين

قسمين حيث يقول عـز وجل في مطلع سورة الواقعة : ﴿إذا وقعت الـواقعة* ليس لوقعتها كاذبة* خـافضة رافعة* إذا رُجَّت الأرض رَجًّا* وبُسَّت الجبال بَسّـا* فكـانت هَبَـاء مُنبَثًّـا* وكنتم أزواجـا ثلاثـةً* فأصحـاب الميمنـة مـا أصحـاب الميمنة* وأصحـاب المشئمـة ما أصحـاب المشئمـة* والسابقـون السابقـون* أولَئك المقربون﴾ وقـوله عـز وجل : ﴿ومن الناس﴾ أي وبعض بني آدم . وقـوله : ﴿يعجبك قـولـه في الحياة الـدنيـا﴾ أي هو عليم اللسـان فصيح البيان إذا تكلّم بهر السامع بكلامـه فلسانه أحلى من العسل وإن كان قلبه أمرّ من الصّبر، ولباسه لباس الضأن وقلبه قلب الذئب ، والتقييد بقوله : ﴿في الحيـاة الدنيـا﴾ لأنه في الآخـرة مهين حقير ذليل مشتغل بما هو فيـه من الهم والغم والكرب العظيم . وقـوله عز وجل : ﴿ويُشْهِدُ اللهَ على مـا في قلبه وهو أَلَـدُّ الخِصَام﴾ أي ويحلف بالله ويوثّق يمينـه بأن يدّعي أن الله يعلم بأن قلبه مؤمن بمحمد رسول الله ﷺ وأنه يحب رسول الله ﷺ من كل قلبه ، وهو شديـد العداوة لله ولرسولـه ، قوي الخصومة ، وقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الصـديقة بنت الصديق حبيبة رسـول الله ﷺ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسـول الله ﷺ قال : «إن أبغض الـرجال إلى الله الألَدّ الخَصِم» . وأصل الألـدّ هو المعـوج القوي الخصومـة الفاجـر الذي لا يثبت على طريق بل يزوَرّ عن الحق ويفتري ويفجر، وقد وصف الله عز وجل المنافقين هنا بهذا الـوصف كما وصف كفار قريش بذلك في قـوله عز وجل : ﴿ولما ضُرِبَ ابن مريم مَثَـلا إذا قومك منـه يَصِدُّون * وقالـوا : أآلهتنا خير أم هـو، ما ضربـوه لك إلا جـدلا بل هم قـوم خَصِمُون﴾ وكما قـال عـز وجل فيهم : ﴿فإنما يسّرناه بلسانك لتبشر بـه المتقين وتنذرَ به قوما لُـدّا﴾ أي عوجا يجادلون بالباطل . وقد نبه الله تبـارك وتعالى إلى مثل صفات المنافقين المذكورة هنا وأرشد إليها للحذر منها في مـواضع من كتابه الكريم حيث يقول : ﴿إذا

جاءك المنـافقون قـالوا نشهـد إنك لرسـول الله، والله يعلم إنك لرسـوله والله يشهد إنّ المنـافقين لكاذبون* اتخذوا أيمانهم جُنَّـةفصدّوا عن سبيل الله، إنهم ساء مـا كانوا يعملـون * ذٰلك بأنهم آمنوا ثم كفـروا فطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهـون * و إذا رأيتهم تعْجبُك أجسـامُهم و إن يقولـوا تسمَعْ لقـولهم كأنهم خُشُب مُسَنَّدة يحسَبون كل صيحة عليهم، هم العدوّ فاحذَرْهم، قاتلهم الله أنّى يُؤْفكـون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويحلفون بـالله إنّهم لمنكم وما هم منكم ولٰكنهم قوم يَفْـرَقُون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿اتخذوا أيمانهم جُنّـة فصدّوا عن سبيل الله فلهم عـذاب مهين﴾. وقـولـه عـز وجل: ﴿وإذا تـولّى سعى في الأرض ليُفسِـدَ فيها ويُهْلِـك الحَرْث والنَّسْل﴾ أي و إذا أدبر هـذا المنـافق من عندك يـا محمد انصرف بكلّيتـه لمحاربة دينـك، و إثارة الفتن بين المسلمين، لتفريق كلمتهـم، وتشتيت شملهم ليقتل بعضهم بعضا، ويبيـد حرثهم أي مـزارعهـم و يبيـد نسلهم أي ذريتهم. وقـولـه عـز وجل: ﴿والله لا يحب الفسـاد﴾ أي والله عز وجل لن يُمَكِّنـه من تحقيق مـا يسعى له، لأن الله عـز وجل ناصر رسوله والمؤمنين، وممكّن لهم في الأرض وهو يبغض أهل الفساد، ويبطل عملهم، كما قـال عـز وجل: ﴿فلما ألقَـوْا قال مـوسى مـا جئتُم بـه السحْرُ إنّ الله سيُبْطِلُه إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾. وقوله عز وجل: ﴿و إذا قيل له اتق الله أخـذته العـزّة بالإثم، فحسبـه جهنّم، ولبئس المهاد﴾ أي و إذا اطّلع أحد المؤمنين على ما يعمله هـذا المنافق من الفساد في الأرض، ونصحه وقال له: اتق الله واحذر سَطْوته وعقوبته لك على ما تبثّه من فتنة وما تنشره من فسـاد في الأرض، حملته الأنَفَـة والحَمِيَّـة والتكبّر وأخـذته عِـزَّة من جَهْله فتولّـى مغضبا، وفي نـار جهنم كفايـةٌ لهذا الأثيم. وفي قولـه تعالى: ﴿أخذتـه العزة بالإثم﴾ أسلـوب بلاغي يسميه علماء البـديع (التتميم) وهو إرداف الكلمة بكلمـة أخرى ترفع عنهـا اللّبس وتقرّبها من الفهم، وذلك أن

العـزة تكون محمـودة ومـذمومـة ، فمثل المحمودة قـولـه تعالى : ﴿ولله العـزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فلو أطلقت في هذا المقام لَتوهَّم فيها بعضُ مَن لا دِرَاية له أنها المحمودة ، فقيل : بـالإثم ، توضيحا للمراد ودفعـا للالتباس . على أنّ العزة التي عنـد الكافر هي عـزة غرور وجهل وعناد كما قـال عز وجل : ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ أي في حميـة جاهلية وكبر. وكما قال عز وجل : ﴿إذْ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحَمِيّة حَمِيّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسولـه وعلى المؤمنين وألزمهم كلمةَ التقـوى وكانوا أحقَّ بها وأهْلَهـا وكان الله بكل شيء عليما﴾ . وقـوله عز وجل : ﴿ومـن الناس من يَشْري نفسَـه ابتغاء مـرضاة الله﴾ أي وبعض النـاس يبيع نفسه ويجود بها في سبيل رضى الله عـز وجل وطلب مرضاته و إعلاء كلمتـه و إعزاز دينه ، ونصر رسوله ﷺ ، وابتغاء الجنة ، كما قال عـز وجل : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أَنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقـاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلـون وعدًا عليه حَقًّـا في التوراة والإنجيل والقـرآن ، ومن أوْفَى بعهـده مـن الله ، فـاستبشروا بِبَيْعِكُم الـذي بـايَعْتُم بـه ، وذلك هو الفـوز العظيم﴾ وقـد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حـديث البراء رضي الله عنـه قـال : أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ مُقَنَّع بـالحديد فقـال : يا رسـول الله : أقـاتل أوْ أُسْلِم؟ فقال : «أَسْلِمْ ثم قـاتِلْ» ، فأسْلَم ثم قاتَل فقُتِل فقال رسـول الله ﷺ : «عمِل قليلا وأُجِرَ كثيرا» كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قُتلت؟ قـال : «في الجنـة» فألقى تمراتٍ كُنّ في يـده ثم قـاتل حتى قُتل . كما روى مسلم من حـديث أنس رضي الله عنـه قـال : انطلق رسـول الله ﷺ وأصحـابـه حتى سبقـوا المشركين إلى بـدر وجـاء المشركـون فقـال رسـول الله ﷺ : «لا يُقدِّمنّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى جنة عـرضها السموات والأرض» قال : يقول عُمَيْر

ابن الحُمَام الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نَعَم» قال: بَخ بَخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟» قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تَمَرات من قَرَنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تَمَراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل. كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، غِبتُ عن أول قتال قاتَلْتَ المشركين، لئن اللهُ أشهدني قتالَ المشركين لَيَرَيَنّ اللهُ ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابَه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين، ثم تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد ابن معاذ الجنةَ وربِّ النَّضْر إني أجد ريحها من دون أُحُد، قال سعدٌ: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بِضْعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتِلَ ومَثّل به المشركون فما عرفه أَحَدٌ إلا أُخْته بِبنَانِه. قال أنس: كنّا نُرَى أو نظنّ أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه﴾ إلى آخرها. وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مِن خير مَعَاش النّاس لهم رجل ممسك بِعِنَان فرسه في سبيل الله، يطير على مَتْنِه، كلّما سمع هَيْعَة أو فَزْعة طار على مَتْنِه، يبتغي القتل أو الموت مَظَانّه، أو رجلٌ في غُنَيْمة أو شَعَفة من هذا الشَّعَف، أو بَطْن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربّه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير». كما روى مسلم في صحيحه من طريق أبي بكر ابن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي رضي الله عنه وهو بحضرة العدو

يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقام رجل رَثُّ الهيئة فقال: يـا أبا موسى أَأَنْت سمعتَ رسول الله ﷺ يقـول هذا؟ قال: نعم، فـرجع إلى أصحابـه فقال: أقـرأ عليكم السلام، ثـم كسر جَفْنَ سيفـه فألقـاه، ثم مشى بسيفه إلى العـدو فضرب به حتى قُتِل. وقـوله عـز وجل: ﴿والله رءوف بالعبـاد﴾ أي رحيم بهم محسن إليهم يعـاملهم بلطفه، والـرأفة أعلى معاني الـرحمة وأشدها وأدقّهـا، فمن رحمته ورأفته بعبـاده أنه اشترى من عباده نفوسا هـو مالكها وأموالا هو رازقها بجنـة عرضها السماوات والأرض، وجَعَل الجزاء الجليل على العمل القليل، ولا يكلف نفسا إلا وسعها، ويقبل توبة التائبين الذين أسرفوا على أنفسهم، فلله الحمد والشكر.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلـوا فِي السّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطـان، إنـه لكم عدوّ مبين* فـإن زللتم من بعـد ما جـاءتكم البيّنـات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم* هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقُضي الأمـر، وإلى الله ترجع الأمور* سل بنـي إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة، ومن يبدّل نعمة الله من بعد مـا جاءته فإنّ الله شديد العقاب* زيّن للـذين كفروا الحيـاة الدنيا ويســخرون من الذيـن آمنوا، والذيـن اتّقوا فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾

بعـد أن أشار الله عـز وجل إلى بعض فرق النـاس وبَيَّن أن بعضهم لا هَمَّ لهم إلا الدنيـا وهم يكفرون بـالآخرة، وأن بعضهم يـرغب في حسنات الـدنيا وحسنـات الآخـرة، وأن بعضهم بـاع نفسـه طلبـا لمرضـاة الله، ولا شك أن المؤمنين ليسوا بمعصـومين من الشيطان إلا من عصم اللهُ منهـم، ناداهم الله تبارك وتعالى هنا وأمرهم بالدخول في جميع تعاليم الإسلام حتى تكون للواحد منهم كمنزلـه الذي يدخـل فيه ويسكنه وأن يَحْذَروا أشـدّ الحذر من خطوات الشيطان ودسائســه ووساوسه، لأنه ذئب الإنسـان الذي يحرص على افتراسه وإهلاكـه. فقال عز وجل: ﴿يا أيها الـذين آمنوا ادخلوا في السِّلْم كـافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عـدوّ مبين﴾ وقد سبق عين هذا التحذير في الآية الثامنة والستين بعد المائة من هـذه السورة وقد ذكرت أن الله تبارك وتعالى حـذّر من اتبـاع خطوات الشيطـان العـدو المبين في مواضع كثيرة مـن كتابـه الكريم وقد سقتها في تفسير تلك الآيـة، والمراد بالسِّلْم هنا الإسلام، كما قال الشاعـر وهو امرؤ القيس بن عابـس الكندي رضي الله عنه لما ارتد قـومه عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ:

ألا أَبْلِــغْ أبـا بكـر رســولا   وأَبْلِغْــــها جميــع المسلمينــا

فلستُ مجاوراً أبداً قَبيلا   بما قال الرسول مكذّبينا
دعوتُ عشيرتي للسِّلم لمّا   رأيتُهموا تولّوا مُدْبِرينا

وأَصل السلم بكسر السين وفتحها يأتي في كلام العرب بمعنى الإسلام كهذه الآية ، ويأتي بمعنى المسالمة والمصالحة كقوله عز وجل : ﴿وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ وكقوله عز وجل : ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعْلَون والله معكم﴾ ومعنى قوله : ﴿كافَّة﴾ أي عامَّة جميعا كقوله عز وجل : ﴿وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي ولا تسلكوا طرق وساوسه ودسائسه ، ونفثه ونفخه وهمزه ولمزه . وقوله عز وجل : ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ هو تأكيد ولفت انتباه للمؤمنين بشدة الحذر منه ، كأن الذي يطيع الشيطان قد نسي أنه عدوّه وعدوّ آبائه من لدن آدم عليه السلام ، على حد قول الشاعر:

جاء شقيق عارضا رُمْحَه   إنّ بني عمّك فيهم رماح

فالذي يتّبع خطوات الشيطان كمن يريد أن يدخل يده في فم الأفعى ، فيقول له ناصحه الذي يريد سلامته : إن هذه أفعى ، ولا شك أن الشيطان أخطر على الإنسان من سائر الأفاعي . وقوله عز وجل : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم﴾ يقال : زلّت قدمه ، إذا زَلِقَتْ في طين أو نحوه ، وزلّ لسانه إذا زلق في كلامه والزَّلَّة السَّقْطة ، والمراد بالبينات حجج الله على خلقه ومعجزاته المؤيدة لرسله وأعظمها القرآن العظيم الذي هو حجّة الله البالغة ومعجزته القاهرة الباهرة ، الذي أنزله على أفضل خلقه ، وأكمل رسله محمد ﷺ الذي كان وجهه ينبئ عن أنه رسول الله ﷺ كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آياتٌ مُبيِّنة   كانت بديهتُه تأتيك بالخبر

وكما قال عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه في رسول الله ﷺ: فلما تبينتُ وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، كما رواه أحمد وأصحاب السنن عنه رضي الله عنه وصححه الترمذي. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ أي فإن زلت أقدامكم عن صراط الله المستقيم، ووقعتم في حبائل الشيطان، وارتكبتم ما حرّم الله عليكم فلا تتمادَوْا في طاعة الشيطان ولا تصرّوا على معاصيكم، وسارعوا إلى التوبة النصوح والرجوع إلى الله عز وجل، وتذكّروا أن الله قاهر غالب قادر على الانتقام ذو عزة لا يمنعه من الانتقام من العاصين مانع، ولا يدفع عقابه عنهم دافع، وهو الحكيم في أفعاله، التي لا تخلو من حكمة يعلمها العليم الخبير، وقد أقام الله عز وجل البراهين الساطعة والحجج القاطعة وأيد رسوله ﷺ بالمعجزات الدالة على أنه رسول الله ﷺ، فلا تخالفوا أمره ولا تطيعوا الشيطان الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. وفي تذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿ واعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ ترهيب من مخالفة أمره، وإذا كان هذا التحذير موجّها لأوليائه فهو أشد تحذيرا لأعدائه.

وقوله عز وجل: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَل من الغَمَام والملائكةُ وقُضِيَ الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ هذا توبيخ للكفار الذين لم يسارعوا إلى الدخول في دين الإسلام ولم يستجيبوا لرسول الله ﷺ بعد أن أيده الله تعالى بالمعجزات التي يؤمن على مثلها البشر، كأنه قيل لهم: لماذا لا تسارعون إلى الدخول في الإسلام؟ ألم تأتكم الآيات الشاهدات على أن الله حق وأن وعده الحق وأن محمدا حق، وماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون قيام الساعة ومجيء يوم القيامة، يوم تشقق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا، وجاء ربك والملك صفا صفا؟ إذا جاء هذا اليوم فقد قضي الأمر، وليس هناك للكافرين إلا النار، كما قال عز وجل: ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتيَ ربُّك

أو يأتيَ بعضُ آياتِ ربك يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّك لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنَتْ من قبلُ أو كسبَتْ في إيمانها خيرا، قل انتظروا إنّا منتظرون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿كلاّ إذا دُكّت الأرض دكًّا دكًّا* وجاء ربّك والملك صَفًّا صَفًّا* وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى﴾ ومعنى: ﴿ينظرون﴾ أي ينتظرون، يقال: نظرته وانتظرته بمعنًى. ولذلك قال عز وجل: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ ثم قال في آخر الآية: ﴿قل انتظروا﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقُضِيَ الأمر﴾ أي وفُصِل القضاء بالعدل بين الخلق، فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، إذ أنه إذا قامت القيامة آمن وقتئذ جميع الكافرين كما قال عز وجل: ﴿إذا وقعت الواقعة* ليس لوقعتها كاذبة﴾ أي ليس عند وقوع القيامة نفسٌ تكذب بها، لكن لا ينفع الكافرين إيمانهم يومئذ. وقوله عز وجل: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي وإلى الله وحده يؤول القضاء بين الخلق يوم القيامة فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يستوي الصالحون والفجار، كما قال عز وجل: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾. وقوله عز وجل: ﴿سَلْ بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة﴾ هذا توبيخ للمشركين واليهود الذي لم يسارعوا إلى الاستجابة لله ورسوله والدخول في دين الإسلام بأنه مهما جاءتهم من الآيات فلن يؤمنوا بها؛ لأن الله عز وجل ختم على قلوبهم بسبب فسقهم ومعاصيهم، فلو سألت بني إسرائيل كم من الآيات البينات شاهدوا مع موسى عليه السلام ومع ذلك فما أقلّ انتفاعهم بها، فهم يعلمون أن الله عز وجل أيّده بمعجزات منها اليد والعصا وفلق البحر وضربه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا وما كان من تظليل الغمام وإنزال المَنّ والسلوى في آيات كثيرة ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وفي اليوم الذي شاهدوا فيه انفلاق البحر ونجاتهم رأوا قوما

يعكفون على أصنام لهم فقـالوا : يا موسى اجعل لنـا إلها كما لهم آلهة ، فبدّلوا نعمة الله كفرا ، وكـذلك أهل الكتاب والمشركون رأوا ما أيّد الله بـه نبيه محمدا ﷺ من المعجزات والآيـات البينات ومع ذلك بـدّلوا نعمة الله كفـرا ، ولذلك قال عـز وجل هنا : ﴿ومن يُبَدّلْ نعمـةَ الله من بعد مـا جاءته فإن الله شـديد العقاب﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿ألم تَرَ إلى الذين بدّلوا نعمـة الله كفرا وأحلّوا قـومهم دار البَـوَار * جهنَّمَ يصلـونها وبئس القرار﴾ وليـس المراد بقولـه عـز وجل : ﴿سل بني إسرائيل﴾هـو أن يسألهم عن شيء لا يعرفـه ، أو يستفهم منهم عن خبر مـا عنـده علم بـه ، بـل المقصـود هـو تـوبيخهم وتقـريعهم وتبكيتهم مع ما فيـه من مواساة رسول الله ﷺ وتسليتـه في نفس الوقت ، لأن السؤال مُتَضَمّن أنّ محمدا وهـو النبي الأمي ﷺ قد أطلعه الله وعرّفـه بالآيات التي أعطـاها مـوسى عليـه السلام وأنها كثيرة جـدا ، ولـذلك لا يحتاج هـذا السؤال إلى جـواب لأن السؤال إذا كان لغير الاستعلام لا يحتـاج إلى جواب . وقوله عز وجل : ﴿فإن الله شديـد العقاب﴾ أي فإن عقوبة الله شديدة لهؤلاء المجرمين . وقوله عز وجل : ﴿زُيِّنَ للذين كفروا الحياةُ الدنيا﴾ أي حَسُنَتْ في أعينهم ، وأُشْرِبَتْ محبّتها في قلوبهم ، فتهالكـوا عليها ، وتهافتوا فيها وصارت كلّ همهم ومبلغ علمهم ، وصاروا يتمتعون ويأكلـون كما تأكل الأنعام والنّار مثوى لهم ، وقـد جعل الله تبارك وتعالى ما على الأرض زينـة لها ليختبر عباده بها فالكفار تعلقوا بها وقـالوا ربنا آتنا في الدنيا ومـا لهم في الآخرة من خلاق . والمؤمنون يقولون ربنا آتنا في الدنيـا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. وقد أشـار الله عز وجل إلى ذلك في قـوله تبارك وتعـالى : ﴿إنا جعلنـا ما على الأرض زينة لها لِنَبْلُوَهُـم أيهم أحسن عملا * وإنا لجاعلون مـا عليها صعيدا جُرُزا﴾ وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿ويسخـرون من الذيـن آمنوا﴾ تقييـد لقبيحة عظيمـة من قبـائح الكفـار وهي استهـزاؤهم بالمؤمنين ، فكـانـوا إذا مـرّ بهم

المؤمنون يتغامزون، ويسخرون منهم ويستهزئون بهم، وما كان ذلك منهم إلا لاستغراقهم في الجهل لأن الاستهزاء بالناس لا يصدر إلا عن جاهل ولذلك لما قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ ولذلك سجّل الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم أن المؤمنين الذين سخر المشركون منهم سيكافئهم المؤمنون بذلك يوم القيامة حيث يقول عز وجل: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون* وإذا مرّوا بهم يتغامزون﴾ ثم قال عز وجل: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون* على الأرائك ينظرون* هل ثُوِّبَ الكفار ما كانوا يفعلون﴾. وقوله عز وجل: ﴿والذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة﴾ أي المتصفون بصفة التقوى في عِلِّيِّين يوم القيامة. والذين كفروا في أسفل السافلين في نار الجحيم، كما قال عز وجل: ﴿يوم يرون الملائكة لا بُشْرى يومئذ للمجرمين ويقولون حِجْرا محجورا* وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هَبَاء مَنْثُورا* أصحاب الجنة يومئذ خير مُسْتَقَرا وأحسن مَقِيلا* ويوم تَشَقّق السماء بالغَمام ونُزِّلَ الملائكة تنزيلا* الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾. وقوله عز وجل: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي ولا حَجْر على فضل الله فهو يعطي الجزيل، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أَنْفِقْ أُنفقْ عليك، وقال: يد الله مَلْأَى لا تغيضُها نفقة سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ، وقال: أرأيتم ما أنفق مُذْ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغِضْ ما في يده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع».

قال تعالى : ﴿كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم* أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتّى يقول الرّسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألاَ إنّ نصر الله قريب﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى في المقام السابق ما يفيد أنّ سبب إصرار الكفار على الكفر هو حبّهم للحياة الدنيا وحرصهم عليها وحسدهم وبغيهم ، وأن المؤمنين قد هُدُوا إلى الصراط المستقيم فمنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ومنهم من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، ذكر هنا ما يفيد أن الناس كلّهم كانوا على الحق وأن الشياطين اجتالتهم عنه حتى عبدوا غير الله ، وضلوا عن سواء السبيل ، فأرسل الله عز وجل الرسل وأنزل الكتب فاختلف الناس ، فمنهم من هَدَى اللهُ ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فقامت الرسل يبشرون من أطاعهم بنعيم الجنة وكريم ثوابها وينذرون من عصاهم بالنار وأليم عقابها ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة ، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بأن اختلاف الناس ليس أمرا جديدا مختصا بزمان بعثة رسول الله محمد ﷺ بل هو قديم عميق في التاريخ . ولا شك أن آدم وذريته كانوا جميعا على الهدى و إخلاص العبادة لله وحده واستمر ذلك في ذرية آدم عشرة قرون كما ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . فمعنى قوله عز وجل : ﴿كان

الناس أمـةً واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنـزل معهم الكتاب بـالحق ليحكم بين النـاس فيما اختلفـوا فيه﴾ أي كـان بنـو آدم مجتمعين على الهدى ودين الحق مدة من الزمان بيّنهـا ابن عباس بعشرة قرون ثم وسوس لهم الشيطان حتـى عبدوا بعض الصـالحين كما أخرج البخاري في صحيحـه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قـوله تعالى: ﴿وقـالوا لا تَـذَرُنّ آلهتكم ولا تَذَرُنّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْـرًا﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطـان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهـم التي كانوا يجلسون فيها أنصابـا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم عُبِـدَتْ اهــ فبعث الله عـز وجل رسـلا أوّلهم نـوح عليـه السـلام وأنـزل معهم الكتب لتكـون نظـاما إلهيـا يحكم بها حكـام الشريعـة ويتحـاكم إليهـا أتباع الأنبيـاء والمرسلين فيما يحدث بينهم من الاختـلاف في الحقـوق ونحـوها، ويسيرون على منهـاجهـا المستقيم، ليفـوزوا بعز الـدنيـا وسعادة الآخرة. ولا شك أن الأمم عندما كانت تجيئهم رسلهم بالبينات كانوا يختلفـون على رسلهم فمنهم آمن و منهم كفر، وقـد ورد الاختلاف في كتـاب الله عز وجل على نـوعين: أحدهما يـذم الله فيه المختلفين جميعـا، كقولـه عز وجل: ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ وكقوله عز جل: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ أما النوع الثاني من الاختلاف فهو ما يقع من الاختلاف بين المؤمنين والكافرين فيمدح الله المؤمنين ويذم الكافرين كقوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولَكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفـر، ولو شاء الله مـا اقتتلوا ولَكن الله يفعل ما يريد﴾. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أُوتُوه من بعد ما جـاءتهم البينات بَغْيًا بينهم﴾ تحذير من مشـابهة أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يدّعون أنهم جميعا يـؤمنون بالتوراة وبموسى ثم يكفر

اليهود بعيسى وبـالإنجيل كما يكفر اليهود والنصارى بمحمـد ﷺ وبالقرآن مع أنهم قبل مجيئه ونـزول القرآن عليه كانـوا مطبقين على وجوب الإيمان به إذا جاء، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. ثم أثنى الله تبـارك وتعالى على المؤمنين وأنهم أُرْشِدُوا إلى الحق وهُدُوا إلى الصـواب فآمنوا بموسى والتـوراة وبعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن حيث يقول: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ وهذا المقام في القـرآن الكريم شبيه بقولـه عز وجل: ﴿وما تفرق الـذين أوتوا الكتـاب إلا من بعدمـا جاءتهم البينـة﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿ولا تكونـوا كالـذين تفرقـوا واختلفوا مـن بعدما جـاءهم البينات﴾. وقـوله عـز وجل: ﴿والله يهدي من يشـاء إلى صراط مستقيم﴾ بيـان لفضل الله عـز وجل على المؤمنين الـذيـن وفقهم إلى الهدى وأرشـدهـم إلى الصراط المستقيم، صراط الـذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهـداء والصالحين، وقـد جعل الله تبارك وتعالى حقا على كل مؤمن أن يدعو الله عز وجل مرات في كل يوم وليلة يقول: ﴿اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضـوب عليهم ولا الضالين﴾ فيكـررها في صـلاة الصبح وصلاة الظهـر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء وصـلاة التطوع ولقد كان رسول الله ﷺ وهو المعصـوم من كل انحـراف يَضْرَعُ إلى الله عز وجل أن يهديـه عند الاختـلاف إلى الهدى والـرشـاد، فقـد روى مسلم في صحيحـه من حـديث الصديقـة بنت الصديق عائشـة أم المؤمنين رضي الله عنها قـالـت: كان النبي ﷺ إذا قـام من الليل افتتح صـلاتـه فقـال: «اللهم ربَّ جبريل وميكـائيل وإسرافيل فـاطـر السمـوات والأرض عـالم الغيب والشهـادة أنت تحكم بين عبادك فيما كـانوا فيه يختلفون، اهـدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». ولا شك أن دعوة رسول الله ﷺ هذه قد

استلهم فيها قوله تبارك وتعالى: ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى بعض ما اختلف فيه أهل الكتاب فهدى الله المؤمنين من أمة محمد ﷺ له فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أُوتُوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تَبَعٌ، اليهود غدا والنصارى بعد غدٍ». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة، ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أُوتُوا الكتاب من قبلنا وأُوتِينَاه من بعدهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، هدانا الله له، قال: يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى». وقوله عز وجل: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأْتِكُم مَثَلُ الذين خَلَوْا من قبلكم مَسَّتهم البأساء والضراء وزُلْزِلُوا﴾ في هذا المقام الكريم لفت انتباه المؤمنين الذين هداهم الله للحق بإذنه أي بأمره وإرادته ومشيئته، إلى أن سِلْعتهم وهي الجنة سلعة غالية قد بذل المؤمنون الأولون كلّ غال ونفيس في سبيلها، وتعرضوا لأنواع من البأساء والضراء وزلزلوا، لِتَتَوطَّن نفوس المؤمنين على ما يصيبهم في سبيل الله، فيَصْبِروا ويَحْتَسِبوا، و(أمْ) في قوله عز وجل: ﴿أم حسبتم﴾ للاستفهام المقصود به الحض على الصبر وتحمّل المشاق في سبيل الله، وقوله عز وجل: ﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ أي والحال أنه لم يصبكم مثل ما أصاب المؤمنين الذين مَضَوْا من قبلكم ولم تُبْتَلُوا بمثل ما ابْتُلُوا به، وقوله عز وجل: ﴿مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ استئناف بياني كأن سائلا سأل: ماذا أصابهم؟ فقال: ﴿مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ والبأساء شدّة

الفقر، والضراء الآلام والأسقام، ومعنى : وزلزلوا، أي وخُـوِّفوا وحُرِّكوا بأنواع البلايا والرزايا من جهـة أعدائهم المخالفين لهم المختلفين معهم، ونظير هذا قوله عز وجل : ﴿الم * أحسب الناس أن يُتْرَكُوا أن يقولوا آمَنَّا وهم لا يُفْتَنُون * ولقد فَتَنّا الذين من قبلهم فلَيَعْلَمَنّ الله الـذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾، وقد روى البخـاري رحمه الله في صحيحه من حديث خَبّـاب بن الأرتّ قال : شكـونـا إلى رسول الله ﷺ وهـو متـوسّـد بـردة له في ظل الكعبـة فقلنـا : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعـو لنا؟ فقال : «قد كان مَن قبلكم يُؤْخَـذُ الرجلُ فيُحفَر لـه في الأرض فيُجَـاءُ بـالمنشـار فيُـوضَع على رأسـه فيُجْعَل نصفين ويُمْشَط بأمشاط الحديـد ما دُونَ لحمِـه وعظمِه فما يصدّه ذلـك عن دينه، والله لَيتِمَّنَّ هـذا الأمـر حتى يسير الـراكب من صنعـاء إلى حَضْرَمَـوْت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلـون» . ولا شك أن أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم قد أصـابهم مثل ما أصاب المؤمنين السـابقين مع الأنبياء والمرسلين كما قال عـز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكـروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكـم جنود فأرسلنـا عليهم ريحا وجنودا لم تَـرَوْها، وكـان الله بما تعملون بصيرا * إذْ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم وإذْ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحنـاجرَ وتظنون بـالله الظنونا * هنـالك ابْتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلـوا زلزالا شديدًا﴾ . وقوله عز وجل : ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب﴾ أي يصل البلاء بالمسلمين إلى حالة يحسّ المؤمنون أن أعداءهم لن يـؤمنوا فعندئذ يطلبـون من الله عز وجل أن يهلك الكـافرين ولا يُبْقِيَ منهم أحدا كما قال عز وجل : ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُـذِبُوا جاءهم نصرنا فنُجِّيَ مـن نشاء ولا يُرَدّ بأسُنا عن القـوم المجرمين﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وأُوحِيَ إلى نوح أنـه لن يؤمن من قومك إلا مَن قد آمن فلا تبتئـس بما كانوا يفعلـون * واصنع الفلك بأعيننا ووحينـا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغْرَقون﴾ .

قال تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم* كتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

هذا هو المقام الثالث في هذه السورة المباركة الذي يوصي الله تبارك وتعالى فيه المؤمنين ويحضّهم على توجيه العناية بذوي القربى واليتامى والمساكين والإحسان إليهم، حيث كان المقام الأوّل في بيان ما أخذه من الميثاق على بني إسرائيل حيث قال: ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين﴾ الآية، وكان المقام الثاني في آية البرّ حيث قال: ﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين﴾ الآية. وقال في هذا المقام الكريم: ﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ الآية، وقد أورد هذا المقام الكريم هنا بعد أن حضّ على الإنفاق في سبيل الله في الآية الخامسة والتسعين بعد المائة حيث ختم بها هناك بعض أحكام القتال في سبيل الله وقبل الشروع في بيان أحكام الحج وذكر بعض أركانه وواجباته، وقد ذكر في هذا المقام قبل هذه الآية ما قد يبتلي به عباده المؤمنين من البأساء والضراء والزلزلة كما ذكر بعدها مباشرة أنه كتب عليهم القتال ليلفت انتباه المؤمنين إلى أنه لا ينبغي لهم أن يشغلهم شاغل مهما كان شديدا عن رعاية ذوي القربي واليتامى والمساكين. وهذه التنبيهات الإلهية شبيهة بجرس الإنذار الذي يحذّر من إضاعة ذوي القربى واليتامى والمساكين، ولا شك أن جميع الأنظمة البشرية التي توضع للرعاية الاجتماعية والتكافل الاجتماعي تعجز عن بث هذه الروح الكريمة في نفوس الناس للعناية بهذه الفئات من المجتمع

لتستشعر الكرامة والعزة بين سائر الطبقات، وقد قدمت في تفسير قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة﴾ أن عرض العلم بطريقة السؤال والجواب من أعظم أسباب ترسيخ المعلومات في أذهان السامعين، وقد أطبق على هذا علماء النفس والتربية. وقوله عز وجل: ﴿ يسألونك ماذا ينفقون﴾ ليس سؤالا عن طلب ماهية النفقة بل السؤال عن طلب مصارف النفقات التي تكون أحبّ إلى الله ورسوله بعد ما أمرهم بالإنفاق في سبيل الله في الآية الخامسة والتسعين بعد المائة، فأجابهم بأنّ خير ما ينفقونه ما كان على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، ولا شك عند أهل العلم أن من كانت نفقته واجبة على شخص فإنه لا يجوز لهذا الشخص أن يعطي زكاته لمن تجب عليه نفقته، لكن الله تبارك وتعالى يعطي من فضله الأجر الجزيل كلّ من أنفق نفقة يبتغي بها وجه الله حتى إطعام الزوجة كما في صحيح البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث قال له رسول الله ﷺ: «وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللّقمة التي ترفعها إلي في امرأتك» وتقديم الوالدين لأن حقهما أعظم من حق غيرهما فوجب تقديمهما على غيرهما في رعاية الحقوق، ثم ذوي القربى لأن رعاية حقوقهم تجمع بين الصلة والصدقة، ثم اليتامى لأن الطفل الذي مات أبوه قد عدم الكاسب وأشرف على الضياع لعدم قدرته على الكسب فصار من حقه أن يبادر كل محسن برعايته حتى يحسّ بأنه وإن كان مات أبوه فقد صار كل ذوي البرّ بمنزلة الوالد الحنون له، وقد أخر المساكين عن اليتامى لأن حاجتهم أقل من حاجة اليتامى، لأن قدرة المساكين على الكسب أكثر من قدرة اليتامى عليه، وقد جعل ابن السبيل في المرتبة الأخيرة من هؤلاء لأن حاجته نادرة، فما أجمل هذا الترتيب الدقيق في كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، وقوله عز وجل: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله

به عليم﴾ أي ومهما صدر منكم من فعـل خير وعمل معروفٍ فإن الله يعلمه وسيجـزيكم عليه أحسن الجزاء، وقـد بشّر رسول الله ﷺ من تصـدق بناقـة مخطومة أي فيهـا خِطَام وهو ما تُجَرُّ بـه من أنفها، بأن له يـوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قـال: جاء رجل بناقة مخطـومة فقال: هذه نـاقة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة نـاقة كلّها مخطومة». وقوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم﴾ أي فرض عليكم الجهاد في سبيل الله وملاقاة أعدائه الذي تتعرضـون فيه للموت وبذل النفس، ولما كان حبّ الحياة غريـزة في نفوس الأحياء من الناس والحيوانات قـد غرسها الله عز وجل في كل حيـوان وقـد علم النـاس في جميع الأعصـار والأمصـار والقـرى والبوادي أن غريـزة حبّ البقاء غريزة جُبل عليهـا الإنسان لذلك وصف الله تبارك وتعـالى فرض القتـال بأنه كُـرْهٌ أي شاق على النفس الإنسـانية، وليس معنى ذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يكرهون أن يفرض عليهم القتال في سبيل الله بل ثبت أنهم كانـوا يتمنونه قبل فرضيتـه كما أشرت إلى ذلك عند الكلام على أطوار الجهاد في سبيل الله في تفسير قوله تبارك تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقـاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتـدين﴾ وقد سقت للـدلالـة على تمني المسلمين أن يشرع لهم قتـال أعـدائهم قـولـه عـز وجل: ﴿ويقـول الـذين آمنـوا لولا نـزّلت سـورة﴾ أي يشرعُ فيهـا للمسلمين قتـال أعدائهم بدليل قـوله تعالى في نفس الآية: ﴿ فإذا أنزلت سـورة محكمة وذُكِرَ فيها القتال رأيتَ الـذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظـر المَغْشِيّ عليه من الموت فأَوْلَى لهم * طاعةٌ وقولٌ معروف، فإذا عـزم الأمرُ فلو صَدَقوا اللهَ لكان خيرا لهم﴾ ومع كـون القتال شاقـا على النفس الإنسانيـة فإن المسلم ولا سيما من أصحاب رسـول الله ﷺ قد يبذل نفسـه رخيصة في سبيل الله دفـاعا عن

دينـه و إعلاء لكلمتـه ، وقد سقت أمثلـة لبعض أصحاب رسـول الله ﷺ في تفسير قوله عز وجل : ﴿ومن النـاس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد﴾ ولا شك أن من آمن بالله واليوم الآخـر يغلّب ما أُمِرَ به شَرْعا على ما جُبِلَ عليـه طَبْعا ، ليقينه بأن بـذل نفسه في سبيل الله يورثه الـدرجات العلى في جنـات النعيم ، وأكثـر أوامـر الشرع ونـواهيــه إنما تـربّي في النفس الإنسـانية تقـديم مراد الشرع على مـراد الطبع ولـذلك حرمت الاعتـداء على الأعراض والأمـوال والعقول حتى لا ينـدفع الإنسان وراء شهوتـه وغريـزته ، والإنسان يشرب الـدواء المرّ لعلمه بحسن عـاقبته وحـلاوة مآلـه ، وقولـه عز وجل : ﴿وعسى أن تكرهـوا شيئا وهـو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئـا وهو شر لكم﴾ هذه قضيّة مسلّمـة عند سائر البشر، فكم يمر بـالعاقل من تجرُبة يتحقق فيها صـدق هذه القضية ، حيث يرغب الإنسـان في شيء ويسعى له ويبذل النفيس في الوصول إليه وتحصيله وتكـون عاقبته له غير حميدة ويتمنّى أنه لم يكن سعى لـه ولا حصل عليه لما يجلبه له من تعـاسة في حياته الـدنيا ، وكم ينزل بالإنسان شيء يكرهه وتكون عـاقبته له حميدة ، ويفرح بحصوله له ويتأسف على ما سبق من كراهيتـه له ، والإنسان لا يعلم الغيب ، والعبرة في الأمـور بحسن عاقبتهـا ، ولذلك أُثِـرَ في الدعـاء : «اللهم أحسن عاقبتنـا في الأمور كلهـا وأَجِرْنـا من خِزْي الدنيـا وعذاب الآخـرة» كما في مسند أحمد من رواية ابنـه عبدالله قـال : ثني أبي ثنا هيثم بن خارجـة ثنا محمـد بن أيوب بن مَيْسَرة بن حَلْبَس قال : سمعت أبي يحدث بُسْر بن أرطأة القرشي يقول ، وذكر الحديث ، ولذلك كـذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحـابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن فقد روى البخاري في صحيحه من حـديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قـال : كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخـارة في الأمور كلها كما يعلمنـا السورة من القـرآن ، يقول : «إذا

همّ أحـدكم بـالأمـر فليركع ركعتين مـن غير الفـريضـة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقــدرك بقـدرتك وأسألك من فضلـك العظيم فإنك تقدر ولا أقـدر وتعلم ولاأعلم وأنت علام الغيـوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هـذا الأمر خير لي في ديني ومعـاشي وعاقبـة أمري أو قـال : في عاجل أمـري وآجله فاقدره لي ويسّره لي ثم بـارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أنه شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال : في عـاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقـدر لي الخير حيث كان ثم رضّني بـه ، ويسمّي حاجتـه» . وقولـه عز وجل : ﴿والله يعلم وأنتـم لا تعلمــون﴾ أي والله أعلم بعــواقب أمــوركم منكم ، وأخبر بما فيه صـلاحكم في دنياكم وأخـراكم ومعاشكم ومعـادكم ، فأيقنـوا أنّ ما يفـرضه عليكم يجلب لكـم خير الدنيـا والآخرة وعـزّ العاجلـة والآجلة وإن كان على خـلاف ما تشتهيه غريـزة النفس الإنسانية ، التي تميل إلى الـراحة والبقـاء الدنيـوي ، فسـارعوا إلى مغفـرة من ربكم وجنـة عرضهـا السماوات والأرض أعدت للمتقين .

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتـال فيه قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفـر بـه والمسجـد الحرام وإخراج أهلـه منـه أكبر عنـد الله، والفتنـة أكبر من القتل، ولا يزالـون يقـاتلونكم حتى يـردّوكم عن دينكم إن استطـاعوا، ومن يـرتـدد منكم عن دينـه فيمت وهو كـافـر فأولَـٰئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولَـٰئك أصحاب النـار هم فيها خالدون* إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولَـٰئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم﴾.

لما ذكـر الله تبارك وتعـالى في الآية السـابقـة أنه كتب القتـال على المسلمين ليجاهـدوا أعداء الله ولتكـون كلمة الله هي العليـا استفسر بعض الناس من رسول الله ﷺ عن القتال في الأشهر الحرم وهـي ذو القعدة وذوالحجة والمحرم ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان فأنـزل الله عز وجل: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه﴾ الآية. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله عز وجل جعل السنة اثنـي عشر شهرا يـوم خلق السموات والأرض منهـا أربعة حـرم، فقد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي بكـرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنـه قال: «إن الزمـان قد استدار كهيئته يـوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنـا عشر شهرا منهـا أربعـة حُرُم، ثـلاثة مُتَـواليـات: ذوالقعدة وذوالحجـة والمُحَرَّم، ورجب مُضَرَ الـذي بين جُمادى وشعبان» وقـد بَيَّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث مجمل قـول الله عز وجل: ﴿منها أربعة حـرم﴾ حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منهـا أربعة حرم﴾ ولا شك أن العـرب قبل الإسلام كـانوا يعرفـون بها ورثوه من ديـن إبراهيم عليـه السلام هـذه الأشهر الحرم، إلا أنهم كانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدّة تحليلَ المحَرَّم فأخَّرُوه إلى صَفَر حيث جعلوا

صَفَرا مُحَرَّمـا والمحرم صَفَـرا، ليتمكنوا من القتـال وليواطئـوا عدة مـا حرّم الله فيُحِلّـوا ما حـرّم الله، وقـد افتخر شـاعر منهـم بذلك حيث يقـول عمير بن قيس:

لقـد علمَـــتْ مَعَـدّ بأن قـومـي كــــرامُ النـاس إنّ لهـم كــراما

أَلَسْــنَا الناسِـــئين على مَعَـــدّ شهـــورَ الحِلّ نجعلهـا حــراما

وقد بين الله تبـارك وتعالى أن النّسيء من زيـادة الكفر عنـد أهل الجاهلية حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفـر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلّونه عاما ويحرمونه عاما ليـواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلوا ما حرّم الله، زُيّن لهم سوء أعمالهم، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ وفي شهر جمادى الآخرة من السنـة الثـانيـة للهجرة بعث رسـول الله ﷺ سريّـة وأمّـر عليهم عبـد الله بن جحش رضي الله عنه وكتب لـه كتابا وأمره أن لا يقـرأه إلا بعد مسيرة يومين، وأنه لا يُكْرِهُ أحدا من أصحابه على المسير معه بعد قراءة كتاب رسول الله ﷺ عليهم، فلما بلغ المكان الذي أمره رسول الله ﷺ بقـراءة الكتاب فيه، ويُذْكَرُ أنه «بَطْنُ مَلَـلٍ» وقرأ الكتاب على أصحـابه تَبِعُـوه جميعا سـوى رجلين تخلفا للبحث عن راحلتهما، فلقوا ابن الحضرميّ في ناس من قريش راجعين بتجارة من الشام فقتلـوهـم، واتّفق وقوع ذلك في أول يـوم من رجب، ولم يكونـوا قد رأوا هلال رجب، وكانوا يظنون أن هذا اليوم هو الثلاثون من جمادى الآخرة، وقتلوا ابن الحضرمي وأخذوا الذي كان معهم، فاستغلّت قريش هذه الحادثة أسوأ استغـلال، وقالـوا: محمد يـزعم أنه يعظّم الشهـر الحرام ويقاتـل فيه، فأنـزل الله عز وجل: ﴿يسألـونك عن الشهر الحرام قتـالٍ فيه، قل قتـالٌ فيه كبير، وصدّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل، ولا يـزالون يقاتلـونكم حتى يرُدوكم عن دينكم إن استطاعـوا، ومن يرتدد منكم عن دينـه فيَمُتْ وهو كـافر فأولَئك حبطت

أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وِزْرا فإنهم لم يصيبوا أجرًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولَئك يرجون رحمت الله، والله غفور رحيم﴾. وقد أشار البخاري في صحيحه إلى قصة سريّة عبدالله بن جحش هذه حيث قال في كتاب العلم: واحتج بعض أهل الحجاز في المناولة بحديث النبي ﷺ حيث كتب لأمير السرية كتابا وقال: لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا، فلما بلغ المكان قرأه على الناس وأخبرهم بأمر النبي ﷺ اهـ وقال السيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ الآية: أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في سننه بسند صحيح عن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة بن الحارث فلما ذهب لينطلق بَكَى صبابة إلى رسول الله ﷺ فجلس، وبعث مكانه عبدالله بن جحش، وكتب له كتابا، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: «لا تُكْرِهَنّ أحدا على السّير معك من أصحابك» فلما قرأ الكتاب استرجع وقال: سمعا وطاعةً لله ولرسوله، فخبّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان، ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام؟ فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ الآية، فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وِزْرًا فليس لهم أجر، فأنزل الله: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولَئك يرجون رحمت الله، والله غفور رحيم﴾ اهـ وقد ساق ابن كثير رحمه الله في تفسيره وفي (البداية والنهاية) حديث جندب بن عبد الله من رواية الحافظ أبي محمد بن أبي حاتم قال: حدثنا أبي حدثنا محمد بن أبي بكر

المَقَدَّمي حدثنا المُعْتَمِرُ بن سليمان عن أبيه حدثني الحضرميّ عن أبي السَّوَار عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطا، وساق الحديث باللفظ المتقدم إلى قوله: فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبيرٌ﴾ الآية اهـ، ولا شك أن ابن أبي حاتم أحد الثقات الحفاظ، وأبوه أحد الأعلام الثقات، ومحمد بن أبي بكر المَقَدَّميّ من رجال البخاري ومسلم، والمعتمر بن سليمان من رجال الجماعة، وأبوه سليمان بن طرخان التيميّ من رجال الجماعة أيضا، والحضرميّ قد ذكر أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتابه: (الجرح والتعديل) أن عبد الله بن أحمد بن حنبل سأل يحيى بن معين عن الحضرمي الذي يروي عنه التيميّ فقال: ليس به بأس، اهـ وذكر الحافظ ابن حجر في (تهذيب التهذيب) في ترجمة أبي السَّوَار فقال: روى عنه الحضرمي اهـ وأبو السَّوَار من رجال البخاري ومسلم، وبهذا يتبين أن الذين توجهوا بالسؤال إلى رسول الله ﷺ هم المشركون، وقصدوا بذلك التشويش على الإسلام والمسلمين فردّ الله كيدهم في نحورهم وذكر قَوَاصِمَ الظهر من قبائح أفعالهم، وأثبت مغفرته ورحمته لأهل هذه السَّرِيَّة رضي الله عنهم، وقد قال عبد الله بن جحش رضي الله عنه يوبّخ كفار قريش على كفرهم بالله وصدّهم عن سبيل الله:

تعُدّون قَتْلا في الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرُّشْدَ راشدُ
صُدُودكُمُو عما يقول محمد ... وكفرٌ به واللهُ راءٍ وشاهدُ
وإخراجُكم من مسجد الله أَهْلَه ... لئلاّ يُرَى لله في البيت ساجدُ
فإنّا وإن عيّرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سَقَيْنا من ابن الحضرمي رماحَنا ... بنَخْلَة لمّا أوقد الحربَ واقدُ
دَمًا، وابنُ عبد الله عثمانُ بيننا ... يُنازعه غُلٌّ من القَيْد عاندُ

وقوله: بنخلة، يشير إلى المكان الذي حصلت فيه المعركة، وقوله: أوقد

الحربَ واقد، يـريد أن واقد بن عبـد الله اليَرْبُوعيّ حليف عمـر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي رمى ابن الحضرمـي بسهم فقتله، وكان واقدٌ رضي الله عنه في هذه السرية المباركـة، وقوله: وابنُ عبد الله عثمانُ بيننا، يشير إلى أنهم أخذوا عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزوميّ أسيرًا. وقـوله عز وجل: ﴿قتال فيه﴾ بدل اشتمال، وقوله تعـالى: ﴿قل قتال فيه كبير﴾ أي أخبرهـم أن القتال في الشهر الحرام إثم عظيم يعني لمن تعمّـد القتال فيه ولم يكن دفاعـا، وقوله عز وجل: ﴿وصـد عن سبيل الله وكفر بـه والمسجد الحرام وإخراج أهلـه منه أكبر عنـد الله﴾ أي ومنع للنـاس من الـدخـول في الإسـلام، وكفـركم أيها المشركون بـالله وصدّكم المؤمنين عن المسجـد الحرام وإخراجكم النبـيّ محمدا ﷺ والمؤمنين حتى اضطررتموهم إلى الهجرة من مكـة هو أعظم إثما وأكبر ذنبا من القتال في الشهر الحرام، وقولـه عز وجل: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي وكفـركم بالله وإكـراهكم للمسلمين على الكفـر بالله أكبر إثما من القتـال في الشهـر الحرام ومن قتل النفس مطلقـا بغير حق. وقـولـه عـز وجل: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم﴾ الآيـة. أي وسيستمر كفار قريش في حرب المسلمين لكي يصدوهم ويحملـوهم على الردة عن الإسلام لو تمكنـوا من ذلك، ومن يرجع إلى الكفر بعد الإسلام حتى يمـوت على الكفر فهؤلاء بطلت أعمالهم الصالحة في الدنيا بهدر دمهم، وفي الآخرة بضياع أجرهم، وهؤلاء أهل النار المخلدون فيها، وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ الآية أي إن المؤمنين المهاجرين المجاهدين أصحاب سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنهم هم طلاب رحمة الله، والله يدخلهم في رحمته ومغفرته.

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو، كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكّرون* في الدّنيا والآخرة، ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ وإن تخالطوهم فإخوانكم، والله يعلم المفسدَ منَ المصلحِ، ولو شاء الله لأعنتكم، إنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾.

بعد أن أمر الله عز وجل الناس أن يأكلوا مما في الأرض حلالاً طيباً كما مرّ في الآية الثامنة والستين بعد المائة ثم أمر المؤمنين بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم كما في الآية الثانية والسبعين بعد المائة ثم نهاهم أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل في الآية الثامنة والثمانين بعد المائة وشرع القصاص لحماية أرواح الناس وسلامتهم، ثم الصيام لقمع شهوتي البطن والفرج، ثم الحجّ لإقامة ذكر الله ثم كتب الجهاد لصيانة دين الله وإعلاء كلمته، ذكر في هذا المقام أحد أطوار تحريم الخمر والميسر لما فيهما من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ولإفسادهما للقلب والعقل، ولما فيهما من أكل أموال الناس بالباطل، وتجاوزهم من الطيبات إلى الخبائث، وقد مرّ تحريم الخمر بأطوار أربعة على طريقة التّدرّج في التشريع كما حدث في تشريع الصيام والجهاد بحسب ما تقتضيه تربية النفوس وإعدادها لتلقي الأحكام التي تأتي للحجر على النفوس من الانطلاق وراء الشهوات والمضار، وقبل البدء في الحديث عن أطوار تحريم الخمر في الإسلام أشير هنا إلى أن الخمر لم تكن مباحة قبل هذه الأطوار بنص من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ وإنما كان يشربها من يشربها من المسلمين اتباعا لعاداتهم قبل الإسلام، وقد امتنع بعض ذوي العقول فحرمها على نفسه في الجاهلية قبل الإسلام، منهم قيس بن عاصم المنقري وقد كان شرّابا لها في الجاهلية فلما سَكِرَ مرة غمز عُكْنَة ابنته وسبّ أبويه ورأى القمر فتكلم

بشيء يخزي، فلما أفاق أُخْبِر بذلك فحرم الخمر على نفسه وفيها يقول:

رأيت الخمر صالحةً وفيها خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحا ولا أُشْفَى بها أبدا سقيما
ولا أعطي بها ثمنا حياتي ولا أدعو لها أبدا نديما
فإنّ الخمر تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيما

وقد قيل للعباس بن مرداس في الجاهلية: لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في جرأتك؟ فقال: ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله في جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم.

ولما كان العرب في جاهليتهم قد استغرقوا في شرب الخمر وغلبتهم حتى صار بعضهم لا يكاد يصحو منها، وكان تحريمها دفعة واحدة قد يؤدي إلى نفرتهم عن الإسلام كما ذكر عن الأعشى أنه لما توجه إلى المدينة ليُسْلِمَ وعلم بذلك مشركو قريش خافوا أن يكون لشعره أثر في نشر دعوة الإسلام فلقيه بعضهم في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم أنه يريد محمدا ﷺ فقالوا: لا تَصِلْ إليه فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الربّ واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال: إن اصطناع المعروف واجب، فقالوا له: إنه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبيح في العقل وقد صرت شيخا فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلما رجع من الطريق سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات فلم يصل إلى منزله. فكان من حكمة العليم الخبير التّدرّج في تشريع تحريم الخمر على أربعة أطوار، حيث أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ قبل الهجرة وهو يعدّدُ آلاءه ونعمه على خلقه، ويذكّرهم بآياته وآثار قدرته فقال في سورة النحل: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَرًا ورزقا حسنا﴾ ففي هذا

إمـاءة إلى التنديـد باتخاذ المسْكِـر من ثمر النخيل والعنب بجعلـه خمرا حيث عطف عليه الرزق الحسن كأنه قال لهم: تجعلونه رزقا رديئا ورزقا حسنا، ولا شك أن هذا الأسلـوب في لفت انتباه النفس إلى التـوقف عن شرب الخمر في الـدرجة العليـا من أساليب التربيـة والتعليم والتحـذير، قـال في القامـوس المحيط: والسَّكَر محرّكـة الخمر. أما الطور الثـاني فكان في هذا المقـام الكريم من سورة البقرة حيث يقول: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ والاستفهام والسؤال هنا من المؤمنين للاستفسار عن حكم الخمر والميسر، والخمر مـا خامر العقل وغطاه وغيّبه، من عصير العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، وسـائر ما يصنعه الناس مما يُسْكِـر سواء كـان مائعا أو جـامدا أو مشمـوما، مـا دام يخامر العقل أي يغطيه ويغيبه. والميسر هو القمار، قال مجاهد ومحمد بن سيرين والحسن وابن المسيب وعطاء وقتـادة ومعاويـة بن صالح وطاوس وعليّ بـن أبي طالب وابن عبـاس رضي الله عنهم: كل شي فيه قمار من نـرد وشطرنج فهـو الميسر حتى لعب الصبيان بالجَوْز والكِعَاب إلا ما أبيح مـن الرّهان في الخيل، والقرعة في إفراز الحقوق كما ذكر القـرطبي رحمه الله. ومن أشهر ميسر العرب قمار الأزلام ومراهنتهم بها حيث كانـوا يتراهنون على الجزور ويجعلونها أسهما ويكتبون على كل سهم نصيبا معينا منها ويجعلون بعضها مهملا لا نصيب لمن تصيبه، ثم يضعونها في خـريطة ويدفعونها إلى يـد رجل فَيُجَلْجِلُها ويدخل يـده فيُخْرج منهـا باسم كل واحـد منهم واحـدًا منها فكـل من خرج لـه سهم من ذوات الأنصباء أخذ من الجزور بقَدْره، ومن خرج له سهم مُهْمَل لا نصيب له غُرِّم ثمن الجزور وكانوا يدفعون أنصباءهم إلى الفقراء ولا يأكلونها ويتباهون بذلك ويتفاخرون به ويذمون من تخلف عن هذا الرهان، وكانت الخمر والميسر هي شغل العرب الشاغل يتمدحون بهما وفي ذلك يقول أعشى بني ثعلبة:

وَسَبيئـةٍ مـمـا تُعتـّق بـابـل كدم الذبيح سَلَبْتُها جِـرْيالَـهـا
وغريبةٍ تأتـي الملـوك حكـيمـة قـد قلتها ليقـال : مـن ذا قالـهـا
وجزور أيسار دعَوْتُ إلى النّـدى ونياطِ مُقْفـرة أخـاف ضـلالـهـا

وقولـه عز وجل : ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ أي في تعـاطي الخمر والميسر ذنب عظيم وجرم فاحش، وقوله عز وجل : ﴿ومنافع للناس﴾ هو ما كانوا ينثرون من أموالهم لمن حولهم عند شرب الخمـر وما يحصل لهم من بعض اللذة وقت شرابها على مـا توهمتـه نفوسهم كما كـانوا يصيرون بعـد شربها إلى جرأة تـدفع الواحد منهم إلى ارتكاب الصعاب كما قال حسان رضي الله عنه :

ونشـرَبُهـا فتتركنـا ملوكـا وأُسْـدًا ما يُنَهْنِهُهَـا اللّقـاء

وكما قال الأعشى :

من قهـوة باتَتْ ببابـل صـفوةٍ تدَعُ الفتى ملكا يَميل مصُرَّعَـا

وقد أشار الأعشى إلى بعض أوضارها مع بعض لذاتها حيث يقول :

لَعَمْرُك إن الرّاح إن كنت شـاربا لمختلف آصـالهُـا وغداتُـهـا
لنا من ضحاها خُبْثُ نفسٍ وكَأْبة وذكـرى همومٍ مـا تُغِبُّ أَذَاتُـهـا
وعنـد العِشاء طيبُ نفـس ولذّة ومـال كثيـرٌ عـزّة نشَـوَاتُهـا

ومنافع الميسر ما كان يصيب الفقراء من لحوم الجزور التي يقامرون عليها، وليس في قولـه عز وجل : ﴿ ومنافع للنـاس﴾ ما يفيد مدحـا للخمر والميسر بحال من الأحوال، إذ وجود منفعة ما في شيء مع وجود شرّ كبير فيه لا تجعل هـذا الشيء ممدوحـا، والعقلاء يقـررون : أن درء المفـاسد مقـدّم على جلب المصالح، كما هـو في قواعد التشريع، والخمـر هي الخمر، وقـد ذكر ابن أبي الدنيا أنه مرّ على سكران فوجده يبول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضئ ويقول : الحمد لله الذي جعل الإسلام نـورا، والماء طهورا. وقوله عز وجل : ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ تقـرير لضـآلـة ما في الخمـر والميسر من منـافع

بالنسبة لما فيهما من الذنب والجُرْم والقبح، غير أن بعض الناس قد يرى أن ذلك ليس تحريما للخمر، فكان الطور الثالث هو النهي عن شرب الخمر عند قربان الصلاة حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ثم كان الطور الرابع والأخير هو الجزم والتصريح بتحريمها مطلقا حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون* إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من طريق أبي مَيْسَرة عمرو بن شرحبيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شفاءً، فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ الآية، قال فدُعِيَ عمر فقُرِئَتْ عليه، قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا يقربنّ الصلاة سكران. فدُعِيَ عمر فقُرِئَتْ عليه، فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت هذه الآية: ﴿فهل أنتم مُنْتَهُون﴾ قال عمر: انتهينا. وقد صحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي. وقوله عز وجل: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ قد تقدم قوله عز وجل في الآية الخامسة عشرة بعد المائتين: ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ وكان سؤالهم فيها عن المصرف فبينه عز وجل بقوله: ﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين﴾ الآية. والسؤال هنا عن كمية ما ينفقون ولذلك قال عز وجل في الجواب: ﴿قل العفو﴾ أي ما سهل وتيسّر مما يكون فاضلا زائدا عن الكفاية وحاجة صاحب المال، ثم بينتها بعد ذلك آية

الزكاة التـي بينها وفسرها رسول الله ﷺ وحدّد فيهـا الكمية التي تجب في كل نوع من الأمـوال الزكـويّة، وقولـه عز وجل: ﴿كـذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون* في الدنيا والآخرة﴾ أي كما أوضح الله عز وجل لكم وفصّل وبيَّن ما تقدم من الأحكـام يوضح لكم ويبين ويفصل جميع ما تحتـاجونه من أحكام في شئون دنياكم وأخراكم ومعـاشكم ومعادكم لكي تتدبروا فضل الله عليكم حيـث أرسل لكم النبـي الأميّ محمـــدا ﷺ بأكمـل الشرائع وأفضل الأنظمـة وأحسن المناهج، وقـوله عـز وجل: ﴿ويسألونك عن اليتـامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخـوانكم، والله يعلم المفسد من المصلح، ولـو شاء الله لأعنتكم، إن الله عـزيـز حكيم﴾ بعـد أن ذكر الله عـز وجل في الآية السابقة بعض الأنظمة المالية ذكر هنا الأمر بحفظ أموال اليتامى ومراعاة صيانتها، وقـد روى أبو داود والنسائي واللفظ لأبي داود قـال: حدثنا عثمان ابن أبي شيبة ثنا جرير عن عطـاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أنـزل الله عـز وجل: ﴿ولا تقربـوا مـال اليتيم إلا بـالتي هي أحسن﴾ و﴿إن الذين يأكلـون أموال اليتامى ظلما﴾ الآيـة، انطلق من كان عنـده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يَفْضُل من طعامه فيُحْبَس له حتى يأكله أو يفسد، فـاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لـرسول الله ﷺ فأنزل الله عـز وجل: ﴿ويسألونك عن اليتـامى قل إصلاح لهم خير، وإن تخالطـوهم فإخوانكم﴾ فخلطـوا طعامهم بطعامـه وشرابهم بشرابه. اهـ وقـوله: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ أي وعند الله عز وجـل علم بمن كان قصده ونيته الإصلاح أو من كانت نيته وقصده الإفسـاد، وقوله عز وجل: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عـزيـز حكيـم﴾ أي ولـو أراد عنتكم ومشقتكم لأوقعكم في الحرج والضيق والمشقة لأنه عزيز قـاهر حكيم حميد، وقد رحمكم وبسر لكم التشريع وخفّف عنكم لأنه يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر.

قال تعـالى: ﴿ ولا تنكحوا المشركـات حتّى يؤمـنّ، ولأمةٌ مؤمنـة خيرٌ من مشركةٍ ولـو أعجبتكم، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا، ولعبـدٌ مؤمن خيرٌ من مشركٍ ولو أعجبكم، أولَئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبيّن آياته للنّاس لعلّهم يتذكرون﴾.

بعد أن ذكـر الله تبارك وتعالى ما يـوجب صيانة العقول شرع في هـذا المقام يبين أحكام النكـاح والطلاق ممـا تصانُ بـه الفروج، فقـال عز وجل: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾ أي ولا تتزوّجوا امرأة مشركة وثنية حتى تدخل في دين الإسلام، وكما لا يجوز الزواج من امرأة مشركة فإنه لا يحل إمساكها لو كـانت زوجة لقـولـه تبارك وتعـالى: ﴿ ولا تمسكـوا بِعِصَـمِ الكوافـر﴾ ولفظ المشركات قد لا يتنـاول الكتابيات فقد جـاء في لسان الشرع كثيرا عطف أهل الكتاب على المشركين كقوله تعالى: ﴿ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّلَ عليكم من خير من ربكم﴾و كقولـه تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهـل الكتاب والمشركين مُنْفَكِّين حتى تأتيهم البيّنـة﴾ وقد نصّ الله تبـارك وتعالى في محكم كتـابـه على جواز نكـاح المحصنـات من الذين أوتـوا الكتاب حيث يقول عز وجل: ﴿اليوم أُحِلّ لكم الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصنـاتُ من المؤمنات والمحصناتُ من الـذين أوتـوا الكتـاب مِن قبلكم إذا آتيتمـوهـنّ أجـورَهن مُحْصِنين غير مسافحين ولا مُتّخِذِي أخدان﴾ وقد أباح الله تبارك وتعالى نكاح الكتابية وهو يعلم أنّ قولها يضاهئ قول الذين أشركوا لكنّ حكمته فوق ما يخطر بالبال وما يدور في الخيال، فما حرّمه فهو الحرام وما أحله فهو الحلال، وقد أباح ذبيحة الكتـابي ولم يبح ذبيحـة المشركين، ولا يحل لمسلم أن يتقـدم على الله أو على رسوله بقول أو عمل كما قال تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُقَدّموا بين

يَـدَي الله ورسولـه واتقـوا الله إن الله سميع عليم﴾ وقـد أشار ابـن جريـر في تفسيره إلى أن الأمة مجمعة على جواز نكاح المسلم الكتابية يهودية أو نصرانية . وضعّف القـول المنسوب إلى بعض السلف بتحـريمهـا وذكر أنـه روي عنهم خلافـه بسند أصحّ منه ، ولا شك أن كلّ كـافرٍ مشركٌ ، وعلى هذا فقولـه عز وجل : ﴿ولا تنكحـوا المشركات﴾ إمّـا عامٌّ أريـد به الخصـوص ، وإما عـامّ مخصوص بقـوله تبـارك وتعالى : ﴿ والمحصنـاتُ من الذين أوتـوا الكتاب من قبلكم﴾ على أن الإسلام مع إبـاحته للمسلم أن يتزوج يهوديةً أو نصرانيـةً قد حضّ المسلم على أن يختار الزوجة الصالحة المستمسكة بتعاليم الإسلام ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بـذات الدين ، تَرِبَتْ يداك» كما روى مسلم في صحيحـه من حديث عبد الله بن عمـرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : «الدنيا كلّهـا متاعٌ ، وخير متاع الدنيـا المرأة الصالحة» . اهـ ولا شك أن دين الإسلام عنـدما أباح للمسلم أن يتزوج الكتـابية راعى ما قـد يحدث لبعض المسلمين من سفر إلى بلاد الكتابيين ، وهو محتاج إلى إعفاف نفسه ، وصيانة عرضه ، وقد اشترط في نكاح المسلم للكتـابية أن تكـون معروفة بطهـارة العرض حيث يقـول الله عز وجلّ : ﴿والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتـاب من قبلكم﴾ فالمسلمة يكفي فيها أنها مسلمـة وغير معروفـة بسلوك مَشِين ؛ أمـا الكتابيـة فلا بـد فيها من التأكد من عفتها وطهارة عرضها ، إذ الإحصان المشْتَرَط في الكتابية معناه : أن تكون حرة عفيفة غير متساهلة في عـرضها . وقد أجمعت الأمة على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتـزوج كافـرا مهما كان ، ولقـد أحسن بعض أهل العلم عنـدما سُئِلَ : لماذا يبيح الإسلام للمسلم أن يتزوج كتابية ولا يبيح الإسلام للمسلمة أن تتزوج كتـابيا؟ فأجـاب : بأن المسلم يكرّم مـوسى وعيسى عليهما السلام

فإذا كانت تحته كتابية فلن تسمع منه إهانة لموسى أو لعيسى عليهما السلام بخلاف الكتابي فإنه لا يؤمن بمحمد ﷺ ولا يبعد أن يهين المسلمة بتكذيب رسولها ﷺ فلصيانة كرامة المرأة في الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج كتابية لأنها لن ترى منه إلا احتراما وتكريما لها، وحرّم على المسلمة أن تتزوج كتابيا لأنها تتعرض عنده للإهانة والأذى لكفره بنبيّها محمد ﷺ . وقوله عز وجل: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ اللام في قوله: ﴿ولأمة﴾ هي لام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد، والأمة هي المرأة المملوكة وقوله: ﴿خير﴾ ليست على بابها من التفضيل بل هي من باب قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ و(لو) في قوله: ﴿ ولو أعجبتكم﴾ بمعنى (إنْ) إذ القاعدة اللغوية أنّ كلمة (لو) إذا وليها فعل ماضٍ كانت بمعنى (إنْ)ويَطَّرِد حذف كان واسمها بعدها، أي وإن كانت المرأة المشركة أعجبتكم، ونظيره قوله عز وجل: ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ أي وإن كان أعجبك كثرة الخبيث. ومعنى هذه الجملة الكريمة: أي ولزواجكم من امرأة مملوكة مؤمنة خير من زواجكم من امرأة حرّة نسيبة حسيبة مشركة وإن كانت هذه المرأة المشركة أعجبتكم لجمالها ولحسبها ونسبها، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن زواج الحرّ المسلم من الأمة إنما يكون عند عدم قدرته على الزواج من حرة عفيفة حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهنّ أجورهنّ بالمعروف محصناتٍ غيرَ مسافِحاتٍ ولا مُتَّخِذاتِ أخدان فإذا أُحْصِنّ فإنْ أَتَيْنَ بفاحشة فعليهنّ نصفُ ما على المحصَنات من العذاب ذلك لمن خَشِيَ العَنَتَ منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾ وإنما اشترط الإسلام في نكاح الأمة المؤمنة هذه الشروط لأن

الإسلام يكـره الرّق لـلإنسان والمعلـوم أن أولاد الحرّ من الأمة المملـوكة لغيره يكونون أرِقّاء لأهل الأَمَة، إذ أن من مقررات الشريعة الإسلامية أنّ الولد يتبع خير الأبوين دينا، ويتبع الأم حرية ورِقًّـا، وقد بشّر رسول الله ﷺ من كانت له أمـة مسلمة فأعتقها وتزوجهـا بأنّ له أجرين، فقـد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنه: «ثلاثـة يُؤْتَوْنَ أجـرهم مرتين: رجل من أهل الكتـاب آمن بنبيـه وأدرك النبيّ ﷺ فآمن بـه واتّبعه وصـدّقه فلـه أجران، وعبد مملـوك أدّى حقّ الله تعالى وحقّ سيـده فله أجران، ورجل كانـت له أمة فغَذَاها فأحسن غـذاءها ثم أدّبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتـزوجها فلـه أجران». وقـوله عـز وجل: ﴿ولا تُنكحوا المشركين حتى يـؤمنوا﴾ أي لا تُـزوّجـوا يـا أولياء النسـاء كـافرا حتى يـرجع عن كفـره ويدخل في دين الإسـلام، فلا يجوز أن يتـزوّج رجل من الكفار امـرأة مسلمة أبدا، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج من الكافر ألبتّة على اختلاف أنـواع الكفرة سواء كـان وثنيا أو كتـابيا أو مجوسيا أو صـابئا أو ملحدا أو غير هؤلاء ولا تتزوج المسلمة إلا مسلما، وقد ألحق أهلُ السنة أهلَ الأهـواء المعادين لبعض أصحـاب رسول الله ﷺ بهؤلاء في بـاب النكاح فـلا يجيزون تزويج امرأة من أهل السنة لرجل من أهل الأهواء كما أنهم يحرمون أكل ذبائحهم كذلك تعزيرا، وقولـه عز وجل: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ أي ولو زوجتم مملوكا مـؤمنا المرأة المسلمة هو خير من المشرك الحر الحسيب النسيب وإن كـان أعجبكم في حسبـه ونسبـه، فهـو عنـد الله لا يساوي شيئا، وليس هذا حضّـا على تزويج المملوك المسلم من الحرة المسلمة وإنما هو لبيان أن المسلمـة لا تكون فراشا لكـافر أبدا، وفي قولـه عز وجل: ﴿ولا تُنكحـوا المشركين﴾ إشارة إلى أن المرأة لا تـزوج نفسها، ولا تـزوج المرأةُ المرأةَ، وأنه لا بد من الولي في عقد النكـاح، ولا بد أن يكون الولي رجلا، قال

البخـاري في صحيحه: بـاب من قـال: لا نكاح إلا بـولي لقول الله تعـالى: ﴿وإذا طلقتم النسـاء فبلغن أجلهن فـلا تَعْضُلُوهنّ﴾ فـدخل فيـه الثيب، وكـذلـك البكـر، وقـال: ﴿ولا تُنكحـوا المشركين حتى يـؤمنـوا﴾ وقـال: ﴿وأنكحوا الأَيامى منكم﴾ ثم ساق من طريق عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن النكاح في الجاهلية كـان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكـاح النـاس اليـوم يخطب الرجـل إلى الرجـل وليّته أو ابنتـه فيُصْـدِقُهـا ثم يَنْكِحُها، ونكاحٌ آخر كان الرجل يقـول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمْثها: أرسلي إلى فلان فاستَبْضِعِـي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبـدا حتى يتبين حملها من ذلك الـرجل الـذي تَسْتَبْضِعُ منـه، فإذا تبيّن حملهـا أصـابها زوجهـا إذا أحبّ، وإنما يفعل ذلك رغبـة في نجـابـة الـولـد فكان هـذا النكـاح نكـاح الاستبضـاع، ونكاح آخـر يجتمع الرهط مـا دون العشرة فيدخلـون على المرأة كلهم يصيبهـا فإذا حملت ووضعت ومـرّ ليـال بعـد أن تضع حملهـا أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعـوا عندهـا، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقـد وَلَدْتُ، فهو ابنك يا فلان، تُسَمِّي من أحبّت بـاسمه فيَلْحَقُ بـه ولدهـا، لا يستطيع أن يمتنع بـه الرجل، ونكـاح الـرابع: يجتمع النـاس الكثير فيدخلـون على المرأة لا تمنع من جـاءهـا وهُنّ البغايا كُنّ يَنْصِبْنَ على أبوابهن رايـات تكون عَلَمًـا فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حَمَلَتْ إحـداهن ووضعت حملهـا جُمِعُـوا لها ودَعَـوْا لهم القافـة ثم ألحقـوا ولدها بالذي يرون فالْتَاطَتْه به ودُعي ابنَه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كلّه إلا نكاح الناس اليوم. ثم ساق البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها تفسيرهـا لقوله تعالى: ﴿وما يُتْلَى عليكم في الكتـاب في يتامى النسـاء﴾ ثم ساق البخـاري من حـديث ابن عمر قصـة عـرض عمـر رضي الله عنـه على عثمان و أبي بكـر رضي الله عنهما الـزواج من

حفصة رضي الله عنها حين تأيمت من ابن حذافة السهمي، ثم ساق البخاري من حديث معقل بن يسار قصة نزول قوله تعالى: ﴿فلا تَعْضُلُوهن﴾ قال الحافظ في الفتح: استنبط المصنف هذا الحكم من الآيات والأحاديث التي ساقها لكون الحديث الوارد بلفظ الترجمة على غير شرطه اهـ. وقوله عز وجل: ﴿أولَئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ أي هؤلاء الذين نهيتكم أيها المؤمنون عن مناكحتهم لا يألونكم خبالا ويتسببون في دخولكم النار، والله يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة ويسبب لكم المغفرة بما أذِنَ لكم فيه، والله يوضح لكم أدلة سعادتكم في الدنيا والآخرة، لتتعظوا وتعتبروا .

قال تعـالى: ﴿ ويسألونـك عن المحيض قل هو أذى فـاعتزلـوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله، إنّ الله يحب التوابين ويحبّ المتطهرين﴾

في هـذا المقـام الكريـم من كتاب الله عـز وجل يـرسم الله تبـارك وتعـالى للمـؤمنين منهج الرشـد في مسألـة تتكرر في جميع الأعصـار والأمصار، وقـد اضطربت فيهـا الأمم اضطرابا شديـدا، وساروا فيها على مناهج متنـاقضة، وهي صلة الرجل بحليلته الحائض، فقـد كان اليهود والمجوس يخرجونها من منازلهم ويعـزلونها عن فراشهم عـزلا كامـلا، وكان النصارى لا يفـرقون بين الطُّهْر والحيض فكان النصراني يقـارف زوجته وهي حائض ولا يعتبر الحيض شيئا، وكان العرب من أهل يثرب وما جـاورها قد استنّوا في هذا الباب بسنة اليهود فكانوا يتجنّبون مؤاكلة الحائض ومساكنتها، فهدى الله الذين آمنوا إلى الحق وأرشدهـم إلى الصواب الذي لا يحرمهـم من متعةٍ حـلال، ولا يعرض المرأة لمهونـة لا حاجـة لها ألبتّة، وفي نفس الـوقت يحمي الرجل مـن التعرض لأذى قـد يجلب لـه الأمراض والأسقـام. فقـد روى مسلم في صحيحـه من حديث أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حـاضت امرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعـوهن في البيـوت، فسأل أصحـابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنـزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فـاعتزلوا النساء في المحيض﴾ إلى آخر الآيـة، فقال رسـول الله ﷺ: «اصنعوا كلّ شيء إلا النكـاح»، فبلغ ذلك اليهود، فقالـوا: ما يريد هذا الـرجل أن يدع من أمرنا شيئـا إلا خالفنا فيه، فجاء أُسَيْد بن حُضَيْر وعَبَّاد بن بِشْر فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكـذا أفلا نجامعهنّ؟ فتغيّر وجـه رسول الله ﷺ حتى ظننّا أنْ قـد وَجَد عليهما، فخرجـا، فاستقبلهما هديّـةٌ من لبنٍ إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما

فسقاهما، فعرفا أن لم يَجِدْ عليهما. اهـ وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى قد ذكر قوله عز وجل: ﴿يسألونك﴾ في الآية الثامنة والثمانين بعد المائة، وفي الآية الخامسة عشرة بعد المائتين، وفي الآية السابعة عشرة بعد المائتين، وفي صدر الآية التاسعة عشرة بعد المائتين بدون أن تسبقها الواو، ثم ذكرها ثلاث مرات مسبوقة بالواو، والظاهر أن هذا التغاير في الأسلوب يشعر بأن الأسئلة التي وردت بدون واو العطف وقعت في أزمنة متغايرة حيث يقع كلّ سؤال في وقت على حدة، أما هذه الأسئلة الثلاثة التي اقترنت بواو العطف فقد وقعت كلها عند السؤال عن الخمر، والمحيض قد يستعمل بمعنى الحيض ويستعمل بمعنى مكان الحيض، وقد أكّد الفخر الرازي أن المراد بالمحيض في الآية هنا مكان الحيض لا نفس الحيض، قال رحمه الله: إذ لو كان المراد بالمحيض ههنا الحيض لكان قوله: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ معناه: فاعتزلوا النساء في الحيض، ويكون المراد: فاعتزلوا النساء في زمان الحيض، فيكون ظاهره مانعا من الاستمتاع بها فيما فوق السّرّة ودون الركبة، ولما كان هذا المنع غير ثابت لزم القول بتطرّق النسخ أو التخصيص إلى الآية، ومعلوم أن ذلك خلاف الأصل، أما إذا حملنا المحيض على موضع الحيض كان معنى الآية: فاعتزلوا النساء في موضع الحيض، ويكون المعنى: فاعتزلوا موضع الحيض من النساء، وعلى هذا التقدير لا يتطرق إلى الآية نسخٌ ولا تخصيصٌ، ومن المعلوم أن اللفظ إذا كان مشتركا بين معنيين وكان حمله على أحدهما يوجب محذورا، وعلى الآخر لا يوجب ذلك المحذور فإنّ حمل اللفظ على المعنى الذي لا يوجب المحذور أولى، هذا إذا سلّمنا أن لفظ المحيض مشترك بين الموضع وبين المصدر مع أنّا نعلم أن استعمال هذا اللفظ في الموضِع أكثر وأشهر منه في المصدر. اهـ والحيض هو دم معروف كتبه الله عز وجل على النساء، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

خرجنا مع النبي ﷺ لا نرى إلا الحجّ فلما كنت بِسَرِف حِضْتُ فدخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قال: «مالَكِ ؟أنَفِسْتِ؟» قلت: نعم، قال: «إن هذا أمرٌ كتبه الله على بنات آدم فاقضي ما يقضي الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت». الحديث، وقد جعل الله تبارك وتعالى للحيض صلة وثيقة بعملية التناسل، وهو أمارة بارزة من أمارات بلوغ المرأة، كما أن انقطاعه لغير مرض دليل على بلوغ المرأة سن اليأس، ودم الحيض يتميز عن سائر الدماء التي تراها المرأة، فهو دم أسود خاثر ثخين تعلوه حمرة كأنه محترق من شدة حرارته، يخرج برفق ولا يسيل سيلانا، له رائحة كريهة تخالف سائر الدماء. وكل دم تراه المرأة مخالفا لهذه الصفة لا يكون دم حيض. وقد روى أبو داود والنسائي من حديث فاطمة بنت أبي حبيش رضي الله عنها أنها كانت تُسْتَحاض فقال لها النبي ﷺ: «إذا كان دم الحيض فإنه دم أسود يُعْرَف فإذا كان ذلك فأمسكي عن الصلاة، فإذا كان الآخر فتوضئي وصلّي، فإنما هو عِرْق» وقد صحح هذا الحديث جماعة من أهل العلم بأخبار رسول الله ﷺ.

وقوله عز وجل: ﴿قل هو أذى﴾ يعني أخبر يا محمد السائلين عن المحيض وقل لهم: مباشرة الرجل زوجته في مكان حيضها يعني في قُبلها هو ضرر وقذرٌ ولا شك أنّ هذا الفعل قد يسبّب لفاعله أمراضا خطيرة قد تنغّص عليه عيشه وتسبّب له آلاما وبثوراً تجلب له الإزعاج، وقد علم بالاستقراء التام أن الله عز وجل ما نهى عن شيء إلا لما فيه من المضار وما أمر بشيء إلا لما فيه من المنافع والخير. وقوله عز وجل: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي فتجنّبوا قربان الحائض في محل حيضتها أي في فرجها. وقوله عز وجل: ﴿ولا تقربوهنّ حتى يطهرن﴾ هو تفسير وتأكيد لقوله عز وجل: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي ولا تباشروهن في فروجهن ولا تدنوا من مكان الحيض في زمان الحيض حتى ينقطع دم حيضهن. وقد بيّن رسول الله ﷺ ما يحلّ للرجل

من زوجته وهي حائض، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كـان رسول الله ﷺ يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض. كما روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حـديث ميمـونـة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان النبي إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرهـا فاتزرت وهي حائض. وقـد صرح رسول الله ﷺ كذلك بما يحل للرجـل من زوجته وهي حـائض فقال: «اصنعوا كـل شيء إلا النكاح» كما تقدم في حديث أنس في سبب نـزول هذه الآية. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿فإذا تطهـرن فأتوهن من حيث أمـركم الله﴾ أي فإذا انقطع دم حيضهن واغتسلن من الحيض فقد أبيح لكم منهن مـا كان محظورا عليكم بسبب الحيض حيث أذن الله لكم في مقارفة نسائكم طاهرات نظيفات من الأذى. وكان رسول الله ﷺ يأمر النساء عند الاغتسـال من الحيض أن يأخذن شيئا يسيرا من المسك يتطيبن به، فقـد روى البخاري ومسلم من حديث عائشـة رضي الله عنها أن امـرأة سألت النبي ﷺ عن غُسلها من المحيض فأمـرها كيف تغتسل قـال: «خذي فِرْصـة من مِسْك فتطهّري بها» قالت: كيف أتطهـر؟ قال: «تطهّري بها» قالت: كيف ؟ قال: «سبحان الله تطهّري» فاجتبذتها إليّ فقلت: تتبعي أثر الدم . وفي رواية لمسلم من حديـث عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت أسماء بنت شَكَلٍ على رســول الله ﷺ فقـالت: يـا رســول الله كيف تغتسل إحـدانا إذا طهـرت من الحيض؟ فقـال: «تأخذ إحـداكن مـاءها وسِـدْرَتها فتطَهّر فتحسن الطّهور ثم تَصُبّ على رأسها فتَـدْلُكُه دَلْكا شديدا حتى تبلغ شئـون رأسهـا ثم تصب عليهـا الماء ثم تأخـذ فِـرْصـة مُمَسَّكـة فتطهّـر بها». الحديث. كما روى مسلم من حـديـث أم سلمـة رضي الله عنهـا أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إني امرأة أشدّ ضَفْـر رأسي فأَنقضه للحيضة والجنابة؟ قـال: «لا». هـذا ولا شك أن الحائض لا تحل لها الصـلاة حتى تغتسل من

حيضتها، فعليها بمجرد انقطاع الدم عنها أن تغتسل كاغتسالها للجنابة، وهي كذلك ممنوعة من قراءة القرآن حتى تطهر من الحيض. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ أي إن الله عز وجل يرضى عن عباده الرجاعين إلى مرضاته الواقفين عند حدوده التائبين من ذنوبهم ومعاصيهم مهما عظمت، وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلا، ولله المثل الأعلى، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مَهْلَكَةٌ ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومةً فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى اشتد عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده» وفي رواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأَيِسَ منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بِخِطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح» وفي قوله عز وجل: ﴿ويحب المتطهرين﴾ لفت انتباه الناس إلى أن الله يبغض من يقارف زوجته وهي حائض لأن هذا الفعل قذارة يبغضها الله عز وجل ولذلك حرّمها، والتطهر هو التنزه عن الأقذار والأذى، وهو معنوي وحسّي، فالمعنوي: هو التطهر من الشرك وسائر المعاصي، والحسّي: هو الوضوء والغسل وإزالة النجاسة من البدن والثوب، ولذلك لا يقبل الله صلاة أحد إلا أن يكون طاهر الثوب والبدن والمحل، وقد بشر رسول الله ﷺ المتوضئ بمغفرة خطاياه، فقد روى مسلم من حديث عثمان بن عفّان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن

الـوضوء خـرجت خطايـاه من جسده حتى تخرج من تحت أظفـاره» كما روى مسلم من حديث أبي مـالك الأشعري رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «الطُّهُـور شطر الإيمان». كما روى مسلم من حـديث عمر رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قال: «مـا منكم من أحـد يتـوضأ فيُسْبغُ الـوضوء ثم يقـول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء».

قال تعالى: ﴿نساؤكُم حَرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدّموا لأنفسكم، واتقوا الله واعلموا أنّكم ملاقوه، وبشّر المؤمنين* ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرّوا وتتّقوا وتصلحوا بين الناس، والله سميع عليم﴾.

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى منهاج السعادة في معاملة الزوج لزوجته الحائض، وحذّر أشد التحذير من قربانها في مكان الحيض زمان الحيض، ذكر هنا أن الزوجة كالحرث لزوجها، وأنه له أن ينتفع بحرثه على أي وجه يحبّ ما دام في حدود ما أذن الله عز وجل له فيه، مبطِلاً بذلك عقيدةً يهوديّةً منحرفة عن الحق منغمسةً في الخرافة حيث كان اليهود يعتقدون أن مقارفة الرجل لزوجته وهي باركة كالساجدة يجعل الولد الذي تنجبه من هذا الوقاع أحول، وقد تأثر العرب من سكان يثرب بهذه الخرافة اليهودية، فكانت المرأة اليثربية تمنع زوجها من مقارفتها على هذه الصفة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول، فنزلت الآية ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ زاد مسلم في رواية عن الزهري: إن شاء مُجَبِّيَةً، وإن شاء غير مُجَبِّيَةٍ غير أن ذلك في صمام واحد. وقد روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكتُ، قال: «وما أهلكك؟» قال: حوّلْتُ رَحْلي البارحة، قال: فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئا، قال فأوحي إلى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ قال: «أقبِلْ وأدْبِر، واتق الدّبُر والحيْضَة». ومعنى قوله في الحديث: «مُجَبِّيَة» أي باركة كهيئة الساجدة، وقوله: غير أن ذلك في صمام واحد. أي في منفذ واحد وهو القبل إذ هو

موضع الحرث، وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ في كتابه أحكام القرآن: قال النسائي عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر: قد أُكْثِرَ عليك القول، إنك تقول عن ابن عمر: إنه أفتى بأن يأتوا النساء في أدبارهن، قال نافع: لقد كذبوا عليّ، ولكن سأخبرك كيف كان الأمر؟ إن ابن عمر عرض المصحف يوما، وأنا عنده أسمع، حتى بلغ: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ قال: يا نافع هل تعلم ما أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: كنّا معشر قريش نُجَبّي النساء، فلما دخلنا المدينة، ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن ما كنا نريد من نسائنا، فإذا هنّ قد كرهن ذلك وأعظمنهُ، وكان نساء الأنصار إنما يُؤْتَيْنَ على جنوبهن، فأنزل الله سبحانه: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾. وقوله عز وجل: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ أي وليكن همّكم هو طاعة الله عز وجل والانتهاء عما نهاكم عنه ولا يكن همّكم مجرد قضاء الشهوة، واطلبوا من الله عز وجل أن يرزقكم الذرية الصالحة التي ينفعكم الله بها في حياتكم وبعد موتكم، واحرصوا على ذكر الله عند قربانكم نساءكم ليحفظ لكم ما يرزقكم من ذريتكم، فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث منها: ولد صالح يدعو له، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفعُ به، أو ولدٍ صالح يدعو له» كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد في ذلك لم يضرّه شيطان أبدا» وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله﴾ أي واحذروا بأسه وعقوبته لمن يخالف أمره ويقع في معاصيه، وقوله عز وجل: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ أي وأيقنوا أنكم

ستقفون بين يديه يوم الحساب ، وسيجزي كل عـامل بما عمل، كما قال عز وجل : ﴿وما تقـدِّمـوا لأنفسكـم من خير تجدوه عنـد الله هـو خيرا وأعظم أجرا﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي وأخبر يا محمد المستجيبين لله ورسولـه بأن الله أعد لهم في جنـات النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشر من الجزاء الحسن الجميل، وتذييل الآيـة الكريمـة بهذا للفت انتبـاه المؤمنين حتى يكـونـوا على حذرٍ شـديـد فيما يكـون بينهم وبين نسائهم وأن يخافـوا الله عز وجل ويـراقبوه في كل شأن من هـذه الشؤون التي أوضحتها هذه التعاليم الإلهية ليندرجوا في سلك المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فـإنه يراهم . وقوله عز وجل : ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضةً لأيمانكم أن تَبَروا وتتقوا وتصلحـوا بين الناس﴾ لما أمر الله تبارك وتعالى بأبواب الخير المتقـدمة من الإنفـاق في سبيله ، والإنفاق على الـوالدين وذوي القـربي واليتـامى والمسـاكين وابن السبيل وحسن عشرة النسـاء، وحـذّر من معاصيـه كشرب الخمر ولعب الميسر وأنواع القمار وقربـان النساء في المحيض أو مكـان محذور، وكـان بعض النـاس قد يلعب بـه الشيطـان فيحملـه على الحَلِف بـالله أن لا يفعل الخير من بر الـوالدين وصلـة الأرحام والإحسـان إلى الأيتـام أو المسـاكين أو يحملـه الشيطـان على الحلف أن يفعـل معصيـة من المعاصي ، فنهى الله عز وجل المؤمنين أن يحلفـوا بالله أن لا يفعلوا الخير أو أن يحلفوا بالله أن يفعلوا المعاصي ، يقال : هـذا عُرْضة لكذا أي معترض مانع منه كما يقـال : هذا عُـرْضةٌ لك أي عُـدّةٌ تبتذلـه في كل ما يَعِنّ لك ، وقـوله عـز وجل : ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ أي ولا تجعلوا الحلف بـالله مانعا معترضـا بينكم وبين ما يقـربكم إلى الله عز وجل من فعل الخيرات تعتلّـون به أن لا تفعلـوا الخير أو تعتلون بـه في قطيعة رحم أو عمل شر. أو : لا تكثروا من الحلـف فتجعلون الحلف على ألسنتكم

في كل كبيرة وصغيرة وتجعلـونه مبتـذلا حتى يوصـف الواحـد من هؤلاء بأنـه حـلاّف ، وقد كـره الله ذلك وعدّه في جملـة الصفات المذمـومة حيث قـال : ﴿ولا تُطع كلَّ حلاَّف مَهِين﴾ وقد أوصى رسول الله ﷺ من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها أن يفعل الذي هـو خير وأن يكفر عن يمينه ، وأن هذا أحبّ إلى الله عـز وجل من الاستمســاك بـاليمين في عمل الشر، فقـد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال لي رسـول الله ﷺ : «و إذا حلفتَ على يمين فرأيتَ غيرهـا خيرا منها فأت الـذي هو خير وكفّر عن يمينك» . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعـري رضي الله عنـه أن رســول الله ﷺ قـال : «إني والله إن شـاء الله لا أحلف على يمين ثم أرى خيرا منهـا إلا كفّـرت عن يميني وأتيتُ الـذي هـو خير» . كما روى مسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفّر عن يمينه ، وليفعل الذي هـو خير» . كما روى البخاري ومسلم مـن حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لأن يَلَجَّ أحدكم في يمينه في أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطي كفـارته التي فرض عليـه» . أي إنّ أحدكم إذا حلف على الإساءة لأهلـه فإن تماديه على ذلـك واستمراره عليه أكبر إثما وأعظـم معصية من الحنث في يمينه والتكفير عنها ، وقد تفضل الله عز وجل فأرشد المسلم إذا حلف على شيء يحول بينـــه وبين الأعمال الصـــالحة إلى أن يعمل الأعمال الصالحة ويكفّـر عن يمينه حيث يقول عـز وجل : ﴿قد فـرض الله لكم تَحِلَّة أيمانكم ، والله مـولاكـم وهـو العليم الحكيم﴾ كما أرشـد الله تبـارك وتعـالى المؤمنين إلى عـدم الإكثار من الحلف وإلى عـدم ابتذال اليمين والتّلفظ بـه في كل سـاعة حيث يقـول عـز وجل : ﴿واحفظـوا أيمانكم﴾ ، والعرب تمتـدح الرجل بقلة أيمانه حيث يقول كُثيِّر:

قليـــل الألايا حافــظ ليمينــه وإنْ صَــدَرَتْ منه الألِيــّة بَــرَّتِ

ولا شك أن الإنســان إذا تعوّد كثرة الحلف فـإنه لا يستطيع المحـافظة على يمينـه، ولذلك ربط الله عـز وجل بين وصف الرجل بكـونه مهينـا أي حقيرا وبين كثرة الحلف حيث يقول: ﴿ولا تُطِعْ كل حـلاّف مهين﴾ وقد أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى أنهم لا ينبغي لهم أن يحلفوا على ترك فعل الخير حتى لو حصلت لك إسـاءة ممن تفعل الخير معه فإنـه لا ينبغي لك أن تحلف على قطع الخير عنه وفي ذلك يقول الله عـز وجل: ﴿ولا يَأْتَلِ أُولُواْ الفضل منكم والسَّعَـة أن يؤتـوا أولي القـربى والمسـاكين والمهاجـرين في سبيل الله ولْيَعْفُـوا ولْيَصْفَحوا، ألا تحبّون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم﴾ وقد نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنـه وقد كان ينفق على مِسْطَح بن أُثاثة لقـرابته وفقره فلما عَلِمَ أنـه كان ممن يتحـدث بحديث الإفك الـذي جاء بـه عدو الله رأس المنافقين عبـدالله بن أُبَيّ ابن سَلُـول حلف أبو بكـر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح وقال: والله لا أنفق على مسطح شيئـا أبدا. فقـد روى البخاري من حديث الصـديقة بنت الصـديق حبيبة رسول الله ﷺ عـائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في قصة الإفك ونزول القرآن في براءتها قالت: فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصـديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منـه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قـال لعائشة مـا قـال، فأنزل الله: ﴿ولا يـأتل أولواْ الفضـل منكم والسعة أن يـؤتـوا أولي القربى والمسـاكين والمهاجـرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحـوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ قال أبو بكر: بلى والله إني أحبّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مِسْطَح النفقـة التي كان ينفق عليـه وقال: والله لا أنزعهـا منه أبدا. اهــ وقولـه عـز وجل: ﴿والله سميع عليم﴾ أي والله عـز وجل سميع لأقوالكم عليم بنيّاتكم لا يخفى عليه شيء من شؤونكم وأحوالكم فراقبوا الله عز وجل في جميع أعمالكم.

قال تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولّكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور حليم﴾

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يجعلوا الله عرضةً لأيمانهم أن يبرّوا ويتّقوا ويصلحوا بين الناس بيّن هنا أن الله عز وجل لا يؤاخذ المؤمنين باللّغو في أيمانهم ولكن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم، والأيمان جمع يمين وهو الحَلِف والقسم، والأيمان تنقسم بالنسبة للمحلوف به إلى قسمين: قسم لا يجوز بحال من الأحوال فهو محظورٌ أبدا لا يحل لمسلم أن يتلفظ به مهما كان لأنه شرك بالله وهو الحَلِف بغير الله كالحلف بالنبي أو الوليّ أو الكعبة أو المَلَك أو المِلك أو الأب أو الأم أو الولد أو البلد أو غير ذلك من كل ما سوى الله عز وجل وقد سماه رسول الله ﷺ كفرا وشركا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب في رَكْب وعمر يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ نهى عنها، لا ذاكرًا ولا آثِرًا. اهـ وقول عمر رضي الله عنه: لا ذاكرًا ولا آثرا، يعني لا أحلف أنا بها ولا أنقل عن غيري أنه حلف بها. كما روى مسلم من حديث عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم». كما روى الترمذي وحسّنه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك. كما روى أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون». كما روى أبو داود بسند صحيح من حديث بُرَيْدة رضي الله عنه

أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بالأمانـة فليس منا» وقد حذرت الشريعة الإسلاميـة أشد التحـذير مـن الشرك ووسائلـه ، والشرك نوعـان: أكبر وهو الذي يُخْرج من الملّة ومن مات عليه خُلّد في النار، وشرك أصغر وهو لا يُخْرج عن الملّة، وصاحبـه لو مات عليه لا يُخلّد في النار لكنه داخـل في عموم قوله عز وجل: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفـر ما دون ذْلك لمن يشاء﴾ ومن الشّرك الأصغـر الحَلِف بغير الله، وهـو أكبر من القتل والـزنـا وشرب الخمـر والسرقة لأن الله تعـالى لا يغفر الشرك إلا بتـوبة بخـلاف سائر المعـاصي التي دون الشرك فإنها تحت مشيئة الله إن شـاء عَذب عليهاو إن شاء عفـا عنها ولو بـدون توبـة من العـاصي، كما هو صريح الآيـة، أمَّـا قَسَم الله تبارك وتعـالى بمصنوعاته ومخلوقاته للدلالة والتنبيه على عظيم قدرته وجليل نعمته وعظمته فليس من هذا القبيل لأن الله تعالى لـه أن يُقْسِم بما شاء، ولا يدخل في شيء من القياس مع خَلْقـه تبارك وتعالى. وأمـا ما جاء في لفظ في إحـدى روايات حديـثٍ: «أفلح وأبيه إن صـدق» فقد قـال ابن عبد البر: هـذه اللفظة غير محفوظـة من وجه صحيح فقد رواه مالـك وغيره من الحفاظ فلم يقولوهـا فيه اهـ يعني لم يـذكـروا لفظة: وأبيـه، وإنما لفظـه: «أفلح إن صـدق»، وفي روايـة: «أفلح والله إن صـدق». قـال الحافظ ابن حجـر في فتح البـاري في كتاب الأيمان: وأما ما وقع مما يخالف ذلك كقـوله ﷺ للأعرابي: «أفلح وأبيه إن صـدق»، فقد تقـدم في أوائل هذا الشرح في بـاب الـزكاة من الإسـلام في كتـاب الإيمان الجواب عن ذلك وأن فيهم من طعن في صحـة هذه اللفظـة، قـال ابن عبـد البر: هذه اللفظـة غير محفـوظـة وقد جـاءت عن راويها وهـو إسماعيل بن جعفر بلفظ: «أفلح والله إن صدق»، قال: وهذا أولى مِن رواية مَن روى عنه بلفظ: أفلح وأبيـه، لأنها لفظة منكرة تردّهـا الآثار الصحاح، ولم يقع في رواية مالك أصـلا اهـ أما القِسْم الثاني من أقسـام اليمين بالنسبة

للمحلوف بـه فهو الحَلِف بـالله عز وجل بذاتـه المقدسـة أو باسم من أسمائه الحسنى أو بصفة من صفاته العلى، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول يمين اللغو والثاني اليمين المنعقـدة والثالث اليمين الغَمُوس، أمـا يمين اللغو فهو ما يجري على اللسان من الحلف بغير قصـد القَسَم كقول الإنسان: لا ولله، بلى والله، ممـا يجري على لسـان الإنسان بغير إرادتـه ولا يقصـد منـه اليمين، وكذلك أن يحلف الإنسـان على شيء يظنّه كما قال والواقع بخلافـه كأن يرى شخصا قادمـا من بعيد فيظنّه محمدا مثلا فيقول لشخص معـه: هذا محمد، فيقول له صـاحبه: لا، هذا إبراهيم، فيحلف بالله أنه محمـد بناء على غالب ظنه، ثم يتبين أنه إبـراهيم فهذا كذلك من يمين اللغـو، وقد روى البخاري عن عـائشـة رضي الله عنها في قـولـه تعـالى: ﴿لا يـؤاخذكم الله بـاللغـو في أيمانكم﴾ قالت: هـو قول الرجل: لا والله، وبلى والله. ومعنى قولـه تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يعاقبكم الله ولا يحمّلكم إثما ولا كفارة بما يقع منكم من الأيمان لغـوًا، وأصل اللَّغْو واللَّغَا: ما لا يعتـدّ به من الكلام وغيره، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال الراغب: هو في الأصل ما لا يعتـدّ به من الكلام، والمراد بـه في الأيمان ما يورد من غير رَوِيّـة فيجري مجرى اللَّغَـاء وهو صـوت العصـافير اهـ أمّـا اليمين المنعقـدة فهي أن يحلف الإنسـان على شيء يفعلـه أو أن يحلف على شيء أن لا يفعلـه، فإن حَنِث في يمينـه بأن فعل مـا حلف أن لا يفعلـه أو لم يفعل ما حلف أن يفعلـه، فقـد أوجب الله عليـه الكفـارة، وقـد ذكر الله تبـارك وتعـالى يمين اللغـو واليمين المنعقدة في كتابه الكريم هنـا وفي سورة المائدة حيث قال: ﴿لا يؤاخذكم الله بـاللغو في أيمانكم ولَٰكن يـؤاخذكـم بما عَقَّدتم الأيمانَ فكفـارتُه إطعـامُ عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكـم أو كسوتُهم أو تحريرُ رقبة فمن لم يجد فصيام ثـلاثة أيام ذٰلك كفارة أيمانكم إذا حَلَفتم، واحفظـوا أيمانكم، كذٰلك

يبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ وقوله عز وجل في آية المائدة: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدتم الأيمان﴾ يفسر قوله عز وجل هنا: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ فالقلب هو الملك الذي تصدر الأقوال والأفعال عنه فإذا لم يعلم الإنسان ما يقول لم يكن ذلك صادرا عن القلب بل يجري مجرى اللغو، والشارع لم يرتب المؤاخذة إلا بما اجتمع فيه كَسْب القلب وقَصْده مع عمل الجوارح. وهذا من فضل الله وإحسانه وجوده أن لا يؤاخذ الناس إلا بما كسبت قلوبهم، وأن يعفو عما وقع منهم من اللغو في أيمانهم، أما يمين الغَموس فهي أن يحلف الإنسان كاذبا، ولا يكون إلا على شيء مضى كأن يحلف على شيء أنه ما فعله وهو قد فعله أو أن يحلف على شيء أنه فعله وهو لم يفعله. وسميت هذه اليمين الكاذبة الفاجرة يمين الغَموس لأنها تَغْمِس صاحبها في نار جهنم، وهي لا كفارة لها إلا النار أو عَفْو الجبار، وتُسمّى أيضا اليمين الصّبر واليمين الفاجرة، واليمين الكاذبة واليمين الزور، وهي من أكبر الكبائر فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ إلى آخر الآية. كما روى مسلم من حديث أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حقّ امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة». فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا؟ قال: «وإن كان قضيبا مِن أراكٍ». كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغَموس». وفي رواية له أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله» قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين

الغمـوس»، قلت: وما اليمين الغمـوس ؟ قال: «الـذي يقتطع مال امـرئ مسلم» يعني بيمين هـو فيها كـاذب. اهـ ومع أن اليمين الغمـوس من أكبر الكبائر فإنها أصغـر من الحَلِف بغير الله لأنه شرك بـالله. ولا شك أن اليمين الغموس تدع الـديار بَلاقِع وقد جـرت العادة أن الله يعجّل بهلاك أصحاب اليمين الغموس، فقـد روى البخاري من حـديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن أول قَسَامـة كانت في الجاهلية لفينا بني هـاشم، كان رجل من بني هاشم، استأجـره رجل من قريش من فخذ أخـرى فانطلق معه في إبلـه فمر رجل به من بني هاشم قد انقطعت عُرْوة جُـوَالقه، فقال: أَغِثْني بعِقال أشدّ به عروة جُوالقي، لا تَنْفر الإبل، فأعطاه عِقالا فشدّ به عروة جُوالقه فلما نزلوا عُقِلَت الإبل إلا بعيرا واحـدا، فقال الـذي استأجـره: ما شأن هـذا البعير لم يُعْقَلْ من بين الإبل؟ قال: ليس له عِقال، قال: فأين عقـاله؟ قال: فحذفه بعصا كان فيها أجله، فمرّ به رجل من أهل اليمن، فقال: أتشهد الموسم؟ قال: مـا أشهد، وربما شهـدته، قـال: هل أنت مُبْلِغٌ عني رسالـةً مرةً من الـدهـر؟ قـال: نعم. قـال: فكنـت إذا أنت شهـدت الموسم فنـاد: يـا آل قـريش، فإذا أجابـوك فناد: يـا آل بني هـاشم، فإن أجابـوك فسل عن أبي طـالب فأخبره أنّ فلانـا قتلني في عِقـال، ومات المستأجَـر، فلما قدم الـذي استأجـره أتاه أبو طـالب فقال: مـا فعل صاحبنـا؟ قال: مـرض فأحسنت القيام عليه فَـولِيتُ دَفْنَه، قال: قد كـان أهل ذاك منك، فمكث حينا، ثم إن الرجل الـذي أوصى إليه أن يُبْلِغَ عنه وافى الموسم، فقال: يـا آل قريش، قالوا: هذه قريش، قال: يا آل بني هـاشم، قالوا: هذه بنو هاشم. قال: أين أبو طالب؟ قالوا: هذا أبو طـالب. قال: أمرني فلان أن أبلغك رسالة، أنّ فلانا قتله في عِقال. فأتاه أبو طالب فقال له: اختر مِنّا إحدى ثلاث، إن شئت أن تـؤدّي مـــائة من الإبل فإنك قتلتَ صـاحبنـــا، وإن شئت حلف

خمسون من قـومك إنك لم تقتله ، فإن أبيتَ قتلنـاك به ، فأتى قـومه فقـالوا : نحلف ، فأتتـه امـرأة من بني هـاشم كانـت تحت رجل منهم قد ولـدت لـه فقالت : يا أبا طـالب أُحب أن تُجيز ابني هذا برجل من الخمسين ، ولا تصبر يمينه حيث تُصْبَر الأيمان ففعل ، فأتاه رجل منهم فقال : يا أبا طالب ، أردتَ خمسين رجلا أن يحلفوا مكـان مائة من الإبل يصيب كلَّ رجل بعيران ، هذان بعيران فـاقبلهما عني ولا تصبر يميني حيث تُصْبَر الأيمان ، فقبلهما ، وجـاء ثمانية وأربعون فحلفـوا . قال ابن عباس : فوالذي نفسي بيـده ما حال الحول ومن الثمانيـة والأربعين عينٌ تَطْرِف . اهــ وتذييل الآيـة الكـريمـة بقولـه عـز وجل : ﴿والله غفور حليم﴾ لتقريـر مضمون قوله عـز وجل : ﴿لا يؤاخذكم الله بـاللغو في أيمانكم﴾ مع إفـادة أن مغفرة الله وحلمـه هي أساس صفحـه عنكم وتـرك مؤاخذتكـم باللغو في أيمانكم ، وقبـول الكفارة فيما عَقَّـدتم من الأيمان تيسيرا في التشريع ورفعا للإصْر و الأغلال عنكم .

قال تعالى: ﴿للـذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعـة أشهرٍ فإن فاءُوا فإنّ الله غفور رحيم* وإن عزموا الطلاق فإنّ الله سميع عليم﴾ .

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يجعلـوا الله عرضة لأيمانهم أن يبرّوا ويتقوا ويصلحـوا بين الناس، وبيّن أنـه لا يؤاخـذ المؤمنين باللغـو في أيمانهم وإنما يؤاخـذهم بما كسبت قلوبهم، ذكر هنا نـوعا خاصا من الأيمان وهـو ما كان أهل الجاهلية يحلفون فيه على عدم قـربان نسائهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿للذين يُؤْلُون من نسائهم تَـرَبُّص أربعة أشهر﴾ والإيلاء في اللغة مشتق من الأَلِيَّة وهي اليمين، والجمع أَلايا على وزن عَطَايا كما قال كُثَيِّر:

قليــل الألايـا حافــظ ليميـنه فإن سَــبَقَتْ منه الأَلِيَّــة بَرَّتِ

وكما قال الشاعر:

فآليت لا أنفك أَحْذُو قصــيدة تكون وإياها بها مثَـلا بعــدي

وكما قال الأعشى :

فآليت لا أَرْثِي لها من كَـلالَــة ولا من حفًى حتى تلاقي محمدا

ومنه الحديث: آلى رسول الله ﷺ من نسائه شهرا. أي حلف على اعتزالهن وعـدم الدخـول عليهن لمدة شهـر. أمـا الإيلاء في الاصطـلاح الشرعي فهـو الحَلِف على ترك قربان الزوجة مدة تزيد على أربعة أشهر، وقد كان الإيلاء في الجاهلية لونا من ألـوان الأذى والإضرار بالمرأة حيث يحلف عليها الزوج أن لا يَمَسَّهـا لمدة قد تصل إلى السنـة والسنتين فـرفع الإسلام عن المرأة هـذا الأذى حيث ضرب للـرجل المؤلي أجلا هـو أربعة أشهـر إن رجع في أثنائهـا وقارف زوجتـه فليس عليـه سـوى كفـارة يمين ويستغفـر الله، وإن لم يَقْـرَبْها حتى مضت أربعة أشهر اعتُبِرَ عازما على الطلاق وأُلْزِم به. ولا يحل له بعد الأربعة الأشهر إلا أن يُمْسِك بمعروف أو يفارق بإحســان. فرفع الإسلام بهذا الحكم

عبئـا ثقيلا كـانت تنوء بـه المرأة في الجاهلية ويُسَخِّـره الرجـال في العبث بهن والنّيل منهن، فلله الحمـد وله الشكر، قال البيهقي: أخبرنـا أبو الحسين بن بشران ببغداد، أنا أبو جعفر محمد بن عمـرو الرزاز، نا محمد بن عبيد الله بن المنادي، نا يـونس بن محمد، نا الحارث بن عبيد، نا عـامر عن عطاء بن أبي ربـاح، عن عبـد الله بن عبـاس رضي الله عنهما ح وأخبرنـا أبـو الحسين بن الفضل القطان ببغداد، نا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عَمْرَوَيْه الصفار، نا محمد بن إسحاق الصغاني، نـا موسى بن إسماعيل، نا الحارث (بن عبيد) أبو قدامة حدثني عامـر الأحول حدثني عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، فوقّت الله عز وجل لهم أربعة أشهر، فإن كان إيلاؤه، (وفي رواية يونس: فمن كان إيلاؤه) أقلّ من أربعـة أشهر فليس بإيـلاء اهـ وقولـه في الحديث: كان إيـلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، أي كـان الرجل في الجاهلية قبل أن تشرق شمس الإسـلام إذا أراد أن يلحق الأذى والإهـانـة والإضرار بـزوجتـه حَلَف أن لا يَقْرَبَها مـدة طويلة قد يصل بها إلى سنـة وقد يصل بها إلى سنتين وقد يصل بها إلى أكثر من ذلك إمعـانا في الأذى وإغراقا في الإهانـة، وقوله: فوقّت الله عز وجل لهم أربعة أشهر، أي فجعل الله تبارك وتعالى للمؤلين من نسائهم وقتا محدّدا هـو أربعة أشهر يُوقَفُ بعـدها المؤْلي حتى يفيء إلى زوجته أو يطلّقها، وقد جاء ذلك التوقيت في قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر﴾ وقولـه في الحديث: فإن كان إيلاؤه أقلّ من أربعة أشهر فليس بإيـلاء، أي فإن كان حلف أن لا يقـرب زوجتـه مدّة تقل عن أربعـة أشهـر فلا سبيل لأحـد عليه؛ لأن المرأة قـد تتحمل ذلك بلا كبير ضرر فـلا يعتبر ذلك إيلاء بالمعنى الـذي ذكرته الآية الكريمة، لأن الآيـة ذكرت الإيلاء بـالمعنى الشرعي لا بـالمعنى اللغـوي الـذي هـو مطلق الحَلِف. وقـد قـال

الشـافعي رحمه الله : أنا ابـن عيينة عن يحيى بن سعيـد عن سليمان بن يسـار قال : أدركت بضعة عشر من الصحابة أي من أصحاب رسول الله ﷺ كلّهم يقـول : يُوقَفُ المؤلي . قـال الشافعي رحمه الله : فأقل بضعـة عشر أن يكونـوا ثلاثة عشر اهـ وقد قال البخاري في صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر﴾ إلى قوله : ﴿سميع عليم﴾ فإن فاءوا : رجعوا . ثم ساق من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : آلى رسول الله ﷺ من نسائه ، وكانت انفكت رجله ، فأقـام في مَشْرُبة له تسعا وعشرين ثم نزل ، فقالـوا : يا رسول الله آليْتَ شهرا؟ فقـال : «الشهر تسع وعشرون» . ثم سـاق البخـاري من طـريق نافع أن ابـن عمر رضي الله عنهما كـان يقـول في الإيـلاء الـذي سمّى الله تعـالى : لا يحلّ لأحـد بعـد الأجل إلا أن يُمْسك بالمعروف أو يعزم بالطلاق كما أمر الله عز وجل . ثم ساق البخاري من طريق نافع أيضا عن ابن عمر: إذا مضت أربعـة أشهر يُوقَف حتى يطلّق ، ولا يقع عليه الطـلاق حتى يطلّق ، ثم قال البخاري : ويـذكر ذلك عن عثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشـة واثني عشر رجلا من أصحاب النبي ﷺ . اهـ وقوله في حديث أنس : وكانت انفكت رجله ، أي بسبب سقوطه ﷺ عن الفرس وقد صلى بأصحابه جالسـا ، ومن العجيب إيراد البخاري رحمه الله حديث أنس رضي الله عنـه تحت قولـه تعالى : ﴿للـذين يـؤلون من نسـائهم تربّص أربعـة أشهـر﴾ لأن حـديث أنس ليس الإيلاء فيـه من قبيل الإيـلاء الاصطـلاحي الشرعيّ بل هو من قبيل الإيـلاء اللغوي إذ أن رسول الله ﷺ لم يحلف على أن لا يَقْرَب نساءه بالمعنى الشرعي للإيلاء ، بل المراد هو الحلف مطلقا دون إرادة عدم مبـاشرتهن وقربـانهن ، قال الحافظ ابن حجـر رحمه الله في فتح الباري : وأنكـر شيخنا في (التـدريب) إدخـال هـذا الحديث في هـذا الباب فقـال : الإيلاء المعقود له الباب حرام يأثم به من علم بحاله فلا تجوز نسبته للنبي ﷺ

اهـ وقد جاء في حديث البخاري ومسلم قصة اعتزال رسول الله ﷺ نساءه لمدة شهر وأنّ ذلك كان لمَوْجِدَة عليهن بسبب تَحَزُّبِهِن وتظاهر بعضهن على سائر نساء رسول الله ﷺ وإكثارِهن من سؤاله النفقة، ولم يثبت أن رسول الله ﷺ حرّم نساءه على نفسه قط، والصحيح الثابت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك، والله غفور رحيم﴾ هو أن رسول الله ﷺ قد حرّم على نفسه العسل بسبب قول بعض نسائه رضي الله عنهن له ﷺ: أكلت مغافير، وكان يكره أن يوجد منه ريح غير محبوبة ﷺ والمعروف في ريح المغافير أنها شبيهة بريح الخمر وكان رسول الله ﷺ قد شرب عسلا عند بعض نسائه فغارت بعض زوجاته، وقُلْن هذه المقالة حتى لا يشرب عسلا عند التي كانت تسقيه هذا العسل من نسائه كما هو ثابت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها. وتحديد أربعة أشهر للذين يؤلون من نسائهم تشريع الحكيم العليم الذي يعطي كلّ ذي حق حقّه، إذ أن هذه الأشهر الأربعة قد عُرِف من عادة النساء أن المرأة قد تصل في صبرها على زوجها إلى هذه المدة دون أن يلحقها كبير ضرر، ويقف عندها صبر المرأة غالبا، كما أن من حق الرجل أن يؤدب زوجته بهجر مضجعها كما قال عز وجل: ﴿واللاّتي تخافون نشوزهنّ فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان عليّا كبيرا﴾ وقد جعل الله تبارك وتعالى الحد الأقصى للهجر أربعة أشهر، فرض عليه بعدها الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان، وقد روى مالك في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل، فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسوَدَّ جانِبُه ... وأرّقَني ألاّ خليل أُلاعِبه

فوالله لولا الله أني أُراقبه ... لحُرّك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر، فقال عمر رضي الله عنه: لا أحبس أحدا من الجيش أكثر من ذلك. وقد ذكر القرطبي في قصة عمر رضي الله عنه وسماعه لشعر هذه المرأة أنه لما كان من الغد استدعى عمر بتلك المرأة وقال لها: أين زوجك؟ قالت: بعثتَ به إلى العراق، فاستدعى نساء فسألهن عن المرأة: كم مقدار ما تصبر عن زوجها؟ فقلن: شهرين، ويقل صبرها في ثلاثة أشهر، وينفد صبرها في أربعة أشهر. فجعل عمر مدة غزو الرجل أربعة أشهر. اهـ وقد يستفاد ذلك من قوله عز وجل: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ أي جُعِل للذين يحلفون بالله عز وجل على عدم قربان نسائهم انتظار أربعة أشهر توسعة عليهم هذه المدة، وقوله عز وجل: ﴿فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾ أي فإن رجعوا عن يمينهم وقارفوا نساءهم في مدة التربّص واختاروا طريق البرّ وكفّروا عن يمينهم استرشادا بقول رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه» كما مرّ في تفسير قوله عز وجل: ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ فإنّ من فاء من الأزواج الذين يؤلون من نسائهم بهذه المثابة فإن الله عز وجل غفور رحيم، يغفر له زلاته ويتجاوز له عن هفواته وهو رحيم بعباده، ولذلك شرع لهم هذا الشرع الحكيم الذي يجلب لهم سعادة الدارين، وقد اشتمل على الرحمة والإحسان للزوجة والزوج جميعا. وقوله عز وجل: ﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾ أي وإن قصدوا الطلاق وأصروا على عدم قربان نسائهم بعد مدة التّربّص المحدّدة بأربعة أشهر وجب على الحاكم الشرعي إيقافه وسِجْنه حتى يُجبَرَ إما على الإمساك بمعروف ومباشرة زوجته وإما على التسريح بإحسان وإلزامِه بالطلاق، فإن امتنع عن الطلاق في هذه الحالة طلّق عليه الحاكم طلقة واحدة. وبهذا تحفظ الشريعة الإسلامية للمرأة حقّها ولا تهضم

حقّ الرجل لكنها تمنعه من التعسف والجور في حق زوجته، ولا شك أن هذا النظام الذي شرعه الله عـز وجل هو أكمل الأنظمة في كل شيء، ولعل نساء المسلمين يشكرن الله عز وجل على هذه النعمة الجليلة التي صان بها كرامتهن ودفع الأذى بها عنهن، وليس في قولـه عز وجل: ﴿وإن عزموا الطـلاق﴾ ما يفيد أن مجرد نية الطـلاق تكون طلاقا، إذ أن المراد هـو أنه إذا أصر المؤلي على عدم الفيئة كان قصده الإضرار بالمرأة فَيُجْبَرُ إما على الفيئة وإما على الطلاق، فإذا قصد الطلاق وصمَّم عليه وطلّق فإن الله لا تخفى عليـه خافية منه أو من غيره، والإسلام لا يعتبر نيّـة الطلاق طلاقـا، فلا يقع الطلاق بمجـرد العزم عليه ونيتـه بل لا بد من التلفظ بـه وهذا من دفع الإصْـر عن المسلمين، أما عند اليهود فإنه متى نوى اليهودي الطـلاق حرمت عليه امرأته بمجرد النية، ووجب عليـه تنفيذ مـا عزم عليـه في الحال. والطلاق في اللغـة هو الإرسـال والتخلية، وفي الاصطلاح هو حَلّ عقدة النكاح وفكّ رابطة الزوجية. ونظام الطلاق في الإسـلام لا نظير له عند جميع الأمم فهـو أعدلها وأدقها وأوفـاها، حيث كـان اليهـود يطلقـون لعذر ولغير عـذر، كما أن الطـلاق مشروع عنـد النصارى وإن كـانوا اقتصروا في إباحتـه على علة الـزنا واستباحـوه في عصرنا لأتفه الأسباب، وكان أهل الجاهلية لا يقفون عند حدّ في الطلاق، فجاءت شريعة الإسـلام وحددت حق الرجل بثلاث تطليقـات، وحضته على الصبر على مـا قـد يكـره من زوجتــه، وأوصت بالإصـلاح عنـد النـزاع بين الـزوجين. والمسْتَقْرِئ لـوصـايا الإسـلام في هـذا الباب يعلم أن الطـلاق في الإسلام ليس من الأمـور المحبوبة وأنه عنـدما تسوء العلاقـة بين الزوجين إلى حـد يتعذر الصلح فيـه يصبح الطـلاق من مقتضيـات الفطرة للخـروج من نحس الدنيا ونكدها على حد قول الشاعر:

ومِن نكَد الدنيا على الحُر أن يَرى ... عـدوًّا له مـا مِـنْ صداقته بُـدّ

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وإن يتفرقا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِن سَعَتِهِ﴾.

قال تعـالى : ﴿والمطلقات يتربّصن بأنفسهن ثلاثـة قروء، ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحـامهن إن كنّ يؤمنّ بـالله واليوم الآخـر، وبعولتهن أحق بردّهن في ذٰلك إن أرادوا إصـلاحا، ولهنّ مثل الذي عليهن بـالمعروف، وللرجال عليهن درجةٌ، والله عزيز حكيم﴾

بعد أن بيّن الله عز وجل حكم الإيلاء ومـا أوجبه فيه على الزوج من الفيئة إلى قُربان زوجته أو إلزامه بالطلاق شرع يبيّن أحكام الطلاق، وبدأها بإيجاب العدة على الـزوجة، حيث قـال عز وجل : ﴿والمطلقـات يتربّصن بأنفسهن ثلاثة قُرُوء﴾ ولا شك أن الرجل لو قـال لامرأة قبل أن يتزوّجها : أنت طالق، ثم تزوجهـا، فلا عبرة بطلاقـه هذا ولا عـدة عليها من هذا الطـلاق الباطل بإجماع أهل العلم، وإذا طلّق الرجل زوجته التي لم يدخل بها فلا عدة عليها كـذلك لقولـه تبـارك وتعالى : ﴿يـا أيها الـذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنـات ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسّـوهنّ فما لكم عليهنّ من عِدّة تَعْتَـدُّونها فمتّعوهنّ وسرّحوهن سراحا جميلا﴾ أما إذا كانـت المطلقة مدخولا بها فهي إما أن تكون حائلا أو حاملا، فإن كانت حاملا فعدّتها بوضع الحمل لقوله تبارك وتعالى : ﴿وأُولاتُ الأحمال أجلُهن أن يضَعْن حَمْلَهن﴾ وأمـا إذا كانت المطلقـة حائلا فإما أن تكون من ذوات الحيض، وإما أن تكون ممن لا تحيض، إمّا لصِغَرِها وكونها لم تبلغ، وإما لكونها قد تقدمت بها السّن ويئست من المحيض، فإذا كانت المطلقة لا تحيض إما لصِغَر وإما لكِبَر فعدتها بالأشهر لا بالأقراء لقوله تبارك وتعـالى : ﴿واللائي يَئِسْن من المحيض من نسـائكم إن ارتبتم فعِدَّتهن ثـلاثة أشهـر واللائي لم يَحِضْـن﴾ أي واللائي لم يحضـن أصـلا لصغـر أو لمرض فعِدّتهن ثلاثة أشهر كذلك كـاليائسة، وإذا كانت المطلقة المدخول بها أمةً من ذوات الحيض فعدتها حيضتان، وإذا كانت حرّة فعدتها ثلاثة قروء،

وهي المرادة بقوله تبارك وتعالى هنا : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قُرُوء﴾ ومعنى : ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ أي تنتظر إحداهن بعد طلاقها من زوجها ثلاثة قروء لا يحل لها أن تتزوج في مدة هذه القروء الثلاثة ، وأسند التربص والانتظار لهن لأنهن هُنّ اللائي يعلمن قروءهنّ متى تجيء ومتى تنتهي ، والمعنى : فعليهن عدّة من الطلاق مقدارها ثلاثة قروء لا يحل لهن فيها الزواج من غير المطَلِّقين لهنّ ، ولفظ القُرْء من الأضداد ، فالعرب يستعملونه بمعنى الحيض ويستعملونه بمعنى الطُّهْر ، والسياق هو الذي يحدد المراد ، فإن من سمع قول الأعشى ميمون بن قيس :

وفي كل عام أنتَ جاشمُ غزوةٍ   تشدّ لأقصاها عزيم عزائكا
مُورِّثةٍ مالاً وفي الذكر رِفْعة   لما ضاع فيها من قروء نسائكا

علم يقينا أن الأعشى يريد بالقروء في شعره هذا الأطهار ، لأنه يمدح هَوْذة بن على الحنفي الذي آثر الغزو على القعود حتى ضاعت أيام الطّهر من نسائه ، كما أن من سمع قول الله عز وجل : ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهن ثلاثة أشهر﴾ علم أن الله عز وجل أقام الأشهر الثلاث مقام الحيضات الثلاث عند اليائسات من المحيض ، ولما كان الغرض من العِدَّة هو استبراء الرحِم ، واستبراؤه إنما يكون بالحيض لا بالطهر ، كان ذلك دليلا ظاهرا على أن المراد بالقروء في قوله عز وجل : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ أي ثلاث حيض ، وهذا بخلاف من تعتد بالأشهر فإن الرجال والنساء في علمه سواء . وقوله عز وجل : ﴿ ولا يحل لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كُنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ فيه إشعار بأن المرأة جُعِلَتْ أمينة على عدتها ، لأن انقضاء العدة مبني على انقضاء القروء الثلاثة في حق ذوات الأقراء ، وعلى وضع الحمل في حق الحامل ، وقد يخفى على الرجال علم ذلك بل يتعذر الوصول

إليه من طريق الرجال غالبا، وإنما المرأة هي الخبيرة به لذلك جُعِلَتْ أمينة فيه مع تخويفها من الله عز وجل بقوله: ﴿إن كُن يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ كما قال عز وجل: ﴿فإن أَمِنَ بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانته وليتق اللهَ ربَّه﴾ وكما قال عز وجل في حق مريم: ﴿فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها رُوحَنا فتمثّل لها بَشَرا سويا* قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا﴾. والذي يمكن أن تكتمه المرأة مما خلق الله في رحمها يشمل دم الحيض كما يشمل الحمل، إذ قد تكون لها مصلحة في كتمان شيء من ذلك، قال الفخر الرازي: أما كتمان الحبل فإنّ غرضها فيه أنّ انقضاء عدّتها بالقروء أقلّ زمانا من انقضاء عدتها بوضع الحمل فإذا كتمت الحَبَل قصّرت مدة عدتها فتتزوج بسرعة، وربما كرهت مراجعة الزوج الأول وربما أحبت التزوج بزوج آخر أو أحبت أن يلتحق ولدها بالزوج الثاني فلهذه الأغراض تكتم الحَبَلَ، وأما كتمان الحيض فغرضها فيه أن المرأة إذا طلقها الزوج وهي من ذوات الأقراء فقد تحبّ تطويل عدتها لكي يراجعها الزوج الأول، وقد تحبّ تقصير عدّتها لتبطيل رجعته، ولا يتمّ لها ذلك إلا بكتمان بعض الحيض في بعض الأوقات، لأنها إذا حاضت أولا فكتمته ثم أظهرت عند الحيضة الثانية أن ذلك أوّل حيضتها فقد طوّلت العدة، وإذا كتمت أن الحيضة الثالثة وُجِدَتْ فكَمِثْلٍ، وإذا كتمت أن حيضها باقٍ فقد قطعت الرجعة على زوجها فثبت أنه كما أَنّ لها غرضا في كتمان الحَبَل فكذلك في كتمان الحيض فوجب حمل النّهي على مجموع الأمرين. اهـ فمعنى: ﴿ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أي ولا يجوز للمرأة أن تخفي شيئا مما أوجد الله تبارك وتعالى في رحمها من حيض أو ولد، والأرحام جمع رَحِم وهو بيت مَنْبِت الولد ووعاؤه، ولا شك أن الحيض دم يخرج من الرحم، كما أن الولد يخرج منه، وقوله عز وجل: ﴿إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ هو تهديد ووعيد شديد

لمن تكتم من النساء شيئـا مما خلق الله في رحمهـا لتتلاعب بعِـدَّتها كما تشاء، وكأنه يقول: إن المؤمنة بالله واليوم الآخر لا تكتم شيئا مما خلق الله في رحمها، وليس المراد أن ذلك النهي مشروط بكـونها مـؤمنـة. وقـولـه عـز وجل: ﴿وبعولتهن أحق بردّهن في ذُلك إن أرادوا إصلاحا﴾ البُعُولة جمع بَعْل والمراد به هنـا الزوج، إذ البعل في الأصل يستعمل في الأرض المرتفعة تمطـر في السنة مـرّة، وكل نخل وشجـر وزرع لا يُسْقَى، أو مـا سقته السماء، والـذّكَـر من النخل، والسيـد والـزوج، وقـد أجمع علماء المسلمين على أن الحرّ إذا طلّق زوجته الحرة تطليقـة أو تطليقتين طلاقا رجعيًّـا وكان قـد دخل بها فهو أحقّ برجعتها ما لم تنقض عدتها، سواء كـانت راضية أو كارهة ولا يحتاج إلى عقد جديد أو مهر جديد أو وليّ، فإن لم يراجعها المطلّق حتى انقضت عدّتها فهي أحقّ بنفسها وتصير أجنبيـة منه، لا تحل له إلا برضـاها وبعقد جديـد ومهر جديد ولا بـد في ذلك من الولي، قال القرطبي: وهـذا إجماع من العلماء قال المهلب: وكلّ من راجع في العدة فإنـه لا يلزمه شيء من أحكـام النكاح غير الإشهاد على المراجعـة فقط وهذا إجماع من العلماء لقولـه تعالى: ﴿فإذا بلغن أجَلَهن فأمسكـوهنّ بمعـروف أو فـارقوهـن بمعروف وأشهـدوا ذَوَيْ عَـدْلٍ منكم﴾ فذكـر الإشهاد في الرجعـة ولم يذكره في النكاح ولا في الطـلاق. قال ابن المنذر: وفيما ذكـرناه من كتاب الله مع إجماع أهل العلم كفايـة اهـ ومعنى قوله عز وجل في آية سورة الطلاق: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي قارَبْنَ انقضاء عـدّتهن وهــو شبيـه بقـولــه تعـالى: ﴿وإذا طلقتم النســاء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعـروف﴾ فقد أجمع العلماء على أن قوله: ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قــاربن الخروج من عــدّتهن، إذ بعــد بلــوغ الأجل والخروج من العدة لا خيار للزوج في الإمســاك، ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿وبُعـولَتُهن أحق بِـرَدِّهن في ذُلك﴾ يشمل بعمـومـه مـراجعَتَهـا في العـدة

ومـراجعَتَها بعـد انقضـاء العـدة، وقد علمـت أن الإجماع منعقد على أنـه لا يملك عليها حقّ الـرجعة بعد انقضـاء العدة، فيكـون هذا العموم مـرادًا به الخصوص وهـو أحقيته في رجعتهـا قبل انقضاء عـدتها، على أن قولـه تبارك وتعالى: ﴿والمطلقـات يتربصن بأنفسهن ثـلاثة قـروء﴾ يشمل المطلقة ثـلاثا ويشمل مـا دون الثلاث بـلا خلاف عنـد أهل العلم. وقـوله تعـالى: ﴿إن أرادوا إصلاحا﴾ أي وللأزواج حقّ الرجعة على زوجاتهم المطلقات ما دُمْن في العدّة وما دام الرجل يريـد من رجعتها الإصلاح ودفع الضرر عنها، وقد أراد الله عز وجل بـذلك لفت انتباه الناس إلى مـا كانت تقاسيـه المرأة في الجاهلية حيث كـان الـرجل إذا أراد الإضرار بـالمرأة طلقهـا فإذا قـاربت عـدّتها على الانتهاء راجعها ثم طلقها مرة ثانية فإذا أوشكت العدة من الطلاق الثاني على الانتهـاء راجعهـا قبل أن تنتهي العـدة واستأنف طلاقـا ثـالثـا فإذا أوشكت عدتها من الطلاق الثـالث على الانتهاء راجعها واستأنف طـلاقا رابعا، فإذا أوشكت عـدتها من الطـلاق الـرابع على الانتهاء راجعهـا واستأنف طـلاقـا خـامسـا وهكـذا ولو بلغ مئـات المرات فتصير كـالمعلقـة لا يطلقهـا فتبتغي الأزواج ولا يؤويها كذوات الأزواج. فأكّد الله تبارك وتعالى على الأزواج الذين طلقـوا نساءهم وأرادوا الـرجعـة قبل انقضـاء العدة أنـه إنما يحل لهم ذلك إن أرادوا إصلاحـا ورغبوا في إقامـة بيت الزوجيـة السعيد، أما إذا كـان مرادهم الإضرار بـالـزوجـة والتنكيل بها فإن ذلك يـوقع مَن فعلـه في الـذنب والإثم والمعصية، وإن كان له الحق في ذلك قضاء لأن مـا في قلبه من النية السيئة لا يَطَّلع عليه إلا الله عز وجل، ولذلك أكّد الله تبـارك وتعالى هذا المعنى بقوله: ﴿ ولا تمسكوهـن ضِرارًا لتعتدوا﴾. وقولـه تعالى: ﴿ولهن مثل الـذي عليهن بالمعروف وللـرجال عليهن درجة﴾ يفيد أن للنسـاء على أزواجهن حقوقا وأن للأزواج على زوجاتهم حقوقا بالمعـروف، وأن للرجال على النساء درجة، وقد

بين رسـول الله ﷺ مـا للـرجل على المرأة ومــا للمـرأة على الـرجل فقـد روى الترمذي وصححه من حديث عمـرو بن الأحوص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « ألا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقّكم على نسـائكم فـلا يـوطئن فُـرُشَكـم من تكـرهـون، ولا يأذَنَّ في بيـوتكم لمن تكرهـون، ألا وحقّهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسـوتهن وطعامهن» . كما روى أبو داود والنسائي بسند حسن عن معاوية القُشَيْري رضي الله عنه قال: قلت: يارسـول الله ما حقّ زوجـة أحدنـا عليه؟ قـال: «تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الـوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت» .

كما روى البخاري ومسلـم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بـالنساء خيرا» الحديث. كما روى مسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يفـرك مؤمن مؤمنـة، إن كره منها خلقا رضى منهـا آخر» . كما روى مسلم من حديث جـابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخـذتموهن بأمـان الله واستحللتم فـروجهن بكلمـة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرُشَكم أحدا تكرهونـه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مُبَـرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسـوتهنّ بـالمعـروف» . كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبـان، لعنتها الملائكة حتى تصبح» . وقد جعل الله عز وجل للرجال على النساء درجة وهي كـونه قَوَّامًا عليها كما قال عز وجل: ﴿الرجـال قَوَّامُون على النســاء بما فضَّل الله بعضَهم على بعض وبما أَنفقوا من أموالهم﴾، وتذييل الآية بقوله عـز وجل: ﴿والله عزيز حكيم﴾ لتربية خوف الله في قلوب الرجال والنساء ليؤدي كل واحـد ما عليه من الحق خوفا من الله ورجاءَ ما عنده من المثوبة .

قال تعالى: ﴿ الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾

لقد وضع الإسلام للمسلمين أكمل المناهج في شئون الحياة الزوجية وغيرها، وقد أقرت الشريعة الإسلامية مبدأ الطلاق إلا أنها وضعت لهذا المبدأ قيودا تحدّ من استعماله والاستهتار به، فقد قسمت الشريعة الإسلامية الطلاق إلى قسمين: طلاق السنة وطلاق البدعة، فطلاق السّنة أن يطلّق الرجل امرأته في طهر لم يَمْسَسْها فيه أو أن تكون حاملا تطليقة واحدة رجعية، ثم لا يتبعها بطلاق آخر، حتى تنقضي عدّتها، وله الحق في رجعتها متى شاء قبل أن تنقضي عدّتها، وإنما سمّي هذا الطلاق طلاق السنة لأنه الطلاق الذي يوافق أمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ، أما أمر الله عز وجل بذلك فهو قوله تبارك وتعالى: ﴿ ياأيها النبي إذا طلّقتم النساء فطلّقوهن لعدّتهن وأحصوا العدّة﴾ وقد فسّر هذه الآية رسول الله ﷺ وبينها بأن المقصود منها هو أن يطلّق الرجل امرأته في طهر لم يمسسها فيه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلّق امرأة له وهي حائض فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيّظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلّقها فليطلّقها طاهرا قبل أن يمسّها، فتلك العدّة التي أمر الله أن تطلّق لها النساء» وفي رواية: «مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرا أو حاملا» وفي رواية لمسلم من طريق أبي الزّبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن (مولى عزة) يسأل ابن عمر وأبو الزبير يسمع ذلك: كيف ترى في رجل طلّق امرأته

حائضا؟ فقال: طلّق ابن عمر امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال: إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض، فقال له النبي ﷺ: «ليراجعها»، فردّها، وقال، : «إذا طهرت فليطلّق أو ليمسك»، قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ : ﴿ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلّقوهن في قُبُل عدّتهن﴾ اهـ أما طلاق البدعة فهو أن يطلق الرجل امرأته وهي حائض أو يطلّقها في طهر مسّها فيه، أو يجمع لها تطليقتين أو ثلاثا في لفظ واحد، فمن طلّق طلاق البدعة عصى الله وعصى رسوله ﷺ ووقع عليه الطلاق كما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، فكان من العوائق التي جعلها الإسلام في طريق الطلاق أنه جعل طلاق السنة لا يكون إلا في طهر لم يمسّ الرجل زوجته فيه وقد قيّده بذلك، لأنه وقت تتجدد فيه الرغبة في مقارفة الزوجة وتميل إليها نفسه،

المسنون، لكنه لو خالف السنة وطلقها تطليقتين في لفظ واحد أو طلقها ثلاثا في لفظ واحد أو طلقها وهي حائض فإنّ طلاقه يقع وإن كان عاصيا آثما، فقد جاء في لفظ للبخاري من طريق شعبة عن أنس بن سيرين قال: سمعت ابن عمر قال: طلق ابن عمر امرأته وهي حائض، فذكر عمر للنبي ﷺ، فقال: «ليراجعها». قلت: تُحْتَسَب؟ قال: «فَمَهْ؟» وعن قتادة عن يونس بن جُبَيْر عن ابن عمر: قال: «مُرْه فليراجعها» قلت: تحتسب، قال: «أرأيت إن عجز واستحمق؟» وقال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال: حسبت عليّ تطليقة اهـ وقد ساق مسلم رحمه الله حديث ابن عمر بعدة ألفاظ قال: حدثنا يحيى بن يحيى وقتيبة وابن رُمْحٍ واللفظ ليحيى، قال قتيبة: حدثنا ليث، وقال الآخران: أخبرنا الليث بنُ سعد عن نافع عن عبد الله أنه طلق امرأة له وهي حائض تطليقة واحدة، فأمره رسول الله ﷺ أن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض عنده حيضة أخرى ثم يمهلها حتى تطهر من حيضتها، فإن أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء. وزاد ابن رمح في روايته: وكان عبد الله إذا سئل عن ذلك قال لأحدهم: أما أنت طلّقت امرأتك مرةً أو مرتين فإن رسول الله ﷺ أمرني بهذا، وإن كنت طلقتها ثلاثا فقد حرمت عليك حتى تنكح زوجا غيرك، وعصيت الله فيما أمرك من طلاق امرأتك. قال مسلم: جوّد الليث في قوله: تطليقة واحدة. ثم ساقه مسلم من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر وفي آخره قال عبيد الله: قلت لنافع: ما صنعت التطليقة؟ قال: واحدة اعتدّ بها. ثم ساقه مسلم من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر، وفي آخره: فكان ابن عمر إذا سئل عن الرجل يطلق امرأته وهي حائض يقول: أمّا أنت طلّقتها واحدة أو اثنتين، إن رسول الله ﷺ أمره أن

يَـرْجِعَها ثم يمهلهـا حتى تحيض حيضـة أخرى ثـم يمهلها حتى تطهـر ثم يطلقها قبل أن يمسّها، وأمّـا أنت طلّقتها ثلاثا فقـد عصيت ربّك فيما أَمرك به من طلاق امـرأتك وبانت منك. ثم ساقه مسلم من طـريق سالم بن عبد الله عن ابن عمر وفي آخره: وكان عبد الله طلقها تطليقة واحدة فحُسِبت من طـلاقها. اهـ أما مـا رواه مسلم عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: كـان الطـلاق على عهد رسـول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين مـن خلافـة عمر طـلاق الثلاث واحدة، فقـال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمر كـان لهم فيه أناة فلو أمضينـاه عليهم، فأمضـاه عليهم. فقد جـاء في بعض ألفاظ سنـد هذا الحديث مـا يدل على أنـه من الأمـور المستغربـة عنـد المسلمين، فقد أخـرج مسلم من طريق ابن جُـرَيج أخبرني ابن طاوس عن أبيه أن أبا الصهبـاء قال لابن عباس: هاتِ من هَنَاتك، ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر واحدةً؟ فقال: قد كان ذلك فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطـلاق فأجـازه عليهم اهـ فقول أبي الصهبـاء لابن عبـاس: هـات من هناتك أي أخبارك وأمورك المستغربة وهو يشعر بأن هذا الأمر وهو أن الثلاث تقع واحدة وأن عمر رضي الله عنه هو الذي جعله ثلاثا من الأمور المستغربة عند المسلمين، علما بأنه قد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يفتي بعـد موت عمـر رضي الله عنه بأن من طلق ثـلاثا بلفظ واحـد أنه تقع عليـه الثلاث، فقد أخرج أبو داود بسند صحيح من طريق مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقـال إنه طلّق امرأته ثـلاثا، فسكت حتى ظننت أنه سيردها إليه، فقال: ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس؟ إن الله قـال: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجـد لك مخرجا، عصيت ربك وبانت منك امـرأتك. وهو يوافق مـا مرّ عند مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال لمن طلق امرأته ثلاثا:

وأما أنت طلقتها ثلاثا فقد عصيت ربك فيما أمرك به من طلاق امرأتك وبانت منك. وروى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رجلا طلق امرأته ثلاثا فتزوجت فطلّق فسئل النبيّ ﷺ: أتحلّ للأول؟ قال: «لا، حتى يذوق عُسَيْلَتها كما ذاق الأول». وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ أي فعليكم أيها الأزواج إمساك زوجاتكم بالمعروف أو تسريحهن بإحسان، وهذه وصية من الله تبارك وتعالى لجميع الأزواج بحسن العشرة سواء كان الزواج ابتداء أو كان بعد طلقة أو بعد طلقتين، كما أنه وصية من الله تبارك وتعالى لجميع الأزواج عند ما يريدون تطليق نسائهم وتسريحهن أن يكون التسريح بإحسان فلا يذكرون نساءهم عند الطلاق أو بعده إلا بخير، ولا يلحقونهن بأذى من قول أو فعل، وهذه قاعدة الإسلام في الحياة الزوجية، ولا شك أنها اللّبنة الأولى في بناء البيت السعيد، وهو تأكيد لما أفاده قول الله عز وجل في الآية السابقة: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ وتأكيد هذه الوصية في حق الرجال لأنهم هم القوامون على النساء، وهم أقدر على إدارة البيت بالعشرة الحسنة وترك الإضرار، وقد أشار ابن عباس رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ بأنه الميثاق الغليظ الذي جعله الله عز وجل للنساء على الرجال في قوله تبارك وتعالى: ﴿وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: حدثني المثنّى قال: حدثنا سُوَيد بن نصر قال: أخبرنا ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ قال: قوله: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ اهـ ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن خير الناس هو خيرهم لأهله، فقد روى الترمذي بسند صحيح من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خيركم خيركم

لأهلــه، وأنـا خيركـم لأهلي». كما روى الترمـذي وقــال: حــديث حسن صحيح، من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركـم لنسائهم». وقد كان رسول الله ﷺ يحرص على مــؤانســة نســائه وإدخـال السرور عليهن، فقــد روى البخـاري ومسلم من حـديث عـائشـة رضي الله عنهـا قـالت: كنت ألعب بالبنـات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، فكـان رسول الله ﷺ إذا دخل يَنْقَمِعْن، فيُسَرِّبهن إليّ، فيلعبن معي. ومعنـى: ألعب بـالبنـات، تعني اللعب التي تلعـب بها الصَّبِيَّـة. وقـولها: ينقمعـن، أي يستترن حيـاء منه، ومعنى: يسرّبهن إليّ، أي يـرسلهن سربا سربـا ويردّهنّ إلي. وقـدكان رســول الله ﷺ جميل العشرة لنسائه يضـاحكهنّ ويتلطف بهن، وقد أكـد الله تبارك وتعالى على الأزواج أن يحسنـوا عشرة أزواجهم في غير موضع من القرآن العظيم، كما قال: ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾. وقوله تعالى: ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئـا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حـدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ قد فرض الله تبارك وتعالى للنساء في النكاح صداقـا وبين أنه حق من حقوق الـزوجة لا يحل لأحد أن يأخذ منـه شيئا إلا بطيب نفس منها حيث يقـول عز وجل: ﴿وآتوا النساء صـدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا﴾ وقال عز وجل: ﴿قد علمنا ما فـرضنا عليهم في أزواجهم﴾ وقال عـز وجل: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينـا* وكيف تأخذونـه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخـذن منكم ميثاقـا غليظا﴾ وشريعة بني إسرائيل تفرض للمرأة مهرا لكنها لا تملّكه لها بالفعل إلا إذا مات زوجها أو طلقهـا لأنها في نظرهم لا يجوز لها أن تتصرف في مالها وهي

ذات زوج . وقد جعل الإسلام لحل رابطة الزوجية ثلاثة طرق، الطريق الأول الطلاق، وقد جعله الله عز وجل بيد الزوج، والطريق الثاني فسخ الحاكم لعقد الزوجية عند وجود أسباب طبيعية أو أسباب شرعية مع امتناع الزوج عن الطلاق، فالأسباب الطبيعية كعيوب الخلقة المانعة من أداء وظيفة الزوجية كالعُنّة والجَبّ ونحوهما في الرجال، والأسباب الشرعية كامتناع الرجل في الإيلاء بعد مضيّ أربعة أشهر. أما الطريق الثالث فهو ما ذكره الله عز وجل في هذا المقام الكريم من سورة البقرة وهو المعروف شرعا باسم الخُلْع الذي جعله الله عز وجل مخرجا للزوجة إذا كرهت الزوج لغير سبب من الأسباب التي تعطي الحاكم حق فسخ عقدة النكاح، وأصل الخُلْع في اللغة هو فراق الزوجة على مال، مأخوذ من خَلع الثوب لأن المرأة لباس الرجل. وإنما ضُمّت الخاء للتفرقة بين الحسّي وهو خلع الثوب والمعنوي وهو خُلع المرأة، أما الخُلع في الاصطلاح فهو فِراق الرجل زوجته بعِوَض يحصل لجهة الزوج وهو مشروع بكتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ، حيث يقول الله عز وجل هنا : ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي ولا يجوز لكم أيها الرجال أن تأخذوا من الصداق الذي أعطيتموه لنسائكم شيئا عند رغبتكم في طلاقهن بل عليكم تسريحهن بإحسان حتى لو كنتم أعطيتم إحداهن قنطارا من الذهب فلا تأخذوا منه عند طلاقهن شيئا فإنه سُحْت لا يحل إلا بطيب نفس منها، لكن إذا كان الرجل غير راغب عنها وكانت هي راغبة عنه، وصارت لا تطيعه إذا أمرها، وأصبحت عاجزة عن القيام بحقه الذي فرضه الله له عليها، ولم يصبر هو على هذا الحال، وغلب على ظنه أن إصلاحها غير قريب المنال، لأنها لا تطيق النظر إليه، ويُخْشَى على الزوج أن تندفع نفسه فيعاملها بمثل معاملتها له ويقصر في

الحق الذي طالبه الله عز وجل لها من الإمساك بالمعروف، ولكونه لا ذنب له معها فلا يُجْبَر على فراقها، وقد أحسّ بهذا الحال المصلحون من أهلها ومن أهله وصاروا يخافون من تقصير كل واحد من الزوجين في حق صاحبه مع علمهم أن المرأة قد استحكم نشوزها فعند ذلك يباح للزوج أن يأخذ منها ما دفعه لها من صداق أو نحوه تفتدي نفسها وتختلع منه بذلك. وقد نص الله تبارك وتعالى على حِلّ المال الذي يأخذه الزوج من زوجته المختلعة في هذه الآية الكريمة، وقد قال البخاري في صحيحه: باب الخُلع، وكيف الطلاق فيه، وقول الله تعالى: ﴿ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله﴾ إلى قوله: ﴿الظّالمون﴾ وأجاز عمر الخلع دون السلطان، وأجاز عثمان الخلع دون عِقَاص رأسها، وقال طاوس: إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فيما افترض لكل واحد منهما على صاحبه في العشرة والصّحبة، ولم يقل قول السّفهاء: لا يحل حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة. حدثنا أزهر بن جميل حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتِبُ عليه في خُلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أتردّين عليه حديقته؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلّقها تطليقة». حدثنا إسحاق الواسطيّ حدثنا خالد عن خالد الحذّاء عن عكرمة أنّ أخت عبد الله بن أبيّ بهذا وقال: «ترُدين حديقته؟» قالت: نعم، فردّتها وأمره يطلّقها. وقال إبراهيم ابن طَهْمان عن خالد عن عكرمة عن النبي ﷺ: «وطلّقها»، وعن أيوب بن أبي تميمة عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إني لا أعْتِبُ على ثابت في دين ولا خلق ولكني لا أطيقه، فقال رسول الله ﷺ: «فتردّين عليه حديقته؟» قالت:

نعم. حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخَرِّميّ حدثنا قُرَادٌ أبو نوح حدثنا جرير بن حازم عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شَمّاس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أنْقِم على ثابت في دين ولا خلقٍ، ولكنّي أخاف الكفر، فقال رسول الله ﷺ: «فترُدّين عليه حديقته؟» فقالت: نعم، فردّت عليه، وأمره ففارقها اهـ وقول البخاري: وقال طاوس: إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فيما افترض لكل واحد منهما على صاحبه في العشرة والصحبة، ولم يقل قول السفهاء: لا يحل حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة. قال الحافظ في الفتح: هذا التعليق اختصره البخاريّ من أثر وصله عبد الرزاق قال: أنبأنا ابن جريج أخبرني ابن طاوس وقلت له: ما كان أبوك يقول في الفداء؟ قال: كان يقول ما قال الله تعالى: ﴿إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله﴾ ولم يكن يقول قول السفهاء: لا يحل حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة. ولكنه يقول: إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فيما افترض لكل واحد منهما على صاحبه في العشرة والصحبة. اهـ وهو يشير إلى رد ما زعمه بعض الناس من أنّ الخلع لا يحل حتى تعصي المرأة الرجل في جميع ما يطلبه منها حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة، ولا أبرّ لك قسما، ولا أطيع لك أمرا. وقولها: لا أعتب عليه في خلق ولا دين، أي لا أطعن عليه في سلوكه وأخلاقه، فسلوكه حسن وأخلاقه مرضية، وكذلك هو مستقيم على شرع الله ودينه. وقولها: ولكني أكره الكفر في الإسلام، أي ولكني أخشى إن بقيت معه أن أسيء إليه، وأن أكفر بالعشير وأن أقصر فيما يجب عليّ القيام به من حقه، ولعلها تشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة صلاة الكسوف حيث قال رسول الله ﷺ: «وَأُرِيتُ النار فلم أر منظرا كاليوم قطّ أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء»

قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بكفرهنّ»، قيل: يكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنْتَ إلى إحداهنّ الدّهر كلّه ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط». وقوله عليه السلام: «أتردّين عليه حديقته؟» أي أترجعين إليه بستانه الذي كان دفعه لك صداقا؟ وقوله تبارك وتعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ قد ذكر الله تبارك وتعالى قوله: ﴿ حدود الله﴾ أربع مرات في هذه الآية الكريمة حيث قال: ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ وقال: ﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ ثم قال: ﴿تلك حدود الله﴾ ثم قال: ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ وهو يفيد وجوب الوقوف عند مراسيم الشريعة التي رسمها الله عز وجل لسعادة عباده، وأن يحذر المسلم حذرا شديدا من مخالفة أمر الله عز وجل والتعدي على حدوده سواء كانت حقوقا لله تبارك وتعالى أو حقوقا لخلقه، فقيام الزوجة بما عليها للرجل من حقوق هي حدود الله، وقيام الرجل بما عليه للمرأة من حقوق هي حدود الله كذلك، والصداق الذي دفعه الرجل للمرأة هو حق من حقوقها لا يجوز للرجل أن يأخذ منه شيئا بغير طيب نفس منها فإن أخذ من ذلك شيئا بغير رضاها فهو سُحْت وتَعَدٍّ على حدود الله، وإذا خافت المرأة أن لا تقوم بحق زوجها فافتدت بمال واختلعت فقبله منها وطلقها فقد حافظا على حدود الله، وإن استهواهما الشيطان وقصّر كل واحد منهما في حق الآخر وأساء العشرة فقد اعتديا على حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، ولذلك وصف من يتعدى حدوده بأنهم هم الظالمون وجمع بين النهي والوعيد للمبالغة في التحذير والتهديد حيث يقول عز وجل: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ كما أن وضع اسم الله بدل ضميره في المواضع الثلاثة الأخيرة من قوله: ﴿حدود الله ﴾ مع أن السياق يقتضي المجيء بضميره لكن مقتضى الحال من تربية المهابة والحض

على الامتثال اقتضى وضع الاسم الجليل مكان الضمير. هذا وقد وهم بعض الناس من المنتسبين للعلم فجعل الخُلْع فسخا لا طلاقا ظنًّا منه أنه لو كان طلاقا لكان للرجل أربع تطليقات بدعوى أن الله تعالى قال في صدر الآية : ﴿الطلاق مرتان﴾ ثم قال في الآية التي تليها : ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ قال : فإذا اعتبرنا الخلع طلاقا صار للرجل أربع تطليقات . وهذا فهم عاطل باطل فاسد كاسد واجتهاد مع النص ، فقد وقع التصريح في الحديث الصحيح بقوله ﷺ : «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» على أن ابن قدامة رحمه الله ذكر في المغني أن من ذكر أنه فسخ أنه أراد إذا لم يذكر طلاقا ، حيث قال رحمه الله : وهذا الخلاف فيما إذا خالعها بغير لفظ الطلاق ولم ينوه ، فأما إن بذلت له العِوَض على فراقها فهو طلاق لا اختلاف فيه اهـ وإذا كان الخلع طلاقا فإنه لا يغير ما جعل الله للرجل من التطليقات الثلاث فقط ، إذ تطليقة الخلع محسوبة من الثلاث فلو لم يكن طلقها قبل تطليقة الخلع فقد بقي له اثنتان وإن كان طلقها مرة قبلها فلم يبق له إلا تطليقة واحدة فإن طلقها قبلها مرتين كانت تطليقة الخلع متممة للثلاث فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره .

قال تعالى : ﴿فإن طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره، فإن طلّقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله، وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون* وإذا طلّقتم النساء فبلغن أجلهنّ فأمسكوهن بمعروف أو سرّحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا، ومن يفعل ذٰلك فقد ظلم نفسه، ولا تتخذوا آيات الله هزوا، واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم .﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى حكم الطلاق الذي يجوز للرجل فيه أن يراجع زوجته وهو ما كان في حدود طلقة أو طلقتين، وأشار إلى وجوب الصداق وأنه لا يحل للزوج منه شيء إلا بطيب نفس من الزوجة، وأنه يجوز للمرأة في حالة خوفها من تقصيرها في حق زوجها وهو راغب فيها أن تفتدي نفسها منه وأنه يجوز للزوج أخذ هذا العوض ليطلقها، ذكر هنا أن الرجل إذا طلق زوجته التطليقة الثالثة فإنها لا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج زوجا آخر زواجا شرعيا مستوفيا لجميع شروط النكاح، فإذا طلقها الزوج الثاني وتأيّمت بعده فللزوج الأول أن يتزوجها فقال عز وجل: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ أي فإن فارقها بتطليقة ثالثة بعد التطليقتين السابقتين سواء كانت إحدى التطليقتين السابقتين بعوض وهو الخُلع أو بغير عوض، فإنها لا تحل له بعد ذلك إلا بشرط أن تتزوج زوجا آخر يعني زواجا شرعيا، والمقصود من قوله تبارك وتعالى: ﴿حتى تنكح﴾ أي تتزوج، فالمراد من النكاح هنا العقد أي حتى يعقد عليها زوج آخر عقدا صحيحا، وكان مقتضى هذا الإطلاق أن مجرد العقد للزوج الثاني يبيحها للزوج الأول، لكنّ رسول الله ﷺ الذي أُنْزِل عليه الذكر ليبيّنه للناس قد قيّد هذا الإطلاق

فبيّن أن مجرد العقد على الثاني لا يُبيحها للأول حتى يذوق الثاني عُسَيْلتها، أي يدخل بها، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني، فبَتَّ طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزَّبِير وما معه إلا مثل هُدْبة الثوب، فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟» قالت: نعم، قال: «لا، حتى تذوقي عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتك». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رجلا طلّق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجا، فطلّقها قبل أن يمسها فسئل رسول الله ﷺ: أتحلّ للأول؟ فقال: «لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأوّل». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ وأنا جالسة وعنده أبو بكر فقالت: يا رسول الله إني كنت تحت رفاعة فطلقني فبتّ طلاقي، فتزوجتُ بعده عبد الرحمن بن الزَّبير وإنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهُدْبة، وأخذت هُدْبة من جلبابها، فسمع خالد بن سعيد قولها وهو بالباب لم يؤذن له، قالت: فقال خالد: يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ، فلا والله ما يزيد رسول الله ﷺ على التبسّم، فقال لها رسول الله ﷺ: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عسيلتك، وتذوقي عسيلته». فصار سنّة بعدُ. ولفظ مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رفاعة القُرَظِي طلّق امرأته فبتّ طلاقها فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزّبير فجاءت النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله إنها كانت تحت رفاعة فطلّقها آخر ثلاث تطليقات، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزّبير وإنّه والله ما معه إلا مثل الهدْبة، وأخذت بهدبةٍ من جلبابها، قال: فتبسّم رسول الله ﷺ ضاحكا فقال: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي

عسيلته» . وأبو بكر الصّدّيق جالسٌ عنـد رسول الله ﷺ وخالد بن سعيد بن العاص جالسٌ ببـاب الحجرة لم يؤذن له ، قال : فطفق خالـدٌ ينادي أبا بكر: ألا تـزجـر هـذه عما تجهر بـه عنـد رسـول الله ﷺ؟ . وبهذا يصير شرط زواج الرجل بمن طلقهـا ثلاثـا أن يعقد عليهـا زوج آخر يكون راغبـا فيها قـاصدا لدوام عشرتها كما هو المشروع في كل تزويج ، والشرط الثاني أن يدخل بها الزوج الثاني ويباشرهـا ، فإن قصد الزوج الثاني من الزواج بـالمرأة مجرّد تحليلها للأول صار ملعونا بلعنة رسول الله ﷺ له ، وإذا رضي الزوج الأوّل بعمل هذا الزوج الثـاني صـار هو كـذلك ملعـونـا بلعنـة رسول الله ﷺ لـه . فقـد روى أحمد والترمذي والنسائي من حـديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنـه قال : لَعَنَ رسول الله ﷺالواشمة والمستوشمة ، والواصلة والمستوصلة ، والمحَلِّل والمحَلَّل له ، وآكل الربـا ومُوكله . قال الترمذي : هـذا حديث حسن صحيح ، قال : والعمل على هذا عنـد أهل العلم من الصحابة منهم عمـر وعثمان وابن عمر وهو قول الفقهاء من التابعين ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس اهـ وقوله عز وجل : ﴿فإن طلّقها﴾ أي فإن فـارقها الزوج الثاني بعد الدخول بها وبعد مباشرتها ولم يقصد الثـاني بطلاقه إباحتها للأول وتحليلهـا له ، وقوله عز وجل : ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله﴾ أي فلا إثم ولا حرج على الـزوج الذي كـان قد طلق زوجته ثـلاثا ثم تـزوجت بعده زواجا شرعيا ودخل بها الزوج الثاني وفارقها ثم طلقها ، أن يتزوجها هذا الزوج الأول زواجـا جـديـدا إن غلب على ظن هـذين الـزوجين أن يقيما حـدود الله فيتعاشرا بالمعروف ويحسن كلّ واحد منهما صحبة الآخر، ويتّقي الله فيه ، ولا حـرج على الزوجـة في ذلك كـذلك ، وهذا مـن أعظم كوابح الطـلاق وردع الرجـال عن أن يطلقوا غير طلاق السنـة ، فإن شيم أكثر النـاس تنفر من أن تعرّض نفسهـا لمثل هذا الحال ، لـذلك تتروّى إذا أغراهـا الشيطان بـالطلاق

حذرا من أن تصير زوجتـه فراشا لـرجل آخر ولا سيّما إذا كـانت ذات عيال، فما أدق أحكام الشريعـة وما أجلّها لصيـانة البيوت وحمايـة الأسر من أسباب الانهيار. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعـروف أو سرّحـوهن بمعـروف﴾ هـذا تأكيـد لما أفـاده قـولـه عـز وجل: ﴿وبعـولتهنّ أحقّ بـردّهنّ في ذٰلك إن أرادوا إصلاحـا﴾ ولما أفـاده قـوله عـز وجل: ﴿الطلاق مرتان فإمسـاك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ وقد بينت في تفسير قوله عز وجل: ﴿وبعـولتهنّ أحقّ بردّهن في ذٰلك إن أرادوا إصلاحا﴾ أن المراد من قوله تبارك وتعالى: ﴿فبلغـن أجلهنّ﴾ في سورة الطلاق وفي قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ﴾ أي قاربن انقضاء عدّتهن، وأن العلماء قـد أجمعـوا على أن قـولـه: ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ أي قـاربن الخروج من عدّتهن إذ بعـد بلوغ الأجل والخروج من العـدة لا خيار للـزوج في الإمساك، وأن الإجماع منعقد على أنه لا يملك عليها حق الرجعة بعد انقضاء العدة وقد كرّر الله تبـارك وتعالى أمـره للرجـال بإمساك نسـائهم بالمعـروف أو تسريحهن بإحسـان لتنبيههم إلى الاعتنـاء بذلك والمبـالغـة في إيجاب المحـافظة عليـه، والحذر من الإضرار بـالمرأة، وردع الـرجـال عما كـان يفعلـه أهل الجاهليـة بنسائهم حيث كـان الواحد منهم يطلق امـرأته ثم إذا قاربت انقضـاء عدتها راجعها ثم طلقها مـرة ثانية حتى إذا قاربت عـدتها على الانقضاء راجعها ثم طلقهـا وهكذا لمجـرد إلحاق الأذى بها و إضرارهـا، فأمرهم الله عـز وجل في هذه المقامات بأنهم إذا طلق أحدهم المرأة طلاقا له عليها فيه حقّ المراجعة أن يحسن في أمـرها إذا قـاربت عـدتها على الانقضاء فإن كـان لـه فيها رغبـة في الإمسـاك راجعها وأمسكهـا بـالمعروف وأحسـن عشرتها وخاف الله عـز وجل فيها، و إن لم يكن لـه فيها رغبة تركها حتى تنقضي عـدّتها، وأحسن تسريحها فلا يذكرها إلا بخير، ولا يتحدث عنها بما تكره، بل و يمتّعها بما يستطيع من

الهدايا التي تجبر خاطرها كما قال عز وجل: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين﴾. ولذلك جاء في تخيير رسول الله ﷺ نساءه: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتّعكنّ وأسرّحكنّ سراحًا جميلا﴾ وقد أُثِرَ أن بعض السلف متّع امرأته عند تسريحها بهديّة عظيمة ثم قال لها عند مفارقتها: متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق. وقوله عز وجل: ﴿ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا﴾ تأكيد لوجوب الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان وتحذير شديد من إمساك المرأة بقصد الإضرار بها وأن من راجع امرأته في عدتها التي يملك فيها حقّ الرجعة عليها وكان قصده الإضرار بها كان معتديا ظالما آثما يعرّض نفسه لغضب جبار السموات والأرض، ولذلك أتبع الله قوله: ﴿ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا﴾ بقوله عز وجل: ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي حمّلها ما لا تطيق من غضب الله وما أعده للظالمين، وقد حرمت الشريعة الإسلامية على المسلم أن يلحق الأذى بأحد من خلق الله وأن من ضار أحدًا عاقبه الله بضرر أعظم مما ضرَّ به غيره، فقد روى أبوداود والترمذي وحسنه من حديث أبي صِرْمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ضارّ ضارّ اللهُ به، ومن شاقّ شاقّ اللهُ عليه» ولا شك أن دفع الأذى والضرر عن النفس والغير وعدم المضارّة هو من القواعد الإسلامية التي أطبق عليها علماء الإسلام مستنبطين ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ولا تمسكوهن ضِرارًا لتعتدوا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا تضارّوهن لتُضيّقوا عليهن﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا تُضَارَّ والدة بولدها ولا مولودٌ له بولده﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا يُضَارَّ كاتب ولا شهيد﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من بعد وصية يُوصَى بها أو دين غير مُضَارٍّ وصيةً من الله﴾ وقرن الله تبارك وتعالى الضرار بالكفر في قوله عز وجل: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضِرارًا وكفرا

وتفـريقا بين المؤمنين وإرصـادا لمن حارب اللهَ ورسـولـه من قبل﴾ وقد أشـار رسول الله ﷺ إلى أن دفع الأذى والضرر عن الناس من أعظم مـا يقرّب العبد إلى ربه، فقـد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وستـون أو سبعـون شعبة أدنـاهـا إماطـة الأذى عن الطريق وأرفعها قـول: لا إله إلا الله». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه عن رسول الله ﷺ أنـه قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجـد غصن شوك فأخّره فشكـر الله له فغفر الله لـه» وفي رواية لمسلم بلفظ: «لقـد رأيت رجلا يتقلب في الجنـة في شجـرة قطعها من ظهـر الطريق كانت تؤذي المسلمين». كما روى البخاري ومسلم من حديث جرير ابن عبـد الله رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: «من لا يـرحم النـاسَ لا يرحمه الله». وفي قوله عز وجل: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هُزُوًا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ مجمـوعة من التحـذيرات المتتـابعة التي يخوّف الله عـز وجـل بهـا عبـاده المؤمنين مـن التهـاون في أحكـام الله واللعب بحقـوق النساء، وعدم الانضباط في أمر الطلاق، مع تنبيههم إلى وجوب شكر نعمته على هـذه التشريعات الجالبـة لسعادة الـدارين التي جـاءت في كتابـه وعلى لسان رسوله ﷺ لإرشـاد الناس وعظتهم، والله عليم بمن يسلك سبيله ومن ينحرف عنه وهو بكل شيء عليم.

قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهنّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف، ذٰلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذالكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

في الآية السابقة بيان حكم المطلقة التي لزوجها عليها حق الرجعة لأنها لم تخرج من عدّتها من طلاق رجعي ولذلك كان توجيه الأمر الكريم من الله عز وجل للأزواج الذين يملكون حقّ الرجعة بأن يمسكوا بالمعروف قبل نهاية العدة، أو يسرّحوا بمعروف بأن يتركوا المطلقة الرجعية حتى تنتهي عدّتها وتصير أملك لنفسها، وليس لزوجها بعد خروجها من العدة حقّ الرجعة عليها إلا برضاها بعقد جديد ومهر جديد وولي، وفي هذه الآية الكريمة يوجّه الله عز وجل الخطاب لأولياء المطلّقات اللاّتي خرجن من العدة بأن لا يعضلوا من لهم عليهن ولاية التزويج إذا حصل تراض بين المرأة وزوجها الذي بانت منه بخروجها من العدة وزال ما بينهما من شقاق، ورغبا في العودة إلى الحياة الزوجية من جديد، فقال عز وجل: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تَعْضُلوهنّ أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ المراد بأزواجهن هنا أي الذين كانوا أزواجا لهن قبل خروجهن من عدة الطلاق، فإطلاق لفظ الزوج باعتبار ما كان للعلم بذلك. وقد بينت في تفسير الآية السابقة أن معنى قوله عز وجل: ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن انقضاء عدّتهن ولم تنته العدة بعد، أما قوله عز وجل في هذه الآية: ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ فإن بلوغ الأجل هنا هو الخروج من العدة تماما، والذي يحدّد المراد هو السياق الكريم لأنه قال هناك بعد قوله: ﴿فبلغن أجلهن﴾: ﴿فأمسكوهنّ بمعروف أو سرّحوهن بمعروف﴾ فدل ذلك على أن المراد من بلوغ الأجل قرب انتهائه وكان الخطاب موجّها للأزواج. وهنا يقول عز وجل

بعد قوله : ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ : ﴿فلا تَعْضُلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ فدل ذلك على أن المراد من بلوغ الأجل انتهاء العدة والخروج منها، وكان الخطاب موجّهـا للأوليـاء لا للأزواج، ولا شك أن هـذا درجة في الفصـاحة عـالية، ومنزلة في البلاغة رفيعة لا يعقلها إلا العالمون، وهو لون من الإعجاز البلاغي في القرآن العظيـم. وقد أخـرج البخاري في صحيحه أن هـذه الآية نـزلت في مَعْقِل بن يَسَـار المزَنيّ رضي الله عنـه لما طلّقت أختـه وخـرجت من عـدتها، وجاءها الخطّاب ومن بينهم زوجها الأول فـرغبت فيه وأحبت أن يعود الزواج بينهما وهَوِيَتْه وهَوِيَها فامتنع أخوهـا مَعْقِل بن يسار رضي الله عنه من تزويجها منه فنزلت هـذه الآية الكريمة، فقد روى البخـاري في صحيحه في باب من قال: (لا نكـاح إلا بولي) من طريق يونس عن الحسن: ﴿فـلا تعضلوهنّ﴾ قال: حدثني معقـل بن يسار رضي الله عنه أنها نزلت فيـه قال: زوّجت أختا لي من رجل، فطلّقهـا، حتى إذا انقضت عـدّتها جاء يخطبهـا، فقلت لـه: زوّجتك وأفرشتك، وأكرمتك، فطلّقتهـا، ثم جئت تخطبها، لا والله لا تعود إليك أبدا، وكان رجـلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن تـرجع إليه، فأنزل الله هـذه الآية ﴿فـلا تعضلـوهن﴾ فقلت: الآن أفعل يـا رسول الله، قـال: فزوّجهـا إياه. وفي رواية للبخـاري ساقها في كتـاب النكاح من طـريق قتادة قال: حـدثنا الحسن أن معقل بن يسار كانت أختـه تحت رجل فطلّقها، ثم خلّى عنها، حتى انقضت عدتها، ثم خطبها، فحمي معقل من ذلك أَنَفًا، فقال: خلّى عنهـا وهو يقدر عليها، ثم يخطبهـا، فحال بينه وبينهـا، فأنزل الله: ﴿وإذا طلقتم النسـاء فبلغن أجلهنّ فـلا تعضلوهـنّ﴾ إلى آخر الآيـة، فدعاه رسول الله ﷺ فقرأ عليـه، فترك الحميّة، واستقاد لأمر الله. اهـ وأصل العَضْل في اللسان العربي الحبس والمنع والتضييق، ولا شك أن تحريم عَضْل الولي في قوله تبارك وتعـالى: ﴿فلا تَعْضُلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا

بينهم بالمعروف﴾ هو دليل ظاهر على أنه لا بد في عقد النكاح من الولي إذ لو لم يكن الوليّ شرطا في صحة العقد لزوّجت نفسها دون الرجوع إليه وهذا يفسر قوله ﷺ: «الثّيب أحق بنفسها من وليها» الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، فإنّ لفظة أحقّ هنا للمشاركة ومعناه أن لها في نفسها في النكاح حقا، ولوليّها حقا، وحقّها أوكد من حقه فإنه لو أراد تزويجها كُفْؤًا وامتنعت لم تُجْبَر، ولو أرادت أن تتزوج كُفْؤًا فامتنع الولي أجبر على عقد النكاح لها، فإن أصرّ على عدم تزويجها وعضلها نقل الحاكم الشرعي الولاية إلى من يليه من الأولياء وسلب ولايته عليها فإن لم يكن لها وليّ زوّجها القاضي. ولا شك أن اشتراط الولي في صحة عقد النكاح هو لحماية كرامة المرأة ووقايتها من قالة السوء. فالولي شرط في صحة العقد، ورضا المرأة بمن تتزوج شرط في صحة العقد كذلك، فإن رغبت الزواج من كفء وعَضَل وليُّها انتقلت الولاية للسلطان، وإن رغبت في غير كفء كان ذلك إشارة سفه فيها، ووليّها يمنعها من ذلك حرصا على مصلحتها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ أي إذا حصل التراضي بين الأزواج والزوجات في العودة إلى الحياة الزوجية على هُدًى من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك يُوعَظُ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ في سياق بيان حكم من طلق زوجته تطليقة له فيها حق الرجعة عليها لكنه لم يراجعها حتى انقضت عدتها ثم رغبا في الزواج بعقد جديد، ونَهْي وليها من عَضْلها وهو شبيه بما ساقه في سورة الطلاق بعد بيان حكم من طلق امرأته تطليقة رجعية وأن له أن يمسكها في عدتها بالمعروف أو يتركها حتى تنقضي عدتها وتَبِين منه بالمعروف، حيث قال هناك: ﴿ذالكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾. وتخصيص هذين المقامين بالوعظ مع قوله عز وجل في الآية السابقة: ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم

به﴾ للترهيب من مخالفة هذه التعاليم الإلّهية، والترغيب في المحافظة عليها، وأصل الوعظ هو التذكير بما يليّن القلب من ثواب الله أو عقابه بطريق الترغيب والترهيب، قال ابن منظور في لسان العرب: الوَعْظ والعِظة والعَظَة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب، قال ابن سِيدَه: هو تذكيرك للإنسان بما يليّن قلبه من ثواب وعقاب، وفي الحديث: «لأجعلنّك عظة» أي موعظة وعبرة لغيرك اهـ. والخطاب بقوله عز وجل: ﴿ذٰلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ للنبي ﷺ ثم رجع إلى خطاب المؤمنين كقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها النبيّ إذا طلّقتم النساء فطلّقوهن لعدتهن وأحصوا العدّة واتقوا الله ربكم﴾ ويجوز أن يكون قوله ﴿ذٰلك﴾ بمعنى هذا، كأنه قيل: هذا البيان وهذه التعاليم ينتفع ويتعظ ويعتبر بها من كان مصدقا بالله واليوم الآخر، على أنه في سورة الطلاق قال: ﴿ذالكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فلما جعل الخطاب موجها بصيغة الجمع في سورة الطلاق لم يقل: (منكم) ولما كان الخطاب هنا موجّها بصيغة المفرد قال: ﴿من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ ولا شك أن هذا الأسلوب في القمة من الإعجاز، وهو من أَمثلة كون القرآن العظيم متشابها مثاني، وتخصيص الوعظ بمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأن المؤمنين بالله المصدقين بأنهم مبعوثون موقوفون بين يدي ربهم مجزيّون بأعمالهم هم الذين ينتفعون بالوعظ والإرشاد، وتؤثر فيهم النصيحة ويسارعون إلى العمل بوصية الله ووصية رسوله محمد ﷺ ولذلك وصف الله عز وجل القرآن بأنه هدى للمتقين، وقال عز وجل: ﴿سَيَذَّكَّرُ من يخشى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾: وكما قال عز وجل: ﴿وذَكِّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وجاءك في هٰذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾ وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك

مثلا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكَلأ والعُشْب الكثير، وكانت منها أَجَادِبُ أمسكت الماء فنفع اللهُ بها الناسَ، فشربوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قِيعَان لا تمسك ماء ولا تُنْبِتُ كَلأ، فذلك مَثَل مَن فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هُدَى الله الذي أرسلتُ به». اهـ ولما كانت الحياة الزوجية وتكوين البيت السعيد هو الأساس الأول لإقامة المجتمع المثالي نبّه الله تبارك وتعالى هذه التنبيهات السّنيّة وكرّرها للفت انتباه ذوي العقول للعض عليها بالنواجذ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذالكم أزكى لكم وأطهر﴾ الإشارة فيه إلى ما تقدم من الوصايا والأحكام التي ذكرها الله عز وجل لإقامة البيت السعيد والاتعاظ بها وعظ الله عز وجل به الأولياء والأزواج من الإمساك بالمعروف أو التسريح بالمعروف وتحريم العضل. ومعنى ﴿أزكى لكم﴾ أي أنمى وأنفع وأعظم بركة لكم في معاشكم ومعادكم، وقوله تعالى: ﴿وأطهر﴾ أي وأنقى لنفوسكم من الريبة والشك مما قد يقع في قلوب الأولياء بسبب تعلق كل واحد من الزوجين بصاحبه، فإن الجمع بينهما على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هو أزكى الطرق وأطهرها وأبعدها عن قالة السّوء. وقوله عز وجل: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ حضّ على المسارعة والامتثال لأوامر الله عز وجل، والابتعاد عن مخالفة أمره، لأن ما يقرّره من التشريع يجلب سعادة الدنيا والآخرة لأنه تشريع العليم الخبير، والإنسان مهما اتسعت مداركه يعجز أن يشرّع لنفسه أو لغيره تشريعا يسعده في الدنيا الآخرة، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟

قال تعـالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حـولين كاملين لمن أراد أن يُتمّ الرّضـاعة، وعلى المولـود له رزقهنّ وكسـوتهنّ بالمعـروف، لا تكلّف نفسٌ إلا وسعها، لا تضارّ والدةٌ بولدها ولا مولود له بولده، وعلى الوارث مثل ذٰلك، فإن أرادا فصـالا عن تراض منهما وتشـاور فلا جنـاح عليهما، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف، واتقوا الله واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير﴾.

بعد أن بين الله تبـارك وتعالى بعـض حقوق الـزوجين في حال قيـام الحياة الزوجيـة بينهما، ونظّم للمسلمين أحوال الطلاق، ونظـرا إلى أنه إذا حصلت الفرقة بين الزوجين بالطلاق قد يترتب على ذلك تباغض بين الزوجين، وربّما كان لهما طفل صغير، وقد يـؤدي هذا التباغض إلى إلحاق الضرر والأذى بهذا الطفل إما من بغض أمه لأبيه فيدفعهـا الشيطان إلى إيذائه لمضارة أبيه، وإما لرغبة الأم في التزوج بزوج آخـر مما قد يحملها على إهمال أمر الطفل، نظّم الله عـز وجل هنا حقـوق الوالـدين ما لهما ومـا عليهما فيما يتصل برضـاع الطفل ويحميه من إضرار أحـد الوالدين به، ومع أن شفقـة الأم بطفلها هي مضرب المثل إلا أن الشيطـان ذئب الإنسان قـد يغـريها على مخالفة طبيعتهـا وإلحاق الضرر بولدها، وفي ذلك لفت انتباه النـاس إلى أن الله عز وجل أشفق بالولد من والديه وأرحم بعباده من أنفسهم كما جاء في حديث البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ بسَبْي، فإذا امرأة من السَّبْي تسعى، إذا وجدت صبيّـا في السبي أخذته فألزقتـه ببطنها فأرضعته، فقال رسـول الله ﷺ: «أَتُرَوْنَ هـذه المرأة طارحة ولـدها في النـار؟» قلنا: لا، والله، فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»، وقد سقت هذا الحديث في تفسير سورة الفاتحة. وقوله عـز وجل: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حَوْلَيْن

كاملين﴾ قد سيق مساق الخبر والمقصود منه أمر الوالدات بإرضاع أولادهنّ حولين كاملين، والأمر فيه للندب وللحضّ على تربية الطفل بلبن أمه لأنه أصلح للطفل من سائر الألبان ما لم تكن مريضة بمرض يؤثر على صحة الطفل، وكذلك لمراعاة أنّ شفقة الأم على الطفل أتمّ من شفقة غيرها عليه، وهذا إنما يكون للندب في حالة الاختيار لا في حالة الاضطرار، أما في حالة الاضطرار كأن لا يوجد غير الأم أو لا يرضع الطفل إلا منها فعند ذلك يكون الأمر بإرضاعها للإيجاب لا للاستحباب. والدليل على أن الأمر في الأصل للاستحباب لا للإيجاب قوله عز وجل في سورة الطلاق: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهن وَأْتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسَرْتُم فستُرْضِع له أخرى﴾ وقوله عز وجل: ﴿حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة﴾ أي إن الرضاعة تكون لمدة عامين تامَّيْنِ لمن رغب أن يستوفي مدة الرضاع، ولا شك أن تحديد مدة الرضاع بعامين كاملين يثمر فوائد كثيرة منها حاجة الطفل للرضاع هذه المدة فإنه لا يوجد ما يسدّ مسدّ الرضاع في تكوين جسمه وإنشاز عظمه وإنبات لحمه والوفاء بغذائه، وقد فطر الله تبارك وتعالى على ذلك جميع الحيوانات الثديية وإن كان الإنسان أشدها حاجة لذلك الرضاع، ومن فوائد تحديد مدة الرضاع بعامين قطع التنازع بين الزوجين في مدة الرضاع فإذا رغبت الأم في إرضاع الطفل أكثر من عامين لا يُلْزَم الأبُ بدفع الأجرة لما زاد على الحولين، وإذا أراد الأب فطم الولد قبل العامين ولم ترض الأم لم يكن له ذلك. مع أن قوله تبارك وتعالى: ﴿لمن أراد أن يُتِمَّ الرضاعة﴾ يفيد أن إرضاع الطفل لمدة سنتين ليس حتما لازما وأنه يجوز الفطام قبل الحولين، وإنما يلزم الحولان عند التنازع، فإذا رضي الأب والأم بفطامه قبل الحولين جاز ذلك بشرط أن لا يكون فيه ضرر على الطفل، وأيضا فإن الشريعة الإسلامية حرمت بالرضاع ما يحرم من النسب، فيكون الإرضاع الذي يتعلق به

التحريم هو ما كان في مدة الحولين الكاملين، قال الترمذي: باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين، حدثنا قتيبة نا أبو عوانة عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُحَرِّم من الرضاع إلا ما فَتَق الأمعاء وكان قبل الفطام». هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أن الرضاعة لا تحرّم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرّم شيئا، وفاطمة بنت المنذر بن الزّبير ابن العوام وهي امرأة هشام بن عروة اهـ وقوله: «إلا ما فتق الأمعاء» أي إلا ما شَقَّ أمعاء الرضيع وجرى فيها وأثّر في تغذيته، وقد روى البخاري من حديث البراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لما مات إبراهيم قال: «إنّ له مُرْضِعًا في الجنة». والمعروف أن إبراهيم بن محمد ﷺ قد مات دون الحولين. أما ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت ترى أن رضاع الكبير يحرّم كما يحرم رضاع الصغير محتجة بما ثبت أن رسول الله ﷺ قد أمر سهلة بنت سُهيْل بإرضاع سالم مولى أبي حذيفة بعد أن بلغ مبلغ الرجال، ولفظ البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن أبا حذيفة بن عتبة بن عبد شمس وكان ممّن شهد بدرا مع النبي ﷺ تبنّى سالما وأنكحه بنت أخيه - الحديث - وفيه: فجاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشي ثم العامري وهي امرأة أبي حذيفة بن عتبة النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله إنا كنا نرى سالما ولدا وقد أنزل الله فيه ما قد علمت، فذكر الحديث. أما لفظ مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن سالما مولى أبي حذيفة كان مع أبي حذيفة وأهله في بيتهم، فأتت (تعني ابنة سهيل) النبيَّ ﷺ فقالت: إن سالما قد بلغ ما يبلغ الرجال، وعقل ما عقلوا، وإنه يدخل علينا، وإنى أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئا، فقال لها النبي ﷺ: «أرضعيه تحرمي عليه

ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة» فرجعت فقالت : إني قد أرضعته فذهب الذي في نفس أبي حذيفة . وقد ساق مسلم بعد ذلك من طريق زينب بنت أم سلمة أن أمها أمّ سلمة زوج النبي ﷺ كانت تقول : أبى سائر أزواج النبي ﷺ أن يُدْخِلْن عليهن أحدا بتلك الرضعة وقلن لعائشة : والله ما نرى هذه إلا رخصة أرخصها رسول الله ﷺ لسالم خاصة فما هو بداخل علينا أحد بهذه الرضاعة ولا رائينا اهـ وقد أطبق أكابر الصحابة ، والفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة على أن الرضاع المحرّم ما كان قبل الفطام ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى فطام الطفل في سورة لقمان حيث قال : ﴿وفصاله في عامين﴾ وفي سورة الأحقاف حيث قال : ﴿وحَمْلُه وفِصَاله ثلاثون شهرا﴾ وقد فهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنها تدل على أن مدة الحمل ومدة الرضاع تتداخل ، فإن ولدته لستة أشهر فرضاعه حولان كاملان ، وإن ولدته لسبعة أشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهرا وهكذا ، وقد بيّنتُ أن الحولين الكاملين للرضاع تقطع النزاع ، والعلم عند الله عز وجل . وقوله عز وجل : ﴿وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف﴾ المراد بالمولود له هو الوالد ، والتعبير بالمولود له للإشعار بأن النساء أوعية وقد ولدن الأولاد للآباء ، كما قال الخليفة المأمون بن الرشيد العباسي :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

ولا شك أن في هذا التعبير إثارة للعاطفة لدى الآباء لمراعاة جانب الوالدة والشفقة عليها والإحسان إليها لأنها جاءت له بالولد الذي ينسب إليه دونها ، ولا شك أن إحسان الأب إلى الأم يعود بالخير الكثير على الولد ولتكون الأم قادرة على رعاية مصلحة الطفل ، أي ويجب على الأب تقديم الطعام والكساء للمرضع مدة رضاعها على قدر سعته وبما يتعارفون عليه لقوله عز وجل هنا : ﴿بالمعروف﴾ أي بالمتعارف بينهم من غير إفراط ولا تفريط .

ولذلك قـال عز وجل بعدهـا هنا : ﴿لا تُكَلَّف نفسٌ إلا وُسْعَهـا﴾ وقال في سورة الطـلاق بعد ذكر نفقـة المرضع : ﴿لِيُنْفِقْ ذو سَعَة من سَعَتـه ومن قُدِر عليه رزقه فلينفـقْ مما آتاه الله، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتـاها، سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾ وقـوله عـز وجل : ﴿لا تُضـارَّ والدةٌ بـولدهـا ولا مولـودٌ له بولده﴾ أي لا يجوز للأم أن تمتنع عن إرضاع الولد إضرارا بالأب أو أن تطلب أجرا كثيرا لا يطيقه الـرجل مضارة له، كما لا يجوز لوالـد الرضيع أن يمنع الأم من إرضـاعـه مضارة لها أو أن لا يعطيهـا من النفقـة مـا يكفيها، والمقصـود تحريم المضارة بينهما وأنه لا يحل لواحد منهما أن يلحق بالآخر أو بالطفل أذى وضررا. وقوله عـز وجل : ﴿وعلى الوارث مثل ذٰلك﴾ هو معطـوف على قوله تبارك وتعالى : ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسـوتهن بالمعروف﴾ كأنه قيل : وإذا مـات والـد الطفل أثناء مـدة الـرضـاع فإن النفقـة التي كانت واجبـة عليـه للمُـرْضِع تنتقل إلى ورثته فيجب على الـورثة رزق المرضع وكسـوتها بالمعـروف بمثل الذي كان على أبيه بقدر أنصبتهم من الميراث. وقوله عز وجل : ﴿فإن أرادا فِصَالا عن تراضٍ منهما وتشـاورٍ فلا جُناح عليهما﴾ أي فإذا رغب الأب والأم في فطام الطفل قبل إتمام الحولين فلهما ذلك بشرط أن يكـون هذا الفطام قـد تم عن رضى واختيار منهما جميعـا دون إجبار من واحـد منهما للآخـر أو إكراه، وأن يكـون قد حصل الفطام بعـد اتفاق وتأمل وإمعان نظـر فيما يعود على الطفل بالمصلحة، فإن رضي الأب والأم بالفطام بهذه الصفة قبل الحولين فلهما ذلك وإن رَضِيَـا بتأخير الفطـام عن الحولين لمصلحـة الطفل جـاز لهما ذلك كـذلك ولا حرج ولا إثـم عليهما فيه، وينبغي لهما أن يأخـذا رأي ذوي الخبرة من الأطبـاء أو غيرهم في تقـديم الفطـام عن الحولين أو تأخيره عنهما.

وقـوله عـز وجل : ﴿وإن أردتم أن تسترضعـوا أولادكم فلا جنـاح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ أي وإن رغبتم أن تتخذوا مُرْضِعَات يرضعن لكم

أولادكم بسبب تعاسركم في أجـرة الرضـاع ، أو امتناع الأم عن إرضاع ولـدها لمرض يمنعها ، أو زوج آخـر يحول بينها وبين إرضـاع ولدهـا ، أو أبت قبول الولـد إيذاء للـزوج المطَلّق ، ومُضارةً لـه ، أو اتفق الوالـدان على أن مصلحة الطفل أن ترضعه مُرضِعة أخرى غير أمه ، رغبـة في حصول النجابة له ، فإنه لا إثم عليكم ولا حــرج إذا وفّيتم لكل ذي حق حقــه ، فأرضيتم أمّ الطفل وأعطيتمـوها مـا تستحق من الأجرة ، ووفيتم للظِّئْـر التي اتخذتموها لإرضـاع ولدكم حقّهـا بالجميل لتكون طيبة النفـس مما يحملها على الإحسان لـولدكم والعناية بـه . وقوله عز وجل : ﴿واتقـوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ أي وخافـوا ربكم في جميع تصرفاتكـم واحرصوا على العمل بما يشرعـه لكم ، وأيقنوا أنه مطّلع عليكـم لا يغيب عنه شيء من شؤونكم ، فراقبـوه مراقبة من يراه ، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم .

قـال تعالى : ﴿والـذين يتوفـون منكم ويذرون أزواجًـا يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرًا فإذا بلغن أجلهنّ فـلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف ، والله بما تعملون خبير﴾

بعـد أن بين الله تبارك وتعـالى عدة المطلقـات ذكـر هنا عـدة المتوفَّى عنهـا زوجها ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهن أربعـة أشهـر وعشرا﴾ أي والـذين يمـوتـون من الأزواج ويتركـون وراءهم زوجات ، على هؤلاء الـزوجات أن ينتظرن معتدّات مـدة أربعة أشهر وعشر ليال يعني بأيـامها ، وتوجيـه الخطاب للرجال لأنهم هم القـوامون على النساء المبلّغـون إليهن الأحكام الشرعيـة التي يسمعونها مـن رسول الله ﷺ ، وهذه الآية الكريمة قد نسخت الحكم السّابق لعدة المتوفّى عنها زوجها حيث كـانت قبل ذلك سنة كـاملة بقـوله تبـارك وتعالى : ﴿والـذين يُتَوَفَّـوْنَ منكم ويذرون أزواجا وصيّةً لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج ، فإن خرجن فلا جنـاح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معـروف ، والله عـزيـز حكيم﴾ ولا غرابة في كون الآيـة المنسوخة جاءت في ترتيب التلاوة بعـد الآية الناسخة ، إذ من المقطوع بـه وجود سـور مكية في تـرتيب التلاوة بعـد سور مـدنية مع أنها متقدمـة عليها في النزول ، وجَعْلُ عـدة المتوفّى عنهـا زوجها هنا أربعـة أشهر وعشرة أيام بلياليهـا تشمل المدخول بها وغير المدخول بها ما لم تكـن حاملا ، فإن كانت المرأة المتوفَّى عنها زوجها حاملا فعدتها بوضع الحمل ولو بعد ساعة أو لحظة من مـوت زوجها لقـوله تبـارك وتعالى : ﴿وأُولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ فقد جعل الله تبـارك وتعالى عدة الحامل بوضع حملهـا سواء كانت مطلقة أو متوفَّى عنها زوجها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فإذا بلغن أجلهنّ فلا جنـاح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعـروف﴾ أي فإذا انقضت عدتهن

فـلا حـرج عليكم ولا إثم ولا لـوم فيما يفعلنـه بـأنفسهن من التـزين وطـرح الإحداد ولا إثم عليهن في ذلك ما دمن قد خـرجن من عدة الوفاة وما دمن يلتزمن في زينتهن وطيبهن بتعاليم الشريعة الإسلامية. وتذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ هو تحذير للأولياء وللنساء اللاتي خرجن من عـدة الوفـاة من مخالفة أمـر الله عـز وجل. فلا يجوز للـولي أن يَعْضُلها بعـد خروجها من العـدة، ولا أن يمنعها من الزينة بعـد ذهاب زمن الإحداد، ولا يجوز للمـرأة أن تسرف في زينتها بعـد خـروجها من حـدادهـا، وقد ألـزمت الشريعة الإسـلامية المرأة التي مـات عنها زوجهـا بأن تُحِدّ عليه أربعـة أشهر وعشرا، قـال أهل اللغة: الإحـداد والحِداد مشتق من الحدّ وهو المنع يقـال: أحدّت المرأة وحـدّت وهي حادّ ولا يقال: حادة، وقـال الأصمعي: يقال: أحـدت ولا يقال: حـدّت. أما الإحـداد في الشرع فهو تـرك الطّيب والزينـة للمُعْتَدة عـدة الوفاة، وقـد روى البخاري في صحيحه من طـريق أيوب عن حفصة عن أم عطيـة رضي الله عنها قالت: كنا نُنْهَى أن نُحِـدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا، ولا نكتحل ولا نَطّيّب ولا نلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عَصْب، وقد رُخّص لنا عند الطهر إذا اغتسلت إحدانا من محيضها في نُبْذة من كُسْت أظفار، وكنا نُنْهَى عن اتباع الجنائز. ثم أخرجه من طريق هشام عن حفصة عن أم عطية قالت: قال النبي ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخـر أن تُحدّ فوق ثلاث إلا على زوج، فإنها لا تكتحل ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عَصْبٍ» وقـال الأنصاري: حدثنا هشام حدثتنا حفصة حدثتني أم عطية: نهى النبي ﷺ: «ولا تمسّ طِيبا إلا أدنى طُهْرها إذا طهـرت نُبْذة من قُسْط وأظفـار». قـال أبوعبـدالله: القُسْط والكُسْت مثل الكافور والقافـور اهـ. قال الحافظ في الفتح: قـوله: «من كُسْت أظفار»، كذا فيه بالكاف وبالإضافة وفي الذي بعده: «من قسط وأظفار»، بقاف وواو

عـاطفة وهـو أوجـه اهــ وأخرج مسلم هـذا الحديث من طـريق هشـام عن حفصة عن أم عطية رضي الله عنهـا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحدّ امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا، ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثــوب عَصْب ولا تكتحل ولا تمسّ طيبـا إلا إذاطَهُــرت نُبْــذة من قُسْط أو أظـفار». وأخرجه من طريق عبد الله بن نُمَيْر ويزيد بن هارون عن هشام عن حفصة عن أم عطيـة وقالا: «عند أدنى طهـرها نبـذة من قسط وأظفار». ثم أخرجـه من طريق أيوب عن حفصـة عن أم عطية قالت: كنـا ننهى أن نحدّ على ميّت فــوق ثـلاث إلا على زوج أربعــة أشهــر وعشرا، ولا نكتحل ولا نتطيب ولا نلبس ثوبـا مصبوغا، وقـد رُخّص للمرأة في طهـرها إذا اغتسلت إحـدانا من محيضهـا في نبذة من قسط وأظفـار . اهـ ولا معـارضة بين روايـة «قسط وأظفار» وروايـة: «قسط أو أظفار» لأن الـواو محمولة في الـرواية الأولى على العطف وأوفي الرواية الثانية محمولة على الإباحة والتسوية. وإنما جعلت الشريعـة الإسلاميـة عدة المتـوفىَّ عنها زوجهـا أربعة أشهـر وعشرا إن لم تكن حاملا وبوضع الحمل إن كانت حاملا للاحتياط ورعاية حق الميت، لأنها إن كانت حاملا فالأمر ظاهـر وإن كانت غير حامل فإنه يحتمل أن يكون الرحم مشتمِلا على حمل فإذا انْتُظِـرَ به هذه المدة ظهـر إن كان موجـودا، لما جاء في حديث البخـاري ومسلم من حديـث عبد الله بن مسعود رضي الله عنـه عن رسـول الله ﷺ: «إنّ خلق أحـدكم يجمع في بطن أمـه أربعين يومـا نطفـة ثم يكون علقـة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلـك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيـه الروح». فهـذه ثلاث أربعينـات جملتها أربعـة أشهر، والاحتيـاط بعشر بعـدها، إذ قـد تنقص بعض الشهور، وتتجلى أيضـا حركـة الجنين في بطن أمـه، ولـذلك لـو وضعت بعد لحظـة من وفـاة زوجهـا حلّت للخطـاب في الحال، فقـد قال البخـاري في صحيحه: بـاب ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن

يضعن حملهن﴾ حدثنا يحيى بن بُكَيْر حدثنا الليث عن جعفر بن ربيعة عن عبدالرحمن بن هُرْمُز الأعرج قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن زينب ابنة أبي سلمة أخبرته عن أمها أم سلمة زوج النبي ﷺ أن امرأة من أسلم يقال لها: سُبَيْعة، كانت تحت زوجها تُوُفِّيَ عنها وهي حُبْلَى، فخطبها أبو السنابل ابن بَعْكَك فأبت أن تنكحه، فقال: والله ما يصلح أن تنكحيه حتى تعتدّي آخر الأجلين، فمكثت قريبا من عشر ليال، ثم جاءت النبي ﷺ فقال: «انكِحِي». حدثنا يحيى بن بكير عن الليث عن يزيد أنّ ابن شهاب كتب إليه: أن عُبَيْد الله بن عبد الله أخبره عن أبيه أنه كتب إلى ابن الأرقم أن يسأل سُبَيْعَة الأسلميّة كيف أفتاها النبي ﷺ؟ فقالت: أفتاني إذا وضعتُ أن أنكح. حدثنا يحيى بن قَزَعَة حدثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن المِسْوَر بن مَخْرَمة أنّ سُبَيْعة الأسلمية نُفِسَتْ بعد وفاة زوجها بليال، فجاءت النبي ﷺ فاستأذنته أن تنكح فأذن لها فنكحت. وقد ساق مسلم من طريق ابن وهب حدثني يونس بن يزيد عن ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته، فكتب عمر بن عبد الله إلى عبد الله ابن عتبة يخبره أنّ سُبَيْعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خَوْلَة وهو في بني عامر بن لُؤَيّ وكان ممن شهد بدرا، فتُوُفّي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تَنْشَب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلّت من نفاسها تجمَّلت للخُطّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك (رجل من بني عبد الدار) فقال لها: مالي أراك متجملة لعلّك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمرّ عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعتُ عليّ ثيابي حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حَلَلْتُ حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي. قال ابن شهاب: فلا

أرى بأسًا أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها غير أنه لا يقربها زوجها حتى تطهر اهـ وقد ذكّر رسول الله ﷺ بنعمة الله عز وجل حيث جعل عدة المتوفّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا التي نسخت العدة التي كانت سنة كاملة تحدّ فيها المرأة على زوجها الميت، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق حُمَيْد بن نافع عن زينب بنت أبي سلمة أنها أخبرته هذه الأحاديث الثلاثة قال: قالت زينب: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان، فدعت أمّ حبيبة بطيب فيه صُفْرة ـ خَلُوق أوغيره ـ فدهنت منه جارية ثم مسّت بعارضيها ثم قالت: والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدّ على ميّت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» قالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين تُوُفِّي أخوها فدعت بطيب فمسّت منه ثم قالت: والله مالي بالطّيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تُحِدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» قالت زينب: سمعت أمّي أمّ سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا». مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: «لا». ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعَشرٌ، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبَعْرة على رأس الحول» قال حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبَعْرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفّي عنها زوجها دخلت حِفْشًا ولبست شرّ ثيابها ولم تمسّ طِيبا ولا شيئا حتى تمرّ سنة ثم تُؤْتَى بدابّة ـ حمار أو شاة أو طير ـ فَتَفْتَضّ به فقلّما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتُعْطَى بَعْرة فترمي، ثم تراجع ما شاءت من طيب أو غيره اهـ ولا شك أن مداواة المرأة الحادّ عينيها بالمراهم ونحوها لا خلاف في جوازه عند العلماء.

قال تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خِطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم، علم الله أنكم ستذكرونهنّ ولّكن لا تواعدوهنّ سرّا إلاّ أن تقولوا قولاً معروفا، ولا تعزموا عقدة النّكاح حتّى يبلغ الكتاب أجله، واعلموا أنّ الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه، واعلموا أنّ الله غفور حليم* لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسّوهن أو تفرضوا لهنّ فريضة، ومتّعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى حكم عدة الوفاة، التي شرعها رعاية من الزوجة لزوجها الذي مات عنها ووفاء بحقه بعد موته، وبيّن رسول الله ﷺ أنه يحرم على المرأة الحادِّ أن تتجمل للخطاب ونهاها أن تلبس ثوبا صبيغا أو أن تمسّ طيبا إلا شيئا يسيرا عند اغتسالها من الحيض لو كانت تحيض، وحرّم عليها أن تكتحل تنظيما للطبع بالشرع، ذكر الله عز وجل هنا أنه لا تحل خِطبة المرأة الحادّ المتوفَّى عنها زوجها حتى تنتهي عدّتها، لكنه أباح لمن يُضْمِر في نفسه الزواج بها بعد خروجها من العدة أن يعرّض بخِطبتها في العدة دون التصريح بذلك حيث يقول عز وجل: ﴿ولا جُناح عليكم فيما عَرَّضْتُم به من خِطْبة النساء أو أَكْنَنْتُم في أنفسكم﴾ أي لا بأس على راغب الزواج بالمرأة التي مات زوجها أن يضمر في نفسه الزواج منها أو أن يعرّض بخِطْبتها، ولا خلاف عند أهل العلم أن المطلقة الرجعية لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها أو التعريض بها ما دامت في عدتها، أما المطلَّقة المَبْتُوتة فإنه يجوز التعريض بخِطْبتها ولا يجوز التصريح بها كالمتوفَّى عنها زوجها لما جاء في صحيح مسلم من حديث فاطمة بنت قيس أن زوجها طلقها ألبتة، وفي لفظ: طلقها ثلاثا، وفي لفظ: فطلقها آخر ثلاث تطليقات، وأن رسول الله ﷺ قال لها: «اعتدِّي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك فإذا

حَلَلْتِ فآذِنِيني» قالت: فلما حللت قال: «انكِحِي أسامة بن زيد». فقوله عليه السلام: «إذا حللت فآذنيني» هو من نوع التعريض بالخطبة وإن كان ﷺ قد أضمر في نفسه أن يخطبها بعد العِدَّة لأسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، والتعريض هو التلويح بالشيء وعدم التصريح به وهو محاولة إفهام المطلوب بشيء يحتمله ويحتمل غيره، مأخوذ من عُرْض الشيء وهو جانبه كأن المعرِّض يحوم حول الشيء ولا يصرح به. والخِطْبة بكسر الخاء هو ما يذكره الخاطب مُلْتَمِسا به طلب الزواج من المرأة، أما الخُطْبة بضم الخاء فهي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره. يقال: خطب يخطُب خِطْبة أي تقدم إلى المرأة ملتمسا الزواج بها. وخطب يخطُب خُطبة أي تكلّم بكلام بين يدي عقد النكاح أو غيره كخطبة الجمعة وغيرها. ومن أمثلة التعريض أن يقول لولي المرأة أو للمرأة نفسها: إني حريص على الزواج من امرأة صالحة من صفاتها أن تكون كذا وكذا ويذكر أوصافا تكاد تنطبق على هذه المرأة، أو يقول لوليها: إذا انتهت عِدّتها لا تعجلوا بتزويجها لعل الله يرزقها رجلا يعرف قدرها ويُكَرِّمها، أو يقول لها: اصبري على مصيبتك فإنّ الله سيسوق لك خيرا كثيرا فأنت امرأة صالحة. وقوله عز وجل: ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أي أو أضمرتم في أنفسكم الرغبة في الزواج بها إذا خرجت من عدتها فإنه لا إثم عليكم ولا حرج في ذلك، فتعريضكم بخِطْبة النساء أو إضماركم في أنفسكم أن تتزوجوا بها بعد خروجها من عدتها لا يلحقكم فيه إثم ولا حرج عليكم في ذلك ما دمتم تجتنبون التصريح بخطبتها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهنّ﴾ هو تعليل لبيان رفع الحرج عن الرجال الذين يعرّضون بخطبة النساء وهنّ في عدة الوفاة، أو يضمرون في أنفسهم الزواج بهن بعد خروجهن من العدة، إذ هو يدلّ على أن طبيعة الرجال التي جُبِلُوا عليها ممن له حاجة في الزواج أن يندفعوا عندما يسمعون أن رجلا مات وترك زوجة

تصلح لهم إلى العمل على اقتناصها خوف فواتها عليهم فحرّم عليهم التصريح بخِطْبتها في أثناء العدة وأجاز لهم التعريض لتهذيب الطبع بالشرع مع صيانة كرامة المرأة ورعاية حق زوجها الميت فأذن ببذل بعض الأسباب التي قد تحقّق له بعض ما يتمناه وهو التعريض والتلويح برغبته فيها . وقوله عز وجلّ : ﴿ولَٰكن لا تُواعِدُوهنَّ سِرًّا﴾ أي ولا يحل لكم أن يكون في تعريضكم بخِطْبة النساء في عدّتهن أن تذكروا شيئا عن شَبَقكم ، والعرب تَكْني عن مقارفة الرجل أهله وتسمّيه سِرًّا . ومن ذلك قول امرئ القيس :

ألا زعمت بَسْباسةُ اليوم أنّني كَبِرْتُ وأن لا يُحْسِن السِّرَّ أمثالي

وقوله تبارك وتعالى : ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾ أي لكن قد أبحت لٰكم التعريض فاقتصروا على الألفاظ الكريمة في التعريض برغبتكم ، ولا تقولوا قولا يخدش حياءها أو يثير غريزة الجنس فيها ، ولا بأس أن يذكر الرجل شرفه في قومه ، فقد قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : حدثنا المثنى قال : حدثنا سويد قال : أخبرنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته سُكَيْنة ابنة حنظلة بن عبد الله بن حنظلة قالت : دخل عليَّ أبو جعفر محمد ابن علي وأنا في عِدَّتي ، فقال : يا ابنة حنظلة ، أنا مَن عَلِمْتِ قرابتي من رسول الله ﷺ ، وحقّ جدّي عليّ ، وقَدَمي في الإسلام ، فقلت : غفر الله لك يا أبا جعفر ، أتخطبني في عدّتي ، وأنت يؤخذ عنك؟ فقال : أو قد فعلتُ؟ إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ وموضعي ، قد دخل رسول ﷺ على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتُوُفِّيَ عنها فلم يزل رسول الله ﷺ يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتّى أثّر الحصير في يده من شدة تحامله على يده ، فما كانت تلك خِطْبة . اهـ وعبد الرحمن بن سليمان بن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة ويعرف بابن الغسيل ، من رجال البخاري ومسلم ، وأبو جعفر هو محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

رضي الله عنهم، وقد أخرج هذا الأثر المرسل أيضا محمد بن سعد في الطبقات الكبرى في ترجمة أم سلمة رضي الله عنها قال: أخبرنا الفضل بن دُكَيْن حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل قال: حدثتني خالتي سُكَيْنة بنت حنظلة عن أبي جعفر محمد بن عليّ أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة حين توفي أبو سلمة، فذكر ما أعطاه الله، وما قسم له، وما فضّله، فما زال يذكر ذلك ويتحامل على يده حتى أثّر الحصير في يده مما يحدّثها. اهـ وقد سُقْتُ هذا الأثر لأنه إحدى صور التعريض الجائزة ولا تعد خِطْبة صريحة.
وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تَعْزِموا عُقْدَةَ النكاح حتى يبلُغَ الكتابُ أجلَه﴾ أي ولا تعقدوا عقد الزواج حتى تخرج المرأة من عدتها وينقضي الأجل الذي ضربه الله عز وجل لذلك وهو وضع الحمل لمن كانت حاملاً أو مُضِيُّ أربعة أشهرٍ وعشر لمن لم تكن حاملا في عدة الوفاة، أو مُضِيُّ ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر للمطلقة المبتوتة أو التي بانت من زوجها بعد طلاق رجعي كما مرّ، والمراد بالكتاب هنا هو الحدّ الذي جعله الله ورسمه وفرضه وكتبه في شأن عدة النساء، وقد أجمع العلماء على بطلان عقد النكاح في العدة من غيره ووجوب التفريق بينهما. وقوله تبارك تعالى: ﴿ واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أنّ الله غفور حليم﴾ أي وأَيقنوا أيها الراغبون في الزواج ممن بانت من زوجها بطلاق أو تُوُفِّيَ عنها زوجها أن الله مطّلع على سرائركم ومكنونات ضمائركم فاحذروا أشد الحذر أن تأتوا شيئا مما نهاكم عنه، وإن أغراكم الشيطان بشيء من معصية الله فسارعوا إلى التوبة، ولا تيأسوا من روح الله لأنه غفور حليم لا يعجل بالعقوبة. وبعد أن بين الله تبارك وتعالى أحكام من عليهن عدّ ة من النساء شرع في بيان أحكام المطلقات اللاتي لا عدة عليهن وهن المطلقات قبل الدخول بهن، وهن على قسمين القسم الأول من طُلِّقَتْ قبل الدخول ولم يُسَمَّ لها مهر، والثاني من

طلقت قبل الدخول وقد سمّي لها مهر، فقال عز وجل: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تَمَسُّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة﴾ قال القرطبي رحمه الله: لما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنى الذّوق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله وقصد دوام الصحبة، وقع في نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءا من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعة للجناح في ذلك إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن اهـ والمطلقات التي مضى ذكرهن في هذه السورة الكريمة قبل ذلك هي التي دخل عليها زوجها وكان قد فرض لها مهرا، وقد بين الله تبارك وتعالى أنها استحقت كامل مهرها بالدخول حيث قال عز وجل: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ وفي هذه الآية الكريمة يبيّن الله تبارك وتعالى حكم المطلقة التي يطلقها زوجها قبل الدخول بها وقبل أن يفرض لها صَدَاقا معلوما، وقد نفى الله تبارك وتعالى الحرج على من طلق امرأته قبل الدخول وقبل تسمية الصَّدَاق، وفرض لها على زوجها متعة بحسب يُسْره وعُسْره، حيث يقول عز وجل: ﴿ومتّعوهن على الموسع قَدَرُه وعلى المقْتِرِ قَدَرُه متاعًا بالمعروف حقا على المحسنين﴾. وقوله عز وجل: ﴿ما لم تمسّوهن أو تفرضوا لهنّ فريضة﴾ أي من قبل أن تدخلوا بهن أو تقدّروا وتحدّدوا لهن صداقا، و«أو» في قوله تعالى: ﴿أو تفرضوا﴾ بمعنى الواو على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تُطِعْ منهم آثما أو كفورا﴾ أي وكفورا، وكقوله عز وجل: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ معناه: وجاء أحد منكم من الغائط وأنتم مرضى أو مسافرون. وإذا كان المراد من نفي الجناح هو عدم وجوب المهر فـ«أو» على معناها الأصلي لأن المهر لا يجب إلا عند المسيس أو فرضه عند العقد، وإن كان يتنصف

بالطلاق قبل المسيس. وقوله عز وجل: ﴿ومَتِّعُوهن على الموسِع قَدَرُه وعلى المقْتِرِ قَدَرُه﴾ أي وأعطوهنّ شيئا من المال يكون متاعا لهن، والتعبير بـ«على» في قوله عز وجل: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ بعد الأمر بقوله: ﴿ومتعوهن﴾ لتأكيد وجوب المتعة للمطلقة قبل المسيس ولم يكن قد فرض الزوج لها صداقا معلوما. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿حقا على المحسنين﴾ زيادة في تأكيد الإيجاب، وتخصيص المحسنين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بأوامر الله الوقّافون عند حدوده. والموسع هو الموسر الذي اتسعت حاله، والمقْتِر هو المقِلُّ في المال، وتقييد المتاع بالمعروف لأنه لا حدّ له وإنما يعطي كلّ واحد بحسب أحواله وبما عُرف في الشرع من الاقتصاد والتوسط. وأصل المتاع ما ينتفع به انتفاعا غير باقٍ بل منقضيا عن قريب، ولهذا يقال: الدنيا متاع، ويُسمّى التلذّذ بالشيء تمتعا به لانقطاعه بسرعة، وصارت المتعة تُطْلَق على ما يُعْطَى للمرأة مما ينتفع به عند طلاقها، وقد جعلها الله تبارك وتعالى غير محدودة بحَدّ لأنها كالنفقة التي أوجبها الله تبارك وتعالى للزوجات، فهي راجعة إلى يُسْر الزوج وعُسْره مع مراعاة حال المرأة أيضا بقدر الطاقة، وقوله عز وجل: ﴿قَدَرُه﴾ أي قَدْر طاقته وإمكانه، والقَدْر بسكون الدال والقَدَر بفتح الدال لغتان بمعنى واحد، وقد قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بسكون الدال. وقد اتفق أهل العلم على أن المراد بالمسيس في هذه الآية هو المقارفة، وعبّر عنها بالمسيس تأديبا للعباد في اختيار أحسن الألفاظ التي لا تخدش حياءً، وهذا هو دَيْدَن دين الإسلام، ولله الحمد والمنة.

قال تعالى: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النّكاح، وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم، إنّ الله بما تعملون بصير* حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوُسطى وقوموا لله قانتين* فإن خفتم فرجالاً أو ركبانًا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى حكم المطلقة قبل الدخول بها التي لم يسمّ لها زوجها مهراً، وأنّ لها على زوجها متعة الطلاق بحسب يسره وعسره، بيّن هنا حكم المطلقة قبل الدخول بها التي سمّى لها زوجها صداقا حيث يقول: ﴿وإن طلّقتموهن من قبل أن تمسّوهن وقد فرضتم لهنّ فريضة فنِصْفُ ما فرضتم﴾ أي وإن طلقتم النساء من قبل الدخول بهن وقد كنتم قدّرتم لهن صداقا فالواجب على الزوج لزوجته إذا طلقها قبل الدخول وبعد تحديد المهر هو نصف المهر الذي قدّره الزوج لها ويبقى نصف المهر له، ولا خلاف عند أهل العلم أنّ من تزوّج امرأة وسمّى لها مهرًا ومات قبل الدخول بها فإنّ لها المهر كاملا وعليها العدة ولها الميراث الذي تستحقه الزوجة من زوجها الميت، وقد أجمع أهل العلم أيضا على أن الزوج إذا طلق زوجته بعد أن قارفها أنّ لها المهر كاملا ولو لم تكن قد زُفّت إليه ما دام أن ذلك قد حصل بعد عقده عليها، أما إذا خلا بها خَلْوة صحيحة خالية من الموانع فإنه يجب لها المهر كاملا وإن لم يمسّها، وقد أجمع على ذلك الخلفاء الراشدون المهديون وسائر أصحاب رسول الله ﷺ، واعتبروا الخَلْوة الصحيحة بمنزلة المسيس، وأن عليها العدة، كما أن الإفضاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ هو الخلوة كما حُكي عن الفراء فقد قال: الإفضاء: الخَلْوة دخل بها أو لم يدخل اهـ واللغة تؤيد ذلك فإن الإفضاء مأخوذ من الفضاء وهو الخلاء

فكأنه قيل: وقد خلا بعضكم إلى بعض، وقد فسّر غير واحد من أئمة اللغة قوله تعالى: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي خلا الرجل بامرأته سواء قارفها أم لم يقارفها. وقوله عز وجل: ﴿إلا أن يَعْفُون﴾ أي إلا أن تعفو وتتنازل المرأة عن نصف المهر الذي استحقته بالطلاق قبل الدخول بعد أن سُمِّيَ لها الصداق، فإنّ نصف المهر صار خالص حقها ولها أن تتنازل عنه أو عن بعضه للذي طلقها ما دامت مؤهلة لذلك بأن كانت عاقلة بالغة رشيدة، وقد ثبتت النون في قوله عز وجل: ﴿يعفون﴾ مع أنها مسبوقة بأن؛ لأن هذه النون نون النسوة فالفعل المضارع هنا مبني لاتصاله بنون النسوة ووزنه (يفعُلْن) بخلاف ما لو قلت: الرجال يعفون فإن وزنها (يفْعُون) والواو فيها ضمير جماعة الذكور وقد حذفت منها الواو التي هي لام الفعل (يعفو) لالتقائها مع واو الضمير حذر التقاء السّاكنين، والنون في قولك: الرجال يعفون، علامة الرفع لأنه من الأفعال الخمسة التي تُرْفَعُ بثبوت النون وتنصب وتجزم بحذفها، فلو أدخلت (أن) على قولك: الرجال يعفون، لوجب حذف النون فتقول: جاز للرجال أن يعفوا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ لا شك أن عقدة النكاح بيد الوليّ قبل عقد النكاح وعند عقده، أما بعد عقد النكاح فإن عقدة النكاح بيد الزوج، وبالنظر إلى أنه إذا طلقها قبل الدخول بها بانت منه في الحال ولا يملك عليها حقّ الرجعة لأنها لا عدة لها، فصار قوله تبارك وتعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ يحتمل الزوج ويحتمل الولي، ولا شك أن الذي له الحق في العفو عن شيء من الصداق هو من يملك التصرف في الصَّدَاق بَذْلا أو إمساكا، وقد جعل الله تبارك وتعالى مهر المطلقة قبل الدخول نصفين: نصفا للزوجة التي طُلّقت ونصفا للزوج الذي طلقها، وقد ذكر الله تبارك وتعالى عفو المرأة عن حقها أو بعض حقها في قوله عز وجل: ﴿إلا أن يعفون﴾ ولما

كان الزوج هو الذي يملك النصف الآخـر من المهر فلا شك أن عفوه عنه أو عن بعضه للزوجـة التي طلقها لا سيما إذا كانت قد قبضت المهـر كاملا قبل الطلاق، وتنازُلَه لها عن ذلك داخل دخولا أوّليًّا في قوله عز وجل: ﴿أو يعفو الـذي بيده عقـدة النكاح﴾ غير أن المطلقـة إذا كانت صغيرة أو غير رشيـدة وكان أبوها مسئولا عن مهرها وله الحق في التصرف فيه كوليّ اليتيم فإنه حينئذ يكون داخلا تحت قوله عز وجل: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ وكون الذي بيـده عقدة النكاح هـو الزوج أظهر لإجماع العلماء على أن مـا تستحقه المرأة من المهـر هو حق خالـص لها ليس لوليهـا حق التسامح فيـه أو العفو، وقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ هو حضّ على التسامح فيما بينهما، والخطـاب فيـه للـرجال والنسـاء حيث سيـاق الكـلام فيهم جميعـا، وغُلِّبَ التذكير لأن الرجال قوامون على النساء وهم الأصل في الخطاب، والنساء فرع فيـه، ألا تـرى أنك تقـول في الـرجل: جـالس، فإذا أردت المرأة قلت: جالسـة، فصار اللفظ الدال على المذكـر هو الأصل والمؤنث فـرعه، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وأن تعفوا أقـرب للتقوى﴾ أي وأن يعفو بعضكم عن حقه أو بعض حقه لدى الآخـر أقرب إلى اتصافه بتقـوى الله عز وجل، وصيرورته مع المتقين، لأنه إذا عفا عن بعض حقه الذي يستحقه تقربا إلى الله عز وجل والتماسا لـلأجر والثـواب من عنده عـز وجل كان ولا شك أبعـدَ عن الظلم وأخْذِ مـا ليس له، ومن كان بهذه المثابـة كان من المتقين. وقولـه عز وجل: ﴿ولا تَنْسَـوُا الفضْلَ بينكم﴾ أي ولا يحملكم السّبب الذي من أجلـه حصل الطلاق على التبـاغض والتنافر، وعليكم أن تتـذكروا ساعـاتٍ من الإحسان والمودة التي كانت حصلت بينكم حتـى حصل عقد الزواجِ، فـالكرامُ وأهلُ الفضل يتذكرون ما يكون بينهم وبين غيرهم من الإحسان عندما يصير بينهم بعض الجفـوة، ويغلّبون جـانب الإحسـان على جانب الإسـاءة، وهذا هـو

الخلق الذي يعمل الإسلام على تربيته وتنميته في نفوس المسلمين وسلوكهم كما قال عز وجل: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم* وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم* وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾. وقوله عز وجل: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ ترغيب في التسامح وحضّ على الإحسان والعفو، وترهيب من ظلم أحد المتفارقَيْن للآخر بسبب ما يلقيه الشيطان بينهما بسبب الطلاق. وقوله تبارك وتعالى: ﴿حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ هذا أمر من الله عز وجل بالمحافظة على الصلوات الخمس وتأكيد المحافظة على الصلاة الوُسْطى، وفي توسيط الأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى بين سياق ذكر أحكام النكاح والطلاق والعِدَد والمحافظة على الأولاد للتنبيه على ما تؤديه الصلاة لنفس الإنسان من الاستقرار والطمأنينة وهو يخوض في خضمّ الحياة، وفيه إشارة إلى أن المرأة الصالحة التي ينبغي أن يحرص المؤمن على اختيارها لتكون زوجة له يجعلها الله عز وجل قُرّة عَيْن هي وأولادها لزوجها كما أشار إلى ذلك عز وجل في قوله تبارك وتعالى في وصف عباده الصالحين: ﴿والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرّةَ أَعْيُن﴾ وقد ربط رسول الله ﷺ بين النساء والطِّيب والصلاة فيما رواه النسائي من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُبِّبَ إليّ من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة». وفي لفظ: «حُبِّب إلي النساء والطِّيب وجُعلت قُرة عيني في الصلاة». كما أن في إيراد الصلاة في هذا المقام إشارة إلى أنه لا ينبغي للمسلم أن يشغله عن الصلاة شيء من نفس أو أهل أو ولد، قال أبو السعود العماديّ في تفسيره المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم): ولعلّ الأمر بها في تضاعيف بيان

أحكام الأزواج والأولاد قبل الإتمام للإيذان بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأنهم بل بشأن أنفسهم أيضا كما يُفْصِح عنه الأمر بها في حالة الخوف، ولذلك أمر بها في خلال بيان ما يتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحُجْزة بعض. اهـ ولا شك أن إقامة الصلاة من أكبر العون على تخطّي هموم الحياة الدنيا كما قال عز وجل: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وكما كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمر قام إلى الصلاة، والمراد بالمحافظة على الصلاة في قوله عز وجل: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ هو المواظبة على الصلوات المكتوبات في أوقاتهن، مع حفظ حدودهن وحقوقهن على الوجه الذي بيّنه رسول الله ﷺ بقوله وفعله صلوات الله وسلامه عليه، والمراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر، فقد روى البخاري رحمه الله من حديث علي رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله ﷺ: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس». وفي رواية للبخاري رحمه الله من حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم الخندق: «حبسونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم أو أجوافهم نارا».
وفي رواية للبخاري رحمه الله من حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس». وفي رواية للبخاري رحمه الله من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس جعل يَسُبُّ كفار قريش، وقال: يا رسول الله ما كدت أن أصلّي حتى كادت الشمس أن تغرب، قال النبي ﷺ: «والله ما صلّيتُها» فنزلنا مع النبي ﷺ بُطْحَان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب. وقد أخرجه مسلم من

حـديث على رضي الله عنه قـال : لما كـان يوم الأحـزاب قال رسـول الله ﷺ : «ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا كما حبسونـا وشغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمـس» وفي لفظ لمسلم من حديث على رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب وهو قاعد على فُـرْضة من فُرَض الخندق : «شغلونا عن الصلاة الـوسطى حتى غربت الشمس مـلأ الله قبورهـم وبيـوتهم نارا» . وفي لفظ لمسلم من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب : «شغلونا عن الصلاة الوسطى صـلاة العصر ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا» ثم صلاّها بين العشائين بين المغرب والعشاء . اهـ ومعنى : ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي وقفوا في صلاتكم خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه . وقوله عز وجل : ﴿فإن خِفْتُم فرِجالا أو رُكبـانا فإذا أمِنْتُم فاذكروا الله كما علَّمكم مـا لم تكونوا تعلمون﴾ أي فإن أصـابكم خوف من عـدو أو سَبُع أو سَيْل ولم تتمكّنوا من القيـام لله في صلاتكم قـانتين فصلّوا بحسَب قـدرتكم رجالاً أي مُشـاةً على أرجلكم أو ركبانـا أي راكبين على مراكبكم كيف أمكنكـم مستقبلي القبلة أو غير مستقبليهـا ، بـركوع وسجـود أو إيماء ، فإذا زال الخوف عنكم فـالتـزمـوا بالمحافظـة على القيام في صلاتكم خاشعين لله كما علمكم مـا كنتم تجهلونه من أمور دينكم وصفة صلاتكم . وقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : فإذا كان خوف هو أشدَّ من ذلك صَلَّوْا رجالا قياما على أقدامهم أو ركبانـا ، مستقبلي القبلة أو غير مستقبليهـا ، وأخرجه مسلـم بلفظ : وقال ابن عمر : فإذا كان خوف أكثر من ذلك فصلّ راكبا أو قائما تُومئ إيماءً .

قال تعالى : ﴿ والذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكم وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيّةً لأزواجِهم متاعًا إلى الحوْلِ غيرَ إخْـراجٍ ، فإن خَرَجْنَ فـلا جُنـاح عليكُم فيما فَعَلْنَ فى أنفُسهنَّ مِن معْـرُوف ، والله عـزيـزٌ حكيمٌ* وللْمُطَلَّقـاتِ متاعٌ بـالمعـروف حقًّـا على المتقين* كذلك يبيّنُ الله لكم آياته لعلكم تعقلونَ﴾

قد بينت في تفسير قوله عز وجل : ﴿والذين يُتَوفَّوْن منكم ويذرون أزواجًا يتربّصن بأنفسهنّ أربعـة أشهـر وعشرا﴾ الآيــة ، بأنها نـاسخـة لقـولـه عـز وجل : ﴿والـذين يُتَوَفَّـون منكم ويـذرون أزواجا وصيّـةً لأزواجهم متاعًـا إلى الحول غَيْرَ إخراج﴾ وذكـرت أنه لا غـرابة في كـون الآية المنسـوخة جـاءت في ترتيب التلاوة بعد الآية الناسخة ، إذ من المقطوع به وجود سور مكية في ترتيب التلاوة بعد سور مدنية مع أنها متقدمة عليها في النزول ، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ما نَنْسَخْ من آية أو نُنْسِها﴾ الآية ، أن النسخ قد يكون للآية وحكمها ، وقـد يكون للتلاوة مع بقاء الحكم ، وقـد يكون النسخ للحكم مع بقاء التلاوة كعدة المتوفَّى عنها زوجهـا حيث كانت عدتها سنة كاملة لا تخرج فيها من بيتهـا لقولـه تعالى : ﴿والـذين يتوفّـون منكم ويذرون أزواجـا وصية لأزواجهم متاعـا إلى الحول غير إخراج﴾ فقـد نسخ حكمها مع بقـاء تلاوتها بقوله تبارك وتعالى : ﴿والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهنّ فـلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بـالمعروف والله بما تعملـون خبير﴾ فإن قال قـائل : كيف ينسخ الحكم وتبقى التـلاوة مع أن التـلاوة هي دليل الحكم فلـو رفع المدلـول لبقي الـدليل بـلا فائدة؟ فالجواب أن الفائدة موجودة وهي التعبّد بلفظها حيث لا تزال قرآنيّتها التي أبقاهـا العليم الخبير الحكيم . فمن قرأ منهـا حرفـا فله حسنـة والحسنة بعشر أمثـالها ، فقد روى الترمـذي وقال : حـديث حسن صحيح ، عن ابن

مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: آلم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف». ومعنى قوله عز وجل: ﴿وصيّة لأزواجهم متاعًا إلى الحول غير إخراج﴾ أي يوصيكم الله عز وجل ويعهد إليكم يا أولياء التركة بأن تقدّموا للزوجات المتوفى عنهن أزواجهن ما يمتعهن لمدة سنة كاملة من النفقة والسكنى ولا تخرجوهن من بيوتهن مدة الحول. وقد نسخ هذا الحكم من إيجاب النفقة والسكنى للمتوفى عنها زوجها بما جعل الله تبارك وتعالى لها من الميراث، كما نسخ الحول بأربعة أشهر وعشر كما تقدم. وقوله عز وجل: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ أي فإن انتهت عدّتهن وخرجن من الإحداد فلا حرج عليكم فيما يفعلن بأنفسهن من التجمل للخطاب والتزيّن ما دام في حدود المعروف شرعا، وقوله عز وجل: ﴿والله عزيز حكيم﴾ وعيد لمن خالف أمر الله من الأولياء والنساء المتوفّى عنهن أزواجهن وإشعار بأن شرع الله عز وجل مبني على الحكمة التامة التي فيها صيانة حقوق الأحياء والأموات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين﴾ هذا هو ختام المسك لأحكام النكاح والطلاق والعِدَد والرضاع في هذا المقام الكريم، وقد ختم الله عز وجل هذه الأحكام بلفت الانتباه إلى رعاية حق الزوجة المطلقة بتقديم متعة لها عند طلاقها، وهذه المتعة غير المتعة التي فرضها الله عز وجل للمطلقة قبل المسيس التي لم يُسَمَّ لها مهر، فإن المتعة لغير المطلقة قبل المسيس التي لم يُسَمَّ لها مهر إنما تكون على سبيل الهدية من المطلّق لمطلّقته للإشعار ببقاء المعروف والإحسان بينهما، وقد أرشد إلى ذلك قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبيّ قل لأزواجك إن كنتن تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ وأسرّحكنّ سراحا جميلا﴾ ونساء النبي ﷺ قد دخل بهن رسول الله ﷺ وسمَّى لهن مهرا،

ففي هـذه الآية الكـريمـة الحضّ على تمتيع المطلقات المدخـول بهن بما تيسّر، وقد متّع رسول الله ﷺ الجَوْنِيَّةَ بِرَازِقِيَّيْـنِ. فقد روى البخاري من حديث أبي أُسيْدٍ رضي الله عنـه قال: خرجنـا مع النبي ﷺحتى انطلقنا إلى حـائط يقال لـه: الشـوط، حتى انتهينـا إلى حـائطين فجلسنـا بينهما، فقـال النبي ﷺ: «اجلسـوا ههنـا» ودخل، وقد أُتِيَ بـالجونيّـة فأُنْـزِلَتْ في بيت، في نخل، في بيت، أُمَيْمَةُ بنت النّعمان بن شراحيل، ومعها دايتهـا حاضنة لها، فلما دخل عليهـا النبي ﷺ قـال: «هبي نفسك لي» قـالت: وهل تهبُ الملكـةُ نفسَهـا للسُّوقـة؟ قال: فأهـوى بيده يضعُ يده عليهـا لتسكن، فقالت: أعـوذ بالله منك، فقال: «عـذت بمَعَاذٍ» ثم خـرج علينا فقال: «يـا أبا أسيـد، اكْسُها رازقيّتين، وألحقها بأهلها» وقال الحسين بن الوليد النّيسابوريّ عن عبد الرحمن عن عبـاس بن سهل عن أبيـه وأبي أسيـد قالا: تـزوّج النبي ﷺ أميمـة بنت شَرَاحِيل، فلما أُدْخِلَتْ عليه بسط يـده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمـر أبا أسيد أن يجهّـزها ويكسوهـا ثوبين رازقيين. حدثنـا عبد الله بن محمد حـدثنا إبراهيم بن أبي الوزيـر حدثنا عبد الرحمن عـن حمزة عن أبيه، وعن عباس بن سهل بن سعـد عن أبيـه بهذا. اهـ قـال الحافظ ابن حجـر في فتح البـاري: قولـه: فأنزلت في بيتٍ في نخلٍ في بيتٍ أميمـةُ بنت النعمان بن شراحيل. هو بالتنوين في الكلّ وأميمة بالرفع إمـا بدلا عن الجونية وإما عطف بيان، وظنّ بعض الشرّاح أنه بالإضـافة فقال: في الكلام على الرواية التي بعـدها: تزوج رسـول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، ولعل التي نـزلت في بيتها بنت أخيهـا. وهو مردود، فإنّ مخرج الطريقين واحـد، وإنما جاء الوهـم من إعادة لفظ «في بيت» وقد رواه أبـو بكر بن أبي شيبة في مسنـده عن أبي نعيم شيخ البخـاري فيـه فقال: في بيت في النخل أميمـةُ الخ، اهـ وقـوله في الحديث: «اكسهـا رازقيين» أي أعطهـا رازقيين كسوة ومتعـة لها، قـال في القامـوس المحيط عن

الرازقية: ثياب كتّان بيض اهـ وقال الجوهري في الصّحاح: والـرّازقية ثياب كَتّان بيض، قال لبيد يصف ظُرُوف الخمر:

لها غَـلَلٌ من رازِقيّ وكُرْسُفٍ بأيْمـان عُجْمٍ يَنْصُفُون المَقَـاوِلا

أي يخدمون الأقيال اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب: والـرّازقيـة والرّازقي: ثياب كَتّـان بيض، وقيل: كلّ ثوب رقيق رازقيّ، وقيل: الرازقيّ الكتّان نفسه، قال لبيد يصف ظروف الخمر:

لها غـلل من رازقيّ وكرسف بأيمـان عجـم ينصـفون المقـاولا

أي يخدمون الأقيال. وأنشد ابن بَريّ لعوف بن الخَـرِع:

كـأنّ الظّبـاء بها والنّعـا ج يُكْسَيْـن من رازقيّ شـعاراً

وفي حديث الجونية التي أراد النبيّ ﷺ أن يتزوجها قال: «اكسها رازقيين» وفي رواية: رازقيتين، هي ثيـاب كَتّان بيض اهـ وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿حقا على المتقين﴾ بتخصيص حقيته للمتقين للتنبيه على أن أوامر الله عز وجل إنما ينتفع بها المتقون، كما تقـدم نظيره كثيرا، وقوله تبارك وتعـالى: ﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: يقول تعالى ذكره: كما بينت لكم ما يلزمكم لأزواجكم ويلزم أزواجكم لكم أيها المؤمنون، وعرفتكم أحكامي، والحقّ الواجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات، فكذلك أبيّن لكم سائر الأحكام في آياتي التي أنـزلتها على نبيّي محمد ﷺ في هذا الكتاب، لتعقلـوا ـ أيها المؤمنـون بي وبرسـولي ـ حـدودي، فتفهمـوا الـلازم لكم من فرائضي، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، وعاجلكم وآجلكم، فتعملوا بـه ليَصْلُح ذاتُ بينكم، وتنالوا بـه الجزيل من ثوابي في معـادكم اهـ وفي قـوله عـز وجل: ﴿لعلكم تعقلون﴾ إشعـار بأن من لم يستفدْ من أنـوار أحكام الشريعة الإسلامية ويحرصْ على أن تكـون منهجه ونبراسه ليس بعاقل حتى ولو كـان في نظر الناس من أعقل الناس، كما أشـار إلى ذلك رسول الله

ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث حذيفة رضي الله عنـه قال: حـدثنا رسـول الله ﷺ حـديثين رأيت أحدهما وأنـا أنتظر الآخـر، حدثنـا أن الأمانـة نزلت في جَـذْرِ قلوب الـرجال، ثم علموا مـن القرآن، ثم علموا من السنّة، وحدثنا عن رفعها قال: «ينام الرجل النّومة فتُقْبَضُ الأمانة من قلبه فيظلّ أثرها مثل أثر الوَكْتِ، ثـم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل أثر المَجْلِ، كجَمْـر دَحْرَجْتَـه على رجلك فنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا، وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبـايعون، فلا يكاد أحـد يؤدّي الأمانـة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقلـه، وما أظرفه، وما أجلده، وما في قلبـه مثقـال حبّـة خـردل من إيمان، ولقــد أتى عليّ زمـان، ولا أبـالي أيّكم بايَعْتُ، لئن كـان مسلما رَدَّه عليَّ الإسلامُ وإن كان نصرانيا ردّه عليَّ سـاعيه، وأما اليومَ فما كنتُ أبايع إلا فلانا وفلانـا». اهـ وقوله: «نزلت في جَذْر قلوب الـرجال» أي في أصل قلـوب الناس وهـو كنـاية عن خلق الله تعـالى في تلك القلوب قـابلية حفظ الأمـانة. والوَكْتَـة هي الأثر في الشيء كـالنقطة من غير لـونـه، والمَجْلُ هو أثـر يحدث لليـد من العمل بـالأشياء الصلبـة الخشنـة، ويقال: نَفِطَتْ اليد إذا صار بين الجلد واللحم ماء فوقه قشرة رقيقة كأنها بَثْرَة مُنْتَبِرة منتفخة. وفي هـذا الحديث نصّ ظاهـر على أن العقل الحقيقي هـو ما يقود الرجل والمرأة للعمل بشريعة الإسلام، والعضّ عليها بالنواجذ.

قال تعـالى : ﴿ألم تر إلى الّذين خـرجوا من ديارهم وهم ألـوف حذر الموت فقـال لهم الله موتـوا ثم أحيـاهم ، إنّ الله لـذو فضل على النّاس ولّكنّ أكثـر الناس لا يشكرون* وقـاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم* من ذا الّذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾

قد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرة فـأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون* ثم بعثنـاكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ أنّ هـذا هو أول مقام من المقامـات التي ذكرها الله عز وجل في سورة البقرة الشاهدة بقدرة الله على إحياء الموتى المنْكِرَة على مُنْكِر البعث بعد الموت وكأنه يقول لهم : قد أحييت الموتى فعلا ، وكلّ ما وقع فعلاً فهو ممكن عقلاً ، فكيف ينكر عاقلٌ البعثَ بعـد الموت؟ والمقام الثاني في قوله عز وجل في قصة البقرة وقتيل بني إسرائيل : ﴿فقلنـا اضربوه ببعضها كذٰلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ . والمقام الثالث في قوله : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهـم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ والمقـام الرابع قصة الـذي مرّ على قريـة وهي خاوية على عـروشها قال : أنّى يحيي هـذه الله بعد مـوتها؟ فأماته الله مـائة عام ثم بعثـه قال : كم لبثت؟ قال : لبثت يـوما أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مـائة عام ، وأحيا الله أمامه حماره الذي كان قدمات معه وقال له : انظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما؟ والمقام الخامس في قول إبراهيم عليه السلام : ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قـال : أو لم تـؤمن قـال : بلى ولٰكن ليطمئن قلبي ، قـال : فخـذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كـل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ . والملاحظ أنّ الله تبارك وتعالى بعد

أن ذكر أحكـام النكاح والطلاق والعـدد والرضـاع ختمها بقولـه عز وجل: ﴿كـذلك يبين الله لكم آيـاته لعلكـم تعقلون﴾ ثم ضرب المثل بقـدرتـه على إحياء الموتى بقوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحيـاهم﴾ وقد نبه في قصة إحياء قتيل بني إسرائيل بتذييلهـا بقولـه عز وجل: ﴿كـذلك يحيي الله الموتى ويريكم آيـاته لعلكم تعقلون﴾ كما لوحظ أنه تبارك وتعالى ذيل ذكر المقام الأول من مقامات إحياء الموتى في سـورة البقرة بقـوله عـز وجل: ﴿ثم بعثناكم من بعـد موتكم لعلكم تشكـرون﴾ كما ذيل هذا المقـام هنا بقـوله عز وجـل: ﴿فقال لهم الله مـوتـوا ثم أحيـاهم إن الله لـذو فضل على النـاس ولكنّ أكثـر النـاس لا يشكـرون﴾ وهذا إعجـاز بلاغي عـرفه الـذين سمعوه من أسـاطين البلاغـة وأرباب الفصاحـة من قريش وأيقنوا أنه من عند الله و إن كـانوا جحدوا ذلك كما قـال عز وجل عنهـم: ﴿قد نعلم إنّـه ليحـزنك الـذي يقولـون فإنّهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيـات الله يجحدون﴾ لقد كان الواحد من المشركين المعاديـن للإسلام ينصـت لبعض آية من كتـاب الله فيخر ساجـدا لما وقع في قلبه من بـلاغتها وفصاحتهـا وما اشتملت عليه الجملـة القصيرة من المعاني الغزيرة كما حدث لبعضهم عندما سمع قوله عز وجل: ﴿فلما استيأسوا منه خلصـوا نجيًّا﴾ أيقن أن هـذا الكلام فـوق قـدرة البشر. ولذلك قـال بعض رؤساء المشركين في وصفه وقد استمع له: إن له لحَلاوة و إنّ عليه لطَلاوة و إن أعلاه لمثمر و إن أسفلـه لمغدق أو معذق و إنه يعلـو ولا يُعلى عليه اهـ و إنك لتجد الآيات المتشـابهة المثاني تتباعد أمـاكنها في كتاب الله وقد يكـون بعضها مكيا وبعضهـا مدنيـا وتحسبها آية واحـدة مع ما وُضع لكل واحـدة منها من علامات فارقة وشارات مميزة تنـاسب ترنيم مكانها وجَرْس موضعها، ونبرات الأحرف التي تتركب منهـا ولذلك قال عز وجل: ﴿حم* تنـزيل من الرحمن

الرحيم * كتاب فُصِّلت آياته قرآنا عـربيا لقوم يعلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ألم تـر إلى الذين خـرجوا من ديـارهم وهم ألـوف حذر الموت فقـال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ أي ألم تنظر بعين بصيرتـك ويَنْتَهِ علمك إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم عدد كبير بلغوا ألوفا مؤلفة ، فرارا من الموت ، فأماتهم الله عز وجل ثم أحياهم ليعلموا أن الحذر لا ينجي من القدر وأن الأعمار بيد القهار فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمـون ولو كانوا في بروج مشيدة وأينما كانوا يدركهم الموت ، والمقصود تربيـة نفوس المسلمين وتقوية عزيمتهم على الجهاد في سبيل الله لأنهم لـن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم بإعـلام رسول الله ﷺ ومن يَتَأَتَّى منـه أن يُـوَجَّهَ إليـه هـذا الإخبار بقصـة قـوم من بني آدم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم لِيَرَوْا هم وكلّ من جاء من بعـدهم ممن يصل إليه العلم بقصتهم أن الإماتـة إنما هي بيد الله وحده وأنه هو وحده القادر على إحياء الموتى كذلك ، فهو لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء ، وعلى المسلم أن يطمئن إلى قدر الله وقضائه ويرضى به ، وفي هذا أيضا تقـديم بين يدي الأمر بـالقتال في سبيل الله ومجاهدة أعـداء الله بالنفس والمال في قوله تبارك وتعالى بعدهـا مباشرة : ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم* من ذا الذي يقـرض الله قرضا حسنـا﴾ الآية ولم يَصِحَّ خبر عن رسول الله ﷺ في بيان جنـس هؤلاء الذين خرجوا من ديـارهم وهم ألوف حذر الموت فقـال لهم الله موتـوا ثم أحياهم ، كما لم يصح خبر عـن رسول الله ﷺ في أن فرارهم كان من الطاعـون أو من خوفهم من الجهاد في سبيل الله ، وإنما جاء علم اليقين بأنهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأصابهم ما فرّوا منـه وجاءهم الموت الـذي كـانوا يحذرون ، كما قـالت أعرابيـة لما فـرّ ولدهـا فأصابته المنية في طريق هروبه فقالت في قصيدة لها ترثيه :

والمنايـــــا رُصَّـــــدٌ للفـــتى حيـــث سَـــــلَك

على أن الإسلام قد حذّر من الفرار من الطاعون، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عن الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدُمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه». كما روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها أنه كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد. كما حذر الإسلام أشد التحذير من الفرار من الزحف، وعدّه في السبع الموبقات. فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتّولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وقوله عز وجل: ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ الأمر في قوله عز وجل: ﴿موتوا﴾ أمر كونيّ قدريّ لا يتخلف أبدا على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ ولذلك حذف من الكلام قوله: فماتوا، لأنه معلوم قطعا، ودلّ عليه قوله عز وجل بعدها: ﴿ثم أحياهم﴾ المرتّب على موتهم كأنه قيل: أراد الله عز وجل موتهم فماتوا، ثم أحياهم الله عز وجل. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي إن الله تبارك وتعالى لصاحب جود وإحسان وإنعام على عباده، ولكن أكثر بني آدم لا يعترفون للمنعم الجليل بنعمته بسبب انقيادهم للشيطان الذي تعهّد بصرفهم عن شكر الله، وإضلالهم عن الصراط المستقيم وحملهم على الجحود

ونكـران النّعم، كما قـال الله عـز وجـل: ﴿قـال فبما أغـويتني لأقعـدنّ لهم صراطك المستقيم* ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿وقليل من عبادي الشكـور﴾ وقد أشـار الله عـز وجل إلى أن الشكر نقيـض الكفر حيث يقـول تبارك وتعـالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان مـن نطفة أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فجعلنـاه سميعا بصيرا* إنا هديناه السبيل إما شاكرا و إمـا كفورا﴾ وقوله عز وجل: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلمـوا أنّ الله سميع عليم﴾ أي وجـاهدوا أعـداء الله لإعـلاء كلمـة الله وابذلـوا أنفسكم في سبيل الله وأيقنوا أن الله معكم يسمع خفقـات قلـوبكم ويعلم مـا تكنّـه صـدوركـم. والمقـاتل في سبيل الله ينـال إحـدى الحسنيين، الشهادة في سبيـل الله أو النصر على أعداء الله، والشهـداء أحياء عنـد ربهم يـرزقـون يفـرحـون بما آتـاهم الله من فضلـه ويستبشرون بـالـذين سيلحقون بهم من قـوافل الشهداء: ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قـرضا حسنا فيضـاعفه له أضعـافا كثيرة﴾ القرض ما قدّمتَه وسلّفتَـه وأعطيتَه لِتُقْضَاه. والمقصود من إقراض الله عـز وجل بـذل النفس والنفيس في سبيل الله و إعـانـة المجاهـدين، وتجهيـز الغـازين، كما يشمل كذلك الصـدقـات على الفقراء والمسـاكين، وفي قولـه تبارك وتعالى: ﴿من ذا الـذي يقرض الله قرضا حسنـا﴾ درجة عُلْيا في الحض على النفقـة في سبيل الله وعلى الفقراء والمسـاكين، وكأنّ الذي يقـدم المال في هذا الـوجه إنما يسلّمـه لله عز وجل الغنـي الحميد الـذي لا تنفد خـزائنه ولا تغيض على كثـرة العطـاء والجود والإحســان. وهـو شبيـه بما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجـل يقول يوم القيـامة: يـا ابن آدم مَرِضْـتُ فلم تَعُدْني، قـال: يا ربّ كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنّ عبدي فلانا مَرِض فلم

تَعُدْه؟ أما علمتَ أنك لو عُدْتَه لوجَدْتَني عنده؟ يا ابن آدم استطعَمْتك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطْعِمْه؟ أما علمتَ أنك لو أطعمْتَه لوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتُك فلم تَسْقِني، قال: يا ربّ كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تَسْقِه، أما علمتَ أنك لو سَقَيْتَه لوجدتَ ذلك عندي». اهـ أي لوجدت جزاء هذا العمل عندي مدّخرا لك في موازينك، وقوله: ﴿قرضا حسنا﴾ أي طيبا خالصا لله لا مِنّة فيه ولا أذًى لمن أعطيته، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ أي فيوفّيه الله أجره وقرضه مضاعفا فوق ما أعطى سبعمائة ضعف، وقد تزيد، فإنه يعطي من يشاء بغير حساب، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يَقْبِض ويَبْسُط وإليه ترجعون﴾ أي والله هو القابض الباسط يضيّق على من يشاء بعدله ويوسّع على من يشاء بفضله، ومرجع جميع الخلائق ومصيرهم إلى الله وحده، وسيجزي كلّ عامل بما عمل، فافعلوا الخير لعلكم تفلحون.

قال تعـالى : ﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قـالوا لنبي لهم ابعث لنـا ملكـا نقـاتل في سبيـل الله قـال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قـالوا : ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخـرجنا من ديارنا وأبنائنـا فلمّا كتب عليهم القتّال تولّـوا إلاّ قليلا منهم ، والله عليم بـالظالمين* وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طـالوت ملكًا ، قالـوا أنّى يكون له الملك علينـا ونحن أحقّ بالملك منـه ولم يؤت سعـة من المال ، قال إنّ الله اصطفـاه عليكم وزاده بسطة في العلـم والجسم والله يؤتي ملكه مـن يشاء ، والله واسع عليم* وقال لهم نبيّهم إنّ آيـة ملكه أن يأتيكم التابوت فيـه سكينة من ربّكم وبقيّة ممّا تـرك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكـة ، إنّ في ذٰلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾

بعد أن أمـر الله تبارك وتعـالى المؤمنين بالقتـال في سبيل الله وبذل المال في الجهاد ووجوه الخير، ساق هنا قصّة من قصص بني إسرائيل تكشف تعنّتهم مع أنبيائهم ونكوصهم عن الجهاد في سبيل الله حتى ولو كانوا هم الملحّين في طلب القتال ، وتـرشد إلى أنّ نصر الله قريب من المحسنين ، وأنـه كم من فئة قليلة غلبت فئـة كثيرة بإذن الله وأن الله مع الصابرين . وفي إيراد هـذه القصة تحذير للمسلمين من أن يسلكـوا سبيل المتعنتين العاصين المذكـورين في هذه القصة ، وحضٌّ لهم على التّأسّي بـالصالحين المذكورين في هذه القصـة ، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى زمـان هذه القصة ، واسْمَيْ قائِدَيْ فـريقَيْها من المؤمنين والكافـرين ، وذكر فيها عبرا عظـاما ، وقد انتهت بتمليك داود عليـه السلام على بني إسرائيل ومـا أنعم الله به عليـه من الـمُلْكِ والحكمـة وأنه علَّمـه مما يشـاء ، وقد بـدأ الله تبارك وتعـالى هذه القصـة هنا فـذكر أنها حـدثت لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام ، والظاهر من سياق القرآن الكريم يدل

على أن جالوت رأس الوثنيين أوقع ببني إسرائيل، فأجْلَى رجالهم، وسبى نساءهم وذراريَّهم، وتمكن من أرضهم وبلادهم، وكانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيّ بعث الله عز وجل لهم نبيا آخر، يشرح لهم التوراة ويحكم بها فيهم، ويبين لهم ما غيّروه وبدّلوه وحرّفوه من الكلم عن مواضعه، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلّما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي». فلما اشتد تسلّط جالوت ومن معه من الوثنيين على بني إسرائيل قال وُجَهَاؤهم وأعيانهم لنبي من أنبيائهم: ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله. والظاهر أنهم لم يكن قد فرض عليهم قتال أعدائهم فأخبرهم نبيّهم عليه السلام أنه يخشى عليهم أن يَنْكِلوا عن القتال إذا فرض عليهم، ولا يفوا بما التزموا به فقالوا: وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، أي أخذت منا البلاد، وسُبِيَتْ الأولاد، فأخبرهم نبيهم عليه السلام أن الله قد عيّن لهم ملكا منهم هو طالوت، فاعترضوا على هذا التعيين وقالوا: كيف يعيّن الله علينا طالوت ملكا ولم يكن في آبائه من ملك؟ فنحن أحقّ بالملك منه مع أنه فقير قليل المال، فأجابهم نبيّهم عليه السلام بأن الله عز وجل قد اختاره ملكا على بني إسرائيل، وقد فضّله من بينكم لمهام الملك وأعطاه الله بسطة في العلم والجسم، فهو أعلم منكم بشئون الحرب وتدبير الأمور، وأشدّ منكم قوة وصبرا وجَلَدًا لملاقاة الأعداء، فلا تعترضوا ولا تتعنّتوا، وأنتم تعلمون أن الله هو الذي اختاره وعيّنه ملكا عليكم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيّهم إن الله تبارك وتعالى جاعلٌ لكم آية على صحة مُلْك طالوت عليكم وهي رجوع الصندوق الذي يشتمل على بعض آثار موسى وهارون، وقد عَجَزْتُم عن إرجاعه من يد مغتصبيه، ولن يطلب منكم بذل مجهود في

استرجاعه، بل سيجيء الصندوق تحمله الملائكة، لا تَرَوْن أحدا من بني آدم يحمله أو يرافقه، وسيكون فيه طمأنينة لبني إسرائيل ودلالة ظاهرة على أن الله تبارك وتعالى لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فصدّقوا وَعْد الله، وسارعوا إلى طاعة طالوت وآمنوا بما أخبرتكم به عن الله عز وجل إن كنتم صادقين في إيمانكم بالله عز وجل، والله تبارك وتعالى قادر على إهلاك الكافرين والانتصار منهم بدون حرب بينهم وبين المسلمين، وإنّما يَشْرَعُ القتال ليبلو بعضكم ببعض ويتخذ منكم شهداء، وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. وقوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ أي قد أتاك العلم يا محمد فيما أقصه عليك من القصص الحق عن الملأ من بني إسرائيل من بعد وفاة موسى عليه السلام. والملأ: هم أشراف القوم ووُجَهَاؤهم وأعيانهم، وقد يراد بالملأ القوم، وهو اسم جمع كالرهط والقوم، لا واحد له من لفظه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذ قالوا لنبي لهم ابعَثْ لنا مَلِكًا نقاتلْ في سبيل الله﴾ أي حيث قالوا لنبيّ من أنبيائهم أقم لنا ملكا نقاتل تحت رايته أعداء الله لإعلاء كلمة الله. وقوله عز وجل: ﴿قال هل عَسَيْتُم إنْ كُتِبَ عليكم القتالُ ألا تقاتلوا﴾ هذا استئناف بياني كأن سائلا سأل: فماذا قال لهم نبيهم حينئذ؟ فقيل: قال: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ أي هل عسيتم ألا تقاتلوا إن فرض عليكم القتال، كأنه قال لهم: هل أتوقّع منكم أن تجبُنُوا وتَنْكِلوا عن قتال ومنازلة أعدائكم إن أُلْزِمْتُم بقتالهم؟ وقد وقع ما توقع نبيهم حيث تولّوا عن القتال إلا قليلا منهم، وقوله عز وجل: ﴿قالوا: وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخْرِجْنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي وأي شيء يمنعنا من قتالهم، ثم أكدوا زعمهم بعِلّة قوية موجبة للقتال وهي قولهم: ﴿وقد أُخْرِجْنا من ديارنا وأبنائنا﴾ وقوله عز وجل: ﴿فلما كُتِبَ عليهم القتال تَوَلَّوْا إلا قليلا منهم﴾

أي فلما فرض عليهم القتال وألزموا به جبنوا ولم يقدموا على قتال أعدائهم بل تولّوا ورجع أكثرهم عن القتال، ولم يثبت منهم إلا القليل الذين جاوزوا النهر مع طالوت، وقد طوى الله تبارك وتعالى جملا كثيرة هنا لأنها معلومة من السياق إذ تقدير الكلام: فسأل نبيّهم ربه عز وجل أن يكتب عليهم القتال وأن يعيّن لهم ملكا ليقاتلوا تحت لوائه، فاستجاب الله لنبيهم وفرض عليهم القتال وعيّن لهم ملكا ليقاتل بهم فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وعيد شديد لهؤلاء الذين أعرضوا وتولّوا عن القتال ونكلوا عنه بعد طلبهم له، وتناقضت أفعالهم مع أقوالهم، ووضع الاسم الظاهر موضع الضمير حيث قال: ﴿بالظالمين﴾ ولم يقل: بهم، لتسجيل صفة الظلم عليهم وبيان أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، وقوله عز وجل: ﴿وقال لهم نبيّهم: إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾ أي وأخبرهم نبيّهم وقال لهم: إن الله أجابكم إلى ما سألتم وعيّن لكم طالوت ملكا. وهذا شروع في تفصيل بعض ما أُجْمِل في قوله عز وجل: ﴿تَوَلَّوْا﴾ حيث كان من أوّل توليهم وتعنتهم وإعراضهم عن أمر الله هو إنكارهم إمرة طالوت رضي الله عنه وتمردهم عليه حيث قال عز وجل عنهم: ﴿قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يُؤْتَ سَعَةً من المال﴾ أي قالوا مستبعدين جدّا أن يكون طالوت ملكا عليهم: كيف يكون له التملك علينا والحال أنه لا يستحق التملّك لوجود من هو أحق بأن يكون ملكا علينا من أبناء ملوكنا الأولين، ولعدم ثرائه وغناه فهو رجل فقير قليل المال؟ وقوله عز وجل: ﴿قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطَة في العلم والجسم﴾ هو بيان لردّ شبهتهم وفساد رأيهم من وجوه، الأول: أن الله اصطفاه عليكم واختاره وهو العليم الخبير فكان من الواجب عليكم والتأدب مع نبيكم أن تسارعوا إلى الرضى والقبول لا أن تتعنّتوا وتعترضوا على

أمر الله الذي أخبركم به نبيكم عليه السلام، والله أعلم بمصالحكم منكم، وقد خصّ الله تبارك وتعالى طالوت بالملك والإمرة من بينكم. والوجه الثاني: أن الله تبارك وتعالى زاد طالوت بسطة في ا لعلم، والعلم من الكمالات الحقيقية التي جعل الله لها أثرا عظيما في صلاح الدولة وشئون السياسة وتدبير أمور الحرب و إحباط خُطَط الأعداء ومعرفة أحوال الناس والوفاء لكل ذي حق بحقه. والوجه الثالث: أن الله تبارك وتعالى زاده بسطة في الجسم والناس يعرفون عادة أن العقل السليم في الجسم السليم، ولا شك أن الرجل القويّ الشديد الجامع لصفة العلم وصفة القدرة والقوة أحقّ من يتولى أموركم ويكون له الملك عليكم، إذ قوة الجسم مع قلة العلم والمعرفة قد تكون مهلكة، كما أن زيادة العلم مع عجز الجسم وضعفه قليلة الجدوى. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن تدبير شئون الدولة في الحرب والسلم يحتاج إلى هذين الوصفين: بسطة العلم وبسطة الجسم، كما أشار إلى أن الأجير الصالح هو من تتوافر فيه قوة الجسم والأمانة حيث قال في كتابه الكريم: ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ وقوله عز وجل: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ زيادة توبيخ وتعنيف للمعترضين على أمر الله بتعيين طالوت ملكا، إذ الله عز وجل هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويمنعه من يشاء، والله جليل العطاء واسع الفضل عليم بمن يليق بالملك عليكم، وهو أعلم بمصالحكم منكم. وقوله عز وجل: ﴿ وقال لهم نبيهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذُلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي إنّ علامة اختيار الله لطالوت ليكون ملكا عليكم أن يجيئكم صندوق العهد المشتمل على بعض آثار موسى وهارون حتى يصير بين أيديكم دون أن تروا حاملا من البشر له بل تحمله الملائكة، وهو معجزة من الله عز وجل أجراها

لنبيهم تصـديقا لـه على أن الله تبارك وتعـالى قـد اختار لهم طـالوت ملكـا . وليست هذه معجـزة لطالوت بل هـي معجزة لنبيهم تصديقـا لما أخبر به من شأن طـالوت. والسكينة : الطمـأنينة ، والبقيـة : الأثر الباقـي ، والمراد بآل مـوسى وآل هـارون : هو مـوسى وهـارون ، ويـؤتى بآل في مثـل هذا المقـام للتفخيم كما قـال رســول الله ﷺ لأبي مـوسى الأشعــري فيما رواه البخـاري ومسلم من حديثـه رضي الله عنه : «لقـد أوتيت مزمـارا من مزامير آل داود» . اهـ والمراد داود نفسه عليه السلام .

قال تعالى : ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنه منّي إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلا منهم، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصّابرين* ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين* فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولٰكنّ الله ذو فضل على العالمين* تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ، وإنّك لمن المرسلين﴾

عندما أبصر بنو إسرائيل التابوت مقبلا عليهم تحمله الملائكة أظهروا الإذعان والانقياد لطالوت ورضوا به ملكًا عليهم، فَتَهَيَّئُوا لقتال أعدائهم وكان من بينهم داود عليه السلام ولم يكن قد بُعِثَ بعد، فلما خرج طالوت بجيشه متجها لقتال جالوت ومن معه من الوثنيين أراد أن يجعل لهم اختبار تصفية وتنقية فأخبرهم أن الله سيختبرهم بنهر يمرون به وهم عطاش وأنه يمنعهم من الشرب من هذا النهر فمن شرب منه لا يشهد القتال، ومن لم يشرب منه فإنه مؤمن يجاوز النهر مع المؤمنين وقد أبيح للواحد منهم أن يغترف غُرْفة بيده لا يذوق من النهر غيرها، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر، وتولوا معرضين، فلم يجاوز النهر مع طالوت سوى بضعة عشر وثلثمائة. وهذا الاختبار والابتلاء دليل ظاهر على علم طالوت، وشهادة جليّةٌ على أهليته للملك وقيادة الجيوش وأنه ذو خبرة ودراية بنفوس بني إسرائيل الذين لا يثبتون على حال، ولا يستقرون على هدًى شأنُهُم عصيان أنبيائهم

وملوكهـم، فجعل لهم هذا الاختبار قبـل لقاء العدو ليتميـز من يصبر منهم ممن لا يصبر، ولا شك أن رجوع هـؤلاء قبل لقاء العـدو لا يؤثـر كتأثيره حال لقاء العـدو، فكان هذا أحد معـالم علم طالوت رضي الله عنـه الذي زاده الله فيه بسطـة، ومن الحكمة أيضا منعهم مـن الشرب من النهر والاكتفاء بغُـرْفة تَبُلُّ ريقهم ولا تؤذيهم في صحتهم، إذ مـن العلوم التجريبيـة أن المجهود من السير يضرّه شرب الماء إلا ما يَبُلُّ الريق ولا يـزال بعض قادة الجيوش إلى اليوم يحرّمـون على جنودهم أن يشربـوا في أثناء زحفهم على عـدوهم لما يترتب على ذلك من الضرر بصحتهم ويسمحون لهم عند شدة العطش في أثناء الزحف أن يكتفوا ببل ريقهم بَـلاًّ خفيفا، وقد يصاب الإنسـان بالعمى إذا شرب في مثل هـذا الحال، وقولـه عز وجـل: ﴿فلما فَصَل طالـوت بالجنـود﴾ أي فلما خـرج طالـوت بـالعسكر وشخص بهم من بلـده، وارتحل في طـريقه للقـاء العدو، وقـوله عـز وجل: ﴿قال إنّ الله مبتليكم بنهَـر﴾ أي إن الله عز وجل سيختبركم بمروركم عنـد نهر عذب الماء وأنتم عطاش، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾ أي من كَرَعَ وارتـوى فإنه ليس على منهاجي، والظاهـر أنه نظير قول رسـول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني».

الذي رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثـة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخْبِرُوا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبـه وما تأخر، قال أحـدهـم: أمّا أنا فأنا أصلي الليل أبـدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أَعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجـاء رسـول الله ﷺ، فقـال: «أنتم الـذين قلتم كـذا وكـذا؟ أمـا والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومَن لم يَطْعَمْه فإنه

مني﴾ أي ومن لم يذق من ماء النهر شيئا فإنه على منهجي ويتجاوز النهر معي لقتال أعداء الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إلا من اغترف غُرْفَةً بيده﴾ أي لكن من تناول بيده غرفة من النهر فإنّ الله تبارك وتعالى يتجاوز عنه ولا يحرّم ذلك عليه، والغُرْفة بضم الغين هي الشيء المغتَرف، والغَرْفة بفتح الغين هي المرة الواحدة من الاغتراف وهو التناول باليد أو بالمغرفة. وما لم تغرفه لا يسمى غرفة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾ أي فعصى أمْرَ طالوت أكثرُ جيشه وشربوا من النهر سوى عدد قليل منهم امتنع عن الشرب من النهر طاعة لطالوت رضي الله عنه وجاوزوا النهر معه، وقد جاء في بعض الآثار الصحيحة أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت رضي الله عنه وعنهم كانوا بضعة عشر وثلثمائة رجل بعدد أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا بدرا معه صلوات الله وسلامه عليه، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدرا أنهم كانوا عدّة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر بضعة عشر وثلثمائة. قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن. وفي لفظ للبخاري عن البراء قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن: بضعة عشر وثلثمائة. وفي لفظ للبخاري رحمه الله من حديث البراء رضي الله عنه قال: كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلثمائة وبضعة عشرة بعدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ الآية، أي فلما عبر طالوت النهر هو والذين آمنوا معه وجدوا أن عدوّهم جالوت لعنه الله قد حشد جنودا كثيرة، وأعد عدّة عظيمة فقال بعض المؤمنين من أصحاب طالوت رضي الله عنهم: لا طاقة ولا قدرة

لنـا اليـوم على قتـال هـذا العـدو الكثير، كـأنهم استَقَلُّوا أنفسهم عن لقـاء عـدوهم، فشجّعهم علماؤهم العالمون بـأن وعد الله حقّ وأن النصر من عنـد الله ليس بكثـرة العَـدَد وقــوة العُـدَد، وأنــه ينبغي للمسلم أن يــرغب في الاستشهـاد ولقاء الله في سبيـل الله قائلين لهم: كم من جماعـة قليلـة غلبت جماعة كثيرة بإذن الله وعونه ونصره فاصبروا واحتسبوا واستعينوا بالله إن الله مع الصـابرين بتأييـده وقدرتـه، ولا غالب لمن كـان الله معه، وفي قـولهم: ﴿لا طاقة لنا اليوم﴾ يشعر بـرغبتهم في تأجيل لقاء العدوّ يومئذ لا أنهم أرادوا ترك قتال العدو والنكـول مثل الذين لم يجاوزوا النهر، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربنـا أَفْرِغْ علينا صَبْرًا وثَبِّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكـافرين﴾ أي ولما ظهروا لقتـالهم وتصافُّـوا قالوا: ربنـا اصْبُبْ علينا صبرا واحبس أنفسنـا عن الجزع وثبت أقدامنـا بتقوية قلـوبنا حتى نـرسخ في مقارعـة عدونا ولا نتـزلزل في أرض المعركـة وأعنّا على هذا العـدو حتى تكون الغلبة لنا عليه، واهزم الكافرين وزلـزل أقدامهم واملأ قلوبهم رعبا منا حتى نتمكن من سحقهم. وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿فهزمـوهم بإذن الله وقتل داودُ جـالوتَ﴾ أي فـاستجاب الله عـز وجل دعاءهم، ونصرهم على أعـدائهم، ومكّن لهم في الأرض، وقتل داودُ جالوتَ ملكَ الوثنيين، وقـد سارع طالوت بالتنازل عن الملك لداود عليه السـلام، وصار أحد جنود داود عليه السلام، وقد أثنى الله تبـارك وتعالى على طـالوت، ووصفـه بأوصاف كـريمة، أمـا ما زعمـه بعض المفسرين والإخبـاريين مـن أن طـالـوت حسـد داود، وأصيب بالجنون وهام على وجهه في الصحـراء فإنه زعم باطل، وأكاذيب إسرائيلية لا دليل عليها من خبر ثـابت، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وآتـاه الله الملك والحكمة وعلمـه مما يشـاء﴾ أي ومنح الله عـز وجل داود عليه السـلام الملك على بني إسرائيل، وبعثه نبيا رسولا، وأنزل عليه الزبور، وعلمه ما يحتاجه بنو إسرائيل

من المنهج القويم، وعلمه صنعة لَبُوس، وأَلانَ له الحديد، فصنع الدروع التي قد تسمّى الزَّرَدَ وكان أوّل من صنعها على الوجه الأمثل من بني آدم، وقد أرشده الله تبارك وتعالى إلى الطريقة المثلى في صناعتها فجعلها حِلَقًا بعد أن كانت صفائح ليسهل استعمالها، وأمره عز وجل أن يعملها سابغات، تغطي كلّ جسم لابسها، ويجرّها على الأرض، وتصلح للأجسام المختلفة طولا وعرضاً فيعمّ نفعها جميع المقاتلين، وأمره أن يقدّر في السَّرْد أي في نسج الدّرع وهو إدخال الحَلَقات بعضها في بعض، ولا تُجْعَل المسامير غلاظا فتكسر الحلْقة، ولا دِقَاقا فتتَقَلْقَل فيها، ولا تزاد في متانتها فتَثْقُل على المقاتل، وهذه نعمة جليلة لفت الله تبارك وتعالى انتباه المؤمنين إلى وجوب شكره عليها حيث يقول عز وجل: ﴿وعلّمناه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكم لِتُحْصِنكم من بَأْسِكم فهل أنتم شاكرون﴾ كما يسّر الله عز وجل لداود عليه السلام قراءة الزبور وخفّفه عليه حتى إنه كان يقرؤه بمقدار ما تُسْرَج دَوَابُّه كما أخبر بذلك الصادق المصدق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى حبيب الله ورسوله وسيد المرسلين محمد ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابّه فتُسْرَج فيقرأ القرآن قبل أن تُسْرَج دوابّه، ولا يأكل إلا من عمل يده» والمراد بالقرآن في هذا الحديث هو الزبور الذي أنزله الله عز وجل على داود عليه السلام حيث يقول عز وجل: ﴿وآتينا داود زَبُورًا﴾ كما يطلق لفظ القرآن بمعنى القراءة، أي قراءة داود الزبور، وقد منح الله عز وجل داودَ عليه السلام صوتا جميلا يتغنى به وهو يقرأ الزبور ويترنّم، وقد وصف رسول الله محمد ﷺ ترنُّم داود بالزبور بصَوتِ المزامير، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى لقد أُوتِيتَ مزمارا من مزامير آل داود» وقد سقت هذا الحديث قريبا في

تفسير قوله عز وجل: ﴿مما ترك آل موسى وآل هارون﴾. وقوله عز وجل: ﴿ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لفسدَت الأرضُ ولَكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي ولولا أن الله تبارك وتعالى تفضّل وأنزل الشرائع وفرض فيها على المؤمنين أن يدفعوا شر الكافرين، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر لعمّ الفساد والشرّ في الأرض، وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلا فقد روى البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم. فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نصيبنا خَرْقًا ولم نُؤْذِ مَن فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعا» وقوله عز وجل: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ أي هذه الآيات التي تقدم ذكرها وقصصت عليكم فيها ما قصصت لكم من القصص الحق شاهدة بأنّ محمدا هو رسول الله ﷺ وأنا أشهد بأن محمدا رسول من جملة رسلي الذين أرسلتهم لينيروا الطريق للإنسانية ويرشدوا إلى صراط الله المستقيم.

قـال تعالى: ﴿تلك الـرّسل فضّلنـا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجـات، وآتينـا عيسى ابن مـريم البيّنـات وأيّـدنـاه بـروح القُدس، ولو شاء الله ما اقتتل الذين مـن بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّنات ولٰكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفـر، ولو شاء الله مـا اقتتلوا ولٰكنّ الله يفعل ما يريد﴾.

بعد أن ذكر الله تبـارك وتعالى قصة طالـوت رضي الله عنه مع بني إسرائيل وأنهم اختلفوا فمنهم من أطاعه لقتـال الجبارين ومنهم من عصاه وشرب من النهر بعـد أن نهاهم عن الشرب منه، وأن الله تبارك وتعالى نصر الفئـة القليلة المؤمنـة على الفئة الكثيرة الكـافرة، وأنـه مكّن داود من قتل جـالوت وأعطـاه الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء وذكـر عز وجل أنه شرع جهاد أعدائه حتى لا يعمّ الفساد في الأرض وأكّد أنّ محمدا ﷺ رسـول من رسل رب العالمين، ذكر هنـا أنـه فضّل بعض هـؤلاء الـرسل على بعض فجعل بعضهم كَلِيمَـه وهـو موسـى عليه السلام ورفـع بعضهم درجات فـوق درجات موسـى وغيره وهو محمد ﷺ وجعـل عيسى ابن مريم كَلِمَتَـهُ ورُوحًا منه، وقـد لاحظت في غير موضع من القرآن الكريم أن الله تبارك وتعـالى يذكر داود عليه السلام في مقامِ مواسـاة رسوله محمد ﷺ وتسليتـه مما يلقاه من أذى اليهـود أو المشركين ومقامِ التفضيل بين المرسلين ليُثَبِّتَ قَلْب رسوله محمد ﷺ ويشعره بأن نواصي العباد بيد الله عز وجل يصرّفها كيف يشاء فيهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلا، وأن ما يلقاه الإنسان مـن أذى في جهاد أعداء الله وعند دعوتهم إلى الله عز وجـل ليس دليلا على منـزلته عند الله إذ لا شـك أن موسى عليـه السلام أحد أولي العـزم من المرسلين وهو أفضل من داود عليه السـلام ومع ذلك قد مكّن الله لداود ما لم يمكّنه لموسى عليه السـلام فقد لقي موسى عليه السلام

من أذى قومه ما لقي فصبر، ومكّن لداود فجعله ملكا كريما وسلّطه على بني إسرائيل يحكم فيهم فيسمعون له ويطيعـون، ليعلم الناس أن الأمر بيد الله، ولو شاء الله لآمن من في الأرض كلّهم جميعـا ولم يختلفوا على أنبيائهم ورسلهم ولم يقتتلوا، كما قال عز وجل: ﴿ذٰلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولٰكن ليبلو بعضَكم ببعض﴾ فقـد ذكر الله تبـارك وتعالى في سورة الإسراء وهـي مكية في سياق ما يلقاه رسول الله ﷺ من أذى قومـه وتعنّتهم بعد أن قال: ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا* أو خلقًا مما يكبر في صـدوركم، فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرّة، فَسَيُنْغِضُون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾ وبعد أن يقـرّر أن بعث العباد سهل عليه ويحذرهم من اتباع الشيطان يقـول عز وجل: ﴿وربّك أعلم بمن في السمٰوات والأرض، ولقد فضّلنـا بعض النبيين على بعض وآتينـا داود زبـورا﴾. كما ذكـر عـز وجل في سياق بيان مـا يلقاه رسول الله ﷺ من أذى قريش في أقسى ما مـرّ برسول الله ﷺ من أذاهم لـه في سورة ص وهي مكيـة حيث يقول عـز وجل: ﴿وقالـوا ربنا عَجِّل لنا قِطَّنَا قبل يوم الحساب* اصبر على مـا يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأَيدِ إنه أوّاب* إنا سخّرنـا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق* والطيرَ محشورةً كلّ لـه أوّاب* وشددنا ملكـه وآتيناه الحكمـة وفصل الخطاب﴾ وفي هـذا المقام من سـورة البقرة يـواسي رسول الله محمـدا ﷺ مما يلقـاه من تعنت اليهـود وأذاهم ومكرهم وكيـدهم فيقص عليه مـا جرى بين اليهـود ونبيٍّ لهم وطـالـوت وما كـان من تعنتهم مع نبيهم ومـع طالـوت وكيف اختلفـوا على طالوت، وعصوا أمره ثم يذكر داود عليه السلام وكيف مكّن الله له في الأرض ثم يذكر أن محمدا ﷺ رسول من المرسلين ثم يذكر التفضيل بين الرسل حيث يقول عـز وجل: ﴿تلك الرسل فضلنـا بعضهم على بعض﴾ أي هؤلاء رسلي الـذين قصصت عليك قصتهم في هـذه السـورة وهـم مـوسى وإبـراهيم

وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ويجوز أن يكون المراد بالرسل في قوله: ﴿تلك الرسل﴾ هم ما ذكرهم الله في قوله عز وجل: ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ فيشمل جميع رسل الله عز وجل المذكورين في هذه السورة وغيرها. وقد أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض وأن محمدًا رسول الله هو أفضل الأنبياء والمرسلين جميعا، ولا شك أن القرآن الكريم قد صرح بتفضيل بعض الأنبياء على بعض في هذا المقام الكريم من سورة البقرة وفي سورة الإسراء كما ذكرت آنفا، ولا معارضة بين هذا التصريح بتفضيل بعض الأنبياء على بعض وبين ما ورد من الأحاديث الكثيرة الصحيحة التي قد يفهم منها النهي عن تفضيل محمد ﷺ أو تفضيل بعض الأنبياء على بعض، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما يهودي يعرض سِلْعة له، أُعْطِيَ بها شيئا كَرِهه أو لم يَرْضَهُ قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فلطم وجهه قال: تقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، ورسولُ الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إنّ لي ذمّة وعهدا، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «لم لَطَمْتَ وجهه؟» قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال: «لا تفضّلوا بين أنبياء الله، فإنه يُنْفَخُ في الصور فيُصْعَق مَن في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله» قال: «ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أوّل من بُعِثَ فإذا موسى عليه السلام آخِذ بالعرش، فلا أدري أحُوسِبَ بصَعْقته يوم الطّور أو بُعِثَ قبلي؟ ولا أقول إنّ أحدًا أفضل من يونس بن مَتَّى» فهذا الحديث ونحوه محمول على أنه من باب تواضعه ﷺ إذ أنّ تواضع الرّفيع القدر لا يُنزل من قدره. ولا شك عند أهل العلم أن أولي

العزم من المرسلين أفضل ممن سواهم من الأنبياء والمرسلين، وأن أفضل أولي العزم محمد ﷺ ثم أبوه إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليهم وسلم أجمعين، غير أنه إذا كان المقام مقام تنازع بين أهل الأديان وسببا لإثارة الشرّ و إلحاق الضّرر بالمسلمين فإنه ينبغي الكفّ عن التفضيل على حد قوله تعالى: ﴿ولا تسُبّوا الذين يدعون من دون الله فيسُبّوا الله عَدْوًا بغير علم، كذلك زيّنا لكل أمة عملهم، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبّئهم بما كانوا يعملون﴾ فإن الأصنام والأوثان تستحق السّبّ لكن إذا كان سبّ الأصنام يثير عابديها على المسلمين فإنه يُنْهَى عن سبّها لذلك. وكذلك التّفضيل على وجه الفخر أو الحمية والعصبيّة، وعلى هذا يحمل ما ورد عن رسول الله ﷺ في منع التفضيل بين الأنبياء. وقوله في الحديث عن موسى عليه السلام: «فأكون أول من بعث فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطّور أو بعث قبلي». لا يدلّ على أنّ موسى أفضل من محمد ﷺ إذ القاعدة عند أهل العلم أنّ المزِيَّة لا تنافي الأفضلية، أي إن ثبت لأحد مَزِيَّة على أحد في جانب من جوانبه لا يدل على أن صاحب هذه المزية أَفضل من الآخر، ومثال ذلك أنّ رسول الله ﷺ رأى في منامه أن بلالاً رضي الله عنه يمشي بين يديه في الجنة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال حدّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دَفَّ نعليك بين يَدَيَّ في الجنة» قال: ما عملت عملا أرجى عندي أني لم أتطهر طُهُورا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطُّهور ما كُتِبَ لي أن أصلّي. وفي لفظ لمسلم«: فإني سمعت الليلة» وفي لفظ له بدل: دَفَّ نعليك: خَشْفَ نعليك. والدّف الحركة الخفيفة والخَشْف الحركة الخفيفة أيضا فالدّف والخشْف بمعنى واحد. وقد جاء في رواية الترمذي وابن خزيمة وأحمد من

حديث بريدة رضي الله عنه في حديث بلال رضي الله عنه هذا أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال بِمَ سبقتني إلى الجنة؟» ولا يخطر على بال مسلم أن بلالا أفضل من رسول الله ﷺ لهذه المزية. وقوله عز وجل: ﴿منهم من كلّم الله﴾ المقصود بالذي كلمه الله عز وجل هو موسى عليه السلام كما قال عز وجل عن ذلك: ﴿قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿منهم من كلّم اللهُ﴾ دليل قطعي على إثبات صفة الكلام لله عز وجل وهو مذهب أهل السنة والجماعة فهم يجزمون ويعتقدون أن الله عز وجل يتكلم متى شاء وأنّى شاء، وفيها ردّ وإفحام لأهل الأهواء المنكرين إثبات صفة الكلام لله، وما أجمل قول أبي عمرو بن العلاء عندما حاول بعض كبار أهل الأهواء أن يَرْشِيَه ليقرأ قوله عز وجل: «منهم من كلَّم اللهَ» بنصب لفظ الجلالة، فقال له أبو عمرو بن العلاء رحمه الله: هب أني قرأت كما تريد فماذا تفعل في قوله عز وجل: ﴿فلما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربُّه﴾؟ فبُهِتَ هذا المنحرف، وهذا من فضل الله على أهل السنة والجماعة فإنك لا تجد مسألة يختلف معهم أهل الأهواء فيها إلا وجدتَ مع أهل السنة دليلا قاطعا من كتاب الله تعالى أو من صحيح وصريح السنة النبوية، ولن تجد لأهل الأهواء فيها دليلا غير التخبّط والاضطراب واتباع الأهواء، فلله الحمد والمنة. وقوله عز وجل: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ يعني محمدا ﷺ الذي خصه الله عز وجل بمزايا لم يعطها أحدا سواه، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خمسا لم يُعْطَهُنّ أَحَدٌ قبلي، نُصِرْتُ بالرّعب مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدا وطهورًا فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأُحِلّتْ لي الغنائم ولم تَحِلّ لأحد قبلي، وأُعْطِيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبْعَث إلى قومه خاصة

وبُعِثْتُ إلى النـاس عـامّـة» . كما رفعه الله عـز وجل ليلـة المعـراج إلى سـدرة المنتهى ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وآتينـا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي ومنحنا عيسى ابن مريم المعجزات الظاهرات الدّالة على أنه رسول الله ، إذ صار يبرئ الأكْمَـه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويخلق من الطين كهيئـة الطير فينفخ فيـه فيكون طيرا بإذن الله ، وقـوله عـز وجل : ﴿وأيدنـاه بروح القُـدُس﴾ أي وقويناه وأعنّاه بالروح المقدّسة أي المطهّرة والمراد جبريل عليه السلام والإضافة في روح القـدس من إضـافة الموصـوف إلى الصفـة ، وقـد مرّ في تفسير الآيـة السابعة والثمانين زيادة بيان لمعنى : ﴿وآتينـا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بـروح القدس﴾ . وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿ولـو شـاء الله ما اقتتل الـذين من بعدهم من بعـدما جاءتهم البينـات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولـو شاء الله ما اقتتلوا﴾ الآيـة . أي ولو أراد الله عز وجل إرادة كـونية ألا يختلف النـاس بعد مجيء الـرسل إليهم بـالمعجـزات فيؤمن بعضهم ويكفـر بعضهم وألا يفرض على المؤمنين قتـال الكافرين لنفذت مشيئتـه وما اختلف الناس في أنبيـائهم وما اقتتلـوا ولكن قضى الله عز وجل اختـلافهم واقتتالهم لحكمتـه البالغـة فاختلفـوا واقتتلـوا ، إذ لو شـاء الله عز وجل لهدى النـاس جميعا ، ولكن الله الـذي يفعل ما يريـد اقتضت حكمته البالغـة أن يوفق مَن عَلِمَ فيهم الخير بفضله وأن يخذل من علم فيهم الشر بعدله ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنـوا أنفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة، والكافرون هم الظالمون .﴾

هذا مقـام آخر من مقـامات الحض على الإنفـاق التي كرّر الله عـز وجل الأمر فيها بالبذل والإنفاق في طرق الخير وأفعال البرّ ولا سيما ما كان في تأييد المجاهدين في سبيل الله . وهذا التأكيـد لحمل النفس على السخاء بالمال بعد الحض على بذل النفس في سبيل الله، لأن بذل النفس هـو أقصى غاية الجود كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها والجود بالنفس أسمى غاية الجود

ولما كان بعض النـاس قد لا يقدر على الجهاد في سبيل الله وكانـت معاونة الغـازين بالمال تعتبر مشـاركـة في الغزو أكـد الأمر بـالإنفـاق وأورده مقرونـا بـالجهاد في مـواضع حيث قـال عـز وجل: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلْقُـوا بأيديكم إلى التهلكـة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ بعد قولـه عز وجل في سياقة الجهـاد: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقـاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ الآيات، وكما قال عـز وجل: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم* من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ وكما قال عز وجل هنا: ﴿يا أيها الذيـن آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ بعد قوله عز وجل مباشرة: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولّكنّ الله يفعل ما يريد﴾ فالله تبارك وتعـالى يأمر المؤمنين بمكـافحة الكـافرين بـالقتال بالأنفـس وبإنفاق الأموال في معـاونة المجـاهدين. والأمـر بالإنفـاق هنا يشمل الـزكاة الـواجبة ويشمل التطوع بالصدقة. وقـوله تبارك وتعالى: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلَّـة ولا شفاعـة﴾ أي سارعـوا بالإنفـاق قبل أن تموتوا ويجيئكـم يوم القيامة حيث لا تتمكنون فيـه من عمل صالح إذ قد انتهت دار العمل وجاء

يوم الحساب والحصاد والجزاء فلا يستطيع أحد استدراك النفقة ببيع أو شراء، إذ لا بيع في هذا اليوم ولا شراء، كما لا يوجد لمن كفر بالله خليل يوم القيامة فإن الخلّة تنقطع عن جميع الكافرين كما قال عز وجل: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين﴾ والخلّة بضم الخاء هي خالص المودّة مأخوذة من تخلّل الأسرار بين الصديقين، والخلالة بكسر الخاء والخلالة بفتح الخاء والخلالة بضم الخاء هي الصداقة والمودة كما قال النابغة الجعدي رضي الله عنه:

وكيف تواصل من أصبَحَتْ خِلالته كأبي مَرْحَب

وأبو مرحبٍ كناية عن الظل الذي لا دوام له ولا بقاء. أما الخلّة بفتح الخاء فهي الحاجة والفقر، وقوله عز وجل في سورة الزخرف: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ يفيد أن قوله عز وجل هنا: ﴿ولا خلّة﴾ عام أريد به الخصوص لأن آية الزخرف مكية وهذه الآية مدنية، ولا نسخ في الأخبار. كما أخبر تبارك وتعالى أنه لا يوجد يوم القيامة شفاعة لمن كفر بالله، وقوله تبارك وتعالى هنا: ﴿ولا شفاعة﴾ عام أريد به الخصوص كذلك، لثبوت الشفاعة لأهل الإيمان بكتاب الله تبارك وتعالى وبسنة رسوله ﷺ ففي القرآن الكريم إثبات الشفاعة في آية الكرسي التي تلي هذه الآية مباشرة وهي قوله عز وجل فيها: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ فأثبت الشفاعة بإذن الله، كما أثبتها في قوله تبارك وتعالى في سورة الأنبياء بقوله عز وجل: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ فأثبت الشفاعة لمن ارتضى، وقد ذكر شَرْطَي الشفاعة المثْبَتة للمؤمنين في قوله عز وجل في سورة النجم: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ وقد تقدم الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله

ﷺ في دعوة فرفع إليه الذراع فكانت تعجبه فنهَس منها نَهْسَة وقال: «أنا سيد ولد آدم» الحديث، فقد أثبت فيه الشفاعة العظمى لرسول الله ﷺ، وقد سقته بتمامه مع تحقيق معنى الشفاعة في تفسير قوله عز وجل: ﴿واتقوا يوما لا تَجزي نفس عن نفس شيئا ولا يُقْبَل منها شفاعة ولا يُؤْخَذ منها عَدْل ولا هم ينصرون﴾ على أن في تذييل هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ إشعارا بأن هذا الشأن خاص بالكفار فإنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يعني تعالى ذكره بذلك: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا في سبيل الله مما رزقناكم من أموالكم، وتصدقوا منها، وآتوا منها الحقوق التي فرضناها عليكم، وكذلك كان ابن جريج يقول فيما بلغنا عنه، حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني حجاج عن ابن جريج قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ قال: من الزكاة والتطوع ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلّة ولا شفاعة﴾ يقول: ادّخروا لأنفسكم عند الله في دنياكم من أموالكم، بالنفقة منها في سبيل الله والصدقة على أهل المسكنة والحاجة، وإيتاء ما فرض الله عليكم فيها، وابتاعوا بها ما عنده مما أعدّه لأوليائه من الكرامة، بتقديم ذلك لأنفسكم ما دام لكم السبيل إلى ابتياعه بما ندبتكم إليه، وأمرتكم به من النفقة من أموالكم ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ يعني من قبل مجيء يوم لا بيع فيه، يقول: لا تقدرون فيه على ابتياع ما كنتم على ابتياعه بما أمرتكم به أو ندبتكم إليه في الدنيا قادرين، لأنه يوم جزاء وثواب وعقاب لا يوم عمل واكتساب وطاعة ومعصية، فيكون لكم إلى ابتياع منازل أهل الكرامة بالنفقة حينئذ أو بالعمل بطاعة الله سبيل، ثم أعلمهم تعالى ذكره أن ذلك اليوم مع ارتفاع العمل الذي يُنَال به رِضَى الله أو الوصولُ إلى كرامته بالنفقة من الأموال إذ كان لا مال هنالك يمكن إدراك ذلك به، يومٌ لا مخالّة فيه نافعة

كما كانت في الدنيا، فإن خليل الرجل في الدنيا قد كان ينفعه فيها بالنصرة له على من حاوله بمكروه وأراده بسوء والمظاهرة له على ذلك، فآيسهم تعالى ذكره أيضا من ذلك، لأنه لا أحد يوم القيام ينصر أحدا من الله، بل ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين﴾ كما قال الله تعالى ذكره وأخبرهم أيضا أنهم يومئذ مع فقدهم السبيل إلى ابتياع ما كان لهم إلى ابتياعه سبيل في الدنيا بالنفقة من أموالهم، والعمل بأبدانهم، وعدمهم النصراء من الخلّان والظّهراء من الإخوان، لا شافع لهم يشفع عند الله كما كان ذلك لهم في الدنيا، فقد كان بعضهم يشفع في الدنيا لبعض بالقرابة والجوار والخلة وغير ذلك من الأسباب، فبطل ذلك كلّه يومئذ، كما أخبر تعالى ذكره عن قِيلِ أعدائه من أهل الجحيم في الآخرة إذا صاروا فيها: ﴿فما لنا من شافعين* ولا صديق حميم﴾ وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عامّ والمراد به خاصّ، وإنما معناه: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ لأهل الكفر، لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أصل الظلم هو تجاوز حدّ الاعتدال ووضع الأمور في غير مواضعها، والاعتداء سواء كان على نفس أو عرض أو مالٍ، وأعظم أنواع الظلم هو الشرك بالله، والكفر به، وجحود آياته، وتكذيب رسله، كما قال عز وجل: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وإنما يحدث الظلم بسبب ظلمة القلب، وليس كلّ ظلم كفرا، لما رواه البخاري في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قال أصحابه: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله

ﷺ: «إنـه ليس بـذاك، ألا تسمـع إلى قـول لقمان لابنـه: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾» وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآيـة: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسـوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالـوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسـول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمعـون إلى قول لقمان: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾» وهـذا يدل على أن قولـه تبارك وتعـالى: ﴿والكافـرون هم الظـالمون﴾ أي والجاحدون لله المكـذبون بـه وبرسلـه هم الموصـوفون بأنهم أظلم النـاس الواصلـون أقصى درجـات الظلم، على أن الظلم ظلمات يـوم القيـامـة فقـد روى البخـاري ومسلم من حـديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة» كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقـوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامـة، واتقوا الشح فإنّ الشحّ أهلك من كـان قبلكم، حملهم على أن سفكـوا دمـاءهم واستحلّـوا محارمهم». وقـد حذّر الإسـلام من عواقب الظلم بجميع أنـواعه وقـد أخبر رسول الله ﷺ أن الله يقول في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فـلا تظالموا». الحديث، كما وصف الله تبارك وتعالى الحال الفظيعة التي يؤول إليها الظالمون يوم القيامة حيث يقول: ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخـرهم ليوم تشخص فيه الأبصار* مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئـدتهم هواء* وأنذر الناس يـوم يأتيهم العذاب فيقـول الذين ظلمـوا ربنا أخـرنا إلى أجل قـريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال* وسكنتم في مسـاكن الـذين ظلمـوا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنـا بهم وضربنـا لكم الأمثال* وقـد مكروا مكـرهم وعند الله مكـرهم وإن كان مكـرهم لتـزول منه الجبال* فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾. وكما قال

عـز وجل: ﴿وأنذرهم يـوم الآزفة إذ القلـوب لـدى الحناجـر كاظمين، مـا للظـالمين من حميم ولا شفيع يطـاع﴾ هـذا وينبغي للمسلم أن يكثـر من الاستغفار من ظلمـه لنفسه، فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله علمني دعاء أدعـو بـه في صـلاتي، قـال: «قل: اللهم إنى ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنـوب إلا أنت، فاغفرلي مغفرة من عنـدك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

قال تعالى: ﴿الله لا إلَّه إلا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السمٰوات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيّه السّمٰوات والأرض ولا يؤوده حفظهما، وهو العليّ العظيم﴾.

بعد أن بيّن الله عز وجل أنّ النّاس اختلفوا لمّا جاءتهم الرسل بالبينات، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وأمر المؤمنين بالبذل في مكافحة أعداء الله وأن الكافرين الظالمين المكذبين بالله وبرسله لن يشفع فيهم يوم القيامة شافع، ذكر هنا جملة من صفاته الكريمة وأسمائه الحسنى وبين أنه لا يجرؤ أحدٌ يوم القيامة على الشفاعة لأحد إلا بإذن الله، وقد بيّن قبل ذلك فيما أنزل على رسوله ﷺ بمكة في سورة طه وفي سورة الأنبياء وفي سورة النجم أنه لا شفاعة إلا لمن مات على الإيمان فرضي الله عنه، كما أوضحت ذلك في تفسير الآية السابقة. وهذه آية الكرسي وهي أعظم آية في كتاب الله، وقد جعل الله تبارك وتعالى فيها وضمّنها ما لم تتضمنه آية واحدة أخرى في كتاب الله عز وجل، وما تضمنته إنما تتضمنه آيات كثيرة لا آية واحدة، وقد جعل الله تبارك وتعالى فيها من الخصائص الشيء الكثير كما صحت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ، فقد قال البخاري في صحيحه: قال عثمان بن الهيثم حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني، فإني محتاج وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كَذَبَك وسيعود» فعرفتُ أنه سيعود لقول

رسول الله ﷺ إنه سيعود، فَرَصَدْتُه، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعليّ عيالٌ، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته فخلّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأَرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذه آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿الله لا إلـه إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «ما هي؟» قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿الله لا إلَه إلا هو الحيّ القيوم﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت: لا، قال: «ذاك شيطان» اهـ فقراءة آية الكرسي تطرد الشياطين، وتحفظ المسلم من شرهم وخبثهم وقد روى مسلم من حديث أُبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: ﴿الله لا إلَه إلا هو الحي القيوم﴾ قال: فضرب في صدري وقال: «والله لِيهْنِك العلمُ أبا المنذر». وقد اشتملت هذه الآية العظيمة على عشر جمل، الجملة الأولى هي قوله عز وجل: ﴿الله لا إلَه

إلا هو﴾ أي الله الذي لا يستحق العبادة إلا هو ولا تجوز العبادة لسواه، وقد اشتملت هذه الجملة على كلمة التوحيد التي هي مفتاح الإسلام ومفتاح الجنة، وقد تقدم مزيد بيان لمعناها في تفسير قوله عز وجل: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ والجملة الثانية من الجمل العشر التي اشتملت عليها هذه الآية العظيمة هي قوله عز وجل: ﴿الحي القيوم﴾ والحيّ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو الحي القيوم، والحيّ القيوم مذكوران معا في القرآن في ثلاث سور: أوّلها في هذا المقام من سورة البقرة والثاني في مطلع سورة آل عمران: ﴿الم* الله لا إله إلا هو الحي القيوم* نزّل عليك الكتاب بالحق﴾ والثالث في سورة طه: ﴿وعَنَت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما﴾ وهذان الاسمان من أعظم أسماء الله الحسنى حتى قيل إنهما الاسم الأعظم، فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال لله عز وجل أكمل تضمّن وأصدقه، فعلى هذين الاسمين الكريمين مدار الأسماء الحسنى كلّها وإليهما ترجع معانيها، لأن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، والقيوم متضمن كمال غناه وكمال قدرته، والله تبارك وتعالى موصوف بالحياة لا يموت أبدا ولذلك قال عز وجل: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ فحياته عز وجل حياة كاملة باقية لازمة لذاته لا تقبل الفناء أبدا، بخلاف حياة غيره فإنها حياة ممكنة قابلة للزوال والفناء، والقيوم هو القائم بنفسه فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته عز وجل له. والجملة الثالثة من جمل هذه الآية العظمى هي قوله تبارك وتعالى: ﴿لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم﴾ السِّنَة مقدِّمة النوم وهي حالة فتور وارتخاء تسبق الاستغراق في النوم، وقد يطلق عليها اسم النُّعاس، ونفي السنة والنوم مستلزم لكمال حياته وقيوميته. قال ابن جرير رحمه الله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي﴾ الذي لا يموت ﴿القيوم﴾ على كل ما هو دونه بالرزق والكلاءة والتدبير والتصريف

من حال إلى حـال ﴿لا تأخذه سنـة ولا نوم﴾ لا يغيّره ما يغير غيره ولا يُـزيله عما لم يَـزَلْ عليه تنقّل الأحـوال وتصريف الليالي والأيـام، بل هو الـدائم على حال، والقيّوم على جميع الأنـام، لو نام كان مغلوبا مقهـورا لأن النوم غالب النائم قـاهره، ولو وَسَنَ لكـانت السموات والأرض وما فيهما دكًّـا، لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقـدرته، والنوم شـاغل المدبّر عن التدبير، والنّعـاس مانعٌ المقدّر عن التقـدير بـوَسَنِه اهــ وقد روى مسلم في صحيحه مـن حديث أبي مـوسى رضي الله عنه قـال: قام فينـا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقـال: «إن الله عز وجلّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينـام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لـو كشفـه لأحـرقت سُبُحـات وجهه مـا انتهى إليـه بصره من خلقـه». اهــ وسبحات وجهـه أي نوره وجـلاله وبهاؤه. أما الجملـة الرابعـة من جمل هذه الآية الكريمـة فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿له مـا في السمٰوات وما في الأرض﴾ أي إنّ جميع الكـــائنـــات في السمـــوات وفي الأرض ملـك لله وتحت قهـــره وسلطانـه، فهو خالقها ومـدبّرها والمهيمن عليهـا، والإنس والجن والملائكة جميعا عبيـد له، وكما قال عـز وجل: ﴿ إنْ كُلُّ من في السمٰوات والأرض إلا آتي الرحمن عَبْدًا* لقد أحصاهم وعَدَّهم عَدًّا* وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ وإذا كان الله عـز وجل هو مـالك جميع ذلك بغير شريك ولا ند وهـو وحده خـالق كل شيء، فـلا تنبغي العبـادة إلا له وحـده لا شريك لـه. والجملـة الخامسة من جمل هـذه الآية الكريمة هـي قوله تبارك وتعـالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنـده إلا بإذنه﴾ أي من هـذا الذي يجرؤ على أن يشفع لأحـد من غير إذن الله له بالشفـاعة؟ والمراد بالاستفهام هنـا النفي، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه بسبب عظمـة الله وكبريائه وجلاله فلا يتجـاسر أحد على أن يشفع لأحد إلا أن يأذن الله له في الشفاعة، ولذلك عندما يطلب الناس من الأنبياء

ليشفعوا لهم عند الله في الموقف العظيم فيتأخر عنها الأنبياء ويحيلهم آدم على نـوح ثم يحيلهم نوح على إبـراهيم ثم يحيلهم إبـراهيم على مـوسى ثم يحيلهم موسى على عيسى ثم يحيلهم عيسى على سيـد المرسلين محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين فيأتي رسول الله ﷺ تحت العـرش ليستأذن في الشفاعة ويخر لله ساجدا ضارعا إليه في الإذن له بـالشفاعة ويُلْهَمُ تحميدات وتقديسات لله عز وجل ما أُلْهِمَهَا من قبلُ فينـادى: يا محمد ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تُشفع. أما الجملة السادسة من جمل هذه الآية العظيمة فهي قوله عز وجل: ﴿يعلم ما بين أيـديهم وما خلفهم﴾ أي إنّ علمه محيط بجميع خلقـه وسائر الكائنـات ماضيهـا وحاضرها ومستقبلهـا لا يتحرّك متحـرك منها ولا يسكن ساكن إلا بعلمه كما قال عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحـر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمهـا ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ والجملة السابعة من جمل هذه الآية العظمى هي قوله عز وجل: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أي ولا يطّلع أحد من خلق الله مِن مَلَك مقـرب أو نبي مرسل أو غيرهما على شيء من علم الله إلا بما أراد الله تبارك وتعالى اطّـلاعه على ذلك وأطلعه عليه كما أنه لا يعلم أحد شيئا عن ذاتـه المقدسة وأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى إلا بما يُعَلِّمه الله من ذلك، ولذلك يقول عز وجل: ﴿ ولا يحيطون به علما﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبـه أحدا* إلا من ارتضى من رسـول فإنـه يسلك من بين يـديـه ومن خلفـه رَصَـدًا* ليعلم أنْ قـد أبلغـوا رسالات ربهم وأحـاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عَدَدًا﴾ ولـذلك أخبر عز وجل عن مـلائكته قولهم: ﴿قـالوا سبحـانك لا علم لنا إلا مـا علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ وإذا كـان العلم لله وحـده، وغيره لا يعلم شيئـا من العلم إلا ما يعلّمـه الله فكيف يُعْبَدُ غيرُ الله؟ والجملـة الثامنـة من جمل هذه

الآية العظمى هي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّه السموات والأرض﴾ هذه الجملة هي التي سميت الآية كلّها باسم كلمة منها فقيل لها آية الكرسي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقد سئل: هل العرش والكرسيّ موجودان أو أن ذلك مجاز؟ فأجاب: الحمد لله، بل العرش موجود بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، وكذلك الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع جمهور السلف، وقد نقل عن بعضهم أن كرسيّه علمه وهو قول ضعيف فإن علم الله وسع كلّ شيء كما قال: ﴿ربّنا وَسِعْتَ كُلَّ شيء رحمة وعلما﴾ والله يعلم نفسه ويعلم ما كان وما لم يكن، فلو قيل: وسع علمه السموات والأرض لم يكن هذا المعنى مناسبا، ولا سيما وقد قال تعالى: ﴿ولا يَؤُودُه حِفْظُهما﴾ أي لا يُثْقِلُه ولا يَكْرِثُه وهذا يناسب القدرة لا العلم، والآثار المأثورة تقتضي ذلك اهـ. أما الجملة التاسعة فهي قوله عز وجل: ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ أي لا يُتْعِبُه حفظُ السموات والأرض وهذا النفي مستلزم لكمال قدرته، يقال: آدَه الأمر، إذا بلغ منه المجهود وأتعبه، وقد نفى الله عز وجل عن نفسه المقدسة أن يصيبه تعب من حفظ السموات والأرض كما أنه لم يصبه تعب في خلق السموات والأرض كما قال عز وجل: ﴿ولقد خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مَسَّنَا من لُغُوب﴾ وفيها ردّ على اليهود قبحهم الله الذين يزعمون في أول صفحة من التوراة التي حرّفوها بأيديهم أن الله تعب لما خلق السموات والأرض واستراح يوم السبت. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرا. أما الجملة العاشرة من هذه الآية العظمى فهي قوله عز وجل: ﴿وهو العلي العظيم﴾ أي وهو عز وجل الكبير المتعال القاهر فوق عباده.

قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرّشد من الغيّ، فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليمٌ﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى اختلاف الناس بعد مجيء الحق وأن منهم من آمن ومنهم من كفر، وقد حضّ على مكافحة الكفر، حتى لا يعم الفساد في الأرض، وذكر آية الكرسيّ المشتملة على أصول أسمائه الحسنى وصفاته العلى، الدالة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده، قال هنا: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرّشد من الغيّ﴾ ولا نزاع عند أهل العلم أنّ من ارتد عن الإسلام بعد الدخول فيه وأبى أن يرجع إلى الإسلام بعد أن يُبَيَّنَ له بطلان ما قد يكون عنده من شبه أنه يجب قتله، لما رواه البخاري في صحيحه من طريق عكرمة قال: أُتِيَ علي رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: «لا تعذّبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه» اهـ وقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على قتال المرتدين ومانعي الزكاة وعلى رأس أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ شيخ الأمة الإسلامية وأفضلها بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ومعه عمر الفاروق رضي الله عن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين، وقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لو منعوني عَنَاقا كانوا يؤدونه على عهد رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما تُوُفّي نبيّ الله ﷺ واستُخْلِفَ أبو بكر وكفر من كفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر، كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم منّي ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابُه على الله»؟ قال أبو بكر:

والله لأقـاتلنّ من فرّق بين الصـلاة والزكـاة، فإنّ الـزكاة حق المال، والله لـو منعوني عَنَاقًا كانوا يـؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فوالله مـا هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صـدر أبي بكر للقتال، فعـرفت أنه الحق. اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى دعوة أبي بكر لقتال المرتدين في محكم كتابه حيث يقـول عز وجل: ﴿قل للمُخَلَّفين من الأعراب سَتُـدْعَوْن إلى قوم أُولِي بأس شديد تقاتلونهم أو يُسْلِمُـون فإن تطيعوا يؤتكم اللهُ أجرا حسنا وإن تَتَولَّوْا كما تولَّيْتُم من قبلُ يُعذِّبْكم عذابـا أليما﴾ وفي هذه الآية الكريمة شهادة من الله سجلها في كتابـه الكريم بصحة إمامة أبي بكر وخـلافته رضي الله عنه لأن هذه الآية نزلت في معاتبة المخَلَّفين عن غزوة تبوك ولم يقاتل رسول الله ﷺ بعد غزوة تبـوك أحدا، ولم يدع رسول الله ﷺ إلى قـوم ليس لهم إلا الإسلام أو السيف بعد نزول هذه الآية قطعا، فكانت هذه الآية شاهد صدق على صحة خلافة الصديق وشرعيـة دعوته لقتال المرتدين ومانعي الزكـاة، وقد صار هذا الحكم معلـومـا من دين الإسـلام بالضرورة، وقـد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي موسى الأشعـري رضي الله عنه قـال: أقبلت إلى النبي ﷺ، ومعي رجـلان من الأشعريين، أحدهما عن يمينـي، والآخر عن يساري، ورسول الله ﷺ يَسْتَاكُ، فكلاهما سأل، فقـال: «يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس!» قـال: قلت: والذي بعثك بـالحق ما أطلعـاني على ما في أنفسهما، وما شَعَرْتُ أنهما يطلبان العمل، فكأني أنظـر إلى سِواكه تحت شَفَتِه قَلَصَتْ، فقال: «لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبـا موسى أو يـا عبد الله بن قيس إلى اليمن» ثم أتبعـه معاذَ بنَ جبل، فلما قدم عليه ألقى له وسادة قال: انـزل، وإذا رجل عنده مُوثق، قال: ما هذا؟ قـال: كـان يهوديـا فأسلم ثم تهوّد، قـال: اجلس، قـال: لا أجلس حتى يُقْتَل، قضـاءُ الله ورسولـه، ثلاث مـرات، فأمر بـه فقُتِلَ، ثم تذاكـرنا قيـام

الليل، فقال أحدهما: أمّا أنا فأقوم وأنام، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي. اهـ ولا يستطيع أحد أن ينكر مثل هذا الحكم في شريعة الإسلام لحفظ الدين وحماية الشريعة من التلاعب بها، وحفظ الدين من الكليات الخمس التي اتفق عليها جميع النبيين والمرسلين، على أن جميع الأنظمة الأرضية كالشيوعية ونحوها من المذاهب الباطلة لا يُسْمَح لأحد ممن يُبْتَلَى بالوقوع تحت سيطرة المتسلطين بها أن يَلْمِزَها أو أن يطعن عليها فضلا عن إعلان كفره بها، وهذا لا جدال فيه، وقد أجمع المسلمون على أنّ من أدّى الجزية عن يد وهو صاغر من أهل الكتاب وكذلك المجوس فإنه يُقَرُّ على دينه من اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ولا يُكْرَه على الدخول في دين الإسلام، وفي ذلك يقول الله عز وجل في أهل الكتاب: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمون ما حَرَّم الله ورسوله ولا يَدِينون دينَ الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجِزْية عن يَدٍ وهم صاغرون﴾ وقد ألحق أصحاب رسول الله ﷺ المجوسَ بأهل الكتاب لأنّ لهم شبهة كتاب، وقد أُثِرَ عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في المجوس: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم». وإن كان هذا الأثر فيه بحث عند أهل العلم إلا أنّ الإجماع منعقد على العمل بحكمه، والإجماع حجة مستقلة لإثبات الأحكام، وما دامت هذه القواعد والأصول التي ذكرتُ قد أجمع عليها المسلمون كان قوله عز وجل: ﴿لا إكراه في الدين﴾ عامًّا أريد به الخصوص وهم أهل الكتاب ومن في حكمهم لأنهم لا يكرهون على دين الإسلام إن أدّوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وما أُثِرَ من سبب نزول هذه الآية الكريمة يؤيد ذلك حيث كان أهل يثرب من الوثنيين يعتقدون أن دين اليهود من أهل الكتاب خير من دينهم وكانت المرأة إذا كانت مقلاتا أي لا يعيش لها ولد أو لا يعيش لها إلا

ولـد واحد نـذرت إن جاءت بـولد أن تهوّده ليعيش على اعتقـادها فلما جـاء الإسلام وأيقنـوا أنه الـدين الحق الذي قد نسخ الله بـه الأديان كلّهـا أراد آباء الأولاد الـذين تهوّدوا أو تنصروا من العرب أن يقهـروهم على الدخـول في دين الإسلام وتـرك اليهودية أو النصرانيـة فنزلت هـذه الآية، قال ابن جـرير رحمه الله: حدثنا محمد بن بشّار قـال: حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عـن ابن عباس قال: كـانت المرأة تكون مِقْـلاتًا فتجعل على نفسهـا إن عاش لها ولـد أن تهوّده فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كـان فيهم من أبناء الأنصـار، فقالوا: لا ندع أبنـاءنا، فأنزل الله تعالى ذكـره: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾ اهـ قال في القاموس المحيط: والمقْلاتُ ناقة تضع واحدا ثم لا تحمل وامرأة لا يعيش لها ولد، اهـ وقد حاول بعض الناس أن يجعلها دليلا على حرية الدين وأنّ للإنسان أن يدخل أي دين شاء ويخرج منه متى شاء، وقد ربطوا ذلك بقوله عز وجل: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ وبقوله عز وجل: ﴿أفأنت تُكْرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وهذا فهم عـاطل باطل فـاسد كـاسد، يناقـض القواعد المقـررة المعلومـة من دين الإسـلام بـالضرورة، وقـد جهل هؤلاء أن الأمـر في اللسـان العـربي قـد يأتي للإباحة وللاستحباب وللإيجاب كما يأتي للتهـديد كقوله عز وجل: ﴿اعملوا مـا شئتم﴾ وللتعجيـز والإهانـة كقـولـه عـز وجل: ﴿قل كونـوا حجـارة أو حـديدا* أو خلقـا مما يكبر في صـدوركم﴾ وقد يكـون للصيرورة وللتسخير كقولـه عز وجـل: ﴿كونوا قـردة خاسئين ﴾ ومعنى: ﴿قـد تبين الرشـد من الغيّ﴾ أي قـد اتضح الهدى من الضلال. وقـولـه عز وجل: ﴿فمن يكفـر بالطـاغوت ويـؤمن بالله فقد استمسك بـالعروة الـوثقى لا انفصام لها﴾ أي فمن خلع الأنداد والأوثـان وما يدعـو إليه شيـاطين الإنس والجن من عبادة غير الله فقـد ثبت في أمـره واستقام على الصراط المستقيـم الذي يـوصلـه إلى

جنات النعيم، وقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وأصل العروة ما يجعل في الدّلو أو في الكوز من المقبض ليستمسك به من يتناوله. ومن عادة صانعها أن يحكمها حتى لا تنقطع. وقوله: ﴿لا انفصام لها﴾ أي لا انقطاع لها فلن يسقط المستمسك بها ولن يهلك، وقد روى البخاري ومسلم من طريق قيس ابن عُبَاد قال: كنت جالسا في مسجد المدينة فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فصلّى ركعتين تجوّز فيهما ثم خرج وتبعته فقلت: إنك حين دخلت المسجد قالوا: هذا رجل من أهل الجنة. قال: والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدّثك لم ذاك؟ رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ فقصصتها عليه، ورأيت كأني في رَوْضة ذَكَر من سَعَتها وخضرتها، وَسْطها عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عُرْوة فقيل لي: ارْقَهْ، قلت: لا أستطيع، فأتاني مَنْصَفٌ فرفع ثيابي من خلفي فَرَقِيتُ حتى كنتُ في أعلاها، فأخذت بالعروة، فقيل له: استمسِكْ. فاستيقظت وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبي ﷺ فقال: «تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العُرْوة عُرْوة الوُثْقَى فأنت على الإسلام حتى تموت». وذلك الرجل عبد الله بن سَلاَم. اهـ والمَنْصَف والمِنْصَف والوَصِيف هو الخادم. وقوله عز وجل: ﴿والله سميع عليم﴾ إشعار بأن ما يتلفظ به الإنسان أو ينطوي عليه من مُعْتَقَدٍ لا يَخْفَى على الله لأنه سميع عليم.

قال تعـالى : ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النـور والّذين كفروا أولياؤهـم الطّاغـوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات ، أولّئك أصحاب النّار هـم فيها خالدون* ألم تر إلى الـذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت قـال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمـس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الـذي كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين . ﴾

بعد أن ذكر الله عـز وجل أن الكافر بالطاغـوت المؤمن بالله قد استمسك بالعروة الـوثقى لا انفصام لها ، ذكر هنا أثر الإيمان بـالله على النفس الإنسانية وما يجلبه لها من نور البصيرة وطمأنينة النفس ومعرفة طريق الرشاد، واتضاح الرؤية عند وقوع المدلهمّات وأن الانقيـاد للطاغوت من شياطين الجن والإنس يوقع في الحيرة والشك والارتياب وانطماس معـالم الحقّ ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ أي الله متولّي أمور الذين آمنـوا به واستجـابوا لرسلـه وناصرهم ، ومـؤيدهم ومـوفّقهم للهدى ، ويدفع عنهم الرّدى ، ويُحِبُّهُم ويستعملهم في مرضاته ، والولي اسم من أسماء الله الحسنى كما قال عـز وجل : ﴿وهو الولي الحميـد﴾ وكما قال : ﴿أم اتخذوا من دونـه أولياء فـالله هـو الوليّ وهـو يحيي الموتى وهـو على كل شيء قديـر﴾ والوليّ : المحبّ والنصير والظهير والمعين والقيّم ، وضـدّ العدوّ، ومن كان الله وليّه كـان وليّا لله يـدفع الله عنه ما يكـره ، وكفى بالله وليـا وكفى بالله نصيرا ، ومن أعظم آثـار ولايـة الله لعبـده أيضـا تيسير سبيل الـرشاد لـه ، وتـوفيقـه لطاعته ، فيحافظ على حدود الله ويسعى في كل ما يقربه إلى الله عز وجل وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى قال : من عادى

لي وليّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنّه» اهـ وبهذه المنزلة يعيش المؤمن في كنف الله ورعايته وتأييده وتسديده وتوفيقه، وتتنزّل عليه الملائكة عند الموت بما يطمئن خاطره ويثلج صدره، فلا خوف عليه ولا حزن كما قال عز وجل: ﴿ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون* لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ وقد عرفهم الله عز وجل بقوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فكلّ المؤمنين المتقين أولياء لله والله وليّهم، وقد استحوذ الشيطان على بعض الناس من المنتسبين للإسلام، فأوقعهم في حبائله وشباكه، وأغراهم باتخاذ بعض المنتسبين للصلاح وسائط وشفعاء، وسماهم لهم أولياء، فاستجاروا بهم، وسألوهم حوائجهم، فأوقعهم فيما وقع فيه المشركون في الجاهلية الأولى وأعادوا معنى سُوَاع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْرٍ وَوَدٍّ، وصاروا لا يعرفون في الشدائد غير أوليائهم ولا يستغيثون إلا بهم وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وقالوا: هم يقربوننا إلى الله زلفى، فحكم الله عليهم بالكفر والكذب على الله حيث يقول عز وجل فيهم: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار﴾ وقد صار هؤلاء الجاهلون يطوفون حول أضرحة أوليائهم كما يطوف المسلمون بالكعبة مع أن الله عز وجل لم يشرع الطواف حول أي مكان في الدنيا سوى الكعبة المشرفة، وصاروا يذبحون لأضرحتهم القرابين وينذرون لهم النذور، ويخافونهم في السر والعلانية، وينسبون إليهم النفع والضر وقضاء الحاجات

وتفريج الكـربات، وقد ادعى هؤلاء الجاهلـون لهؤلاء الموتى صفات لا تثبت إلا لله عز وجل فحسبوا أنهم يسمعـون أصواتهم وأنهم يكشفون الضرّ عنهم، ويستوي في ذلك من ينـاديهم من بعيد أو من قـريب، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النـور﴾ قـد أجمع المفسرون على أن المراد ههنـا من الظلمات والنور هـو الكفر والإيمان، وقـد أشار الله عـز وجل إلى ذلك حيث يقول تبـارك وتعالى: ﴿أَوَمَـن كان مَيْتًا فـأحييناه وجعلنـا له نـورا يمشي به في الناس كمَن مثَلُـه في الظلمات ليس بخارج منها، كـذلك زُيِّن للكافـرين ما كانوا يعملون﴾ وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلا لنور الإسلام الذي يهتدي به المؤمنون، ومثلا لظلمات الكفر التي صـار بها الكفار يعمهون حيث يقول في مَثَل أنوار الإسلام الصافية النقيـة الخالية من الشوائب والشبهات: ﴿الله نور السمٰوات والأرض، مثـل نوره كمشكـاة فيها مصبـاح المصباح في زجـاجة، الزّجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجـرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نـار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثـال للنـاس والله بكل شيء عليم﴾ وقـال عـز وجل في مَثَل الظلمات التي يعيش فيها الكفار وما هم عليـه من الضياع: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقِيعةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فـوفّاه حسابـه، والله سريع الحساب* أو كظلمات في بحـر لُجّيٍّ يغشاه موج من فوقـه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضهـا فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يـراها، ومن لم يجعل الله له نورًا فما لـه من نور﴾ ومعنى إخراج الله الـذين آمنوا من الظلمات إلى النـور هو أنهم إذا حـاول الشيطان إيقـاعهم في الشبهـات والضلالات بصّرهم الله عـز وجل وأنـار لهم الطـريق كما قال عـز وجل: ﴿إنّ الـذين اتقـوا إذا مسّهم طـائف من الشيطـان تـذكـروا فإذا هم مبصرون﴾ كما أشار الله عز وجل إلى أن ولايته لعبده تثمر نصره وتأييده حيث

يقول تبارك وتعالى: ﴿إنّ وليِّيَ الله الذي نـزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين* والذين تـدعون من دونـه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿والذين كفـروا أولياؤهم الطـاغوت يخرجـونهم من النور إلى الظلمات﴾ أي ومن اتخذ غير الله وليًّا تشعبت بـه الطّـرق وتلقفتـه الأهـواء فأخرجته عن فطرة الله التي فطر عليهـا الناس، وألقت به في مَهَامِهِ الضلال وقد أشـار الله تبارك وتعـالى بقوله: ﴿ أوليـاؤهم الطاغـوت﴾ إلى تَشَتُّتِ أمور الكافرين، وتباين وتشعّب طرقهم، وأن شياطينهم يدعونهم إلى سبل معوجّة تبعـدهم عن الصراط المستقيم كما قـال عـز وجل: ﴿وأن هـٰذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السّبل فتفرق بكـم عن سبيله﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه وصّى كل نبي ورسول من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام أن يأمـروا قومهم بعبـادة الله وحده والكفر بـالطاغـوت حيث يقول عـز وجل: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ والطاغوت اسم يطلق على المذكـر والمؤنث والواحـد والجمع، ومن استعمالـه في الواحـد قول الله تبـارك وتعالى: ﴿يـريدون أن يتحـاكموا إلى الطـاغوت وقـد أُمِرُوا أن يكفروا به﴾ ومن استعمالـه في الجمع قول الله تبارك وتعالى هنـا في هذا المقام: ﴿أوليـاؤهم الطـاغـوت﴾ والطـاغــوت: الشيطـان والكـاهن وكلّ رأس في الضلال، وكلّ ما عُبِدَ من دون الله وهـو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادته، والحكم بغير مـا أنـزل الله حكم بـالطـاغـوت، وقـولـه عـز وجل: ﴿أولـٰئك أصحاب النـار هم فيها خالدون﴾ أي هـؤلاء الذين اتخذوا الطاغـوت أولياء فأخرجـوهم من فطرة الإسلام التي فطـر الله عليها الناس، واجتالـوهم عنها وأوقعـوهم في ظلمات الكفر وديـاجير الجهالـة هم أصحـاب النار الملازمـون لجهنم يوم القيامة المخلّدون في عذابها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم رَبِّـيَ الذي يحيي ويميت

قال أنـا أحيي وأميت قال إبراهيم فـإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الـذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بعـد أن ذكر الله تبارك وتعـالى في الآية الســابقة مـا يفيد تـأييده لأوليـائه وأن أولياء الطـاغوت مقهورون مدحورون في ظلمات الكفر والجهل ذكـر هنا صورة مشرقة من صور نصره لأوليائه و إذلالـه لأولياء الطاغـوت مهما كانت منـزلتهم في أعين الناس حيث قص تبارك وتعالى قصة ملك الكلـدانيين الذين بعث الله فيهم إبراهيم عليه السلام، فلما دعاه إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله الذي يحيي ويميت حاجّ إبـراهيم في ربه وحـاول إطفاء نـور الله بفمه، فقال: أنـا أحيي وأميت فأقتل من أشـاء وأترك مـن أشاء ممن يستحقّ القتل، فأجـابـه إبراهيم عليـه السلام مبطلا تمويهه وتضليله مظهرا قصور مـا استدل به وبطلانه؛ لأن هذا ليس إحيـاء حقيقيا ولا إمـاتـة حقيقيـة وقال لـه: إن الله يأتي بـالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر. ومعنى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبـراهيم في ربـه﴾ أي هل رأيت مثل هـذا الـذي خـاصم إبـراهيم في ربـه؟ والمقصود التعجيب من فعل ولي الشيطان هذا الذي بدّل نعمة الله كفرا فبدل أن يشكر الله على ما آتاه من الملك كفر به وادعى لنفسـه الإلّهية وصار طاغوتا من الطواغيت، وقوله عز وجل: ﴿فبُهِتَ الذي كفر﴾ أي انقطع عن الجدال وبطلت حجته، وعلم أنه لا طاقة له بمخاصمة إبراهيم وفوجئ بما لم يكن له في الحسبان من الحجـة الدامغة التي أفحمه بها خليل الـرحمن، وهكذا يُنْصَر أوليـاء الله ويُهْزَم أولياء الشيطـان. ولذلك يقـول عـز وجل: ﴿ الذين آمنـوا يقاتلون في سبيل الله والـذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقـاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ المقصود من الهداية هنا هي هـداية التوفيق والإعانة والتسديد والتأييد، يحرم الله الكفـار منها عدلا، ويمنحهـا لأوليائه فضلا. أما هـداية

البيان فإنها مبذولة لجميع المكلفين على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي بينا لهم طريق الخير وطريق الشر فاختاروا الكفر على الإيمان . وأما ما ذكره بعض المفسرين من أن المناظرة هذه قد جرت بين إبراهيم وهذا الملك عندما قدم إبراهيم لطلب الطعام منه، وأن الملك رفض بعد المناظرة إعطاء إبراهيم طعاما، فاشتد حزن إبراهيم عندما اقترب من منزل أهله كيف يدخل على سارة و إسحاق بدون طعام فملأ جُوَالِقَيْه ترابا ليؤنس أهله عند دخوله عليهم فلما نام انقلب التراب دقيقًا أبيض خالصًا. فصنعت سارة منه طعاما، فلما استيقظ إبراهيم وجد الطعام فقال لسارة: من أين لك هذا؟ قالت: من جُوَالِقِك، أي من غِرَارتك، فذهب إلى الجوالق الآخر فإذا هو مثله إلخ فهذا كذب ظاهر وخبر مختلق، و إسحاق لم يولد إلا بالشام.

قال تعالى: ﴿أو كالذى مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيى هٰذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت قال: لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما، فلما تبيّن له قال: أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير﴾

بعد أن عجّب الله عز وجل نبيّه محمدا ﷺ من الذي حاج إبراهيم في ربه وكان ملكًا ومع ذلك نصر الله إبراهيم عليه السلام عليه، عجّب هنا نبيّه محمدًا ﷺ من الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها فقال: أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها لينبه عباده بذلك على أنّ قدرته تامّة وأنه لا يعجزه شيء وأنّ إحياء الموتى سهل يسير عليه تبارك وتعالى. كأنه قيل: هل رأيت مثل الذي خاصم وجادل إبراهيم في ربه؟ أو هل رأيت مثل الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ولم يثبت عن رسول الله ﷺ خبر صحيح يثبت اسم الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها هذه، قال ابن جرير رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنّ الله تعالى ذِكرُهُ عجّب نبيه ﷺ ممّن قال: ـ إذ رأى قرية خاوية على عروشها ـ أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: أنّى يحييها الله بعد موتها؟ ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصحّ من قِبَلِه البيانُ على اسم قائل ذلك، وجائز أن يكون ذلك عُـزَيْرًا، وجائز أن يكون أُورْمِيَا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت ـــ من قريش ومن كان

يكـذّب بذلك من سـائر العرب ـــ وتثبيت الحجّـة بذلك على من كـان بين ظهراني مُهَاجَر رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيـل، بإطلاعه نبيّه محمدا ﷺ على مـا يزيل شكّهم في نبـوّته، ويقطع عـذرهم في رسالتـه، إذ كانت هـذه الأنبـاء التي أوحاهـا إلى نبيـه محمـد ﷺ في كتابـه، من الأنبـاء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومـه، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب. ولم يكن محمد ﷺ وقومه منهم، بل كان أميّا، وقومه أميّون، فكان معلوما بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره أن محمدا ﷺ لم يعلم ذلك إلا بوحي مـن الله إليه، ولو كـان المقصود بذلـك الخبر عن اسم قائل ذلك لكانت الـدَّلالة منصوبـة عليه نصبا يقطع العـذر ويزيل الشّك ولكنّ القصد كـان إلى ذمّ قِيلِه فأبان تعـالى ذكره ذلك لخلقه اهــ كما أنه لم يثبت عن رسول الله ﷺ ما يبيّن اسم القـرية التي مرّ عليها قائل هذه المقـالة، فتعيينها قول على الله بلا علم، إذ لـو كان في تعيينها مصلحة لعيّنهـا الله عز وجـل، ومـا دام القـرآن العظيم قـد نكّرهـا، ولم يعيّنهـا رسـول الله ﷺ فمن أين لنـا تعريفهـا؟ وقوله عـز وجل: ﴿وهي خاويـة على عروشها﴾ أي وهي سـاقطة على سُقُفها خـالية من أهلهـا يعني أنها سقطت سُقُفها ثم سقطـت جدرانها فوق سقوفها، يقال: خوت الدار أي خلت من أهلها أو سقطت، والعروش جمع عـرش وهو سقف البيت وكـلّ ما هُيِّئَ ليُسْتظَلّ بـه، وقـوله عـز وجل: ﴿قال أنّى يحيي هـٰذه الله بعد موتها﴾؟ ظـاهر هذا السياق الكـريم يُشْعِرُ أنّ قائل هذه المقالة كان مؤمنًا بـالله مقرا به عز وجل فيكون الاستفهام عن كيفية إحيائهـا بعد موتها، ولا يكون بـذلك شاكا في قدرة الله عـز وجل على إحياء الموتى وإنما هو شبيه بقـول إبراهيم عليه السلام الذي ذكـره الله عز وجل عنه في الآية التي بعـدها مباشرة حيث قـال: ﴿ربّ أرني كيف تحيي الموتى﴾ وهو شبيه بقول زكريا عليه السلام الـذي ذكر الله عز وجل عنه عندما بشّر بيحيى

عليه السلام: ﴿قال ربِّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذَٰلِكَ الله يفعل ما يشاء﴾ وهو شبيه أيضا بقول العذراء البتول مريم الذي ذكره الله عز وجل عنها بقوله تبارك وتعالى: ﴿قالت ربِّ أنّى يكون لي ولد ولم يمْسسني بشر قال كذَٰلك الله يخلق ما يشاء﴾ غير أن هذا القائل لم يطلب أن يرى بعينه كيفية إحياء الموتى وإنما يستفهم عن كيفية إحيائهم، وكان الجواب من الله عز وجل أن أراه الله عز وجل ذلك في نفسه وفي حماره الذي أماته الله عز وجل معه، ومما يؤكد أنه كان مؤمنا قوله عز وجل عنه في نهاية هذه الآية: ﴿قال أعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ هذا هو المقام الرابع من مقامات إحياء الله الموتى فعلا، ليكون دليلا قطعيا على قدرة الله على إحياء الموتى عقلا، لأن من المسلّمات العقلية أنّ كلّ ما وقع فعلا كان دليلا على أنه ممكن عقلا، وقوله عز وجل: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ أي فتوفاه الله عز وجل وقبض روحه فاستمرّ ميتا مائة سنة ثم ردّ إليه روحه، وقوله عز وجل: ﴿قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوما أو بعض يوم﴾ لا يلزم من هذا السياق الكريم أن يكون قد كلمه الله بنفسه بعد أن بعث فيه الحياة بغير واسطة إذ لا مانع في مثل هذا التعبير أن يكون القائل له هذا القول هو أحد ملائكة الله، ولا يلزم أيضا أن يكون هذا الرجل نبيا أو رسولا إذ أن الله تبارك وتعالى قد يبعث ملكا لغير النبي أو الرسول كما في قصة الرجل الذي زار أخا له في الله فأرصد الله له ملكا على مدرجته وبشره بأن الله تبارك وتعالى قد أحبه لأنه أحبّ في الله، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مَدْرَجَته مَلَكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني

رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه. وقد ذكر بعض المفسرين أن سبب قوله: ﴿يوما أو بعض يوم﴾ هو أنه لما سأله: كم لبثت؟ نظر إلى الشمس فوجدها نحو الموضع الذي رآها فيه عند موته فقال: لبثت يوماً، ثم بعد تمعّن قليل تذكر أنها لم تكن قد وصلت إلى هذا الموضع من السماء فقال: أو بعض يوم، ولا إشكال في مثل ذلك عند أهل العلم، وكما قال عز وجل في قصة أصحاب الكهف: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ مع أنهم لبثوا أكثر من ثلثمائة عام. وقوله: ﴿كم لبثت﴾ أي ما مقدار المدة التي مكثت هنا؟، وقوله عز وجل: ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ أي بل مكثت ميّتا مائة سنة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه﴾ أي فانظر بعينيك إلى ما كنت تحمله معك من طعام وشراب فإنه على حاله لم تغيّره السنوات المائة التي مرّت عليه بل حفظه الله من أن يتسرب إليه الفساد أو يتغير بطول هذه المدة التي مرّت عليه، وقوله عز وجل: ﴿وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ثم نكسوها لحما﴾ أي وأمعن نظرك إلى حمارك لتتأكد أنه ميّت ولترى بعينيك كيف يحييه الله عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ معطوف على مقدر يقتضيه السياق كأنه قيل: فعلنا ما فعلنا لتنظر بعينيك كيفية إحياء الله الموتى وليعتبر من يعلم بقصتك من الناس أن الله عز وجل أحياك بعدما أماتك مائة عام، حيث إن هذا آية من آيات الله الشاهدة الناطقة بأنه لا يعجزه شيء وهو على جمع عباده بعد موتهم إذا يشاء قدير، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾ أي وبعد أن تنظر إلى حمارك ميّتا كرّر النظر إليه لتشاهد عظام حمارك كيف نحييها فتتحرك وترتفع في أماكنها ثم نغطّيها باللحم ليعود حمارك حيّا كما كان أول مرة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مادة النشوز: وأصل هذه المادة

هو الارتفـاع والغلظ ، ومنه النَّشْز من الأرض وهو المكـان المرتفع الغليظ ومنه قوله تعـالى : ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزهـا﴾ أي نرفع بعضها إلى بعض ، ومن قرأ ﴿نُنْشِرُهـا﴾ أراد : نحييها اهـ وقال البخـاري في صحيحه في تفسير سورة البقـرة : ﴿نُنْشِرُها﴾ نخرجها . اهـ وقراءة (نُنْشِزُها) من السبع المتـواترة وقد قرأ بها حمزة والكسـائي وابن عامر وقرأ البـاقون : (نُنْشِرُها) بالـراء . وقوله تبارك وتعـالى : ﴿فلما تبيّن له قال أعلم أنّ الله على كل شيء قـدير ﴾ أي فلما اتضح له مـا أراد وتحقق بالمشاهدة مـا علمه من قدرة الله وعرف كيفيـة إحياء الله الموتى قال : أعلم أن الله على كل شيء قـدير، وأن ما شاء الله كـان وما لم يشأ لم يكن وأنـه إذا أراد شيئا قـال له كن فيكـون . وقد قـرأ حمزة والكسائي : ﴿قال اعْلَمْ أنّ الله على كل شيء قدير﴾ وقـرأ أكثر القراء : ﴿قال أعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ فعلى القراءة الأولى هو أمرٌ من الله عز وجل له بأن يتيقّن ويعلم علم مشاهـدة ما كان قـد علمه من تمام قدرة الله قبل تلك المعـاينة ، وهو شبيـه بتذييل الآية التـالية التي ذكـر فيها طلب إبراهيم عليـه السلام أن يريه الله كيف يحيي الموتى حيث قال : ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ .

قال تعالى: ﴿وإذ قال إبـراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال: أولم تؤمن قـال: بلى ولّكن ليطمئن قلبي قـال فخـذ أربعـة من الطّير فصرهنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءًا ثم ادعهنّ يأتينك سعيا، واعلم أنّ الله عزيز حكيم﴾

هذا هـو المقام الخامس والأخير من المقامـات التي ذكرهـا الله عز وجل في سورة البقرة لتكون دليلا يقينيا وبـرهانا قطعيا على أن إحياء الموتى سهل يسير على الله عز وجل وردٌّ على من أنكر البعـث بعد الموت من المشركين والملاحدة وغيرهم؛ لأن ما وقع فعلا هو داخل في دائرة الإمكان العقلي قطعا، وقد كرر الله تبارك وتعالى هـذا الأمر في هذه السورة المباركـة خمس مرات، كما أكثر الله عز وجل من ذكر أدلة إحياء الموتى في كتابه الكريم وجعل ذلك أحد الحقائق الثـلاث التي تـدور في فلكها السّـور المكيـة وهي الإقرار بـأنه لا إلـه إلا الله والإقرار بأن محمـدًا رسول الله والإقرار بـالبعث بعد الموت، وقد كـان جدال الكفار في إنكارهم للبعث كثيرا بل كان أشدّ من إنكارهم للتوحيد والرسالة، فلا جرم أن الله تبـارك وتعالى ساق له من الأدلة القطعيـة والبراهين اليقينية ما يشفي القلـوب التي هيأها الله عـز وجل لقبـول الشفاء، وقـوله عـز وجل: ﴿وإذ قـال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى قـال أولم تؤمن قـال بلى ولّكن ليطمئن قلبي﴾ هذا دليل آخر من أدلة ولاية الله عز وجل للمؤمنين بتأييدهم بالمعجـزات، وهو نص صريح على أن إبراهيم عليـه السلام كان عند سـؤاله موقنـا بالبعث بعـد الموت وبقدرة الله عـز وجل على إحياء الموتى، وأورده الله عز وجل في صـورة السؤال والجواب ليكـون أوقع في النفس وأثبت للمقصود وهو يقين إبراهيم عليه السلام في قدرة الله على بعث الموتى من قبورهم وتقرير صورة حسية من صـور إحياء الله للموتى على يد عبـد من عبيده الصالحين،

أي واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم: رب أَطلعني على صورة من صور إحيائك للموتى، فقال الله عز وجل وهو العليم الخبير بإيمان إبراهيم ويقينه: ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألني أن أريك كيف أحيي الموتى؟ وأراد الله بهذا السؤال وهو العليم بأن إبراهيم عليه السلام هو أثبت الناس إيمانا ويقينا بذلك ليكون في جواب إبراهيم تقرير بأنه عليه السلام مؤمن بذلك، لم يدخله شكّ قط فيه، فتتربّى ملكة اليقين في قلوب السامعين بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، حيث كان الجواب: ﴿بلى ولَكن ليطمئن قلبي﴾ أي أنا موقن مقر بالبعث وقدرة الله على إحياء الموتى، ولكني أحببت أن أضم إلى علم اليقين عين اليقين، وليكون أحد الأدلة المحسوسة على قدرة الله على إحياء الموتى، ولا يخطر على بال ذي بال أن إبراهيم كان شاكا، وقد كان جوابه الصريح أنه موقن مؤمن، وأما مارواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحقّ بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي» فإن المقصود من هذا الحديث هو الثناء على هؤلاء الأنبياء الثلاثة وبيان علوّ درجاتهم وارتفاع منازلهم وأن إبراهيم لو كان شاكًّا في قدرة الله على البعث لكنتُ أولى بالشك منه لأنه إمام الحنفاء وخليل الرحمن، وما دام لم يخطر على بال أحد أن محمدًا ﷺ يشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فكذلك إبراهيم عليه السلام، وهذا الأسلوب من الأساليب البلاغية المعروفة بتأكيد بالمدح بما يشبه الذم على حد قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فُلُولٌ من قِرَاع الكتائب

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثم اجعل

على كل جبل منهن جزءا﴾ أي إن أردت ذلك فخذ أربعة من الطير فضمّهن إليك وقطّعهن واخلطهن خلطا تتداخل فيه لحومها وأعصابها وعظامها حتى تصير كأنها قطعة لحم واحدة ثم بعد طحنهن على هذا الوصف فرّق لحومهن المختلطة على ما حولك من الجبال واجعل على كل جبل منهن جزءا من أجزاء اللحوم المختلطة بعظامها وعصبها. وهذه الصفة في تقطيع الطيور وخلط بعضها ببعض مأخوذة من قوله تبارك وتعالى: ﴿ فصرهنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ الذي يدل على أن كلّ جزء مما يوضع على كل جبل يشتمل على جزء من أجزاء الطيور الأربعة وهذا لا يتأتى إلا إذا خلطت خلطا تاماً يتداخل به بعضها في بعض. وقد قرأ حمزة: ﴿فَصِرْهُنَّ إليك﴾ بكسر الصاد. وقرأ الباقون: ﴿فصُرْهُنّ إليك﴾ بضم الصاد وقد نقل غير واحد من أئمة اللغة أن القراءتين بمعنى واحد لا فرق في ذلك بين كسر الصاد أو ضمها، وقد فهم من استعمال العرب لهذه المادة أنها تدور على معان منها: الضمّ والإمالة والإقبال والتقطيع والتجزئة، قال في القاموس المحيط: صَوِرَ كفرح مال وهو أَصْوَر، وصار وجْهَه يَصُورُه ويَصِيرُه أقبل به والشيءَ قطعه وفصّله اهـ وقال الجوهري في الصحاح: وأصاره فانصار أي أماله فمال. ثم قال: وصاره يَصُورُه ويَصِيرُه أي أماله، وقرئ قوله تعالى: ﴿فصرهنّ إليك﴾ بضم الصاد وكسرها قال الأخفش: يعني وَجِّهْهُن، يقال: صُرْ إليّ وَصُرْ وجهك إليّ أي أقبل عليّ، وصُرت الشيء أيضا قطّعته وفصّلته قال العجاج:

صُرْنا به الحُكْم وأعيا الحَكَما

فمن قال هذا جعل في الآية تقديما وتأخيرا كأنه قال: خذ إليك أربعة من الطير فصرْهنّ. اهـ وهذا الرجز الذي نسبه الجوهري للعجاج وكذلك ابن منظور، قد نسبه بعضهم لرؤبة بن العجاج. وقال ابن منظور في لسان

العرب: وصار الشيءَ صَوْرًا وأصاره فانصار: أماله فمال، قالت الخنساء:

لظلّت الشُّهْبُ منها وهي تَنْصارُ

أي تصدّع وتفلّق. ثم قال: وفي التنزيل العزيز: ﴿فصُرْهن إليك﴾ وهي قراءة عليّ وابن عباس وأكثر الناس، أي وجّههن، وذكره ابن سِيدَه في الياء أيضا لأن صُرتُ وصِرْت لغتان، قال اللحياني: قال بعضهم: معنى صُرْهنّ وجّههنّ ومعنى صِرْهنّ قطعهنّ وشققهنّ والمعروف أنهما لغتان بمعنى واحد اهـ والشاهد الذي ذكره ابن منظور عن الخنساء أورده ابن جرير في تفسيره بلفظ: لظلت الشُّمُّ منها وهي تنصار، يعني بالشّم الجبال أنها تتصدع وتتفرق، ومن استعمال صُرْت بمعنى أَمَلْت قول الطِّرِمّاح:

عفائف إلا ذاك أو أن يَصُورَها   هوًى والهوى للعاشقين صَروع

فمعنى يصورها يميلها. ومن استعمال هذه المادة بمعنى التقطيع قول توْبة بن الحميّر في ليلى الأخيلية:

فناديت ليلى والحُمُول كأنها   مَوَاقير نخل زعزعَتْها دَبُورُها

فقالت: أرى أن لا تفيدَك صحبتي   لهيبة أعداءٍ تلَظَّى صُدُورُها

فمدّت ليَ الأسباب حتى بلغتُها   برِفْقِي وقد كاد ارتقائي يَصورُها

فقوله: يصورها أي يقطعها. وفي قوله عز وجل: ﴿فصُرهن إليك﴾ إشعار بأن يتمكن من النظر إلى هذه الطيور قبل تقطيعها وطحنها وتوزيعها على الجبال، ليعرف ألوانها وسماتها حتى إذا أعاد الله لها الحياة لا تختلف عما كانت عليه من السمات والألوان وفي ذلك من دلائل القدرة ما تعجز العقول عن الإحاطة به. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثم ادْعُهُنّ يأتينك سَعْيا﴾ أي ثم نادِ هذه الطيور التي قطّعتها وطحنتها وفرّقت أجزاءها على الجبال وقل لهن: تعالَيْن إليّ بإذن الله، يجئْن إليك مُسْرِعات كأنهن ما مسّهن شيء قبل ذلك ويقبلن عليك لا يتأخرن عن دعوتك. وإذا كان المنادي لهن عبد صالح من

عباد الله فما بالك لو كان الداعي لهنّ ربّ العالمين، ومع ما في هذه القصة من الآيات العجيبة الدالة على قدرة الله التامة التي لا يعجزها شيء فإنها كذلك آية من آيات الله في تكريم أوليائه وتأييدهم وإعزازهم، وقوله عز وجل: ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: يعني تعالى ذكره بذلك: واعلم يا إبراهيم أن الذي أحيا هذه الأطيار بعد تمزيقك إياهنّ وتفريقك أجزاءهنّ على الجبال، فجمعهنّ وردّ إليهنّ الرّوح حتى أعادهنّ كهيئتهن قبل تفريقكهنّ «عزيز» في بطشه إذا بطش بمن بطش من الجبابرة والمتكبّرة، الذين خالفوا أمره، وعصوا رسله، وعبدوا غيره، وفي نقمته حتى ينتقم منهم «حكيم» في أمره اهـ ومن حكمة الله عز وجل التامة أنه يجيب السائلين بعلمه وبما يقتضيه المقام، ولذلك لم يُرِ الذي قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ لما مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قدرتَه على إحياء الموتى إلا بعد أن أماته مائة عام وأمات حماره معه، وأرى إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى في الحال، فسبحان من له الحجّة البالغة والحكمة التامة.

قال تعـالى : ﴿مثل الذين ينفقـون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّـة أنبتت سبع سنـابل في كلّ سنبلة مـائة حبّـة ، والله يضاعف لمن يشـاء ، والله واسع عليم* الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعـون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

هذا مقام من مقامات الحض على الإنفاق في سبيل الله عز وجل ، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية الأولى من هـاتين الآيتين : وهذه الآية مردودة إلى قوله : ﴿من ذا الـذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفـه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعـون﴾ والآيات التي بعدها إلى قـوله : ﴿مثل الذين ينفقون أمـوالهم في سبيل الله﴾ من قصص بني إسرائيل وخبرهم مع طـالوت وجالوت ، وما بعد ذلك من نبأ الذي حـاجّ إبراهيم مع إبراهيم ، وأَمْرِ الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها ، وقصة إبراهيم ومسألته ربّه ما سأل ، مما قد ذكـرناه قبل ــ اعتراضٌ من الله تعالى ذكـره بما اعترض به من قصصهم بين ذلك ، احتجاجا منه ببعضه على المشركين الذين كـانوا يكذّبون بالبعث وقيام الساعة ، وحضا منه ببعضه للمؤمنين على الجهاد في سبيله الذي أمرهم به في قوله : ﴿ وقـاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم . ﴾ يعرّفهـم فيه أنه نـاصرهم وإن قلّ عـددهم وكثـر عـدد عـدوّهم ويعـدهم النّصرة عليهم ، ويعلّمهم سنّته فيمن كان على منهاجهم من ابتغاء رضوان الله أنّه مؤيدهم ، وفيمن كـان على سبيل أعدائهم من الكفـار بأنـه خاذِلهم ، ومفـرّق جمعهم ، ومـوهن كيدهم ، وقطعـا منه ببعضـه عذر اليهـود الذين كـانوا بين ظهـراني مُهَاجَـر رسول الله ﷺ بما أطلع نبيّـه عليه من خفيّ أمـورهم ، ومكتوم أسرار أوائلهم وأسلافهم التي لم يعلمها سواهم ، ليعلمـوا أنّ ما أتاهم به محمد ﷺ من عند الله ، وأنه ليس بتخرّص ولا اختلاق ، وإعذارًا منه به إلى أهل النفاق

منهم، ليحذروا بشكّهم في أمر محمد ﷺ أن يحلَّ بهم من بأسه وسطوته مثل الذي أحلّهما بأسلافهم الذين كانوا في القرية التي أهلكها فتركها خاوية على عروشها ــ ثم عاد تعالى ذكره إلى الخبر عن الذي ﴿يقرض الله قرضا حسنا﴾ وما عنده له من الثواب على قرضه فقال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ يعني بذلك: مثل الذين ينفقون أموالهم على أنفسهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم ﴿كمثل حبّة﴾ من حبّات الحنطة أو الشعير أو غير ذلك من نبات الأرض التي تُسَنْبِل رَيْعَها، بذرها زارع فـ ﴿أنبتت﴾ يعني: فأخرجت ﴿سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبّة﴾ يقول: فكذلك المنفق ماله على نفسه في سبيل الله، له أجره سبعمائة ضعف على الواحد من نفقته اهـ والحبة اسم جنس لكل بذرة يبذرها الباذر في المزرعة مما يُقتات من حِنْطة أو شعير أو دُخْن أو أرز أو ذرة أو غيرها، وقد اشتهر إطلاق اسم الحبّ على البرّ كما قال المتَلَمِّس:

آليت حَبّ العراق الدّهرَ أطعَمُه والحَبّ يأكله في القرية السوس

أما الحِبّة بكسر الحاء فهي بذرة البقل مما ليس بقوت كما في حديث الشفاعة: «فيَنْبُتُون كما تنبت الحِبّة في حَمِيل السّيل» أما الحبّة بضم الحاء فهي الحبّ، والحِبّ الحبيب. والسّنبلة على وزن فُنعُلة من: أسبل الزرعُ إذا صار فيه السنبل أي صار فيه حبّ مستور كما يُسْبَل الشيء بإسبال السّتر عليه، وقد يقال لها: سَبَلَة، وقد ادعى بعض أهل العلم أنه لا يعرف من الحبوب ما تكون في سنبلته مائة حبة سوى الدخن، قال القرطبي رحمه الله: قلت: هذا ليس بشيء فإن سنبل الدّخن يجيء في السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر على ما شاهدناه. قال ابن عطية: وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبّة فأما في سائر الحبوب فأكثر، ولكنّ المثال وقع بهذا القدر اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أصل الضّعف في اللغة المِثْل

فإذا قلت لشخص: لك مـائة وضعفهـا، أي لك مـائة ومثلهـا فيصير لـه مئتان، وكان من فضل الله على المؤمنين أنه من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئـة فلا يجزى إلا مثلها كما قال عز وجل: ﴿من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جـاء بالسيّئة فلا يُجْزَى إلا مثلهـا وهـم لا يُظْلَمون﴾ وقد أشار في هذه الآية إلى أن النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف وقد قال في آية القرض السابقة: ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ وقال هنا: ﴿ والله يضاعف لمن يشاء﴾ فردّ عز وجل تضعيف الحسنات إلى مشيئته، وهو يشعر مع قولـه في آية القرض: ﴿فيضاعفـه له أضعافا كثيرة﴾ أنّ الله تبـارك وتعالى قـديـزيد المنفـق أكثر من سبعمائة ضَعف فضـلا منـه وجـودا، ولا شك أن المنفقين في سبيل الله يتفاوتون فيما ينفقون، ولا يستوي من أنفق مما يحب وهو صحيح شحيح بمن أنفق وهو ليس كذلك، ومردّ ذلك إلى الله وحده العليم الخبير بنوايـا خلقه وأحـوال عباده والـوجه الـذي تنفق فيه النفقـة من أبواب الخير. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدّق بعِدْل تمرة من كسب طيّب، ولا يقبل الله إلا الطّيّب، فإنّ الله يتقبّلهـا بيمينـه ثم يربّيهـا لصـاحبها كما يـربّي أحَدُكم فَلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل» اهـ ولا شك أن الجبل يزيد على التمرة بأضعـاف لا يكاد يحصي عددهـا الإنسان، وقـد جاء في حـديث مسلم عن عبد الله بن مسعـود رضي الله عنه قـال: جاء رجل بنـاقة مخطـومة فقـال: يا رسـول الله، هـذه في سبيل الله فقـال: «لك بها يـوم القيـامـة سبعمائة نـاقـة مخطومة» وقد أشار رسول الله ﷺ في حـديث فضل الصوم إلى أن الله قد يزيد في جـزاء الحسنة أكثـر من سبعمائة ضعف، فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ عمل ابن آدم يُضَاعَف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعـف قال الله تعالى: إلا الصوم

فإنه لي وأنا أجزي بـه يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فـرحتان، فرحة عند فطره وفرحة عند لقـاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». الحديث وقولـه تبارك وتعالى في تـذييل الآية: ﴿والله واسع عليم﴾ يشعر بأن فضلـه ومضاعفته الحسنات لا يقـف عند حدّ. وقد قـال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: في هـذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحِرَف التي يتخـذهـا الناس، والمكـاسب التي يشتغل بها العمّال، ولـذلك ضرب الله به المثل فقـال: ﴿مَثَل الذين ينفقون أمـوالهم﴾ الآية، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «مـا من مسلم يغرس غرسـا أو يزرع زرعـا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صـدقة» وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض» يعنى: الزرع، أخـرجه الترمذي، وقـال ﷺ في النخل: «هي الراسخـات في الوَحْل المطعمات في المَحْل» وهذا خـرج مخرج المدح، والزراعة من فروض الكفـاية، فيجب على الإمـام أن يجبر النـاس عليهـا، وما كـان في معنـاهـا من غـرس الأشجار، ولقي عبدُ الله بن عبد الملك ابنَ شهـاب الزهري فقال: دُلّني على مال أعالجه، فأنشأ ابن شهاب يقول:

أقـول لعبـد الله يـوم لقيتـهُ … وقـد شدّ أحلاس المَطِيِّ مُشرِّقا
تتبّع خبايا الأرض وادْعُ مليكَها … لعلك يـوما أن تجُـاب فتُرْزَقـا
فيؤتيك مالاً واسعـا ذا مثابـة … إذا ما مياه الأرض غارت تدفُّقا اهـ

وقـول القـرطبي: وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ مـا من مسلم يغـرس غرسا. الحديث هو في البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه وقول القـرطبي في حديث عـائشة: «التمسـوا الـرزق في خبايـا الأرض»: أخرجـه الترمذي، هو وهم من القرطبي رحمه الله، فلم يخرجه الترمذي، وإنما أخرجه الـدارقطني والبيهقي بسنـد ضعيف، وحديث النخل: هـي الراسخـات في

الوحل لم أجد له أصلا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتْبِعون ما أنفقوا منّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ بعد أن حضّ الله تبارك وتعالى على الإنفاق في سبيل الله ورغّب في ذلك أعظم ترغيب، ووعد المنفقين بعظيم الأجر وجزيل الثواب حذر أشدّ التحذير من إتباع المنْفَق عليهم بمنّ أو أذى، وبيّن أن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ولا يلحقون المنْفَقَ عليهم بمنّ أو أذى لهم الجزاء الجزيل والأجر الحسن عند الله عز وجل، وأنّ الله تبارك وتعالى يطمئنهم عند الموت بأنهم لا يخافون فيما يستقبلونه من أهوال القيامة والفزع الأكبر، وأنهم لا يحزنون على ما خلّفوه وراءهم في الدنيا من الأولاد ولا ما فاتهم من زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وأنهم قادمون على ربّ رحيم، جواد كريم. والمنّ: ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها، والأذى: هو السبّ والتشكي، وقد يكون الأذى من ثمرات المنّ، حيث يتحدث بأنه أعطى فلانا فيؤذيه بذلك، وقد يبذل المال للمجاهدين ثم يتحدث بأنه أعطى المجاهدين، ولكنهم مقصّرون فيؤذيهم بذلك كذلك، فبين الله تبارك وتعالى أن الذين يرغبون في الأجر من الله يجب أن يكون بذلهم لوجه الله لا يريدون من الناس جزاء ولا شكورا.

قال تعالى : ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، والله غني حليمٌ* يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه ترابٌ فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شيء ممّا كسبوا، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾

بعد أن حذّر الله تبارك وتعالى من إتباع الصّدقة بالمنّ والأذى ليحفظ للمنفقين في سبيل الله ثواب ما أنفقوه وليمنحهم الطّمأنينة في الدّنيا والآخرة، أكّد هذا التحذير هنا من إتباع الصدقة بالمنّ والأذى حيث يقول: ﴿قولٌ معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ الآيتين. وهذا من أعظم أسباب غرس حبّ الخير وبذل النفقة في سبيل الله ابتغاء وجه الله في نفس الإنسان حتى يصير ذلك ملكة له، وليحفظ على المنْفَق عليهم كرامتهم، وليرفعوا هامتهم، فلا يلحقهم ذلّ، ولا يصيبهم همّ بسبب منّة من يمتنّ عليهم من خلق الله، وليبيّن للمسلمين أن كرامة المسلم وعزّته فوق سائر الماديّات فالمال ظل زائل وعارية مستردة، ومعنى قوله عز وجل: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ أي كلام طيب ووعد بخير، ودعاء المسلم لأخيه بأن يفرّج الله كربته ويزيل عسرته، وردّ على السائل بالكلام الحسن والقول الجميل، وستر لما قد يبدر من السائل من إلحاح، وصفحٌ عن زلة أخيه المسلم أحبّ إلى الله عز وجل من صدقة يتصدق بها الإنسان ثم يلحقها بالمنّ والأذى وقوله عز وجل: ﴿والله غنيّ حليم﴾ أي والله عز وجل غني عن نفقة المنْفِقين وصدقة المتصدقين وهو قادر على أن يحوّل الحال فيجعل السائل غنيا والمسئول محتاجا، وهو حليم لا يعاجل بالعقوبة التي يستحقها المنّان والمؤذي. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أنّ مَنَّ

الإنسان على من أعطاه من كبائر السيئات، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنّان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». قال القرطبي رحمه الله: والعرب تقول لما يُمَنّ به: يدٌ سوداء، ولما يُعْطَى من غير مسألة: يد بيضاء، ولما يُعْطَى عن مسألة: يدٌ خضراء وقال بعض البلغاء: من منّ بمعروفه سقط شكره، ومن أُعجِب بعمله حبط أجره. وقال بعض الشعراء:

وصاحب سلَفَتْ منه إليّ يَدٌ   أبطا عليه مكافاتي فعاداني
لما تيقّن أن الدّهر حاربني   أبدى النّدامة فيما كان أولاني

وقال آخر:

أفسدتَ بالمنّ ما أسديتَ من حَسَن   ليس الكريم إذا أسدى بمنّان

وقال أبو بكر الورّاق فأحسن:

أَحسَنُ من كلّ حَسَنْ   في كلّ وقت وزمنْ
صنيعة مَرْبوبةٌ   خالية من المِنَنْ

وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل: فعلت إليك، وفعلت، فقال له: اسكت فلا خير في المعروف إذا أُحْصِيَ اهـ على أن العاقل ينبغي أن يشكر الله إذا سأله سائل أن لم يكن هو السائل، ولله در أبي بكر بن دريد حيث يقول:

لا تَدخُلنّك ضجرة من سائل   فلخير دهرك أن تُرى مسئولا
لا تَجْبهَنْ بالرّدّ وجه مؤمِّل   فبقاء عزّك أن تُرى مأمولا
تلقى الكريم فتستدلّ بِبِشْره   وتَرى العُبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنك عن قليل صائر   خَبَرًا فكن خبرًا يروق جميلا

وقد جعل رسول الله ﷺ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبيّ ﷺ:

«لا تحقرنّ من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» ومن أمثلة العرب: الكرم شيء هين، وجهٌ بشوش وكلام ليّن. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذي﴾ هذا هو التحذير الثالث من إتباع الصدقة بالمنّ والأذى وهو أشدّ التحذيرات الثلاثة، حيث بيّن الله عز وجل أن المنّ والأذى يبطلان ثواب الصدقة التي يلحقها المنّ والأذى، ثم شبّه المنّانَ المؤذِيَ المنفَق عليه بما يجب على المؤمن بالله ورسوله أن ينفر منه ولا يقع فيه ويحذره أشدّ الحذر حيث شبّهه بالذي ينفق ماله رئاء الناس وبالذي ينفق وهو لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وَمَثَلُ هؤلاء جميعا كَمَثَلِ الصخر الأملس الذي غطاه ترابٌ خفيف فنزل عليه مطر غزير فأزال ما عليه من التراب الذي كان يُظَنُّ فيه أنه ربما يُنْبت لو نزل عليه المطر، فانكشف الصفوان وأيقن كلّ من يراه أنّ الوابل الذي أصابه لن ينبت نباتا ولن يثمر ثمرة، ولن ينتفع أحد منه بحال من الأحوال، وذلك لأن عمل المرائي مردود؛ لأنه من الشرك الخفي، والله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه الله الكريم فهو جل وعلا أغنى الشركاء عن الشرك. قال الإمام أحمد في المسند: حدثنا يونس ثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جَزَى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً». ثم ساق من طريق إبراهيم بن أبي العباس ثنا عبدالرحمن بن أبي الزناد عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمر الظَّفَريّ عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم» فذكر معناه، ثم ساق من طريق إسحاق بن عيسى ثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن عمرو بن عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن

لبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: يـا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الريـاء، إن الله تبارك وتعالى يقول يـوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبـوا إلى الذين كنتم تـراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً »اهـ وقد أخرج المنذريّ حديث محمود ابن لبيـد هـذا في الترغيب والترهيب ثم قـال: رواه أحمد بإسناد جيـد. وقـد أخرجـه كذلك الحافظ ابن حجـر في بلوغ المرام وقـال: أخرجـه أحمد بإسناد حسن. كما أن الكـافر الـذي لا يـؤمن بالله واليـوم الآخـر لمّا كان لا يصـدّق بألوهية الله وربوبيتـه ولا يؤمن بأنه مبعوث بعد موتـه ومجزي بعمله فلا يتأتى منه على ذلك أن يعمل عمـلا لله عز وجل، ولو صنع شيئـا من المعروف فإن الله تبارك وتعالى لا يتقبله منـه لأنه إنما يتقبل من المتقين وكما قال عز وجل في الكفار: ﴿وقَدِمْنـا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هَبَـاءً منثورا﴾ ولا شك أن تشبيه عمل الـذي يُتْبع صدقتـه بالمنّ والأذى بالمرائين والكفـار هو غـاية في التحذير من هـذا العمل حتى يجتنبه المسـلم فلا يبطل صـدقته بالمنّ والأذى ولا يعمل عملا يصير بـه في صفوف المرائين والكافرين. والصفـوان: الصّفا وهي الحجارة الملس، وتقدم مزيد بيان لذلك في قوله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ والوابل هو المطر الشديد العظيم قال امرؤ القيس:

ســاعةً ثم انتحـــاها وابـــل ساقط الأكنـاف واهٍ منهـــمر

والصَّلـد هو الحجـر الصّلب الذي لا شيء عليـه من نبات ولا غيره وهـو أملس، كما قال رؤبة بن العجاج:

لّمـا رأتنـــي خَـــلقَ المُمَـــوَّه بـرّاق أصـلاد الجبـين الأجْـلَه

يعني أنّ جبينه قد زال شعره فصار يبرق كأنه صفاةٌ ملساء لا نبات عليها. وقـولـه عز وجل: ﴿لا يقـدرون على شيء ممـا كسبـوا﴾ أي لا يتمكن المرائي والكافـر والمانّ المؤذي من تصدق عليـه من الحصول على ثـواب نفقاتهم لأن

المرائي قد ردّ عمله الرياء وكذلك الكافر لا يتقبل الله منه شيئا ، وكذلك المانّ المؤذي من تصدّق عليـه قد أبطل عمله كما أخبر بذلك ربّ العـزة جل وعلا فلا ينتفع هؤلاء يوم القيامـة بما بذلوه من المال لأنهم أبطلوه بأعمالهم ، وتذييل الآية بقـوله عز وجل : ﴿والله لا يهدي القـوم الكافـرين﴾ تحذير للمسلم من عمل يشبـه عمل الكـافـرين ، الـــذين خـذلهم الله عـز وجل ، فلعبت بهم الشياطين ، وصرفتهم عن صراط الله المستقيم .

قال تعـالى : ﴿ومثل الذين ينفقون أمـوالهم ابتغاء مرضـات الله وتثبيتًا من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ، والله بما تعملـون بصير * أيـودّ أحـدكم أن تكـون لـه جنّـة من نخيل وأعناب تجري مـن تحتها الأنهار له فيهـا من كلّ الثمـرات وأصابـه الكبر وله ذرّية ضعفاء فأصابها إعصار فيـه نار فاحترقت، كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكّرون .﴾

هذان مثلان آخران أحدهما للذين ينفقون أموالهم في أنواع البر ابتغاء وجه الله، وهم على يقين بأنّ وعـد الله حق لمن أنفق مالـه ابتغاء مـرضاتـه، والمثل الآخر لمن ينفق ماله رئاء الناس أو يتبع ما أنفق منّا أو أذى، فقال عز وجل في مثل الأبـرار الـذين لا يريـدون من النـاس جـزاءً ولا شكورًا إنما يفعلـون مـا يفعلونـه لوجه الله : ﴿ومثل الذين ينفقـون أموالهم ابتغاء مرضـات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنّة بـربوة أصابها وابل فـآتت أُكُلها ضعفين﴾ أي ومثل الـذين يبذلـون أمـوالهم طلبا لمرضـاة الله واحتسـابا لما عنـده للمحسنين من جزيل الأجر ويقينا بأن وعد الله حقّ كمثل من له بستان على نَشْز من الأرض انهمر عليه المطر الشديد العظيم فأثمر هذا البستان ضعفي ما تثمر البساتين التي تشبهـه وتضارعه، وإذا كـان ضعف الشيء هـو مقداره مع زيـادة مثله عليه فإن ضعفيه يعادل أربعة أمثاله، وهذا لا شك بالنسبة لما تثمره البساتين عادة يكون مضرب المثل في البركة والنماء. وأصـل الجنة في اللغة هي البستان وهي قطعـة أرض تنبت فيهـا الأشجـار حتى تغطيهـا، وهي مـأخـوذة من الاجتنـان وهـو الاكتنـان والاستتـار، وسمّيت الجنّـة لأن من يـدخلهـا يجتنّ ويستتر تحت أشجارهـا ومنه الجنّ لأنهم مستـورون عن النـاس، ومنه الجنين لاجتنانه واستتـاره في بطن أمه. والربوة بفتح الراء وبضمهـا أيضا هي المكان

النّشز الظاهر المستوي المرتفع عن السيل، وكون الجنّة بالربوة يفيد حسن ثمارها لأنّ ما ارتفع من الأرض عن المسايل والأودية يكون أغلظ، وجنان ما غلظ من الأرض تكون أحسن وأزكى ثمرا وزرعا وغرسا من الأرض المنخفضة الواقعة في المسايل والأودية، وقد تغنّت العرب بوصف جنّات الرّبا فقال بعضهم:

مَن مُنزلي في روضة برَبَاوة بين النخيل إلى بقيع الغرقدِ

والرَّباوة لغة في الرّبوة، وقال أعشى بني ثعلبة في وصف روضة من رياض الحزن يفوح منها ريح كأنه المسك، يشبّه بها ريح صاحبته:

إذا تقوم يَضُوع المسك أصْورة والزّنبق الورد من أردانها شَمِلِ
ما روضة من رياض الحَزْن مُعْشِبة خضراء جاد عليها مُسْبِل هَطِل
يضاحك الشّمس منها كوكب شرق مُؤَزَّر بعميم النَّبْت مُكْتَهِل
يوما بأطيب منها نَشْرَ رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصُل

ومعنى: يضوع المسك أي تنتشر رائحته، وقوله: أصورة أي قطعا، وقوله: والزّنبق الورد، الزّنبق دُهْن الياسمين وورد وأحمره أجوده والظاهر أنه المراد هنا. والحزْن ما غَلُظ من الأرض، وقوله: جاد عليها مُسْبِل هَطِل أي انهمر عليها الجَوْد وهو المطر الغزير أو ما لا مطر فوقه في القوة، وهو مُسْبِل أي مرسل ماءه على الأرض، وهطل أي منتشر غزير دائم. وقال الصِّمَّة بن عبدالله:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الرّبى وما أحسن المصطاف والمَتَربَّعا

ودعوى بعض المفسرين بأن طيب جنات الرّبى خاص برياض نجد هي دعوى غير صحيحة لأن الله تبارك وتعالى ذكر امتنانه على عيسى ابن مريم وأمه بأنه آواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين حيث يقول: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمّه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ وهي لا شك في غير جزيرة

العرب. كما ذكرت قريبا مدح الشاعر روضة بربوة بين النخيل إلى بقيع الغرقد، وهي من نواحي المدينة المنورة.

ومجيء هذا التمثيل بهذه الصفة في القرآن شاهد من شواهد الإعجاز؛ لأن النبي محمدا ﷺ نشأ في واد غير ذي زرع، وقوله عز وجل: ﴿فآتت أكلها﴾ أي فأعطت ثمارها التي تؤكل، والوابل: المطر الشديد الضخم القطر، وقد تقدم قريبا مزيد تعريف له، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإن لم يصبها وابل فطلٌّ﴾ هو تأكيد لمدح هذه الرّبوة بأنها إن لم يصبها وابل فإنّ الطّل يكفيها وينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين وذلك لكرم هذه الأرض وطيبها، قال المبرّد في قوله عز وجل: ﴿فطلّ﴾ تقديره: فطلٌّ يكفيها، والطّلّ هو المطر الضعيف بل هو أضعف المطر حتى يطلق عليه اسم: النّدى، وقوله عز وجل: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ ترغيب وترهيب قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه ﴿والله بما تعملون﴾ أيها الناس في نفقاتكم التي تنفقونها ﴿بصير﴾ لا يخفى عليه منها ولا من أعمالكم فيها وفي غيرها شيء، يعلم من المنفِق منكم بالمنّ والأذى والمنفق ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من نفسه، فيحصي عليكم حتى يجازي جميعكم جزاءه على عمله إن خيراً فخيرا، وإن شرا فشرا، وإنما يعني بهذا القول جل ذكره التحذير من عقابه في النفقات التي ينفقها عباده، وغير ذلك من الأعمال أن يأتي أحد من خلقه ما قد تقدم فيه بالنهي عنه، أو يفرّط فيما قد أمر به، لأن ذلك بمَرْأَى من الله ومسمع، يعلمه ويحصيه عليهم، وهو لخلقه بالمرصاد اهـ وقوله عز وجل: ﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نارٌ فاحترقت﴾ هذا هو المثل الآخر في هذا المقام الكريم الذي ضربه الله عز وجل لمن ينفق ماله رئاء الناس أو يتبع ما أنفق منّا أو أذى، بأنه

يبطل بريـائه أو بمنّه وأذاه ثمرة عملـه فلا يفيده بشيء وهـو في أمسّ الحاجة إليه مع مـا يصيبه عند ذلك من الحسرة والنـدامة والحزن، وقد شبهـه الله عز وجل بـرجل تقدمت بـه السّنّ وبلغ من الكبر عتيّا وقـد فقد القـدرة على أن يعمل بنفسه عمـلا ينفعه، وقد ازداد حسرة وحـزنا بسبب أن لـه أولادا عجزة ضعـافـا لا يتمكنـون من جلب نفـع لهم أو لأبيهم أو دفع ضرّ عنهم أو عن أبيهم، وكان لهذا الرجل بستان يـانع الثمار من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار وقد اشتمل البستان مع نخيله وأعنـابه وأنهاره على كل ما تشتمل عليه البساتين من الـزروع والثمار، وبينما هو يتهيّأ لجني ثماره وتحصيـل ريعه لينفق منه على نفسه وعلى ذريته الضعاف العاجزين أرسل الله عز وجل على بستانه إعصارا فيه نار فأحرقت البستـان وذهبت بجميع ما فيه. فكم تكون حسرته وحزنه عند ذاك، وهكذا من أنفق ماله رئاء الناس أو أتبع ما أنفق منا أو أذى يحصل له يوم القيامة أضعاف ما أصاب ذلك الرجل الذي احترق بستانه من الحزن والهم والغم والكرب العظيم، لأن هـذا الرجل قـد يعطف عليه بعض النـاس فيحسنون إليـه ويمـدون لـه يد العـون، ولكن المرائين ونظـراءهم لا يجدون من يمـدّ لهم يـد العـون عنـد الله يـوم القيـامـة، ولا شك أن جـواب الاستفهـام في قولـه عز وجل: ﴿أيـود أحـدكم﴾ الخ، هو أن يقـول كلّ من عنده مثقال ذرة من عقل: لا أودّ ولا أتمنّى ذلك ولا أحبّ أبدا أن يصير لي ما صار له، قال البخاري في صحيحه: باب قـوله: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ إلى قوله: ﴿لعلكم تتفكرون﴾ حدثنا إبراهيم أخبرنا هشـام عن ابن جريج سمعت عبـد الله بن أبي مليكة يحدّث عن ابن عبـاس قال: وسمعت أخـاه أبا بكـر بن أبي مليكة يحدّث عن عبيـد بن عمير قال: قال عمر رضي الله عنـه يوما لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هـذه الآية نزلت ﴿أيود أحـدكم أن تكون له جنّـة﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمـر فقال:

قـولـوا: نعلم أو لا نعلم، فقــال ابن عبـاس: في نفسي منهـا شيء يـا أمير المؤمنين، قـال عمـر: يـا ابن أخي قل ولا تَحْقِـرْ نفسك، قـال ابن عبـاس: ضُرِبَتْ مثـلا لعمل، قال عمـر: أي عمل؟ قـال ابن عباس: لعمل، قـال عمر: لرجل غنيّ يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعـاصي حتى أغرق أعمالـه اهـ والإعصار في اللغـة: الريح الشـديدة التي تهبّ من الأرض إلى السماء كالعمود بها سَمُوم تلتف وتدور بسرعة فتتولد فيها نـارٌ تشتعل بها الحرائق، وقـد تتسبب في تـدمير المدن والقـرى وإحـداث الفيضانات. وهذا فيه إشـارة كذلك إلى الإعجاز العلمي في القرآن العظيم، لأن هذا النـوع من الريـاح نادر في أرض الحجاز وإن كـان معروفـا، كما قال بعض الشعراء:

إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارا.

وقوله تبارك وتعـالى: ﴿كذالك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أي كـذلك يوضح الله لكم الحجج الشـاهـدة بأن محمدا رسـول الله كي تتدبـروا وتتفهموا من أين هذه العلوم الكونيـة والشرعية التي جاء بها هذا الأمي الذي ما قرأ كتابا ولا خطّه بيمينه؟ وتعلموا أنه رسول من رب العالمين.

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ما كسبتم وممّا أخرجنالكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منْه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه، واعلموا أنّ الله غنيّ حميد﴾ .

بعد أن حض الله تبارك وتعالى على الإنفاق في سبيل الله وفي سائر أبواب الخير ابتغاء مرضاة الله واحتسابا للأجر والثواب عنده عز وجل وحذر أشد التحذير من إتباع الصدقة بالمن والأذى وبيّن أن الذين ينفقون أموالهم ثم يتبعونها بالمن والأذى يصيرون كالمرائين والكافرين الذين لا يتقبّل الله منهم، وأنهم يبطلون أعمالهم ويحرمون أنفسهم من أجرها، وجّه عباده المؤمنين ورغّبهم في الإنفاق من المال الجيد الذي يحصلون عليه من مكاسبهم في التجارة أو مما تخرجه مزارعهم، وحذّرهم أن تكون نفقتهم وصدقتهم من رديء المال وخسيسه ورذيله ممّا لو أُعْطوه لكرهوه وعافوه، والمراد بالطيبات في قوله تعالى هنا: ﴿يا أيها الذين آمنوا أَنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ هي الأنواع الجيّدة من الأموال، أما المراد بالطيبات في قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ فهي أنواع المال الحلال، لأن الإنسان لا يُحرِّص فيما يأكله إلا على أن يكون حلالا، بخلاف ما ينفقه في أبواب البر فإنه مع اشتراط كونه حلالا فإنه ينبغي أن يختار أجود المال وأحسنه وأحبّه إليه للتقرب به إلى لله عز وجل كما قال تبارك وتعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ والمقصود أنّ الإنسان إذا كانت عنده أموال بعضها جيد وبعضها رديء فلا ينبغي له أن يعمد إلى الرديء لينفق منه في أبواب البر كأن يكون عنده أنواع جيدة من التمر وفيها بعض الحشف، فيخرج الحَشَف في الصدقات، ويبقي لنفسه الأنواع الجيدة المختارة، فنهى الله تبارك وتعالى المسلم عن ذلك، أما إذا كان الإنسان لا يجد عنده إلا الأنواع

الرديئة فإن له أن يخرج منها لأن الله تبارك وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، وكما قيل: الجود من الموجود، ولذلك يدفع الله تبارك وتعالى نار جهنم يوم القيامة عن وجه المسلم الذي تصدّق بشقّ تمرة، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». وأخرجه مسلم من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوّذ منها ثم ذكر النّار فأشاح بوجهه فتعوّذ منها ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه تَرْجُمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة». كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئا غير تمرة، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال: «من ابْتُلِيَ من هذه البنات بشيء كنّ له سترا من النار». كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتُها ثلاث تمرات، فأعطت كلّ واحدة منهما تمرةً ورفعَتْ إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتْها ابنتاها فشقّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعَتْ لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار». وكما

أن المسلم لا ينبغي له أن يحتقر شيئا يتصدق به ما دام لا يجد خيرا منه فقد حذّر رسول الله ﷺ من يُعْطَى من أخيه المسلم شيء أن يحتقره مهما كان حتى ولو كان فِرْسِنَ شاة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المسلمات لا تَحْقِرَنّ جارة لجارتها ولو فِرْسِن شاةٍ». والفرسن: عظم قليل اللحم، وهو للبعير وللشاة موضع الحافر للدابة والقدم للإنسان ويقال له في البعير والشاة والبقرة: ظِلْف، وقد روى أحمد وأبوداود والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، عن أم بُجَيْد قالت: قلت: يا رسول الله إن المسكين ليقف على بابي حتى أستحي فلا أجد في بيتي ما أدفع في يده فقال رسول الله ﷺ: «ادفعي في يده ولو ظِلْفًا محرقًا». وقوله عز وجل: ﴿ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ أصل قوله عز وجل: ﴿ولا تيمموا﴾ أي ولا تتيمّموا فحذفت إحدى التّاءين تخفيفا وقد حذفت كذلك في ثلاثة وعشرين موضعا في كتاب الله عز وجل وهي: ولا تفرّقوا، توفّاهم، تعاونوا، فتفرّق بكم، تلقَّف (على إحدى القراءتين) ولا تولّوا «في الأنفال» تنازعوا، تربّصون، فإن تولّوا «في النور» لا تكلّم، تلقّونه، تبرّجن، تبدّل، تناصرون، تجسّسوا، تنابزوا، لتعارفوا، تميّزُ، تخيّرون، تلهّى، تلظّى، تنزّل الملائكة. والتّيمّم في اللغة هو القصد، قال الأعشى ميمون بن قيس في مدح قيس بن معد يكرب الكِنْدِي:

تيمّمت قيسا وكم دونه ... من الأرض من مَهْمَهٍ ذي شَزَن

وكما قال عامر بن مالك مُلاعِبُ الأسنّة في ضِرَار بن عمرو الضّبّيّ:

يمّمته الرّمح شَزْرًا ثم قلت له ... هَذِى البسالة لا لعبُ الزَّحَاليق

وكما قال امرؤ القيس:

تيمّمتها من أَذْرِعات وأهلُها ... بيثرب أدنى دارِها نظرٌ عال

وكما قال أيضا :

ولمـــا رأت أن المنيـــــّة وردها وأنّ الحصـى من تحت أقدامهـا دامي

تيمّمَتِ العين التي عند ضارج يفيء عليها الظّل عَرْمَضُـــها طامـي

والعرمض الطّحلب. وضـارج هو الجبل المعـروف في القصيم باسم جبل ضاري، وكما قال حميد بن ثور الهلالي :

ســل الرّبع أنَّى يمّمَتْ أمُّ طارق وهل عــادة للرّبـــع أن يتكلـّما

وقال الشافعي رحمه الله :

عِلمي معـي أينما يمّمت يتبعني صدري وعاء له لا بطن صندوقِ

والمراد بالخبيث في قوله عز وجـل هنا : ﴿ولا تيمّموا الخبيث﴾ هو الرديء ضد الجيـد، والعرب يطلقون على كل شيء يعافـونه كلمة خبيث ويقـولون : هـو خبيث الطّعم ، وهو خبيث اللّـون، قال ابن منظـور في لسان العـرب : يقال في الشيء الكريه الطعم والرائحة : خبيث، مثل الثوم والبصل والكرّاث اهـ فمعنى : ﴿ولا تَيَمَّمُـوا الخبيث منه تنفقون﴾ أي ولا تقصـدوا إلى الرديء من مكـاسبكم في التجـارة أو مـا يخرجــه الله لكم من الأرض فتجعلـوا منـه صـدقـاتكم وتتركون الطيّـب الجيّد لأنفسكم، وقـولـه عـز وجل : ﴿ولستم بآخـذيه إلا أن تُغْمِضوا فيه﴾ أي ولستم تـرضونه لأنفسكم لـو أُعطِيتُمُوه إلا بإغماض منكم وكـراهية في أخذه، فـلا تجعلوا لله مـالا ترضـونه لأنفسكم، والإغماض يطلق على التســاهـل وعلى غض البصر، قــال الجوهـــري في الصحــاح : وغمّضت عـن فـلان إذا تسـاهلت عليـــه في بيع أو شراء، وأغمضت، قـال الله تعالى : ﴿ولستم بـآخذيـه إلا أن تغمضوا فيـه﴾ يقال : أغمِضْ لي فيما بعتني كأنك تـريد الـزيادة منـه لرداءتـه والحط من ثمنه اهــ والتعبير بقولـه : ﴿ولا تيمموا﴾ يفيد أنه لـو حصل واختار المنفق نوعـا جيدا لإخراجه في النفقة في سبيل الله وكان فيه بعض الحشف القليل فإنه لا يضره،

وقـولـه عــز وجل: ﴿والله غني حميـد﴾ أي والله تبـارك وتعــالى غير محتـاج لصدقاتكم وهو غني عن جميع خلقـه، وهم فقراء محتاجون إليه في كل وقت وحين، وإنما يأمـركم بـالجود على الفقراء والمحتـاجين من إخـوانكم فأنفقـوا عليهم من أمـوالكـم الجيـدة، ومـا أنفقتم من شيء فهــو يخلفـه وهـو خير الـرازقين، وعليكم أن تحمـدوا الله عـز وجل على مــا أنعم بـه عليكم وهـو المحمود في جميع أفعـاله وأقواله وقـدره وشرعه، وهو إنما يأمركم بما يأمـركم به لتحصلوا على مرضـاته، وتفوزوا بالنعيم المقيم في جناتـه وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾.

قال تعالى : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم* يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وما يذّكر إلاّ أوْلواْ الألباب* وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ الله يعلمه، وما للظالمين من أنصار﴾

بعد أن حضّ الله تبارك وتعالى المؤمنين على أن ينفقوا من طيبات مكاسبهم ومزارعهم، وحذّرهم أن يتعمّدوا إخراج النوع الرديء من أموالهم، حذّرهم هنا من وساوس الشيطان التي يلقيها في قلوب بعض الناس حيث يوسوس لهم أنّ إخراج بعض أموالهم يؤدي إلى نقصها، وأنه ينبغي إمساكها خوف الفقر وأنه في الوقت الذي يقبّح لهم فيه البذل في أبواب الخير فإنه يحضّهم على ارتكاب الفواحش والوقوع فيما يغضب الله تبارك وتعالى، وهذه وظيفة الشيطان ذئب الإنسان ، ينهاه عن الخير ويأمره بالشر، والله تبارك وتعالى يعد المنفقين بأن يخلف عليهم أضعاف ما أَنفقوا، ويرزقهم من حيث لم يحتسبوا، مع مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم ، فإن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، فقد روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» ثم قال: «ألا أدلّك على أبواب الخير: الصوم جُنّةٌ، والصدقةُ تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» الحديث. وأخبر رسول الله ﷺ أن الصدقة لا تنقص المال، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما

زاد الله عبدا بعفو إلا عزّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه». ولو ظن ظانّ أنه إذا أخرج من مائتي ألف خمسة آلاف فإن مائتي الألف قد نقصت هذه الآلاف الخمسة، لأنا نقول له: وما يدريك أنّ الله تبارك وتعالى قد دفع عنك من الشرّ والأذى والأمراض والآفات ما كان يكلّفك أضعاف أضعاف هذه الآلاف الخمسة لو أمسكتها عن الإنفاق، والعبرة بالكيف لا بالكمّ فالقليل المبارك خير من كثير لا بركة فيه. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الشيطان دائما يخوّف المنْفِق من الفقر وأن الله تعالى يسدّد المؤمن بالملك الموكّل به فَيَعِدُه بالخير، فقد قال الترمذي: حدثنا هنّاد حدثنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مُرّة الهمدانيّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ للشيطان لمّةً بابن آدم وللملك لمّة، فأما لمّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبي الأحوص اهـ وفي بعض نسخ الترمذي: حسن صحيح غريب. وقوله عز وجل: ﴿ والله واسع عليم﴾ أي والله تبارك وتعالى يسع خلقه كلّهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير لا تنفد خزائنه على كثرة العطاء وهو عليم بنفقاتكم وصدقاتكم يحصيها لكم ويجزيكم بها أحسن الجزاء من واسع جوده وفضله مع ما يخلفه عليكم في الدنيا كما قال عز وجل: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾ وقوله عز وجل: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ أي يعطي الفقه في الدين والانقياد لأمر الله من يشاء من عباده فيشرح صدورهم للإسلام، وينير بصائرهم لمعرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ، وأصل الحكمة ما يمتنع به الإنسان من السّفه والوقوع في القبيح

ويحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه، لأن الحكمة مأخوذة من الإحكام وهو إتقان الفعل والقول، وقوله عز وجل: ﴿ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرا﴾ أي ومن يعط الحكمة والفقه في دين الله فقد حصل على الخير الكثير، وقد أخبر رسول الله ﷺ أنّ الفقه في دين الله والاستمساك بشرعه دليل على أن الله تبارك وتعالى يريد الخير لمن مُنح ذلك فقد روى البخاري ومسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد الله به خيرا يفقّهه في الدين» الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما يذّكّر إلا أوْلواْ الألباب﴾ أي وما يتعظ بما يجيء عن الله عز وجل وينتفع به إلا أصحاب العقول. وقوله عز وجل: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه﴾ هذا ترغيب وترهيب من الله عز وجل يفيد أن جميع تصرفات الإنسان عند الله علمها فمن كانت نفقته أو نذره ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من نفسه جازاه بالذي وعده من الخير الكثير والعطاء الجزيل ومضاعفة الحسنات ومغفرة السيئات، ومن كانت نفقته أو نذره رئاء الناس أو متبعةً بالمن والأذى أو قدّم في صدقته رديء ماله، أو امتنع عن بذل الخير طاعة للشيطان الذي خوّفه من الفقر، فإنّ جميع ذلك يعلمه الله عز وجل، ويثيب كلّ عامل بما عمل، والنذر هو أن يوجب الإنسان على نفسه شيئا لله عز وجل لم يكن في الأصل واجبا عليه. قال في القاموس: ونذر على نفسه ينذِر وينذُر نذرًا ونذورًا أوجبه كانتذر، ونذر ما له، ونذر لله سبحانه كذا، أو النذر ما كان وعدا على شرط، فعليّ إن شفى الله مريضي كذا نذرٌ، وعليّ أن أتصدّق بدينار ليس بنذر اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: ويعني بالنذر ما أوجبه المرء على نفسه تبرّرا في طاعة الله وتقرّبا به إليه من صدقة أو عمل خير اهـ وقال القرطبي في تعريف النذر: هو ما أوجبه المكلّف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه، تقول: نذر الرجل كذا إذا التزم فعله اهـ

والنذر من أنـواع العبادة فلا يجوز أن يجعل منه شيء لغير الله عـز وجل ، وقد كـان أهل الجاهليـة الأولى ينذرون لأصنـامهم وأوثـانهم ، وقـد وقع كثير من المنتسبين للإسلام فيما وقع فيه أهل الجاهلية الأولى فنذروا للمنتسبين للصلاح من الموتى ، وهم بـذلك يشركـون بـالله عز وجل ويعتقـدون أن هـؤلاء الموتى ينفعون ويضرون ، فيجعلـون لهم نذورا من أمـوالهم تقربـا إليهم مدعين أنهم شفعاؤهم عند الله ، والغالب في النذر أن يلتـزم الناذر بعمل طاعة في مقابلة استجلاب نعمة أو استدفاع نقمة وقد يعتقد بعض الناس أن النذر هو الذي يجلب النعمة أو يدفع النقمة وقد نبّه رسول الله ﷺ إلى أن النذر لا يقدّم شيئا ولا يؤخره ، وقد أجمع أهل العلم على أن من التزم بطاعة في مقابلة استجلاب نعمة أو استدفـاع نقمة فحصل له ما يـريد أنه يجب عليه الوفـاء بنذره ، وقد أثنى الله تبـارك وتعـالى على الموفين بالنـذر وجعلهم في جملـة الأبـرار وقمّتهم حيث يقول : ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مـزاجها كافورا* عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا* يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا﴾ الآيات . وقد سـاق البخاري من طريق سعيد بن الحارث أنـه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول : أو لم يُنْهَوْا عن النـذر؟ إن النبي ﷺ قال : «إن النذر لا يقدم شيئا ولا يـؤخر وإنما يُسْتَخْرَج بالنذر من البخيل» . ثم سـاقه البخاري رحمه الله من طريق عبـد الله بن مرّة عن عبـد الله بن عمر : نهى النبي ﷺ عن النذر وقال : «إنـه لا يردّ شيئا ولكنه يستخـرج به من البخيل» . ورواه مسلم بألفـاظ قـريبة من الألفـاظ التي رواه بها البخـاري ، وإذا كـان هذا في نـذر الطاعـة فإن النذر لغير الله من أقبح المعـاصي وأكبر السيئات لأنـه شرك بالله عز وجل ، وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «ومن نـذر أن يعصي الله فلا يعصـه» . كما روى مسلم من حديث عمـران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال : «لا وفاء لنـذر في

معصية». وقد روى أبو داود بسند صحيح من حديث ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلا بِبُوَانَة، فأتى النبيّ ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً بِبُوَانَة، فقال النبي ﷺ: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: «أوفِ بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم» قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في اقتضاء الصراط المستقيم: أصل هذا الحديث في الصحيحين، وهذا الإسناد على شرط الصحيحين، وإسناده كلّهم ثقات مشاهير اهـ وقوله عز وجل: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ هو وعيد شديد لمن انحرف بنفقته أو بنذره فصرفه لغير الله عز وجل فصار بذلك ظالما بل مرتكبا أفحش الظلم وهو الإشراك بالله عز وجل، ولن ينفعه مَن نَذر له مِن أولياء مِن دون الله، ولن ينصره أحد من عذاب الله، ووضع الاسم الظاهر موضع الضمير حيث قال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ولم يقل: وماهم من أنصار، لتسجيل صفة الظلم عليهم ولإشعارهم بأن من يصرف شيئا من النفقة أو النذر لغير الله يكون ظالما مشركا بالله.

قال تعالى: ﴿إن تبدوا الصّدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفّر عنكم من سيّئاتكم، والله بما تعملون خبير * ليس عليك هداهم ولّكنّ الله يهدى من يشاءُ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾

لما حذّر الله تبارك وتعالى المنفقين من المراءاة وبين أن الرياء يحبط العمل ويبطله، ذكر هنا أنّ إظهار الصدقات وإعطاءها علانية لا يضرّ صاحبها ولا يبطلها إذا قصد وجه الله عز وجل ولم يرد بذلك رياء ولا سمعة، ولم يكن في إظهارها إيذاء للمُعْطَى بل قد يكون ذلك من مصلحته، إذ قد يكون في ذلك لفت انتباه أهل الخير له لشدة حاجته، وقد امتدح الله تبارك وتعالى حينئذ إظهار الصدقة حيث يقول عز وجل هنا: ﴿إن تبدوا الصدقات فَنِعِمَّا هي﴾ أي إن تعطوا الصدقات علانية فنعم شيئا إبداؤها، وهذا في الصدقات الواجبة ظاهر وفي غير الواجبة إذا كان فيه مصلحة للمُعْطَى كما وصفت قريبا فقد يسارع أهل الخير لإعطائه فيكون الذي أعطاه أولا وأظهر عطيته له سببا في خير كثير له ويكون للذي دلّ عليه بعطائه أجرٌ مثل أجر الذين يتصدقون عليه بسببه، فقد روى مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أُبْدِعَ بي فاحملني فقال: «ما عندي»، فقال رجل: يا رسول الله أنا أدله على من يحمله، فقال رسول الله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» كما أنّ الذي يظهر صدقته لمن يُعْلَم أن الناس لا يتفطنون له ليتصدقوا عليه يكون قد سنّ سنة حسنة، فقد روى مسلم من طريق المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ

في صدر النهار قـال: فجاءه قوم حفاةٌ عراةٌ مجتـابي النِّمار أو العَبَاء، متقلّدي السّيوف، عامّتهم من مضر بل كلّهم من مضر، فتَمَعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفـاقة فـدخل ثم خرج، فأمـر بلالاً، فأذّن وأقـام، فصلى، ثم خطب، فقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى آخـر الآيـة ﴿إن الله كان عليكم رقيبـا﴾ والآيـة التي في الحشر ﴿اتّقـوا الله ولتنظـر نفس مـا قـدّمت لغـد واتقـوا الله﴾ «تصـدّق رجل من دينـاره، من درهمه، من ثـوبه، من صـاع بـرّه، من صـاع تمره»، حتى قال: «ولـو بشق تمرة»، قال: فجـاء رجل من الأنصـار بصرَّة كادت كفّـه تعجز عنها بـل قد عجزت، قـال: ثم تتابع النـاس حتى رأيت كَوْمَيْن من طعـام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجـرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعـده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». وقولـه عز وجل: ﴿و إن تخفوها وتؤتوها الفقـراء فهو خير لكم﴾ أي و إن تبذلوا الصدقات سرّا وتعطوها في الخفـاء فهو خير لكم مدّخر عنـد ربكم، وكلمة ﴿خير﴾ يحتمل أن تكون للتفضيل فيكون إعطاء الصدقة سرّا أفضل من إعطائها علنا وذلك إذا كـانت الحالة واحـدةً في الإبـداء والإخفـاء، ويخشى المتصدق على نفسـه الرياء، أو إلحاق المنْفَق عليه أذى، وعلى هذا يحمل ما ورد عن رسول الله ﷺ من الحض على صدقة السّر فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قال: «سبعـة يظلّهم الله في ظله يـوم لا ظلّ إلا ظلّه، الإمام العادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجـلان تحابّا في الله اجتمعـا عليـه وتفرقـا عليـه، ورجل طلبته امـرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخـاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفـاها حتى

لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه». وروى الطبراني في الكبير بإسناد وصفه المنذري في الترغيب والترهيب بأنه إسناد حسن من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السّوء، وصدقة السّر تطفئ غضب الرّب، وصلة الرّحم تزيد في العمر» اهـ ومعنى: «تزيد في العمر» أي يصير العمر مباركا يحصل لصاحبه فيه من الخير ما لا يحصل عليه غيره إلا في عمر يزيد عليه بكثير. أما إذا كان المنْفِق لا يخاف على نفسه الرياء ولا المنّ والأذى بصدقته وكان إعلان الصدقة فيه مصلحة ظاهرة للمُعْطَى كما ذكرت قريبا فإن قوله تبارك وتعالى: ﴿خير لكم﴾ لا يكون للتفضيل بل يكون المقصود منه أن إعطاء الصدقة حال الإخفاء خير من الخيرات وطاعة من جملة الطاعات، وقوله عز وجل: ﴿ويكفّر عنكم من سيئاتكم﴾ هذه قراءة عبد الله بن عامر وحفص عن عاصم أي ويستر الله عليكم أيها المنفقون ويغفر لكم من خطاياكم، والتعبير بـ (مِن) التي تفيد التبعيض ليكون العبد في مسيرته إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبو بكر عن عاصم: ﴿ونكفّر عنكم من سيئاتكم﴾ والواو على القراءتين للاستئناف لبيان مزيد فضل الله على عباده المنفقين ابتغاء وجهه، وقرأ نافع وحمزة والكسائي: ﴿ونكفّر﴾ بالنون وسكون الراء مجزوما على محل ﴿فهو خير لكم﴾ الواقعة في جواب الشرط، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ هو ترغيب وترهيب أي إن الله مطلع على جميع أحوالكم في سائر أعمالكم يعلم سركم وعلانيتكم، وإخفاءكم وجهركم فراقبوه في عموم أفعالكم وقفوا عند حدوده، واسلكوا صراطه المستقيم، ففي ذلك خير لكم في عاجلتكم وآجلتكم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولَكنّ الله يهدي من يشاء﴾ تبصير الخلق بأن قلوبهم بيد الملك الحقّ، وأن محمدا رسول

الله ﷺ وهو أفضل خلق الله قاطبة لا يقدر على تحويل قلوب العباد إلى طاعة الله ولا يملك التّصرّف والتّسلّط والسّيطـرة عليهم، لأن قلـوب العبـاد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشـاء فيهدي من أراد هدايته فضلا، ويضل من أراد إضلالـه وخذلانه عدلا، كما قـال عز وجل: ﴿لست عليهم بمصيطـر﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿إن عليـك إلا البلاغ﴾ وإذا كـان محمـدٌ رسـول الله ﷺ لا يملك التصرف في قلوب الخلـق ولا يمكنه أن يسيطـر على أفئدة العبـاد فهل يستطيع أحد من خلق الله سـواء كان ملكـا مقربـا أو نبيا مرسلا أو رجـلا صالحا أن يتصرف في قلوب العباد وأن يسيطـر على نفوسهم كما يـدعي بعض المنحـرفين عن الحق من المنتسبين لـلإسـلام بأن أوليـاءهم يسيطرون على الكون ويفعلـون ما يريدون، تعالى الله عما يقـولون علوّا كبيرا.
وقد روى الترمذي من طـريق شهر بن حوشب قـال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين ما كـان أكثر دعـاء رسول الله ﷺ إذا كـان عندك؟ قـالت كـان أكثر دعائه: «يـا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك». قالت: قلت: يـا رسول الله مـا أكثر دعـاءك: يا مقلب القلـوب ثبّت قلبي على دينك؟ قال: «يـا أمّ سلمة إنه ليس آدميّ إلا وقلبه بين أصبعين مـن أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ». الحديث. قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة والنوّاس بن سمعان وأنس وجابر وعبد الله بن عمـرو ونعيم بن عمّار، قال: وهذا حديث حسن اهـ كما روى البخاري مـن طريق سالم عن عبد الله قـال: كثيرا مما كان النبيّ ﷺ يحلف: «لا، ومقلّب القلوب»، كما روى مسلم من حـديث عبد الله بن عمـرو رضي الله عنهما أنه سمع رسـول الله ﷺ يقول: «إنّ قلـوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ، يصرّفه حيث يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرّف القلـوب صرّف قلوبنا على طاعتك»، فقوله تبارك وتعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾ للفت

انتباه المؤمنين إلى حاجتهم إلى الله عز وجل، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، وأن رسول الله ﷺ وظيفته أن يبلّغ الناس ما أنزل إليه من ربه، فعلى الناس المسارعة إلى طاعته لمصلحتهم هم، ولذلك قال عز وجل بعدها مباشرة: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾. أي وما تبذلوا من مال في وجوه الخير فنفعه لكم وعائد عليكم، وقوله عز وجل: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي ومادمتم تخرجون صدقاتكم ابتغاء مرضاة الله فقد وقع أجركم على الله، ولن يضيع عليكم عند الله شيء من أعمال البر التي تعملونها سواء كان المُعْطَى الذي طلبها مستحقا لها في نفس الواقع أو غير مستحق لأنكم لستم مطلعين على قلوب الناس ونياتهم، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدّقنّ الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على زانية، قال: اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدّقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على غني، قال: اللهم لك الحمد، على غني، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية وعلى غني وعلى سارق. فأُتِيَ فقيل له: أمّا صدقتك فقد قُبِلَتْ، أمّا الزانية فلعلها تستَعِفّ بها عن زناها، ولعل الغنيّ يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته».

قال تعـالى : ﴿للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعـون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون النّاس إلحافا، وما تنفقوا من خير فإنَّ الله به عليم﴾ .

بعـد أن حضّ الله تبارك وتعـالى على التّصـدّق على الفقراء في قـوله تبـارك وتعالى : ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أرشد عز وجل هنا إلى أنه ينبغي مراعاة أشد الناس فقـرا ، وهم العاجزون عن الاكتساب إما بسبب انقطاعهم للجهـاد في سبيل الله أو لطلب العلم أو عـدم قدرتهم على العمل وهم في نفس الـوقت متعفّفون حتى يظنّهـم الجاهل بأحوالهم الـذي لم يطّلع على ما هم فيـه من الفاقة أغنيـاء ، وقد وصف الله تبارك وتعالى هـؤلاء الفقراء الذين خصّهم بمزيد من الحض على مـراعاتهم وبذل الصدقات لهم بخمس صفات ، الصفـة الأولى : ﴿الذين أحصروا في سبيـل الله﴾ والصفة الثـانية : ﴿لا يستطيعون ضربا في الأرض﴾ والصفة الثـالثة : ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التّعفف﴾ والصفة الرابعة : ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ والخامسة : ﴿لا يسألون النّاس إلحافا﴾ ومعنى : ﴿أحصروا في سبيل الله﴾ أصل الإحصار في اللغة أن يعرض للإنسان ما يحول بينـه وبين سفره من مرض أو كبر أو عدوّ أو ذهاب نفقة أو مـا يجري مجرى ذلك ، أي إنّ هؤلاء الفقراء حصروا أنفسهم ووقفـوها على الجهاد في سبيل الله لإعـلاء كلمة الله وليس لهم شيء من مـوارد العيش ، فوجّـه الله تبارك وتعالى المسلمين إلى رعـاية من كان بهذه المثـابة من المسلمين لإزالـة عَيْلَتِهِم ، وتقـويـة قلـوبهم ، لما في ذلك من تقـوية الإسـلام بتقـويـة المجاهـدين المنقطعين للجهاد في سبيـل الله ، أما الصفـة الثانية مـن صفات هؤلاء انفقـراء فهي قولـه عز وجل فيهم : ﴿لا يستطيعـون ضربا في الأرض﴾

أي لا يقدرون على التجارة وأسباب الاكتساب بالسفر لالتماس الرزق لأنهم لما حبسوا أنفسهم على الجهاد منعهم ذلك من الاشتغال بالكسب والتجارة، ولا سيما وأن الكفار كانوا مطبقين عليهم من جميع جهاتهم، أو لأنهم لا خبرة لهم بالتجارة، وأصل الضّرب في الأرض هو السير فيها والسفر كما قال عز وجل: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تقصروا من الصلاة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ الآية.

أما الصفة الثالثة من صفات هؤلاء الفقراء الذين خصّهم الله عز وجل بلفت انتباه المسلمين إلى رعايتهم وبذل المال لهم فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف﴾ أي يظنّهم الجاهل بحالهم الذي لا خبرة له بهم وبما هم عليه من الفاقة والفقر وشدة الحاجة أغنياء بسبب تعفّفهم عن سؤال الناس، وتنزّههم عن طلب شيء منهم، وقد يظهرون أمام الناس في ثياب حسنة، حتى لا يذلّوا أنفسهم لغير الله عز وجل، ولذلك لا يكاد يتفطن لهم إلا من يخالطهم، ولا يعرف فقرهم إلا من يداخلهم، ولا شك أن الله تبارك وتعالى يحب هذا التّعفف من عباده كما حضّ رسول الله ﷺ على التعفف ودعا للمتعففين، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السّفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًي، ومن يستعفف يعفّه الله ومن يستغن يغنه الله» ولا شك أن أصحاب الصُّفّة من فقراء المهاجرين كانوا في أمس الحاجة إلى أن توجّه إليهم أنظار الموسرين كما كان غيرهم ممن حبس نفسه على تلقي الأحاديث من رسول الله ﷺ يكاد يقتلهم الجوع أحيانا ولا يسألون الناس شيئا، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصُّفّة ما منهم رجل

عليه رداء، إمـا إزار وإما كسـاءٌ، قد ربطـوا في أعناقهم منها مـا يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرَى عورته. كما روى البخاري من طـريق محمد بن سيرين عن أبي هـريرة رضي الله عنه قـال: لقد رأَيْتُنِي وإني لَأَخِرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة رضي الله عنها مَغْشِيًّا عليّ فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويـرى أني مجنون وما بي من جنون، مـا بي إلا الجوع. كما روى البخاري من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنه قـال: والله الذي لا إلـه إلا هو إن كنت لأعتمـد بكَبِدِي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع، ولقـد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرّ بي النبيّ ﷺ، فتبسّم حين رآني وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال: «يا أبا هرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الْحَقْ»، ومضى، فاتّبعته فدخل فاستـأذن، فأُذِنَ لي، فدخلت، فوجد لبنا في قَدَح، فقـال: «من أين هذا اللبن؟» قـالوا: أهـداه لك فلان أو فـلانة، قـال: «أبـا هِرّ»، قلـت: لبيك يا رسـول الله، قـال: «الْحَقْ إلى أهل الصّفّـة فادعهم لي»، قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وكـان إذا أتته صدقـة بعث بها إليهم، ولم يتناول منهـا شيئا، وإذا أتتـه هديـة أرسل إليهم وأصـاب منهـا وأشركهم فيها، فسـاءني ذلك، فقلت: وما هـذا اللبن في أهل الصفة؟ كنتُ أحقّ أن أصيب مـن هذا اللبن شَرْبَة أتقوّى بها، فإذا جاءوا أمـرني فكنتُ أنا أعطيهم، وما عسى أن يَبْلُغَني من هـذا اللبن؟ ولم يكن من طـاعة الله وطـاعـة رسولـه ﷺ بُـدٌّ، فأتيتهم، فـدعـوتهم، فأقبلـوا، واستأذنـوا، فأذن لهم، وأخـذوا مجالسهم من البيت، قال: «أبا هِرّ»، قلت: لبيك يا رسـول الله، قال: «خُذْ فأعطهم»، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يَرْوَى، ثم يردّ عليّ القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتى يَرْوَى، ثم يردّ عليّ القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد

رَوِيَ القوم كلّهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسّم، فقال: «أبا هِرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «بقيتُ أنا وأنت»، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «اقعد فاشْرَب»، فقعدت فشربت، فقال: «اشْرَبْ»، فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكا، قال: «فأرني» فأعطيته القدح فحمد الله تعالى وسمّى وشرب الفَضْلة. أما الصفة الرابعة من صفات هؤلاء الفقراء الذين حضّ الله تبارك وتعالى على مزيد العناية بهم فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ أي أنت يا محمد ومن كان ذا حسّ مرهف، وبصيرة ثاقبة وعلم بمعرفة أحوال الناس بسيماهم تعرفهم عندما تبصرهم بعلامات تتبيّن بها ما هم عليه من الحاجة والفاقة. والسِّيمَا والسيماء والسيمياء، والقصر لغة قريش، والسّيمياء لغة ثقيف وبعض بني أسد، والسيماء لغة بعض العرب الآخرين، ومعناها العلامة، ومنه قول ابن عنقاء الفزاريّ يمدح عُمَيْلة بن كلدة الفزاريّ الذي علم بما أصاب ابن عنقاء الفزاريّ من الدَّيْن والحاجة فقسم ماله نصفين وساهمه عليه فقال ابن عنقاء يمجّده في أبيات منها:

غلام رماه الله بالخير يافعا ... له سيمياء لا تَشُقُّ على البصر
كأن الثّريّا عُلّقت في جبينه ... وفي خدّه الشِّعْرَى وفي وجهه القمر
إذا قيلت العوراءُ أغضى كأنه ... ذليل بلا ذلّ ولو شاء لانتصر
كريم نَمَتْه للمكارم حرّة ... فجاء ولا بخل لديه ولا حَصَر

أما الصفة الخامسة فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافًا﴾ أي لا يسألون الناس ألبتة فلا يتأتى منهم إلحاف ولا إلحاح، والمقصود من التقييد بالإلحاف هو ذم الملحفين في السؤال المِلحّين فيه، لأن الله يبغض ذلك، وقد روى مسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن

رسول الله ﷺ قال: «لا تُلِحّوا في المسألة فوالله لا يسألني أحدٌ منكم شيئا فتُخْرِج له مسألته مني شيئا وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته». كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزْعة لحم». وهذا الأسلوب البلاغي نظير قوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أي لا شفاعة ولا طاعة لشفيع. وكما قال امرؤ القيس:

على لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بمناره ... إذا سافه العَوْد النّباطيّ جرجرا

فإنه يريد طريقًا غير مسلوك لا اهتداء فيها ولا منار، فقوله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾ أي لا سؤال ولا إلحاف منهم، وذلك لما وصاهم به رسول الله ﷺ فقد روى مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانيةً أو سبعةً فقال: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟» وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ فقال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا الله» وأسرّ كلمة خفيفة: «ولا تسألوا الناس شيئا»، فلقد رأيت بعض أولئك النّفر يسقط سَوْطُ أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه. وقوله عز وجل: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ ترغيب وترهيب.

قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنّهار سرّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون* الذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ، ذٰلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الرّبا، وأحل الله البيع وحرّم الرّبا، فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولَئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾

لما بيّن الله تبارك وتعالى في الآية السابقة أن بعض الفقراء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وأنهم لا يسألون الناس إلحافا وخصهم عز وجل بلفت انتباه المسلمين إليهم والعناية بتحريهم عند إخراج الصدقات لأن الذين يسألون الناس قد يحصلون على حاجتهم بالسؤال فينبغي التفطّن للذين لا يسألون كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، ولا اللّقمة ولا اللّقمتان إنما المسكين الذي يتعفف، واقرءوا إن شئتم يعني قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾. وفي رواية للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي تردّه الأُكْلة والأُكْلَتان، ولكن المسكين الذي ليس له غِنًى، ويستحيي أو لا يسأل الناس إلحافا». وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطّوّاف الذي يطوف على الناس فتردّه اللقمة واللقمتان والتّمرة والتمرتان» قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ «قال: الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفْطَن له فيُتَصَدَّق عليه، ولا يسأل الناس شيئا» اهـ. رغّب هنا ذوي الغنى واليسار في أكمل

وجوه الإنفاق وهي أن يعمّموا الأوقات والأحوال بـالصدقة فيبذلون في أبواب الخير ليلا ونهارا وسرا وجهرا فمتى نزلت بهم حاجة محتاج عجّلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلّقوهـا بوقت من الأوقات أو حالة من الحالات ولا يضرهم أن كان ذلك سرّا أو جهرا أو ليلا أو نهارا مـا دام مقصدهم رضى الله عز وجل، حيث قال عز وجل هنا: ﴿الذين ينفقـون أموالهم بالليل والنهار سرّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن النفقة على الأهل إذا ابتغـى بها المنْفِق وجه الله عز وجـل أعطاه الله عز وجل أجر المتصدقين، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مسعود البـدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «إذا أنفق الـرجل على أهله نفقـة يحتسبها فهي له صدقة». كما روى البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «وإنـك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِـرْتَ بها حتى ما تجعل في في امرأتك» وقولـه: «في في امرأتك» يعني في فم امرأتك. كما روى مسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصـدقت به على مسكين، ودينـار أنفقته على أهلك، أعظمهـا أجرًا الـذي أنفقته على أهلك». كما روى مسلم من حديث ثَوْبـان بن بَجْدَد مولى رسول الله ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قـال: «أفضل دينار ينفقـه الرجل دينـار ينفقه على عيالـه، ودينار ينفقـه على دابته في سبيل الله، ودينـار ينفقه على أصحـابه في سبيل الله» اهـــ وبهذا ييسّر الله عـز وجل للمسلـم أسبـاب تحصيل الأجـــر العظيم في جميع أوقاتـه ليلا ونهارا وسرا وجهرا مع أن بعض هـذه النفقات لا مناص له منها وهي النفقة على زوجتـه وعياله لكن الله تبارك وتعالى يحب من الرجل أن يحسن إلى زوجته وعياله، وأن يوسّع عليهم مما وسّع الله عز وجل به عليه، وبهذا يتبين لكل من له ذرةٌ من عقل أن دين الإسـلام هو الدين الذي

لا غنى للبشرية عنه وأنه منّة الله الكبرى، وبه تمام النعمة على الإنسانية عامة والمسلمين خاصة كما قال عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ ولن تجد البشرية أبدا نظاما يحميها كما يحميها نظام الإسلام وشريعة الله. وبعد هذا البيان الشافي الكافي لطرق الخير ووجوه الإنفاق وبذل الصدقات التي تعتبر دليلا واضحا على صدق المسلم في دعوى الإسلام، أعقب ذلك ببيان حكم الربا لما بين الربا والصدقة من مناسبة التضاد حيث إنّ المنفق يبذل من ماله لدفع عوز الناس ابتغاء وجه الله، وآكل الربا على عكسه تماما فهو يغتنم فرصة حاجة الناس لامتصاص دمائهم، والحصول على أموالهم، ولذلك قرن الله تبارك وتعالى في الذكر بين الصدقة والربا في غير موضع من كتابه الكريم كما في هذا المقام الكريم، وكما في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَمْحَق الله الربا ويُرْبِي الصدقات﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولَئك هم المضْعِفون﴾ وبهذه المقارنة يتضح للناس الفرق بين منهج الرحمة والإحسان الذي جاء به الإسلام ومنهج الظلم والجور الذي ينتهجه من يعادي الإسلام، وأعظم الناس استغراقا في الربا هم اليهود إخوان القردة والخنازير أعداء الإنسانية ومصّاصو الدماء وآكلو السحت لعنهم الله، وهم قد قسّموا الربا إلى الربا الفاحش والربا غير الفاحش ويدعون أن الربا غير الفاحش قد شرعه لهم موسى وصموائيل كما افتراه لهم واضعو التلمود، وأن الربا الفاحش جائز مع غير اليهود لاعتقادهم أن كلّ ما على الأرض ملك لليهود وأن ما تحت يد «الأميين» من الأموال مغتصب من اليهود، وعليهم استرداده بجميع الوسائل، وقد حرصوا على السيطرة على الاقتصاد العالمي بواسطة البنوك الربوية. وقوله عز وجل: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من

المسّ﴾ ليس المقصود أن المحرّم من الربا هو أكله فقط فقد أجمع علماء الإسلام على أن الربا يحرم تعاطيه مطلقا سواء كان بأكله أو لبسه أو بناء مسكن منه أو شراء مركب أو غير ذلك من سائر الاستعمالات والتصرفات، وإنما التعبير بالأكل هو نظير قوله عز وجل: ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾ ونظير قوله عز وجل: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ وذلك لأن المقصود الأهم من أخذ الأموال هو أكلها وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ما يفيد أن المقصود من أكل الربا هو تعاطيه والتعامل به حيث لعن آكله وموكله وكاتبه وشاهديه، فقد روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومُؤْكِله، وكاتبه وشاهِدَيْه وقال: «هم سواء». وأصل الربا في اللغة الزيادة وقد بين رسول الله ﷺ الأموال الربويّة التي لا تجوز الزيادة فيها ولا تأجيل قبض أحد العِوضين عند التعامل بها فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب والفضّة بالفضة، والبرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتّمر بالتمر، والملح بالملح، مِثْلا بِمِثْل، سواءً بسواءٍ، يدًا بيدٍ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد». وفي رواية لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مِثْلاً بِمِثْلٍ، يدًا بيدٍ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواءٌ». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا

مِثْلا بِمِثْل، ولا تُشِفّوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مِثْلا بِمِثْل ولا تُشِفّوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائبا بناجز». وقد أجمع المسلمون على أنّ كل قرض يجر نفعا فهو ربا، وقد روى البخاري من طريق أبي بردة بن أبي موسى قال: قدمت المدينة، فلقيت عبد الله بن سَلَام رضي الله عنه فقال: ألا تجيء فأطعمك سويقًا وتمرًا وتدخل في بيت، ثم قال: إنك بأرض، الربا بها فاشٍ، إذا كان لك على رجل حقٌّ فأهدى إليك حِمْل تِبْن أو حِمْل شعير أو حِمْل قَتّ فلا تأخذه فإنه ربا. وقوله عز وجل: ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبّله الشيطان من مسه إياه، قال القرطبي: وقالوا كلّهم: يبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتا عند جميع أهل المحشر ويقوي هذا التأويل المجمع عليه أن في قراءة ابن مسعود: ﴿لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم﴾ اهـ وقد جعل الله تبارك وتعالى هذه الحالة شعارا لأكَلة الربا يوم القيامة زيادة في خزيهم وتبشيعا لصنيعهم، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «رأيت الليلة رجلين، أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدّسة فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم، وعلى شطّ النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه، فردّه حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا الذي رأيته في النهر؟ قال: آكل الربا». اهـ وما أشبه هذه العقوبة بما فعلوا إذ كان المرابون يعيشون في الدنيا على امتصاص الدماء المعنوية فعوقبوا بأن يسبحوا ويعيشوا ويعاقبوا بالانغماس في بحار من الدماء الحسية وما ربك بظلام للعبيد. وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الربا﴾ أجمع المفسرون على أن الذين قالوا:

إنما البيع مثل الربا، هم الكفار، وقد اعترضوا على تحريم الربا، وكأنهم يقولون: لماذا أبحتم البيع وحرّمتم الربا والربا مثل البيع؟ ولكنهم لغلوّهم في الكفر والعناد قلبوا الحقائق فقالوا: إنما البيع مثل الربا فجعلوا الربا أصلا في الحل مشبّها به والبيع فرعا في الحل مشبّها بالربا وهذا غاية انتكاس الفطرة ولذلك جاء التنصيص على التفريق بينهما حيث قال عز وجل: ﴿وأحل الله البيع وحرّم الربا﴾ والفطر السليمة والعقول المستقيمة تقرر ذلك الفرق، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله﴾ أي فمن أتته موعظة ونصيحة وإرشاد من ربّه فانزجر عن تعاطي الربا فلا عقوبة عليه فيما مضى ولا يسترد منه شيء، وهذا من براهين أن القائلين: إنما البيع مثل الربا، هم الكفار لأنهم إن ينتهوا عن الكفر ويدخلوا في الإسلام يغفر لهم ماقد سلف، بخلاف المسلم إذا تعامل بالربا فإنه يُفْسَخ عقده ويُجْبَر على رد ما زاد عن رأس ماله، ومعنى: ﴿وأمره إلى الله﴾ أي ومستقبله بيد الله يهدي من يشاء فضلا ويخذل من يشاء عدلا. وقوله عز وجل: ﴿ومن عاد فأولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ومن استمر من الكفار على كفره فأولئك أهل النار الملازمون لها المخلّدون فيها، وكلمة «عاد» تستعمل بمعنى: رجع وبمعنى استمر ومن هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين﴾.

قال تعالى : ﴿يمحق الله الرّبا ويربي الصّدقات، والله لا يحبّ كلّ كفّار أثيم* إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصّلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون* يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وذروا ما بقي من الرّبا إن كنتم مؤمنين* فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون* وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى المآل البشع الذي يؤول إليه أَكَلَة الربا، وأوضح انقلاب فطرتهم حتى قالوا : إنما البيع مثل الربا، مع الفرق الجليّ الذي يدركه كلّ من له ذرّة من عقل فجميع أمم العالم تدرك حلّ البيع، وضرر الرّبا، ورغّب هؤلاء المنتكسين في سلوك السّبيل السّوي بالرجوع إلى الله وتحليل ما أحلّ الله وتحريم ما حرّم، وأنهم إن يتوبوا إلى الله يغفر لهم ما قد سلف منهم من سيئاتهم، وما أكلوه من الربا، ورهّبهم من استمرارهم على غيّهم وضلالهم، أوضح هنا الفرق بين أثر الرّبا في محق البركات وأثر الإنفاق في سعة الثروات فقال عز وجل : ﴿يَمْحَق الله الربا ويُرْبِي الصدقات﴾ أي يُذهب الله عز وجل بركة المال الذي يتعاطى صاحبه الربا، ولا يزال ينقصه حتى يهلكه، وينمي أموال المنفقين ويبارك فيها حتى ينتفعوا بها وتزداد وتكثر مع ما يدفع الله عز وجل عن المنفقين من الآفات، وما يكفر لهم بها من السيئات، فآكل الربا يعامله الله عز وجل بنقيض قصده، فهو يتعاطى الربا ليزيد ماله من أموال الناس باجتلابها وتحصيلها فيذهب الله بركتها ويمحقها، ويجلب له بها الحسرة والهمّ في الدنيا والآخرة، وقد روى ابن ماجه والحاكم وقال : صحيح الإسناد، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله

عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كانت عاقبة أمره إلى قلة». وفي لفظ للحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قلٍّ». وقد صححه الحاكم كذلك وأصل المحق هو نقصان الشيء حالاً بعد حالٍ ومنه المحاق بكسر الميم أو فتحها أو ضمّها وهو أن يَسْتَسِرَّ القمر فلا يُرَى غدوة ولا عشيّة وسُمّي محاقا لأنه طلع مع الشمس فمحقته وأذهبت نوره وغطّته، وقوله عز وجل: ﴿والله لا يحب كلّ كفّار أثيم﴾ أي والله تبارك وتعالى يبغض من استمرأ الكفر واستمر عليه وانغمس في المعاصي ولم ينزجر بالموعظة التي جاءته من ربه، وصيغة فعّال تأتي لمجرد النّسبة كلبّان وتمّار وعطّار، وتأتي للمبالغة كسرّاق وتأتي لإفادة الاستمرار على الشيء واعتياده والإقامة عليه كما في قوله عز وجل هنا: ﴿كفّار﴾ لأن أصل الكفر يبغضه الله عز وجل ولو لم تكن فيه مبالغة، وقوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هو ترغيب للكفار في الدخول في الإسلام بعد ترهيبهم ببغض الله لكل كفّار أثيم. وهذه لفتة يلفت بها الله عز وجل انتباه الدعاة إلى الله ألا ييأسوا عند دعوتهم أعداء الله للدّخول في دين الله، كأن الله عز وجل يقول لهؤلاء الكافرين الجاحدين المستغرقين في الربا: أقبلوا على الله واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والإثم، وآمنوا بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وافعلوا الخير وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فإنكم إن فعلتم ذلك خلّصتم أَنفسكم من النار، وفزتم بجنات النعيم وتجاوز الله لكم عما سلف منكم من الكفر والمعاصي، وعاملكم بما يعامل به عباده الصالحين ويطمئنكم عند الموت بأنكم لا تخافون فيما تستقبلونه من أهوال القيامة والفزع الأكبر وأنكم لا تحزنون على ما تخلّفونه وراءكم في الدنيا من الأولاد ولا ما فاتكم من حظوظ

لأنكم قادمون على رب كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفوعن السيئات، وأنه هو القائل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ أي يا أيها الذين آمنوا واستجابوا لله ولرسوله ﷺ اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بترك ما تعاقدتم عليه من ربا، ولا تأخذوا منه شيئا، وقد بينت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ أن المسلم إذا تعامل بالربا فإنه يفسخ عقده ويجبر على رد ما زاد عن رأس ماله. والظاهر أن قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ إلى آخر آية الدّين من آخر ما نزل من القرآن لأن رسول الله ﷺ قد خطب في حجة الوداع وأمر بوضع الربا وذكر ﷺ في خطبته أن ربا الجاهلية موضوع وأن أوّل ربا يضعه هو ربا عمه العباس رضي الله عنه فقد روى مسلم في صحيحه في قصة حجة الوداع من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال: حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلَتْ له فأتى بطن الوادي، فخطب الناس، وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ـــ وكان مُسْتَرْضَعًا في بني سعد فقتلته هُذيل ـ وربا الجاهلية موضوعٌ، وأول ربا أضع من ربانا: ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كلّه» الحديث، وقوله تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية الكريمة: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ هو للحض على سرعة الامتثال لأن الله عز وجل أثبت لهم الإيمان في صدر الآية فكان قوله في نهايتها: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي فسارعوا إلى امتثال ما يأمركم به الله،

لِعِلْمِكم أنـه لا يأمركـم إلا بما فيه الخير لكم في دينكم ودنيـاكم . وقـوله عـز وجل : ﴿فإن لم تفعلوا فأْذَنُوا بحرب من الله ورسوله﴾ أي فإن لم تذروا ما بقي من الربـا فكونوا على علم بأنّ الله محاربكم وأن رسولـه محمدا ﷺ محاربكم ، والويل كلّ الويل لمن حـاربه الله ورسوله ، ولا شك أن هذا غايـة في التهديد والوعيـد على تعاطي الربـا ، فإن من حاربـه الله ورسوله ﷺ محروب مـدحور مقهورٌ لا محالة ، وقد جاء نظير هذا التهـديد فيمن عادى وليا من أولياء الله ، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى قـال : من عادى لي وليا فقـد آذنته بـالحرب . . » الحديث . وقد تقدم قـريبا ، ووصف قطاع الطـريق بأنهم يحاربون الله ورسولـه حيث قال : ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسـوله ويسعون في الأرض فسادا أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خِـلاف أو يُنْفَوْا من الأرض﴾ وقد نص غير واحـد من أئمـة أهل العلم على وجـوب حـرب أَكَلَـة الربـا فإن كـانـوا يعتقـدون حلّ الربـا فإن قتالهم قتـال المرتدين ، وإن كـانوا يتعـاملون بـه مع اعتقاد أنه حرام فقتالهم قتال البغاة ، وقال ابن جرير رحمه الله : حدثني المثنى قال : حدثنا عبد الله بن صالح قال : حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس في قولـه : ﴿يا أيها الـذين آمنوا اتقـوا الله وذروا ما بقي من الـربا﴾ إلى قـوله : ﴿فَأْذَنُوا بحرب من الله ورسـوله﴾ فمن كان مقيما على الربـا لا ينزع عنه فحقّ على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع وإلا ضرب عنقه اهـ وقوله عز وجل : ﴿وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمـون ولا تُظْلَمون﴾ أي وإن رجعتم إلى الله عز وجـل ونزعتم عن تعـاطي الربـا وعزمتم على الابتعاد عـن أوضاره وآثامه فلا تأخـذوا مما زاد عن رءوس أموالكم شيئا وإذا فعلتم ذلك كنتم غير ظالمين ولا مظلـومين في هذا الباب ، ولا شك أن تعاطي الـربا محرّم في شرائع الأنبياء قبل الإسلام . وقد نص على ذلك كتـاب الله تبارك وتعالى حيث يقول

عز وجل: ﴿وأَخْـذِهِمُ الربا وقـد نُهُوا عنه﴾ ولم يبحه الإسلام قط، وقـد ذكر الله تبارك وتعالى التنـديد به في سورة الروم وهي مكيـة حيث يقول عز وجل: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فـلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريـدون وجه الله فأولَئك هم المضْعِفـون﴾ أي الذين يضـاعف الله لهم الأجر والمثوبة، وقوله عز وجل: ﴿وإن كان ذو عسرة فنَظِرَة إلى ميسرة، وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمـون﴾ أي وإن كـان المدين لكم معسرا لا يجد سـداد مالكم عليه من دين أو رأس مـال مما أبحت لكم فعليكم أن تُنْظِروه وتصبروا عليه حتى ييسّر الله له ويجد سدادا ويتمكن من قضـاء حقكم عليه، وقوله: ﴿وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي وأن تتصدّقوا برؤوس أموالكم أو بعضها مما لكم على هـذا المعسر فإنه أفضل لكم وأحبّ إلى الله عز وجل، ولـو كنتم تعلمـون مـا لكم من الفضل عنـد الله إن تجاوزتم عن هـذا المعسر بحقكم أو بعض حقكم لسارعتم إلى ذلك ــ وقد روى مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أنه طلب غريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال: إني معسر، قال: الله، قال: الله، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ينجيه الله من كـرب يوم القيامـة فلينفّس عن معسر أو يضع عنه». كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «تلقّت الملائكة روح رجل ممن كـان قبلكم، فقالـوا: عملت من الخير شيئا؟ قال: لا. قالوا: تذكّر، قال: كنت أُدَاينُ الناس فآمر فتياني أن يُنْظِروا المعسر ويتجوّزوا عن الموسر، قال: قال الله: تجاوزوا عنه». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجـل يداين النـاس، وكان يقـول لفتاه: إذا أتيت معسرا فتجـاوز عنه لعلّ الله عـز وجل يتجاوز عنا، فلقـي الله فتجاوز عنه» وفي روايـة لمسلم من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حوسب

رجلٌ ممن كان قبلكم فلم يوجد لـه من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرا، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله تعالى: نحن أحقّ بذلك، تجاوزوا عنـه» وروى مسلم في قصة حديث جابـر رضي الله عنه الطويل من طريق عبـادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قـال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هـذا الحي من الأنصـار قبل أن يهلكوا، فكـان أوّلُ من لقينـا أبـا اليَسَر صـاحب رسـول الله ﷺ ومعه غـلام لـه، معـه ضِمَامـةٌ من صُحُفٍ، وعلى أبي اليَسَر بُرْدة ومَعَافِـريّ، وعلى غلامه بُرْدة ومَعَـافِريّ، فقال لـه أبي: يا عمّ إني أرى في وجهك سَفْعَـة من غضب، قال: أجل، كـان لي على فـلان بن فـلان الحراميّ مـال، فأتيـت أهلـه فسلمت فقلت: ثَمَّ هـو؟ قالوا: لا. فخرج عليّ ابن له جَفْـرٌ فقلت له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك فدخل تحت أريكـة أمي، فقلت: اخرج إليّ فقـد علمت أين أنت فخرج، فقلت: مـا حملك على أن اختبأت مني؟ قـال: أنـا والله أحـدّثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحـدّثك فأكذبك، وأن أعـدك فأخلفك، وكنتَ صـاحب رسول الله ﷺ، وكنـتُ والله معسرًا. قال: قلت: آلله قـال: الله، قلت: آلله قال: الله، قلت: آلله. قال: الله، قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيـده فقال: إن وجـدت قضـاءً فاقضني وإلا أنـت في حِلّ، فأشهد بَصَـرُ عيني هـاتين ووضع إصبعيه على عينيـه وسَمْعُ أذنيّ هـاتين ووعاه قلبي هـذا وأشار إلى مناط قلبه رسولَ الله ﷺ يقول: «من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله».

قال تعالى: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾

قد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ أن الظاهر أن قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ إلى آخر آية الدَّيْن، من آخر ما نزل من القرآن، وقد أشار البخاري رحمه الله إلى ذلك حيث قال: بابٌ: ﴿واتقوا يوما تُرْجَعُون فيه إلى الله﴾ حدثنا قَبِيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن عاصم عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: كذا ترجم المصنّف بقوله: ﴿واتقوا يوما تُرْجَعُون فيه إلى الله﴾ وأخرج هذا الحديث بهذا اللفظ ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس، فإنه جاء عنه ذلك من هذا الوجه، وجاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾ أخرجه الطبري من طرق عنه، وكذا أخرجه من طرق جماعةٌ من التابعين، وزاد عن ابن جريج قال: يقولون: إنه مكث بعدها تسع ليال. ونحوه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، ورُوِي عن غيره أقل من ذلك وأكثر، فقيل: إحدى وعشرين، وقيل سبعا، وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزّلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن اهـ وقد وسّط الله تبارك وتعالى هذه الآية العظيمة بين آيات الربا وآية الدَّيْن للفت انتباه الناس إلى أن الدِّين هو التوقي في المعاملات والحرص على اكتساب الحلال والحذر كلّ الحذر من تعاطي الربا وسائر المحرمات، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الربا من الكبائر ومن السبع الموبقات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وماهنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتّولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». كما روى البخاري من طريق عَوْن بن أبي جُحَيْفة عن أبيه رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا ومُوكِلَه ونهى عن ثمن الكلب وكسب البَغيّ، ولَعَن المصوّرين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿واتقوا يوما تُرْجَعُون فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي واحذروا أيها الناس يوما يجعل الولدان شِيبًا تُرَدُّون فيه إلى الله عز وجل وتقفون بين يديه بأعمالكم من خير أو شر، فيجازي كلّ نفس بما كسبت. قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس يوما ترجعون فيه إلى الله فتلقونه فيه، أن تَرِدُوا عليه بسيّئات تهلككم أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قِبَلَ لكم به، وإنه يوم مجازاة بالأعمال لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، تُوَفَّى فيه كلّ نفس أجرها على ما قدّمت واكتسبت من سيّئ وصالح لا تُغادَر فيه صغيرة ولا كبيرةٌ من خير وشرّ إلا أحضرت، فوفّيت جزاءها بالعدل من ربها، وهم لا يظلمون، وكيف يظلم من جوزي بالإساءة مثلها وبالحسنة عشر أمثالها؟ كلا، بل عَدَلَ عليك أيها المسيء، وتكرّم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن، فاتّقى امرؤ ربّه، وأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجم عليه يومه وهو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن صالحات الأعمال خفيف، فإنه عز وجل حذّر فأعذر، ووعظ فأبلغ اهـ وقد حذّر الله تبارك وتعالى الناس من أهوال يوم القيامة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الوِلدان شِيبًا* السماء مُنْفَطِر به كان وعدُه مفعولاً﴾ وكما

قال عز وجل: ﴿يـا أيها الناس اتقوا ربكم ، إنّ زلزلـة الساعة شيء عظيم* يوم تـرونها تَذْهَل كلّ مُرْضِعة عما أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملهـا وترى النـاس سكارى ومـا هم بسُكـارَى ولَكنّ عذاب الله شـديـد﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها* وأخـرجت الأرض أثقالها* وقال الإنسان مـالها* يومئـذ تحدّث أخبارهـا* بأن ربّك أوحى لها* يومئـذ يصدر النـاس أشتاتا لِيُرَوْا أعمالهم* فمن يعمل مثقـال ذرة خيرا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شرا يـره﴾ وقد روى البخـاري ومسلم من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظـة فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غُرْلاً ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ ألا وإن أول الخلائق يُكْسَى إبراهيم عليه السلام، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي، فيؤخـذ بهم ذات الشّمال، فأقول: يا رب أصحـابي، فيقول: إنك لا تـدري ما أحـدثوا بعـدك؟ فأقول كما قـال العبد الصـالح: ﴿وكنتُ عليهم شهيـدا ما دمتُ فيهم﴾ إلى قـوله: ﴿العـزيز الحكيم﴾» إلى آخـر الحديث.
والمراد بقوله: «أصحابي»، أي إنهم من أمتي، كما روى البخاري ومسلم من حديث عـائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاةً عراةً غـرلاً». قالت عائشة: فقلت: الرجـال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قـال: «الأمر أشد من أن يهمّهُم ذلـك» وفي رواية: «من أن ينظر بعضهم إلى بعض» كما روى الطبراني في الأوسط بـإسناد صحيح من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر النـاس يـوم القيامـة عـراةً حفـاةً» فقالـت أمّ سلمة فقلت: يـا رسـول الله، واسَـوْأتـاه، ينظـر بعضنـا إلى بعض، فقــال: «شُغِلَ النـاس»، قلت: مـا شغلهم؟ قال: «نشر الصحـائف، فيها مثاقيل الـذَّرّ ومثاقيل الخرْدل». كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول

الله، قال الله تعالى: ﴿الذين يُحْشَرون على وجوههم إلى جهنم﴾ أيحشر الكافر على وجهه؟ قـال رسول الله ﷺ: «أليس الـذي أمشاه على الرجلين في الـدنيا قادر على أن يمشيـه على وجهه؟» قـال قتادة حين بلغـه: بلى وعزّة ربّنـا. كما روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْرَق الناس يوم القيامة حتى يذهب في الأرض عرقهم سبعين ذراعا، وإنه يُلْجِمهم حتى يبلغ آذانهم». وفي رواية لمسلم من طـريق سُلَيم بن عامر حـدثني المقـداد بن الأسـود قـال: سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «تُـدْنَى الشّمس يوم القيـامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقـدار ميل» قال سليم ابن عامـر: فو الله مـا أدري ما يعني بـالميل، أمسافـة الأرض؟ أم الميل الذي تكتحل به العين؟ قـال: «فيكون الناس على قـدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكـون إلى كعبيــه، ومنهم من يكـون إلى ركبتيـه، ومنهـم من يكـون إلى حَقْوَيْه، ومنهم من يُلْجِمُه العرق إلجاما» قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. وقـد روى البخاري ومسلم من حـديث عائشـة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قـال: «ليس أحد يحاسب يـوم القيـامة إلا هلك» قلت: أو ليس يقـول الله: ﴿فسوف يُحَاسَبُ حسابا يسيرا﴾؟ فقال: «إنما ذلك العَرْض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك». كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يدني المؤمن، فيضع عليه كَنَفَه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربّ، حتى قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هؤلاء الذيـن كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾» كما روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنـه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون مما أضحك؟» قال: قلنا: الله

ورسولـه أعلم قـال: «من مخاطبـة العبد ربّـه، يقـول: يـا ربّ ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقـول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، قـال: فيقول: كفى بنفسـك اليوم عليك شهيـدا وبـالكرام الكـاتبين عليك شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقـال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله ثم يخلّى بينـه وبين الكلام، قـال: فيقول: بُعـدًا لكنّ وسحقًا فعنكنّ كنت أنـاضل». كما روى البخاري ومسلم مـن حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: قـال رسول الله ﷺ: «عـرضت عليّ الأمم، فـرأيت النبي ومعـه الرّهيط، والنبيّ ومعـه الرجل والـرجلان، والنبيّ ليس معـه أحد، إذ رفع لي سوادٌ عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هـذا موسى وقومـه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: انظـر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمّتك ومعهم سبعـون ألفا يدخلون الجنـة بغير حساب ولا عذاب» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فقـال بعضهم: فلعلّهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقـال بعضهم: فلعلّهم الذين ولـدوا في الإسـلام فلم يشركوا بـالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسـول الله ﷺ فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقـال: «هم الذين لا يَرْقُـون ولا يسترقون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتـوكلـون» فقام عُكّـاشـة بن مِحْصَن فقـال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقـال: «أنت منهم» ثم قـام رجـل آخـر فقـال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكّاشة».

قـال تعـالى : ﴿يـا أيها الـذين آمنـوا إذا تـداينتم بـدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بـالعدل، ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علّمه الله، فليكتب وليمللِ الّذي عليـه الحقّ وليتّق الله ربّه ولا يبخس منـه شيئا، فإن كان الّذى عليه الحقّ سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليُّه بـالعدل، واستشهدوا شهيـدين من رجالكم فإن لم يكونـا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشّهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى، ولا يأب الشّهداء إذا ما دُعُوا، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله، ذالكم أقسطُ عنـد الله وأقـومُ للشّهـادة وأدنى ألاّ تـرتابـوا إلاّ أن تكـون تجارةً حـاضرةً تـديـرونها بينكم فليـس عليكم جُنـاح ألاّ تكتبـوهـا، وأشهـدوا إذا تبايعتم، ولا يضارّ كاتب ولا شهيد، وإن تفعلوا فإنّه فسوق بكم، واتّقوا الله ويعلّمكم الله، والله بكلّ شيء عليم.﴾

هذه أطـول آية في كتـاب الله، وتسمّى آية الـدَّيْن، وقال ابن جـرير رحمه الله: حـدثني يـونس قـال: أخبرنـا ابن وهب قـال: أخبرني يـونس عن ابن شهاب قـال: حدثني سعيد بن المسيب أنـه بلغه أنّ أحدث القرآن بـالعرش آية الـدين اهـ ويكاد أهل العلـم يطبقون على الاحتجاج بمـراسيل سعيد بن المسيب لأنها فتشت فوجدت كلّهـا مسانيد قد رواهـا عن الصحابة رضي الله عنهم، وقد وضعت هـذه الآية الكريمة قـواعد توثيق المعامـلات، وأسباب صيانة الحقـوق، وحفظ الأموال التي جعلها الله تبارك وتعالى قيـاما للناس، وبضبط هـذه القـواعـد يُقْضَى على كثير مـن المنـازعـات التي تشتّت شمل النـاس، ولما كانت الآيـات السابقـة قد حـذّرت أشدّ التحـذير من تعـاطي الربـا، فقد أذن الله تبارك وتعـالى في السَّلَم بهذه الآية الكريمـة. والسَّلَم هو بيع موصـوف في الذمـة إلى أجل ببدل يُعْطَى عاجـلاً. وقد عـوض الله تبارك

وتعالى المسلمين عن الربا بالسلم واستثناه من قـاعدة الربا، وهو يجمع ما قد يكون في الـربا من نفع مع كثرة خير السّلم وبـركته ومنافعـه فإنّ الإنسان إذا كان لديه مال فبدل أن يتعاطى فيـه بالربا فقد أذن الله له أن يشتري به قمحا أو شعيرا أو أرزا أو تمرا أو غير ذلك من إنسـان محتـاج للنقد إلى أجل معلـوم فيحصل للمحتاج ما يريده من النقد بما يدفعه للمشتري عند حلول الأجل، فيستفيـد البـائع والمشتري جميعـا ولا يلحق أحـدا منهما غَبْن ولا ظلم، وقـد لوحظ أن الله تبارك وتعالى ما حرّم لذّة ولا منفعةً إلا وقد وضع للمسلمين من التشريع مـا يبيح للمسلمين مثل هذه اللـذات والمنافع الخالية مـن الأوضار والأضرار، فإنه عندما حـرّم الربا أباح السّلم وعندما حـرّم الزنا شرع الزواج، وقد أغلق الإسلام جميـع الأبواب التي تؤدي إلى أكل أموال النـاس بالباطل، فحـرّم اكتساب المال من طـريق الـربا أو الـرشـوة أو التزويـر أو الغصب أو الخداع أو الغَرَر أو تلقي الـركبان أو المزابنة أو بيع الثمار قبل بُدُوِّ صـلاحها.

ووضع قواعـد الأموال الربويـة كما ذكرت قريبـا، كما أنه شرع للمسلمين من طرق اكتسـاب الأموال واستثمارها مـا يغني ويكفي ويشفي، ويسد حـاجة الناس على اختـلاف أحوالهم وطبائعهم ومعارفهم وقـدراتهم، وقد أوضحت الشريعـة الإسلاميـة أنـه لا ينعقـد البيع إلا إذا كان عـن تراض، وأن يكـون العـاقـد جائز التصرف وأن يكـون المبيع مـالا، يصح الانتفـاع بـه، من غير ضرورة، وأن يكون المبيع مملوكا للبائع أو مأذونا له في بيعه، وأن يكون مقدورا على تسليمه، وأن يكـون معلوما برؤيـة أو صفة تحصل بها معرفتـه وأن يكون الثمن معلوما. ورخصت الشريعـة الإسلامية في أنواع من المعامـلات توسعة على المسلمين ودفعـا لـلأذى والضرر عنهم وسـدّا لحاجتهم، فـاستثنت بيع العرايـا لمّا حرمت الـربا والمزابنـة، وشرعت كذلك نظام السّلـم واستثنته من قـاعدة منع بيع الإنسـان مـا ليس عنده، كما شرعت المضـاربـة وألوانـا من

الشركات وفيها وفي السّلم أبواب واسعة لاستثمار الأموال أحسن استثمار دون مضرة تلحق أحد الطرفين، فلم تجعل الفائدة لأحد المتعاقدين والخسارة على أحدهما كالربا، وبمقارنة المعاملات المشروعة بالمعاملات المحرمة يتضح أن هذا التشريع هو تشريع العليم الحكيم الخبير، ولم تحرّم الشريعة شيئا إلا لدفع ما فيه من الأذى والمفاسد، ولم تبح شيئا إلا وفيه مالا يحصى من المصالح والمنافع والفوائد، وذلك كلّه في إطار قاعدة شرعية مطّردة وهي أن درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح وأنه لا ضرر ولا ضرار. والمتمعّن في آية الدين هذه وما اشتملت عليه من القواعد والفوائد يحسُّ أنه أمام نوع من الإعجاز التشريعي الذي أنزله الله تعالى على النبي الأمي معلّم البشرية منهج سعادتها محمد ﷺ وقد ذكر القرطبي رحمه الله في هذه الآية اثنتين وخمسين مسألة وذكر أنها تتناول جميع المداينات بالإجماع. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ أي إذا تعاملتم وتبايعتم بدين أو اشتريتم به إلى وقت معلوم وَقَّتموه بينكم من سَلَم أو غيره مما فيه أحد العِوَضَيْن مؤجلا، فاكتبوا الدّين الذي تداينتموه إلى أجل واجعلوا به صَكًّا لحفظ حقوقكم وقطع منازعاتكم. وحقيقة الدَّيْن عبارة عن كل معاملة يكون أحد العوضين فيها نقدا والآخر في الذمة نسيئة. والعرب يطلقون على الحاضر النقد والعين وعلى الغائب الدين وفي ذلك يقول الشاعر عندما رأى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لما قال له جماعة من السبئية: أنت الله، فأمر رضي الله عنه مولاه قنبرا فحفر حفرتين وملأهما نارا وألقى فيهما من تحقق لعلي رضي الله عنه أنه على هذا المذهب الخبيث فقال الشاعر:

لترم بي الحوادث حيث شاءت ... إذا لم ترم بي في الحفرتين
إذا ما أوقدوا حطبا ونارا ... فذاك الموت نقدا غير دين

ولا شك أن كتابة الدين ليست شرطا في صحة عقد المداينة، كما أن

الإشهاد على عقد البيع ليس شرطا في صحـة عقد البيع، وقد روى البخاري من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكـر رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلِفَه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدا، قـال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيـلا، قال: صـدقت، فـدفعهـا إليه إلى أجل مسمـى، فخرج في البحـر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبهـا يَقْدَمُ عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مـركبا، فأخـذ خشبة فنقـرهـا فأدخل فيها ألف دينـار وصحيفة منـه إلى صاحبه، ثم زجّج موضعهـا، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلّفت فلانـا ألف دينار فسألني كفيلا فقلت: كفى بـالله كفيلا، فـرضي بك، وسألني شهيـدا فقلت: كفى بالله شهيـدا، فـرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له فلم أقدر وإنى أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهـو في ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظـر لعلّ مركبًا قد جاء بماله، فإذا بـالخشبـة التي فيهـا المال، فأخـذهـا لأهله حطبـا، فلما نشرهـا وجـد المال والصحيفة، ثـم قدم الذي كـان أسلفه، فأتـى بالألف دينـار، فقال: والله مازلت جـاهدا في طلب مركب لآتيـك بمالك، فما وجدت مركبـا قبل الذي أتيت فيـه، قال: هل كنتَ بعثتَ إليّ بشيء؟ قـال: أخبرك أني لم أجد مـركبا قبل الـذي جئت فيه، قـال: فإن الله قـد أدى عنك الذي بعثت في الخشبـة فانصرف بالألف الـدينار راشدا. وقوله عـز وجل: ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ أي وليحرّر الصكّ بالدين كاتب فقيه مستقيم يتحرى الحقّ ويخاف الله عز وجل فـلا يكتب إلا ما يتفق عليـه الطرفـان لا يزيـد شيئا ولا ينقص شيئا، ولا يكتفي بكلام أحدهما، ويحرر العبارة تحريرا يدفع اللّبس، ويجتنب الكلمات الموهمة لأكثر من معنى، وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿ولا يأب كاتب أن

يكتب كما عَلَّمَه الله، فليكتب ولْيُمْلِل الذي عليه الحق وليتّق الله ربه ولا يَبْخَسْ منه شيئا﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة عن الكتابة لأنه تعاون على البر والتقوى وليحرص على أن تكون كتابته على ما يرضي الله عز وجل الذي تفضل عليه وعلمه الكتابة، فليلتزم هو بتحرير العبارة القاطعة للنزاع فقط دون أن يكون له هوى لأحد الطرفين المتعاقدين، وعليه أن يسمع ما يمليه عليه الذي عليه الدَّيْن المطالب بالحق لأنه المقر به الملتزم له، فلو قال له الذي له الحق: لي كذا وكذا، لا يكتب كلامه حتى يقر به الذي عليه الحقّ؛ لأنّ الإقرار حجة قاصرة على المقر وحده. وعلى هذا المملي أن يخاف الله عز وجل وأن لا يأتي بعبارة موهمة قد تجلب النزاع عند المطالبة، فالواجب كتابة الدين بجميع صفاته المبيّنة له المعربة عنه المعرّفة للحاكم بحقيقة الحال إذا قدّر للمتداينين أن يترافعا إليه. والتنصيص على أن يكون الكاتب غير الطرفين المتداينين لإزالة التهمة، قال القرطبي: ولم يقل أحدكم، لأنه لما كان الذي له الدّين يتّهم في الكتابة الذي عليه الدين وكذلك بالعكس شرع الله سبحانه كاتبا غيرهما يكتب بالعدل لا يكون في قلبه ولا قلمه هوادة لأحدهما على الآخر اهـ والإملال والإملاء أن يقول القائل كلاما فيكتبه الكاتب عنه. والبَخْس: النقص والظلم والمكْس، وهذا غاية في التوثيق وإقامة العدل.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإن كان الذي عليه الحقّ سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يُمِلّ هو فلْيُمْلِلْ وليُّه بالعدل﴾ أي فإن كان المدين قادرا على الإملاء لكنه لا يُقْبَل إملاؤه لكونه سفيها أو ضعيفا، أو كان غير قادر على الإملاء لخرَس أو لِعِيّ أو لجهل باللغة فليملل وليه بالعدل، والسفيه هو المبذّر المتلف لماله المحجور عليه، والضعيف هو الصغير والشيخ الهرِم والمجنون، فليتولّ وليّه الإملاء على الكاتب بدلا من الذي عليه الدّين، والمراد بوليه من يلي أمره ويقوم مقامه من قيّم أو وكيل أو مترجم ممن ينصبهم الحاكم

الشرعي ويقيمهم مقامه في التصرف في ماله عنه، وقد أجمع العلماء على أن تصرّف السفيه المحجور عليه دون إذن وليّه فاسد مفسوخ أبدا، لا يوجب حكمًا ولا يؤثّر شيئا كما قال القرطبي رحمه الله. أما إذا كان الرجل يُخْدَع في البيوع فإنه يصحّ عقده ويصح إملاؤه إذا اشترط عند العقد أنه لا خِلاَبَة فإنه يكون له الخيار إذا ثبت الغبن، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر رجلٌ لرسول الله ﷺ أنه يخدعُ في البيوع فقال: «إذا بايَعْتَ فقل: لا خِلاَبَة» وقد أورده البخاري في باب ما يكره من الخداع في البيع من طريق عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رجلا ذُكر للنبي ﷺ «أنه يخدع في البيوع فقال: إذا بايعت فقل: لا خِلابة». وفي لفظ لمسلم: أنه كان يقول: لا خِيَابة. فيقلب اللام ياءً. قال الحافظ في الفتح: وكأنه كان لا يفصح باللام للثغة لسانه، ومع ذلك لم يتغير الحكم في حقه عند أحد من الصحابة الذين كانوا يشهدون له بأن النبي ﷺ جعله بالخيار اهـ وهذا الرجل هو حَبَّان بن منقذ بن عمرو الأنصاريّ رضي الله عنه كما ذكر ابن الجارود في المنتقى. ومعنى: يُخْدَع، أي يُغَرّ ويُغْبَن. ومعنى: لا خلابة، أي لا خديعة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممّن ترضون من الشهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى﴾ أي واستحضروا عند تحرير صك الدّين ذكرين بالغين عاقلين من المسلمين ليتحمّلا الشهادة يكونان معروفين بالضبط والقدرة على ذلك، ولم يقل: شاهدين، وقال: ﴿شهيدين﴾ للإشعار بأنهما متمكنان من تحمل الشهادة قادران على أدائها، وقوله عز وجل: ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ أي فإن لم تحضروا شاهدين من الرجال فليشهد رجل وامرأتان، فجعلت الشريعة الإسلامية شهادة المرأتين بشهادة رجل واحد، وذلك لأن الله تبارك

وتعالى جعل فطـرة المرأة وطبيعتها دون جبلّة الـرجل وطبيعته وخلقتـه، فكان الرجـل بما جبله الله عز وجـل أقوى جسما وأكبر دمـاغا وأوسع عقـلا وأقوى عضلا وأعظم استعدادا لشئون الحياة وأقدر على تحمّل مختلف الأعمال وجعل غُـدَد المرأة أكثر رطـوبة وأضعف تحمـلا، واختص النساء بـالحيض والحمل والرضـاع وحضانة الأطفال، ولـذلك جعل الله تبارك وتعالى الرجـال قوامين على النساء، وقد روى البخاري من حـديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قـال: خرج رسـول الله ﷺ في أضحى أو فطـر إلى المصلى، فمرّ على النسـاء فقال: «يا معشر النساء تصـدّقن فإني أُرِيتُكُنّ أكثر أهل النار» فقلن: وبم يا رسـول الله؟ قال: «تكثـرن اللعن، وتكفرن العشير، مـا رأيت من ناقصـات عقل ودين أَذْهبَ للبّ الرجـل الحازم من إحداكنّ» قلن: وما نقصـان ديننا وعقلنا يـا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهـادة الرجل؟» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصـان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلّ ولم تصم؟» قلن: بلى، قـال: «فـذلك من نقصان دينهـا». وأخـرج مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء تصـدّقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكـنّ أكثر أهل النار» فقـالت امرأة منهنّ جزلةٌ: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكنّ». قالت: يا رسـول الله وما نقصـان العقل والدين؟ قـال: «أما نقصـان العقل فشهادة امـرأتين تعدل شهـادة رجل فهذا نقصـان العقل، وتمكث الليالي مـاتصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدّين». وقـوله عز وجل: ﴿ممّن ترضون من الشهداء﴾ الظاهر من الأساليب البـلاغية الملاحظة في القرآن الكريم أن هذا القيد يشمل جميع الشهـود من الرجال والنساء في الحقوق وغيرهـا، وذلك أنه قد يذكر أشياء فيقيّد بعضها بقيـد ويترك تقييد الآخر فلا يقيده بهذا القيد مع

أنه مـرادٌ تقييده به فيكتفي بـالمذكور عن المحـذوف، ومثال ذلك قولـه تبارك وتعـالى: ﴿يـا أيها النبي حـرّض المؤمنين على القتـال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قـوم لا يفقهـون* الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًـا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين﴾ فقد قيّد العشرين بأنهم صابرون ولم يقيد بها المائة في قوله عز وجل: ﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفـا﴾ مع أن هذا القيد مرادٌ، وقيد المائة بقيـد الصبر في قولـه عـز وجل: ﴿فإن يكن منكم مـائة صـابرة يغلبـوا مائتين﴾ ولم يقيد بها الألف في قولـه عز وجل: ﴿وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾ مع أن هذا القيد مراد مع الألف أيضـا، وكذلك قيد الألف المغلوب بقيـد الكفر في قـوله: ﴿يغلبـوا ألفـا من الذين كفـروا﴾ ولم يقيد بهذا القيـد المائتين المغلـوبتين في قـوله عـز وجل: ﴿يغلبـوا مـائتين﴾ وكـذلك الألفين المغلوبين في قولـه عز وجل: ﴿يغلبوا ألفين﴾ مع أن قيـد الكفر مرادٌ فيهما، وقيّـد قولـه عز وجل: ﴿وإن يكن منكـم ألف يغلبوا ألفين﴾ بقـوله تعـالى: ﴿بإذن الله﴾ مع أن هذا القيـد مراد في الجميع، وهذا من الأساليب البـلاغية التي اعتبرت في إعجاز القرآن وهو معروف في البلاغـة باسم الاحتباك، وقوله تبارك وتعـالى: ﴿أن تضلّ إحداهما فتُـذَكّر إحـداهما الأخرى﴾ أي أن تنسى إحدى الشـاهدتين وتتردّد في استـذكار الشهادة فتـذكّرها الشـاهدة الثـانية، وهذا بسبـب الرطوبـة التي تغلب على تكويـن غدد النساء لتكـون ألطف في معاملة أطفالها ومَن تحت يدهـا مِن خدم، ولتدخل على زوجها الأنس لما قد يلقاه من متاعب الحيـاة. قال الكرخيّ: من شأن العرب إذا كـان للعلة علةٌ قدّموا ذكـر علة العلة وجعلوا العلة معطـوفة عليها بالفـاء لتحصل الدّلالتان معًـا بعبارة واحـدة كقولك: أعـددت الخشبة أن يميل الجدار فأُدْعِمَـه بها،

فالإدعام علّة في إعداد الخشبة. والميل علة الإدعام، وإيضاحه أنك لم تقصد بإعداد الخشبة ميل الحائط وإنما المعنى: لأدعم بها إذا مال، فكذلك الآية، وهذا مما يعوّل فيه على المعنى ويهجر فيه جانب اللفظ، فلا يرد: كيف جعل ﴿أن تضلّ﴾ عِلة لاستشهاد المرأتين بدل رجل مع أن علّته إنما هي للتذكير اهـ قال القرطبي رحمه الله: قال أبو عبيد: معنى تضل تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالا، ومن نسي الشهادة جملة فليس يقال: ضلّ فيها اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يأب الشهداء إذا مادُعُوا﴾ أي ولا يمتنع الشاهد عن أداء الشهادة إذا طُلِب لأدائها عند الحاكم فالشاهد يمشي للحاكم كما قيل في أمثال العرب: في بيته يُؤْتَى الحَكَمُ. ولا شك أن صاحب الحق إن لم يكن تمكينه من حقه إلا بهذا الشاهد فإن أداء الشهادة يكون واجبا، ويأثم الشاهد إن لم يشهد، ولو علم الشاهد بحق ولم يذكره صاحب الحق ولم يكن له غيره فإنّ الشاهد إذا حضر وأقام الشهادة لله كان خير الشهداء، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْأَلَهَا».

وقوله عز وجل: ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله﴾ أي ولا تملّوا أن تكتبوا صك الدين على أي حال كان من القلة أو الكثرة وتحددوا فيه الأجل المسمى، وهذا الإرشاد والتوجيه يشعر بخطورة الدّين ووجوب صيانة الأموال التي جعلها الله للناس قياما، وقد حذرت الشريعة الإسلامية من عدم تسديد الدّين أشد التحذير، فقد روى مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر يكفّر الله عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فلما أدبر ناداه. فقال: «نعم إلا الدّين، كذلك قال جبريل» كما روى

مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين». وقد بشر رسول الله ﷺ من أخذ أموال الناس وهو عازم على قضائها بأن ييسّر الله عز وجل عليه سدادها، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله».

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذالكم أقسط عند الله وأقوم للشّهادة وأدنى ألاّ ترتابوا﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من كتابة صَكّ بالدين وتحرير أجله والإشهاد عليه وأن لا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله هو أعدل عند الله عز وجل وأصحّ وأحفظ وأضبط للشهادة وأقرب ألا تشكّوا في جنس الدّين وقدره وأجله وشهوده، يقال: أقسط الحاكم فهو يقسط إقساطا إذا عدل في حكمه وأصاب الحق فيه، ويقال قسط فلان: إذا جار وظلم وتعدى، وقد استعمل القرآن العظيم أقسط بمعنى عدل، وقسط بمعنى جار حيث يقول عز وجل: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتُقْسِطوا إليهم، إنّ الله يحبّ المقسطين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقْسِطِين﴾ وقال عز وجل: ﴿وأنّا منا المسلمون ومنّا القاسطون فمن أسلم فأولَئك تَحَرَّوْا رَشَدًا* وأما القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا﴾ ولفظ القسط في اللغة من الأضداد يطلق على معنى العدل وعلى معنى الجَوْر ومصدر قسط بمعنى جار القُسُوط يقال: قسَط يَقْسِط قسوطا إذا جار، قال العلامة ابن منظور في لسان العرب: وأقسط في حكمه: عدل فهو مقسط. وفي التنزيل العزيز: ﴿وأقسِطُوا إن الله يحب المقسطين﴾ والقِسْط الجَوْرُ، والقُسُوط: الجورُ والعدولُ عن الحق، وأنشد:

يشفي من الضِّغْن قُسُوط القاسط

قال: هو من قسَط يَقْسِط قُسُوطًا اهـ ﴿وأقوم للشهادة﴾ أي أصوب لها، قال ابن جرير رحمه الله: وأصله من قول القائل: أقمتُ من عوجه إذا سويته فاستوى، وإنما كان الكتاب أعدل عند الله وأصوب لشهادة الشهود على ما فيه، لأنه يحوي الألفاظ التي أقر بها البائع والمشتري وربّ الدّين والمستدين على نفسه، فلا يقع بين الشهود اختلاف في ألفاظهم بشهادتهم لاجتماع شهادتهم على ما حواه الكتاب، وإذا اجتمعت شهادتهم على ذلك كان فصل الحكم بينهم أبين لمن احتكم إليه من الحكام، مع غير ذلك من الأسباب، وهو أعدل عند الله لأنه قد أمر به، واتّباع أمر الله لا شك أنه عند الله أقسط وأعدل من تركه والانحراف عنه اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إلا أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألّا تكتبوها﴾ بعد أن أكّد الله تبارك وتعالى على المسلمين إذا تداينوا بدين أن يكتبوه وأن يشهدوا على صك الدين، وألا يسأموا أن يكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله رخّص هنا للباعة والمشترين المتعاملين بالعوضين الحاضرين يدا بيد في ترك كتابة صك بمعاملتهم لأن البائع يقبض الثمن والمشتري يقبض السلعة قبل المفارقة، فلا حاجة لهم في كتابة صك بهذه المبايعة الحاضرة التي من شأنها أن تدار بين التجار، حيث يقول عز وجل: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ وقد قرأ عاصم: ﴿إلا أن تكون تجارةً حاضرةً﴾ بنصب تجارة وبنصب حاضرة، على أن اسم كان ضمير مستتر يعود على المعاملة المفهومة من السياق وتجارةً خبرها وحاضرة صفة لتجارة، وقرأ بقية السبعة برفع تجارة على أنّ كان تامة بمعنى: وقع وحدث، أي إلا أن تقع تجارة حاضرة، وإلى هذا ذهب الأخفش، واعتبرها بعض أهل العلم كان الناقصة وتجارة اسمها وحاضرة صفة تجارة، والخبر جملة تديرونها بينكم فهي

في محل نصب خبر كان الناقصة. وفي قوله عز وجل: ﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ يشعر بوجود الحرج والجناح إذا كانت المعاملة فيها دين إلى أجل مسمى ولم تكتب، وقوله عز وجل: ﴿تديرونها بينكم﴾ قال القرطبي: يقتضي التقابض والبينونة بالمقبوض، ولما كانت الرِّبَاع والأرض وكثير من الحيوان لا يقبل البينونة ولا يغاب عنه حسُن الكَتْب فيها ولحقت في ذلك مبايعة الدّين فكان الكتاب توثّقا لما عسى أن يطرأ من اختلاف الأحوال وتغيّر القلوب، فأما إذا تفاصلا في المعاملة وتقابضا وبان كلّ واحد منهما بما ابتاعه من صاحبه، فيقلّ في العادة خوف التنازع إلا بأسباب غامضة، ونبّه الشرع على هذه المصالح في حالتي النّسيئة والنقد، وما يغاب عليه وما لا يغاب بالكتاب والشهادة والرّهن اهـ وقوله عز وجل: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ يكاد أهل العلم يطبقون على أن هذا الأمر أمر إرشاد وهو يختلف باختلاف الأحوال والسلع فيزداد تأكّده كلّما عظم شأن السلعة، والمسلمون مع اختلاف أعصارهم وأمصارهم يتبايعون في الأشياء التافهة دون إشهاد، فمن يذهب ليشتري خبزة لا يحتاج إلى شاهدين يشهدان على البيع، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ باع وكتب، وباع ولم يشهد، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث العَدّاء بن خالد قال: كتب لي النبي ﷺ: «هذا ما اشترى محمد رسول الله ﷺ من العَدّاء بن خالد، بيع المسلم المسلمَ، لا داء، ولا خِبْثة ولا غائلة» اهـ وقال أبو داود في سننه: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم ابن نافع حدثهم أخبرنا شعيب عن الزهري عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدّثه وهو من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ ابتاع فرسا من أعرابي فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس وهم لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابيُّ رسولَ الله ﷺ فقال: إن كنتَ مُبْتاعا

هذا الفرس وإلا بعتُه، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «أو ليس قد ابتعته منك؟» فقال الأعرابي: لا، والله ما بِعْتُكَه، فقال النبي ﷺ: «بلى قد ابتعتُه منك» فطفق الأعرابي يقول: هلمّ شهيدا، فقال خزيمة ابن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق خارجة بن زيد أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: نسخت الصّحف في المصاحف ففقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يُضَارّ كاتب ولا شهيد﴾ يحتمل أن يكون الفعل ﴿يضارّ﴾ مبنيا للفاعل فيكون المعنى ولا يجوز للكاتب أن يلحق ضررا بأحد طرفي العقد في كتابته بالنقص أو بالزيادة، ولا يجوز للشاهد أن يلحق ضررا بأحد المتبايعين في شهادته بالزيادة أو النقص فيها، ويحتمل أن يكون ﴿يضارّ﴾ مبنيا للمفعول فيكون المعنى: ولا يجوز للمتبايعين أو غيرهما أن يلحق ضررا بالكاتب لكتابته أو للشاهد بسبب شهادته، فيكون معنى ﴿ولا يضار﴾ على الأول: ولا يضارِرْ، وعلى الثاني: ولا يضارَرْ. والله تبارك وتعالى كما نهى ووصّى بتحريم إلحاق الضرر بأحد من المسلمين عامة في قوله تبارك وتعالى: ﴿غير مُضَارّ وصيةً من الله﴾ وقرن عز وجل الضرار بأكبر الذنوب حيث قال: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرًا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب اللّهَ ورسولَه﴾ فقد حذّر هنا من إلحاق الضرر بالكاتب أو بالشاهد سواء كان إضراره بالقول أو بالفعل، وقد روى أبو داود والترمذي وحسّنه من حديث أبي صِرْمة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من ضارّ أضرّ الله به، ومن شاقّ شقّ الله عليه». وقوله تبارك وتعالى:

﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ أي وإن خالفتم ما أمرتم به، أو فعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم تتصفون به، ومن كان به خير لنفسه لا يفعل ما يجعلها فاسقة بل يحرص كلّ الحرص على أن يكون من الصالحين، فلا تضروا الكاتب الذي كتب بالعدل، ولا تضروا الشاهد الذي شهد بالحق. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ أي وكونوا على خوف من ربكم واجعلوا لأنفسكم وقاية من عذابه بأن تأتمروا بما أمر وأن تنزجروا عما نهى عنه وزجر، والله تبارك وتعالى يتفضل عليكم بتعليمكم ما ينفعكم في دينكم ودنياكم، ويرسم لكم منهج سعادتكم، ويضع لكم فرقانا تفرقون به بين الحق والباطل، والهدَى والضلال، وقد قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفْلَيْن من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به﴾ وقوله عز وجل: ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يفيد أن ما يضعه لكم من منهج يكون أحسن المناهج وأوفاها وأنقاها وأكملها وأتمّها، لأنه العليم بجميع أحوال الناس وميولهم وما ينفعهم ويسعدهم في دنياهم وآخرتهم.

قال تعـالى ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبـا فرهان مقبـوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانتـه وليتّق الله ربّه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم﴾

بعد أن حذّر الله تبارك وتعالى من أكل الربا ، وأمر المؤمنين إذا تداينوا بدين إلى أجل مسمى أن يكتبوه ، ووضع لهم أقـوم المناهج في تحرير الصكـوك عند المداينات ورخّص لهم إذا كانت معاملاتهم في تجارة حاضرة يديرونها بينهم ألا يكتبوهـا لانتفاء المحذور عند ذلك ، أوضـح هنا أن الإنسان قد يحتـاج عند التعامل إلى التوثيق بِرِهَان مقبوضة فقال عز وجل : ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كـاتبًا فـرِهان مقبـوضة﴾ ولا شك عنـد أهل العلم أن الرهْن جـائز في الحضر كما هو جـائز في السفر، فإن رسـول الله ﷺ توفّي ودرعه مـرهونـة عند يهودي وكان ذلك في الحضر ولم يكن في السفر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ اشترى طعاما من يهوديّ إلى أجل ورَهَنه دِرْعا من حديد . كما روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : توفّي رسول الله ﷺ ودرعـه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير. وليست إباحة الرهن مشروطـة بكونه في السفر أو عند عدم وجود الكاتب ، إذ المقصود من الشرط هنا هو الغالب ، إذ السفر مظنّة عدم وجود الكاتب وحتى لو وجد الكاتب في السفر أو في الحضر جاز الرهن أيضا لأن المقصـود هو التـوثيق ، فإذا لم يرض البـائع أن يبيع لأجل إلا برهن جـاز ذلك كما دل عليه حديث عائشة المتقدّم المخرّج في الصحيحين . والمعروف في اللسان العربي أن الشرط قد يجيء في الكلام العـربي لبيان الـواقع أو الغالب فيكون لا مفهـوم له وإن كـان يفيد الإشارة إلى الغـالب أو الواقع كما في قـوله تبـارك وتعالى : ﴿وربـائبكم اللاتي في حجـوركم من نسائكم الـلاتي دخلتم

بهن﴾ فإن كون الربيبة في الحجر لا يؤثر في التحريم أو التحليل فهي محرمة سواء كانت في حجر الرجل أو في غير حجره. وإنما الغالب أن تكون في حجره مع أمها. وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فإن قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين في السفر لا يشترط فيه أن يكون السفر مخوفا، كما جاء في صحيح مسلم من طريق يَعْلَى بن أمية قال: سألت عمر ابن الخطاب، قلت له: قوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ وقد أمن الناس، فقال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه فسألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». والمعروف عند أهل العلم أن القيد إذا كان لبيان الواقع أو خرج مخرج الغالب فإنه يكون لا مفهوم له ولا يتقيد به الحكم. وقد قرأ أكثر القراء ﴿فرهانٌ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿فرُهُنٌ﴾ والرِّهان جمع رَهْن، مثل كِباش وكَبْش، وحِبال وحَبْل ونحوهما وكذلك «رُهُنٌ» جمع رهن أيضا، وأصل الرهن في اللغة يدور على معنى الحبس والدوام والثبات، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ أي مُحْتَبَسَة بعملها، وقوله عز وجل: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي محتبس بعمله، ومنه قول الشاعر:

نأت بسعاد عنك نوًى شَطُون   فبانت والفؤاد بها رهين

والرهن في اصطلاح العلماء هو احتباس العين وثيقةً بالحق ليُسْتَوْفَى الحقّ من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم. والمرتهن هو الذي يأخذ الرهن وقوله عز وجل: ﴿مقبوضة﴾ أي مسلّمة مؤدّاة إلى المرتهن، وقد أجمع العلماء على صحة قبض المرتهن أو وكيله، والقبض شرط للزوم الرهن لا لصحته وجوازه، ولا بد من إذن الراهن للمرتهن في القبض. والقبض في

الرهن كالقبض في البيع، فإن كان من المنقول فقبض المرتهن له أخذه إياه من راهنه منقولا، وإن كان مما لا ينقل كالدّور والأرضين فقبضُه تخلية راهنه بينه وبين مرتهنه دون حائل. وقوله عز وجل: ﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانته وليتّق الله ربّه﴾ أي فإن أحسن بعضكم الظّن ببعض في التعامل وحسن الأداء وكان أحد العوضين أو بعضه مؤجلا فلم يكتب الدائن صكا بالدين على المدين، أو كان أحدكم ائتمن أخاه المسلم فوضع عنده أمانة، فإذا جاء وقت الأجل في الدين الذي لم يُكتب به صك أو طلب صاحب الأمانة أمانته فيجب على المؤتَمَن أن يؤدي للذي ائتمنه ما في ذمته من دين أو أمانة، لما في ذلك من شيوع الثقة والطمأنينة بين الناس، وليخلّص نفسه من عذاب الله يوم القيامة، وقد حضَّ الله تبارك وتعالى على ذلك في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾ وأثنى على من يؤدي الأمانة ووبّخ من يخونها حيث يقول عز وجل: ﴿ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَأْمَنْه بقنطار يؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دُمتَ عليه قائما﴾ وبيّن أن خيانة الأمانة لا تحدث إلا من الظّلوم الجهول حيث يقول عز وجل: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن خيانة الأمانة من أبرز صفات المنافقين، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن حفظ الأمانة وأداءها من أعظم أسباب نجاة المؤمنين يوم القيامة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تُزْلَفَ لهم الجنة،

فيأتون آدم صلوات الله عليه فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟ لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيأتون إبراهيم، فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلا من وراءَ وراءَ، اعْمَدُوا إلى موسى الذي كلّمه الله تكليما، فيأتون موسى فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمدا ﷺ فيقوم، فيؤذن له، وتُرْسَلُ الأمانة والرحم، فيقومان جَنْبَتَي الصراط يمينا وشمالا، فيمرّ أولكم كالبرق» قلت: بأبي وأمّي، أيّ شيء كَمَرِّ البرق؟ قال: «ألم تروا كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين، ثم كمرّ الريح، ثم كمرّ الطير، وأشدّ الرجال تجري بهم أعمالهم، ونبيّكم قائم على الصراط يقول: يا ربّ سلّمْ سلّمْ، حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل لا يستطيع السّير إلا زَحْفًا، وفي حافَّتَي الصراط كَلاَليب معلّقة مأمورة بأخذ من أُمِرَتْ به، فمَخْدُوش ناجٍ، ومَكْدُوس في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده إنّ قَعْر جهنّم لسبعون خريفا» اهـ فعلى المؤتَمَن أن يتقي الله ربّه، وليحذر عقوبته إن لم يؤدِ الأمانة، فإنه يوم القيامة لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وقوله عز وجل: ﴿ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ أي ولا تخفوا الشهادة إن طُلِبْتُم لأدائها، ومن أخفاها عند طلبها فهو فاجر القلب لا يخاف الله ولا يخشاه، وهذا تأكيد لقوله تبارك وتعالى في الآية السابقة: ﴿ولا يَأْبَ الشهداء إذا ما دُعُوا﴾ فإن الشاهد يحرم عليه أن يمتنع عن أداء الشهادة كما يحرم عليه أن يكتمها، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال ابن عباس وغيره: شهادة الزّور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك اهـ يعني وكتمان الشهادة بالحق شبيه بشهادة الزور. وقوله: ﴿والله بما تعملون عليم﴾ هو ترغيب وترهيب ليحرص المسلم على الشهادة بالحق

والامتناع عن كتمان الشهادة. وقد ذكر القرطبي رحمه الله في ختام تفسير هذه الآية الكريمة كلاما حسنا حيث قال: اعلم أن الذي أمر الله تعالى به من الشهادة والكتابة لمراعاة صلاح ذات البين ونفي التنازع المؤدي إلى فساد ذات البين، لئلا يسوّل له الشيطان جحود الحقّ وتجاوز ما حدّ له الشرع، ثم قال: لما أمر الله تعالى بالكَتْب والإشهاد وأَخْذ الرّهان كان ذلك نصا قاطعا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها، وردًّا على الجهلة المتصوّفة ورِعَاعِها الذين لا يرون ذلك فيخرجون عن جميع أموالهم ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم، ثم إذا احتاج وافتقر عياله فهو إما أن يتعرّض لِمِنَنِ الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظَلَمَتِهِم وهذا الفعل مذموم منهيّ عنه، ثم قال: قال الجوزي: وهذا كلّه خلاف الشرع والعقل وسوء فهم المراد بالمال، وقد شرّفه الله وعظّم قدره، وأمر بحفظه، إذ جعله قوامًا للآدمي، وما جعله قوامًا للآدمي الشريف فهو شريف، فقال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا﴾ ونهى جلّ وعزّ أن يسلم المال إلى غير رشيد فقال: ﴿فإن آنَسْتُم منهم رُشْدًا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ ونهى النبي ﷺ عن إضاعة المال، قال لسعد: «إنك أنْ تَذَرَ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس» وقال: «ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر»، وقال لعمرو بن العاص: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»، ودعا لأنس، وكان في آخر دعائه: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه»، وقال كعب: يا رسول الله إنّ من توبتي أن أَنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قال الجوزي: هذه الأحاديث مخرّجة في الصحاح. اهـ

قال تعالى : ﴿لله ما في السّمٰوات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء، والله على كلّ شيء قدير* آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون، كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير* لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الّذين من قبلنا، ربّنا ولا تحمّلنا مالاطاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾

هذه الآيات هي خواتيم المسك من سورة البقرة، والآية الأولى تقرر حقيقة الكون الكبرى وهي أنّ جميع ما في السموات وما في الأرض مملوك لله وحده، وأنه تحت قهره عز وجل مِلكا ومُلكا، وأنه من رحمته بعباده أرسل لهم الرسل، وشرع لهم الشرائع فما أباح لهم فهو المباح وما حرمه عليهم فهو الحرام، وأنه أحل لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث، وما حرمه إنما حرّمه لدفع الضرر والأذى عن عباده، وما أباحه فهو لمنافعهم ومصالحهم، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمورهم سِرّها وعلنها، وأنه محاسبهم على أفعالهم وطويّات صدورهم، وأنه يغفر لمن يشاء فضلا، ويعذب من يشاء عدلا، وهو لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وهذه الحقيقة التي تقررت في هذه الآية العظيمة تكررت في كتاب الله ليكون الناس على بصيرة في حاضرهم ومستقبلهم حيث قال عز وجل : ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يَعْلَمْه الله، ويعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، والله على كل شيء قدير﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وما تكون في شأن، وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تُفِيضُون فيه، وما يَعْزُب عن ربك

من مثقـــال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغـــر من ذٰلك ولا أكبـر إلا في كتـاب مبين﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿ولقـد خلقنـا الإنسـان ونعلم مـا توسوس بـه نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الـوريد﴾ في آيات كثيرة، إلا أنّ هذه الآية الكـريمة قد قررت أمرا زائدا على غيرهـا من الآيات وهي أن الله عز وجل يحاسب العباد على ما يخفونـه في أنفسهم، ولا شكّ أن ما تخفيه النفس إن كان كفرا بالله واعتقادا خبيثا فإنّ الله سيحاسب العبد به إن مات ولم يقلع عنه ولم يتب منه، وإن كـان وسوسة تمرّ بالصدر ولا تستقـر فيه فإنّ الله تبارك وتعالى قـد تفضل على هذه الأمة فلم يـؤاخذهـا بما تحدّثت به صدورهـا ما لم تتكلم أو تعمل به، وقد خاف أصحاب رسول الله ﷺ خوفا شديدا عند نزول هـذه الآية الكـريمـة، فأنزل الله عـز وجل الآيـة الخاتمة لسورة البقـرة: ﴿لا يكلّف الله نفسـا إلا وسعها، لها مـا كسبت وعليهـا مااكتسبت﴾ وأرشـدهم فيها إلى كلمات من الدعاء فدَعَوْه فـاستجاب لهم، فقال: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: نعـم، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا﴾ قال: نعم، ﴿ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به﴾ قال: نعم، ﴿واعف عنا واغفـر لنا وارحمنا، أنت مولانـا فانصرنا على القوم الكـافرين﴾ قال: نعم. فقد قال البخاري في صحيحه: باب ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قديـر﴾ ثم ساق من طـريق مروان الأصفر عن رجـل من أصحاب النبي ﷺ وهو ابن عمـر أنها قد نُسِخَتْ ﴿وإن تبـدوا ما في أنفسكم أو تخفـوه﴾ الآية.

باب ﴿آمن الـرسول بما أنـزل إليه من ربّـه﴾ وقال ابن عبـاس: إصرًا عهدًا، ويقـال: غفرانك مغفـرتك فـاغفر لنـا. ثم سـاق بسنـده من طريق مـروان الأصفر عن رجل من أصحـاب رسول الله ﷺ قال: أحسبـه ابن عمر: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها. وروى مسلم

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكُم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الرّكب، فقالوا: أي رسول الله كُلّفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير». قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: نعم. ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال: نعم. ﴿ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ قال: نعم. ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال: نعم. ثم ساق مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكُم به الله﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبيّ ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا»، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: قد فعلت، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال: قد فعلت، ﴿واغفر

لنا وارحمنا أنت مولانا﴾ قال: قد فعلت اهـ والمراد بالنسخ في هذه الأحاديث هو عدم مؤاخذة المسلم بحديث نفسه الذي تضمنه قوله عز وجل: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فقد تجاوز الله عز وجل لأمة محمد ﷺ عن حديث النفس بالآية الناسخة هنا، ولم ينسخ من الآية الأولى إلا ما يتعلق بحديث النفس، أما ما تضمّنته من علم الله عز وجل بكل شيء فهذا من صفات الله عز وجل التي لا تزول أبدا، ولا يقول قائل: كيف نُسِخَتْ الآية هذه وهي متضمنة خبرا والأخبار لا يدخلها النسخ؟ فالجواب كما أشرت هو أن المنسوخ منها فقط هو المعاقبة والمحاسبة على حديث النفس، وهو حكم من الأحكام لا خبر من الأخبار، والأصل في الحكم قبوله للنسخ فلا اعتراض ألبتة، وقد روى أصحاب الكتب الستة من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلّم به». وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: قال «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة». وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتُها له حسنة، فإن عملها كتبتُها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتُها سيئة واحدة». ثم ساقه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: عن محمد رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا تحدّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا

أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها» وقال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: ربّ، ذاك عبدٌ يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصرُ به، فقال: ارْقُبُوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جَرَّائي».

وقوله في حديث أبي هريرة عند مسلم: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لله ما في السمٰوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ. الحديث، أي خاف أصحاب رسول الله ﷺ منها ومن محاسبة الله عز وجل لهم على ما يخطر ببالهم وهذا من شدة إيمانهم وعظيم يقينهم وخوفهم من عذاب الله عز وجل، وهذا ولا شك ثمرة خوفهم من الله فإن المسلم يخاف من ذنوبه كأنها جبل يريد أن ينقضّ عليه، بخلاف الكافر فإنه يرتكب أكبر المعاصي ويراها كالذبابة التي يدفعها بيده عن وجهه ومن كان بالله أعرف فهو من الله أخوف، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا». وقوله في الحديث: فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ أي فلما قرأها الصحابة رضي الله عنهم ارتاضت بالاستسلام لذلك ألسنتهم. وقوله في حديث ابن عباس: لما نزلت هذه الآية: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ قال: دخل قلوبَهُم منها شيء لم يدخل قلوبَهُم من شيء.

أي دخل قلوبهم من أجل تلك الآية شيء لم يدخلها من أجل شيء سواها وذلك لحرصهم على فكاك أنفسهم من النار وغضب الله. وقوله عز وجل: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ أي وإن تظهروا ما في صدوركم أو تستمروا على كتمانه، وقوله عز وجل: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ أي صدّق الرسول محمد ﷺ بجميع ما أنزله الله عز وجل إليه في هذه السورة وفي غيرها وكذلك المؤمنون قد صدّقوا بما أنزل إليهم من ربهم على رسول الله محمد ﷺ وأنزل الله عليهم في هذه السورة المباركة الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والحج وأحكام النكاح والطلاق والإيلاء والحيض والحضانة وقصص الأنبياء وإحياءه الموتى وأصول البرّ، وقواعد المعاملات وكيفيّة توثيق الصكوك، وقد قرر عز وجل في ختام المسك من هذه السورة أن الرسول محمدًا ﷺ قد صدَّق بجميع ذلك وأقر به والتزمه وكذلك المؤمنون قد صدّقوا بجميع ذلك وأقروا به والتزموه، وقوله عز وجل: ﴿كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ أي كلّ واحد منهم آمن بالله وبملائكته وبكتبه وبرسله، وهذا شأن المؤمنين دائما وأبدا، ولا يتحقق الإيمان إلا بذلك، فهذه أربعة أركان من أركان الإيمان الستة، وقد اشتملت بقية هذه الآية والآية التي بعدها على الركن الخامس والركن السادس من أركان الإيمان. ففي قوله عز وجل: ﴿وإليك المصير﴾ إقرار باليوم الآخر، وفي الآية الأخيرة إقرار بالقدر، وقوله عز وجل: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أي لا نصير مثل اليهود والنصارى حيث آمن بعضهم ببعض الأنبياء وكفر ببعضهم، فإن اليهود يزعمون أنهم آمنوا بموسى وجملة من الأنبياء ثم كفروا بعيسى وبمحمد ﷺ، والنصارى زعموا أنهم آمنوا بموسى وعيسى وجملة من الأنبياء ثم كفروا بسيد المرسلين محمد ﷺ، وقد تقدم في هذه السورة المباركة وصية الله عز وجل للمؤمنين أن يؤمنوا بجميع النبيين لا يفرقون بين أحد منهم حيث قال تبارك وتعالى:

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وكما قال عز وجل في سورة آل عمران: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وقوله عز وجل: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ هو معطوف على قوله: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ كأنه قيل: آمنوا وقالوا سمعنا وأطعنا، أي لسنا كاليهود والنصارى الذين قالوا: سمعنا وعصينا. وقوله: ﴿غفرانك ربنا﴾ أي اغفر لنا ربنا مغفرة منك، قال ابن جرير رحمه الله: فإن قال لنا قائل: فما الذي نصب قوله: ﴿غفرانك﴾؟ قيل له: وقوعُه وهو مصدرٌ موقع الأمر، وكذلك تفعل العربُ بالمصادر والأسماء إذا حلت محلّ الأمر وأدّت عن معنى الأمر نَصَبَتْها، فيقولون: شكرا لله يا فلان وحمدًا له، بمعنى اشكر الله واحمده، والصلاةَ الصلاةَ بمعنى صلّوا، ويقولون في الأسماء: الله اللهَ يا قوم اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإليك المصير﴾ أي وإليك يا ربّنا مرجعنا ومآلنا ومصيرنا يوم تبعث عبادك من قبورهم لمجازاتهم على أعمالهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها﴾ أي لا يأمر الله أحدًا من خلقه ولا ينهاه إلا في حدود وسعه وقدرته وطاقته، فلا يكلّفه ما لا يطيق ولا يطلب منه عمل المستحيل. وقوله عز وجل: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أي وقد رفع الله تبارك وتعالى الإصر والأغلال عن أمة محمد ﷺ وخفّف عنهم فلا يحاسبهم بما حدثت به نفوسهم وإنما يحاسبهم على ما فعلوه واكتسبوه من الخير أو الشر، وفي التعبير في جانب الخير بقوله: ﴿لها ما كسبت﴾ وفي التعبير في جانب الشر بقوله: ﴿وعليها ما اكتسبت﴾ إشعار بكريم فضل

الله وجوده وعفوه وأن الإنسان إذا همّ بالخير وحام حوله احتسبه الله عز وجل له خيرا، وأنـه لا يؤاخـذ بالشر إلا من وقـع فيه واجترحه عـن عزم وإصرار. وقولـه عز وجل: ﴿ربّنا لا تؤاخـذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنـا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا مـا لاطاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنـا على القوم الكافرين﴾ هذه هي الأدعية التي أرشد الله تبارك وتعـالى أمة محمد ﷺ حتى يسألوا الله عـز وجل ويدعوه بها، وقـد أخبر رسول الله ﷺ عن ربـه أنـه استجاب لهم حيث جـاء في لفظ حديث أبي هريـرة عند مسلم أثَر كل دعوة من هذه الـدعوات: قال: نعم. وكما جاء في لفظ حديث ابن عباس عنـد مسلم: قال: قد فعلت. وقد بيّن الله عز وجل في صفات رسول الله ﷺ عنـد الأنبياء أنه يضع عن أمته إصرهم حيث يقـول: ﴿الذين يَتّبِعُـون الـرسول النبيّ الأميّ الـذي يجدونـه مكتوبـا عندهم في التـوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهـاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبـات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهـم والأغلال التي كـانت عليهم﴾ والإصر هو الثِّقَل في التكاليف، والأغلال هي الشدائد التي جعلها الله عز وجل على بني إسرائيل وقيّدهـم بها من تحريم الصلاة في غير بناء ومن تحريم الصيـد يوم السبت، وكما قـال عـز وجل: ﴿فبظلم من الذين هـادوا حرمنـا عليهم طيبات أُحِلَّتْ لهم﴾ وكـذلك تحريم أكل الغنائم وعـدم جواز التيمم عند فقـد الماء ومؤاخـذتهم بالنسيـان وما استكـرهوا عليـه، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مسعود الأنصـاري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقـرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه». وأورده مسلم من طـريق عبد الـرحمن بن يزيـد قال: لقيت أبـا مسعود عنـد البيت فقلت: حديث بلغني عنك في الآيتين في سورة البقـرة فقال: نعم قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قـرأهما في ليلة كفتاه». وقد تقدم

في تفسير سورة الفاتحة الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نَقِيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قطّ إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم، فسلّم، وقال: أبشر بنورين أُوتيتَهُما لم يُؤْتَهُما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطِيتَه اهـ والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

وهذا آخر ما تيسر من تفسير سورة البقرة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين.



تفسير سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعـالى: ﴿الـمّ* الله لا إله إلا هـو الحيّ القيوم* نـزّل عليك الكتاب بـالحقّ مصدّقـا لما بين يديـه وأنزل التّـوراة والإنجيل* من قبل هدى للنّـاس وأنزل الفرقان ، إنّ الـذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شـديد، والله عزيز ذو انتقام﴾.

هذه سورة آل عمران وسُميت بهذا الاسم لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها آل عمران حيث قال: ﴿إنّ الله اصطفى آدم ونـوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العـالمين﴾ وقد وصفهـا رسول الله ﷺ بأنها الـزّهراء كما وصف بهذا الـوصف سورة البقرة حيث قال ﷺ فيما رواه مسلم من حـديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنـه قال: سمعـت رسول الله ﷺ يقـول: «اقـرءوا القرآن فإنـه يأتي يـوم القيامـة شفيعًا لأصحـابه، اقـرءوا الزَّهْـرَاوَيْن البقرة وسـورة آل عمران فإنهما تأتيان يـوم القيامـة كأنهما غَمَامَتان أو كأنهما غَيَـايتان أو كأنهما فِـرْقان من طير صَـوافّ تُـحَاجَّان عن أصحـابهما». الحديث. كما روى مسلم من حـديث النّوّاس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران» وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثـال ما نسيتهنّ بعد، قال: «كأنهما غَمَامَتـان أو ظُلّتـان سَـوْدَاوان بينهما شَرْق أو كأنهما حِـزْقـان من طير صَـوافّ تُـحاجّان عن صاحبهما». وقـد تقدم هـذان الحديثان في تفسير أول سـورة البقرة مع شرح بعض ألفـاظهما، كما تقدم هناك تحقيق بحث الحروف المفـرقة في أوائل السورة مثل: الـمّ. كما تقدم تفسير قـوله عز وجل: ﴿الله لا إله إلا

هو الحي القيوم﴾ في آية الكرسي. قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره في مطلع سورة آل عمران: وأما معنى قوله: ﴿لا إلـه إلاّ هو﴾ فإنه خبرٌ من الله جلّ وعزّ أخبر عباده أن الألوهيّة خاصّة به دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وأن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلاّ له، لانفراده بالربوبية، وتوحّده بالألوهية، وأن كلّ ما دونه فملكه، وأنّ كلّ ما سواه فخلقه، لا شريك له في سلطانه وملكه، احتجاجا منه تعالى ذكره عليهم بأن ذلك إذ كان كذلك، فغير جائزة لهم عبادةُ غيره، ولا إشراكُ أحد معه في سلطانه، إذ كان كلّ معبود سواه فملكه، وكلّ معَظَّم غيرُه فخلقه وعلى المملوكِ إفراد الطاعة لمالكه، وصرف خدمته إلى مولاه ورازقه، ومعرّفا كلّ مَن كان مِن خلقه ـ يوم أنزل ذلك إلى نبيه محمد ﷺ بتنزيله ذلك إليه، وإرساله به إليهم على لسانه صلوات الله عليه وسلامه ـ مقيما على عبادة وثن أو صنم أو شمس أو قمر أو إنسيّ أو مَلَك أو غير ذلك من الأشياء التي كانت بنو آدم مقيمة على عبادته وإلاهته، ومُتَّخِذَه دون مالكه وخالقه إلَها وربّا ـ أنه مقيم على ضلالة، ومنعدل عن المحجة وراكب غير السبيل المستقيمة، بصرفه العبادة إلى غيره، ولا أحد له الأُلُوهة غيره، قال أبو جعفر: وقد ذكر أنّ هذه السورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها بالذي ابتدأ به من نفي الألوهيّة أن تكون لغيره، ووصفه نفسه بالذي وصفها به في ابتدائها، احتجاجًا منه بذلك على طائفة من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ من نجران، فحاجّوه في عيسى صلوات الله عليه، وألحدوا في الله، فأنزل الله عز وجل في أمرهم وأمر عيسى من هذه السورة نَيِّفًا وثمانين آية من أوّلها، احتجاجا عليهم وعلى من كان على مثل مقالتهم لنبيّه محمد ﷺ، فأبوا إلا المقام على ضلالتهم وكفرهم، فدعاهم إلى المباهلة، فأبوا ذلك، وسألوا قَبُول الجزية منهم، فقبلها ﷺ منهم، وانصرفوا إلى بلادهم، غير أنّ الأمر وإن كان كذلك، وإيّاهم قصد بالحِجَاج فإنّ من

كان معناه من سائر الخلق معناهم في الكفر بالله واتّخاذ ما سوى الله ربّا و إلها معبودا، معمومون بالحُجّة التي حجّ الله تبارك وتعالى بها من نزلت هذه الآيات فيه، ومحجوجون في الفرقان الذي فَرَقَ به لرسوله ﷺ بينه وبينهم اهـ
ومن وجوه المناسبة بين خواتيم المسك من سورة البقرة وفواتح الحقّ من سورة آل عمران أنه ذكر أن الرسول ﷺ والمؤمنين آمنوا بكتب الله تبارك وتعالى على سبيل الإجمال حيث قال عز وجل: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ وقد فصّل في مطلع هذه السورة المباركة بعض هذه الكتب فذكر منها هذا القرآن العظيم المنزل على محمد ﷺ المصدّق لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان، وفي البدء بذكر القرآن قبل ذكر التوراة والإنجيل ثم ذكره بعدهما للفت الانتباه إلى أنه الكتاب المهيمن على ما تقدمه من الكتب وأن حظّ المؤمنين به هو أوفر الحظوظ، وأن أهله هم أسعد الخلق بالله عز وجل. وقوله عز وجل: ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن بقواعد الحق الثابتة في العقائد والسلوك ومقرّرا لما جاءت به الكتب السماوية التي سبقته، لا اختلاف فيه ولا تناقض، ولا اعوجاج، يبيّن لكل ذي حق حقه، ويثبت صدق الرسل فيما أخبروا به عن الله عز وجل، وعن ملائكته وكتبه واليوم الآخر. وقوله عز وجل: ﴿وأنزل التوراة والإنجيل* مِن قبلُ هُدًى للناس﴾ أي وأنزل التوراة على موسى بن عمران والإنجيل على عيسى ابن مريم من قبل مجيئك بالقرآن لإرشاد الناس إلى صراط الله المستقيم وتعريف بني إسرائيل بما يوضّح لهم سبيل الهدى وطريق الرشاد، فلستَ أيها الرسول العظيم بِدْعًا من الرسل، ولا آتيا بمنهج في العقائد والعدل والإحسان يناقض منهج الأنبياء، بل منهجك متمم لمناهجهم، مهيمن عليهم، بل هو الذّروة في مناهج الأنبياء والمرسلين،

يفرق بين الحق والباطل في جميع الأعصار والأمصار، ولذلك قال عز وجل: ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي الحقّ الفارق بين الهدى والضلال والرشد والغيّ في جميع ما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، مبيّنا كذب اليهود في قولهم: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ كما قال عز وجل: ﴿وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذَرْهُم في خوضهم يلعبون﴾ وقد زعم بعض المتنسبين للعلم أن «نزّل» تشعر بالنزول على التدريج وأن «أنزل» تشعر بالنزول جملة، وليس هذا القول بسديد بل معنى نزّل وأنزل واحد، والعرب يستعملون كلّ واحد منهما مكان الآخر ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق﴾ ثم قال: ﴿وأنزل الفرقان﴾ ومما يبيّن ذلك أعظم البيان قوله عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً﴾ وكما سيجيء في الآية السابعة: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ وهذا لا غموض فيه بحمد الله ألبتة، وما التوفيق إلا بالله. والتوراة في اللغة العبرانية معناها الشريعة أو الناموس وهي كتاب الله تبارك وتعالى المنزل على موسى ﷺ نورا وهدى للناس، واليهود المحرفون لكلام الله يزعمون أنها خمسة أسفار هي سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين أو الأحبار وسفر العدد وسفر التثنية. والنصارى يطلقون التوراة على جميع كتب العهد القديم وهي المنسوبة عندهم إلى موسى والأنبياء من بعده من بني إسرائيل وتاريخ قضاتهم وأخبار ملوكهم قبل المسيح عليه السلام سواء عرفوا كاتبه أو لم يعرفوه، وقد يطلق بعض المسلمين اسم التوراة على مجموع كتب العهد القديم، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه وجد صفة رسول الله ﷺ في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا

ونذيرا وحِرْزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ ولا صَخّـاب في الأسـواق، ولا يـدفع السيئـة بـالسيئـة، ولكن يعفـو ويصفح ولن يقبضـه الله حتى يقيم به الملّـة العوجـاء، ويفتح عيونـا عُمْيا، وآذانا صُمّا، وقلـوبا غُلْفـا بأن يقولـوا: لا إلّه إلا الله. فهـذا الوصـف الذي وجده عبـد الله بن عمـرو رضي الله عنهما ليس موجـودا في التوراة المنـزلة على مـوسى عليه السـلام وإنما هـو في نُبُوّات بعض أنبيـاء بني إسرائيل من بعـد موسى عليه السلام. والإنجيل باللغة اليونانية معناه البشارة، وفي الاصطلاح هو كتاب الله المنزل على عيسى عليـه السلام، وقد أجمع المسلمون والنصارى على أن الأنـاجيل التي بيد النصـارى الآن وهي إنجيل متى وإنجيل مـرقص وإنجيل لـوقـا وإنجيل يـوحنـا ليست هي الإنجيل المنـزل على عيسى عليـه السـلام فهي كتب ألفها بعـض المنتسبين إلى النصرانية كسيرة للمسيح عليـه السلام. وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقـام﴾ هو ترهيب عظيم وتهديد شـديد لمن كفر بآيـات الله المنزلة على محمد ﷺ من اليهود والنصارى وسائر المشركين الـذين كفروا بالله وكذبوا رسوله محمدًا ﷺ وتنـديد بمن جعل لله ولدا كاليهود الذين قـالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، والعـرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، وتـوبيخ لمن ترك عبادة الحي القيـوم الذي لا يموت وعبـد من أقر هو بموته، فإن اليهود والنصارى قد أطبقوا على أن العُزَيْر قد مات، وقد أقر النصـارى بأن المسيح قـد مـات ثم قام، فهـم أهل لعقوبـة العـزيـز المنتقم الجبار.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء* هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاءُ، لا إلّه إلاّ هو العزيز الحكيم﴾

في هاتين الآيتين الكريمتين مزيد بيان لتقرير كمال علمه وتمام قدرته لتأكيد كمال حياته وقيوميته، وأنه لا إلّه غيره ولا رب سواه ولا ولد له ولا ندّ ولا نظير، فإن عيسى والعُزَيْر وجميع من عُبِد من دون الله لا يعلم من كان منهم من ذوي العلم إلا ما يطلعه الله عز وجل عليه، وأن الله وحده هو رب كل شيء وسيّده ومليكه وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو علاّم الغيوب، وفي قوله عز وجل: ﴿هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء﴾ آية كبرى وحجة عظمى ناطقة بكمال قدرته وعلمه وعزّه وقهره، حيث صور جميع العباد على الوجه الذي يشاء وهم في بطون أمهاتهم في ظلمات ثلاث وجعل لكل واحد منهم صورة خاصة به دون من سواه من سائر البشر في جميع الأعصار والأقطار من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، مع أن لَوْن نُطَف جميع بني آدم على صورة واحدة، فمن قطرة من هذه النطفة يخلق الله الإنسان إذا أراد، ويصوّره على الصورة التي يريد جل وعلا، لا على ما يريد الأب أو الأم أو غيرهما، فكم من أب نشيط الجسم لا يُنْجِب، وكم من أمّ صحيحة الجسم لا تَحْمِل، وكم من أب أو أمّ يتمنى أن ينجب ذكرا ولا ينجب إلا الإناث وكم من أب أو أمّ يتمنى أن ينجب أنثى ولا ينجب إلا الذكور، ولا يحصل لهما إلا ما أراد الله عز وجل وحده، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لله ملك السمٰوات والأرض يخلق ما يشاء، يَهَبُ لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور* أو يُزَوِّجُهم ذُكْرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير﴾ والنطفة عندما تندفع إلى رحم المرأة لا وجود لصورة الإنسان فيها ألبتة، وتكون بيضاء مهما كان مصدرها وبعد مدة تتحول إلى قطعة دم حمراء

علقة لا وجود لصورة الإنسان فيها، وبعد مدة تتحول إلى مضغة لا عظام بها، ثم يبدأ التصوير والتخطيط على هذه المضغة إذا أراد الله عز وجل تخليقها، فيكوّن فيها عظامها وأعضاءها التي ينشئها فيها من العدم ثم يكسو العظام لحما ثم ينشئها خلقا آخر، ويطبع وجه الإنسان فيها بطابَع يتميّز به عن سائر بني آدم، ومهما تقارب الشبه بين وجه ووجه فإنه يضع علامة فارقة مميزة له عن سائر الناس، مع أن هذا الوجه لا يزيد عن شبر في شبر، وتستطيع أن تقف على باب مسجد جامع بعد صلاة الجمعة لتتفرّس في وجوه الناس فإنك لن تجد وجهين متفقين في الصورة أبدا، وقد فعل الله عز وجل ذلك ليتعارف الناس، إذ لو كانوا على صورة واحدة ما تعارفوا، وإلى ذلك يشير عز وجل حيث يقول: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ وكما طبع هذا الوجه بهذا الطابَع المنفرد عن جميع البشر فإنه خطط أطراف أصابع اليدين بخطوط يختلف فيها تخطيط كلّ إصبع عن تخطيط الإصبع الآخر لنفس الإنسان، فتميزت بذلك بصمات أصابع جميع الناس، مع أن هذا البَنَان المخطط لا يزيد عن مساحة نصف درهم تقريبا، وإلى هذا يشير الله عز وجل في الاستدلال على عظيم قدرته بأنه يعيد تخطيط الأنامل بعد موت أصحابها عندما يبعثهم يوم القيامة فيقول: ﴿أيحسَب الإنسان ألَّن نجمع عظامه* بلى قادرين على أن نسوّي بَنَانَه﴾ ويميّز الله عز وجل الإنسان وهو في بطن أمه عند تصويره وتخطيطه بميزات تقربه إلى آبائه أو أمهاته أو أعمامه أو أخواله، وقد ينزعه في ذلك عِرْقٌ بعيد أو عرق قريب، كما نزع رسولَ الله ﷺ عِرْقُ أبيه إبراهيم خليل الرحمن، فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أشبه ولد إبراهيم به». وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاما

أسـود، قال: «هل لك من إبل؟» قـال: نعم. قـال: «فما ألوانها؟» قـال: حُـمْـرٌ، قـال: «هل فيهـا من أَوْرَق؟» قال: نعـم، قال: «فـأَنَّى ذلك؟» قال: لعلـه نَزَعَه عِـرْق، قال: «فلعلّ ابنك هذا نزعـه عرق». اهـ وقـد ذكر رسول الله ﷺ بعض أطوار التخليق التي يمر بها الجنين في بطن أمه فقد روى البخاري ومسلـم من حديث عبـد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنـه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُـجْمَع خلقه في بطن أمـه أربعين يومـا ثم يكـون علقة مثل ذلـك، ثم يكون مضغـة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكـا فيُـؤْمَـر بأربع كلمات، ويقـال لـه: اكتب عملـه ورزقه وأجلـه وشقيّ أو سعيد ثم يُنْفَخ فيـه الروح، فإن الـرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النـار، ويعمل حتى مـا يكـون بينـه وبين النـار إلا ذراع فيسبق عليـه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة». وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذه الأطوار في كتابه الكـريم حيث يقول: ﴿ولقد خلقنا الإنسـان من سُلالة من طين* ثم جعلناه نطفـة في قرار مكين* ثم خلقنـا النطفة علقـة فخلقنا العلقـة مضغة فخلقنا المضغـة عظاما فكسونـا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخـر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ إعجـاز علميّ، فإن علم التشريح الإنسـاني قـد اكتشف أن الصنـدوق العظمي الذي يتكون بداخله الرحم هو أقوى عظام في الإنسان، ومعلوم أن عظام الـرجل في الجملة أقوى مـن عظام المرأة في الجملة كـذلك، إلا أن هذا الصندوق العظمي الـذي يوجـد بداخلـه بيت الجنين أقوى من سـائر عظام أجسام الرجال والنساء حتى قيل: إن نسبة الماء فيه لا تزيد على ثلاثة بالمائة، حتى ذكـر بعض كبـار الأطبـاء المعـاصرين أنـه يكـاد يعـادل قـوة الحديـد الصلب. وقـد كرر الله تبـارك وتعـالى هـذا المعنى في غير موضع مـن كتابـه

الكريم لتقرير هذا الإعجاز العلمي حيث قال في سورة المرسلات أيضا: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين* فجعلناه في قرار مكين* إلى قدر معلوم* فَقَدَرْنا فنِعْمَ القادرون﴾ ولا شك أن هذا التصوير الدقيق في ظلمات البطن والرحم والمشيمة و إخراج هذه البنية العجيبة والتركيب الغريب الممتلئ بالعوالم الكثيرة والأجهزة المختلفة التي تمثل كلّ واحدة منها عالَماً متكاملاً، وصار الأطباء يتخصصون في بعض جزئيات أو أجزاء هذا العالَم العجيب الدقيق، الذي صنعه وصوّره الحكيم العليم، القادر على الجمع بين النقيضين والضدين، الذي ركّب هذا الجسم من أعضاء مختلفة في الشكل والطبع والصفة، فبعضها عظام وبعضها غضاريف وبعضها شرايين وبعضها أوردة وبعضها عضلات وأعصاب، وركّب في مؤخرة رأس الإنسان كرتين تديرانه، إحداهما في الجانب الأيسر لتدير شقّ الإنسان الأيمن، والثانية في الجانب الأيمن لتدير شقّ الإنسان الأيسر، وقد احتوت على «بلايين» الأجهزة التي تصدر بواسطتها الإشارات لحركات الإنسان وأفعاله وأفكاره. ومع ذلك كله فقد جعل الإنسان على صورة هي أحسن الصور حتى لا يتمنى إنسان مهما كانت صورته دميمة أن يكون طاووسا، ولذلك قال عز وجل: ﴿والتين والزيتون* وطور سينين* وهذا البلد الأمين* لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ كما أشار عز وجل إلى تفاوت الصور بقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم* الذي خلقك فسوّاك فَعَدَلَكَ* في أي صورة ما شاء ركّبك. ﴾ وقد لفت الله تبارك وتعالى انتباه الناس إلى آيته في اختلاف ألوان الناس حيث يقول: ﴿ومن آياته خَلْقُ السمٰوات الأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذٰلك لآيات للعالِمين﴾ وقد روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه لما بلغه مَقْدَم النبي ﷺ المدينة فأتاه يسأله عن أشياء،

فقال: إني سـائلك عن ثلاث لا يعلمهـن إلا نبيّ: ما أول أشراط السـاعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بـال الولد يَنْزِعُ إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني به جبريل آنفا» قال ابن سلام: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، قال: «أما أوّل أشراط السـاعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمـا أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأمـا الولد فإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجـل نزعت الولد» قال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله. وفي لفظ لمسلم من حديث عـائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إذا علا ماؤها ماءَ الـرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماءُ الرجل مـاءَها أشبه أعمامه». وفي لفظ لمسلم من حـديث ثوبان رضي الله عنه أن حبْرًا من أحبـار اليهود قال لـرسول الله ﷺ: جئت أسألك عن الـولد قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفـر فإذا اجتمعا فَعَلاَ منيُّ الرجل منيَّ المرأة أَذْكَـرَا بإذن الله، وإذا عـلا منيُّ المرأة منيَّ الـرجل آنثـا بإذن الله» قـال اليهودي: لقـد صدقت وإنـك لنبيّ. هذا وقـد جعل الله تبارك وتعـالى هذا التخليق والزوجيـة بين المخلوقين آيـة بارزة على قدرتـه على بعث الموتى حيث قـال: ﴿ألم يك نطفة مِن مَنِيٍّ يُمْنَى* ثم كـان علقة فخَلَقَ فسَـوَّى* فجعل منـه الزوجين الـذكر والأنثى* أليس ذٰلك بقـادر على أن يحيي الموتى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تَذَكَّرون﴾ والملاحظ أن الله تبارك وتعالى بعد أن يذكر تصوير الإنسان وتخليقه في رحم أمه يعلن أنه لا إلّه إلا هـو بعد ذلك مباشرة كما قال عـز وجل هنا: ﴿هو الـذي يصوركم في الأرحام كيـف يشاء، لا إلّه إلا هـو العزيـز الحكيم﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذٰلكم الله ربكم له الملك لا إلّه إلا هو فأنّى تُصْـرَفُون﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿لا إلّه إلا هو العـزيز الحكيم﴾ تنزيهٌ لله عـز وجل أن يكون له ولد أو نِـدّ أو شبيه،

وتكذيب لمن زعم أن عيسى إلـه أو ابن إله، ووعيد شديـد لليهود والنصارى والمشركين الـذين قـالـوا: اتخذ الله ولـدًا، أو جعلـوا مع الله إلَها آخـر، وهـو الغـالب الـذي لا يهرب منـه أحد، الحكيم الـذي يبيّن لعبـاده طـريق الخير وطـريق الشر ليهلك من هلك عن بينـة ويحيى من حيّ عن بينـة، ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعالى : ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب وأخرُ متشابهاتٌ فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيتّبعونَ ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلهِ ، وما يعلم تأويلهُ إلاّ الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا ، وما يذّكّر إلا أوْلواْ الألباب* ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً ، إنّك أنت الوهّاب* ربّنا إنّك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إنّ الله لا يخلف الميعاد﴾

قد تقدم قريبا ما ذكره ابن جرير رحمه الله عن نصارى نجران وأنهم جادلوا رسول الله ﷺ وحاجّوه في عيسى عليه السلام وألحدوا في الله ، وكان نصارى نجران عندما وفدوا على رسول الله ﷺ في السنة التاسعة من هجرة رسول الله ﷺ حاولوا الاستدلال على أن عيسى هو ابن الله ببعض ألفاظ في كتاب الله ، حاملين لها على غير ما أريد بها بسبب زيغ قلوبهم ابتغاء الفتنة والصّدّ عن سبيل الله ، فزعموا أنّ في القرآن دليلا على أن عيسى ابن الله في قوله عز وجل : ﴿وروح منه﴾ إذ حملوا لفظ «من» في قوله عز وجل : ﴿وروح منه﴾ على التبعيض فيكون عيسى بعضا من الله تعالى وجزءا منه ، وتجاهلوا أنّ«من» في هذا المقام لا يراد بها التبعيض ، وإنما يراد بها ابتداء الغاية ، أي إن عيسى روحٌ من الأرواح التي ابتدأ الله خلقها ، وتعاموا عن الآيات الكثيرة الصريحة في أن عيسى عبدٌ لله وخلقٌ من خلقه ، والعبد لا يكون ولدا ، وأن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ . ولا شك أن العرب يستعملون كلمة «من» في معانٍ كثيرة منها ابتداء الغاية كهذه ، ومن معانيها بيان الجنس كقوله تعالى : ﴿فاجتنبوا الرّجس من الأوثان﴾ أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وتأتي للتعليل كقوله عز وجل : ﴿ممّا خطيئاتهم أُغْرِقُوا﴾ وتأتي للبدل كقوله تعالى : ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ وتأتي للغاية كقولك : رأيته من هذا

الموضع، حيث جعلتَه غـاية لـرؤيتك، أي محلاً للابتـداء والانتهاء، وتجيء للتنصيص على العمـوم كقوله تعـالى: ﴿وما من إلَـه إلا الله﴾ وتأتي للفصل وهي الـداخلة على ثـاني المتضـادين كقـوله تعـالى: ﴿والله يعلم المفسـد من المصلح﴾ وتجيء بمعنى الباء كقوله تعالى: ﴿ينظرون إليك من طرف خفيّ﴾ وتأتي بمعنى «عن» كقـوله تعـالى: ﴿فـويل للقاسيـة قلوبهم من ذكـر الله﴾ وتأتي بمعنى «في» كقـولـه تعالى: ﴿أروني مـاذا خلقـوا من الأرض﴾ وكقولـه تعـالى: ﴿إذا نودي للصـلاة من يـوم الجمعـة﴾ وتأتي بمعنى «عنـد» كقولـه تعـالى: ﴿لن تغنـي عنهم أمـوالهم ولا أولادهـم من الله شيئــا﴾ وتأتي بمعنى «على» كقوله تعالى: ﴿ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وتأتي للتبعيض كقـولـه تعالى: ﴿منهم من كلّـم الله﴾ والسّياق هـو الـذي يحدّد المعنى المراد ويبيّنـه، لكنّ نصارى نجـران تركـوا المعنى الظـاهر المتبـادر الجليّ المحكم، ولجأوا إلى المعنى غير المراد مستغلين تشابه اللفظ لزيغ قلوبهم وفساد نياتهم، ومحاولــة صرف اللفظ عن المعنى المراد بـــه إلى شهـوات نفـــوسهم والتشبث بباطلهم وسوء معتقدهم. وقد أنـزل الله تبارك وتعالى في شأنهم من أول سورة آل عمـران إلى الآيـة الـرابعـة والثمانين منهـا، ردّ فيهـا بـــاطلهم، وأدحض شبهتهم، وبيّن أنهم بسبب زيغ قلـــوبهم يتّبعـون مـا تشـابــه من القـرآن، ويتعامـون عن المحكم الصريح الجليّ المثبت أن الله لم يتخذ ولـدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كلّ شيء فقـدّره تقديرا، وعيسى ابن مـريم خلق من خلق الله وعبدٌ مـن عبيده، وقد اقتضت حكمـة العليم الحكيم أن يجعل من القـرآن العظيم محكما وأن يجعل منـه متشـابها، والمحكم هـو الـواضح الجلي الذي لا يخفى علم المراد منه على العامة والخاصـة، والمتشابه هو اللفظ الذي يحتمل أكثـر من معنى كلفظ «من» في قـوله تعـالى: ﴿وروح منـه﴾ وكلفظ «بعد» في قوله تبارك وتعـالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فأما أهل الإيمان

الـراسخـون في العلم الثـابتــون على الحق فإنهم يـردّون متشـابهه إلى محكمـه ويحملـون ألفاظـه على المعنى المتبـادر منهـا فيحملون معنى «مـن» في قولـه تعالى: ﴿وروحٌ منـه﴾ على ما أريد منها وهـي ابتداء الغاية، ويحملـون كلمة «بعـد» في قـوله عـز وجل: ﴿والأرضَ بعـد ذٰلك دحـاهـا﴾ على معنى «مع ذلك» لأنها تستعمل في الكلام الفصيـح أحيانا بمعنى «مع» ومنـه قولـه عز وجل: ﴿عُتُلٍّ بعد ذٰلك زَنِيم﴾ أي مع ذلك، فـلا معارضة بينها وبين قـوله تعالى: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استـوى إلى السماء﴾ وكذلك قوله تبـارك وتعـالى: ﴿ولا يُسْأَل عن ذنـوبهم المجـرمـون﴾ مع قولـه عـز وجل: ﴿وَقِفُوهُم إنهم مسئـولون﴾ فالراسخون في العلم يحملـون السؤال المنفيّ على سؤال الاستفهـام والاستعلام ويحملون السؤال المثبت على السـؤال لتوبيخهم وتقـريعهم على سوء أعمالهم، وهكـذا يفعل الراسخـون في العلم يحملون مـا تشابه من الآيات على المحكم منها، أما الذين في قلوبهم مرض وانحراف عن سبيل الرشاد فإنهم يحملـون المتشابه على غير ما أريد منـه لحمل آيات القرآن على التناقض، وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولذلك وصف الله عز وجل الراسخين في العلم الذي يردون متشابهه إلى محكمه بأنهم يقـولـون: آمنا بـه، كلّ من عنـد ربنـا، فكـلامه عـز وجل لا يتنـاقض ولا يتعارض ولا يتضـارب تعالى الله عن ذلك علـوا كبيرا. ولذلك بعـد أن صدّر الله تبارك وتعالى صدر هذه السورة الزهراء بسياق أدلة جلية على أنه لا إلّه إلا هو الحي القيـوم وأنه أنزل على محمـد ﷺ القرآن بالحق، كما أنـزل التوراة على مـوسى والإنجيل على عيسى هدى للنـاس، وأنزل الأدلـة الفارقـة بين الحق والباطل، وأن الـذين يكفرون بآيات الله ويحاولـون ضرب بعضها ببعض لهم عذاب شـديد من العزيـز المنتقم الجبار، وفي هذا تقـرير للإيمان بـالله وكتبه ورسلـه، وتحذير شـديـد من التفـريق بين أحد مـن رسله، وهـو يقتضي أن

عيسى عبد من عبيد الله ورسول من رسله ليس إلَها ولا ابن إلَه، شرع في إبطال شبهة نصارى نجران ومن على شاكلتهم من الذين يتركون المحكم الجليّ الواضح القطعيّ الدلالة الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا ويستدلون بالألفاظ المتشابهة المحتملة لمعان كثيرة ويتعلقون ببعض المعاني غير المرادة منها مع أن هذه المعاني المتشابهة لا يمتاز بعضها عن بعض في الأصل لو كانت هذه الألفاظ مفردة غير واردة في سياق كلام لأنها إذا كانت واردة في سياق كلام فإن هذا السياق يحدد المراد منها، وهذا أمرٌ معروفٌ في معاني الحروف، لكن الذي في قلبه زيغ أي ميل عن الحق إلى الباطل يتتبع المتشابهات ويترك الواضحات الجليات، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب﴾ أي هنّ الأصول والقواعد التي يُرْجَع إليها عند الاختلاف والاشتباه، لقطعية دلالتها وعدم احتمالها إلا لمعنى واحد. وقوله تعالى: ﴿وأُخَرُ متشابهات﴾ أي ومن الكتاب آيات تحتمل أكثر من معنى ابتلاء واختبارا، وإن كان سياق الكلام يحدّد المراد منها، ولا شك عند أهل العلم أن المراد بالمتشابه هنا غير المراد بالمتشابه الذي وصف به القرآن كله في قوله تعالى: ﴿كتابا متشابها مثاني﴾ إذ المراد منه أنه كلّه يشبه بعضه بعضا في الحسن والصدق والإعجاز، كما أن المراد بالمحكم الذي وصف به القرآن كلّه في قوله تبارك وتعالى: ﴿كتاب أُحْكِمَتْ آياته﴾ فإن المقصود به أنه كلّه مُتْقَنٌ لا يتطرق إليه الخلل أو الفساد أو التناقض. وقوله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ أي فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق والاستقامة إلى الأهواء الباطلة، المنحرفون عن سنن الرشاد، المصرّون على الشر والفساد والعناد، فإنهم لا يتعلّقون بالمحكمات الجليات وإنما يقصدون الألفاظ المشتبهات، لا تَحَرِّيًا للحق بل لطلب فتنة الناس عن دينهم

بـالتشكيـك والتلبيس والتأويل البـاطل، حسبما يشتهـون من التـأويـلات الفاسدة والآراء الزائغة، وهـم ليسـوا أهلا لتأويل كتاب الله فتأويله يعلمه الله عز وجل من وفّقه من عبـاده الراسخين في العلم الثابتين على الحق المتمكنين من فهم دين الإسـلام الـذين لم يتـزلـزلـوا عن الهدى، ولم تلعب بهم الأهـواء والشبهات والشهـوات، ولذلك قال عز وجل: ﴿ومـا يعلم تأويله إلا الله، والراسخـون في العلم يقـولون آمنا بـه كلٌّ من عنـد ربنا، ومـا يذّكـر إلا أوْلوا الألباب* ربنـا لا تزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنا وهب لنـا من لدنك رحمة، إنك أنت الـوهاب* ربنـا إنك جامع النـاس ليوم لا ريب فيـه، إن الله لا يخلف الميعـاد﴾ أي ولا يحيط بعلمـه إلا الله الـذي أنـزلـه، والثـابتـون على الحق المستقرون على العلم والهدى يسارعون إلى الإيمان بمحكم الكتاب ومتشابهه، ويردون متشابهه إلى محكمـه، ويقولون: المحكم والمتشابـه من القرآن كلّه من عند الله منزّل بالحق لا يتناقض ولا يتضارب ولا يتضادّ ولا يختلف، ولو كان من عند غير الله لوجـدوا فيه اختلافا كثيرا، ولا يكون بحـال هؤلاء الراسخين إلا أصحاب العقول، الـذين يضرعون إلى الله عز وجل أن يثبتهم على الهدى وأن لا يُميل قلوبهم عن الحق بعد مـا عرفوه واطمأنوا بـه وأرشدهم الله إليه، ويطلبون من الله أن يمنحهـم رحمة من عنده يثبّتهم بها على القـول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة حالة كونهم مقرين بأن الله حاشر الناس ليوم الحساب الذي لا شك فيـه ولا ريب ليجزي كلّ عـامل بما عمل، كما وعد عـز وجل وهو لا يخلف موعـده. هذا ومن العجيب أن بعض الناس حمل المتشـابه هنا على آيـات الصفات، وقـد قـال شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمه الله: لا أعلم أحدا من السلف جعلها ـ يعني آيات الصفات ـ من المتشابه الداخل في هذه الآية.

قال تعـالى: ﴿إنّ الّذين كفروا لن تُغنـي عنهم أموالهم ولا أولادُهـم من الله شيئـاً وأُولَئك همْ وقودُ النّـار* كَدَأْبِ آل فـرعونَ والـذين من قبلهـم، كذّبـوا بآياتنا فأخذهـم الله بذنوبهم، والله شديدُ العقاب* قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنّمَ، وبئس المهادُ* قد كان لكم آيـة فى فئتين التقتا فئةٌ تقاتلُ فى سبيل الله وأُخـرى كافرةٌ يـرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيّـد بنصره من يشاءُ، إنّ فى ذٰلك لعبرة لأولي الأبصار﴾

بعد أن أدحض الله تبارك وتعالى شبهـة نصارى نجران ومن على شاكلتهم وحذّر من الـذين يتبعون ما تشـابه من القـرآن ابتغاء الفتنة وابتغـاء صرفه إلى معان بـاطلة أنـذر هنا الكافـرين بأنهم وقود النـار، وقد حـذّر رسول الله ﷺ المسلمين من سلوك سبيل هؤلاء الزائغين عن الحق فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عـائشة رضي الله عنهـا قالت: تـلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكماتٌ هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعـون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلـه وما يعلم تأويله إلا الله، والـراسخون في العلم يقولون آمنـا به كلّ من عند ربنـا وما يذّكـر إلا أوْلواْ الألباب﴾ قالت: قـال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم».

وقولـه عز وجل: ﴿إن الـذين كفروا لن تغني عنهم أمـوالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولَئك هم وقود النار﴾ أي إن الـذين جحدوا الحق وكذبوا رسل الله ولم يـؤمنـوا بمحمد ﷺ وبما أنـزل عليـه، وزاغت قلـوبهم عن الحق واتّبعـوا المتشابهات ابتغاء الفتنة والصدّ عن سبيل الله لـن تنفعهم يوم القيامة عند الله عز وجل أموالهم ولا أولادهم ولن تنجيهم من عقوبة الله إنْ أحلّها في العاجلة بهم على تكذيبهم للحـق وزيغهم عن طريق الـرشاد واتّباعهـم للمتشابهات

ابتغاء الفتنة، وهم في الآخرة حطب جهنّم التي وقودها الكفّار والحجارة جزاء الكفر بالله ورسله وكتبه وتحريفهم للكلم من بعد مواضعه، وقوله عز وجل: ﴿كَدَأْب آل فرعون والذين من قبلهم، كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم، والله شديد العقاب﴾ أي كسنّة الله تعالى في آل فرعون ومن قبلهم من الذين كفروا كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط لما كفروا بالله وكذبوا رسله وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، فما أغنت عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، وهم حطب جهنم يوم القيامة، والإضافة في قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ من إضافة المصدر لمفعوله، والمصدر قد يضاف إلى فاعله وقد يضاف إلى مفعوله. وكما قال عز وجل: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم، إن الله قوي شديد العقاب* ذٰلك بأن الله لم يك مغيّرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم* كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون، وكلٌّ كانوا ظالمين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿سنّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبلُ ولن تجد لسنّة الله تبديلا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن كادوا لَيَسْتفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذًا لا يلبثون خِلاَفَكَ إلا قليلا* سُنَّةَ مَن قد أرسلنا قبلك مِن رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلاً﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أكثر منهم وأشدّ قوّة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون* فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون* فلما رَأَوْا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين* فلم يَكُ ينفعهم إيمانهم لما رَأَوْا بأْسَنا سُنّتَ الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ والدأب: السنّة والعادة والشأن والأمر والفعل، كما قال

امرؤ القيس بن حُجْر:

وإنّ شـفائـي عبـرة مهـراقــة		فهل عند رسم دارس مــن مُعَوَّلِ
وقوفًا بها صـحبي عليّ مطيّهـم		يقولون: لا تهلَك أَسًى وتجمّلِ
كدأبك من أمّ الحويـرث قبلها		وجارتها أمّ الـرّباب بمَـأْسَـلِ

أي كشأنك وعـادتك وأمرك وفعلك في أم الحويـرث حين أهلكت نفسك في حبهـا وبكيت دارها ورسمهـا، فهل تلقى من وقـوفك على هـذه الديـار وتلك الرسـوم إلا ما تعـودته من أم الحويـرث وجارتها أم الربـاب بمأسل؟! وقـوله: ﴿فأخـذهم الله بـذنوبهم﴾ أي أهلكهم بسبـب كفرهم وتكـذيبهم لـرسلهم وجرائمهم، وقـولـه تعالى: ﴿والله شـديـد العقاب﴾ أي وكـانت عقوبـة الله لهم عقوبة العـزيز المقتدر المنتقـم الجبار. وقولـه عز وجل: ﴿قل للذين كفروا سَتُغْلَبُون وتُـحْشَـرُون إلى جهنّم، وبئس المهاد﴾ أي قل يا محمد لليهـود والنصـارى والمشركين الـذي يكفـرون بالله ويكـذّبـونك: سَتُـذَلّـون وتقهرون وينـالكم خزي في الدنيـا، وستُجْمَعون من قبوركم لتكـونوا حطب جهنّم، وتكون النار لكم فراشا، وبئس الفراش. وقوله عز وجل: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئـة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافـرة يَرَوْنَـهُم مِثْلَيْهِم رَأْيَ العين، والله يؤيـد بنصره من يشاءُ إنّ في ذٰلـك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي يجب عليكم أيها الجاحدون أن تعتبروا بها أبصرتموه من تأييد الله تعـالى لرسوله محمد ﷺ وأصحابـه رضي الله عنهم يوم بدر، فإنّ ما حدث يوم بـدر كان آية ومعجزة وعلامة ظاهرة على أن محمدًا رسول الله ﷺ حقا وصدقا، وقد أيقنتم بما حدث وعلمتـم تفاصيله، وفي ذلك آيـة لكم على أنه سيصيبكم مثـل ما أصاب قـريشا يوم بـدر، وسَتُهْزَمُون وتُغْلَبـون وسينتصر محمد عليكم كما هي سنة الله مع أنبيائه ورسله من نصرهم وتـأييدهم، وكما هي سنة الله مع أعداء المرسلين من إذلالهم وقهـرهم وخـذلانهم، فقـد علمتم أيها الجاحــدون أن

المسلمين كانوا بضعة عشر وثلثمائة وكان المشركون بين التسعمائة والألف ومع ذلك فإنّ الله عـز وجل عند مـا تواجـه الفريقان ببـدر قلّل المشركين في أعين المؤمنين حتى صار المؤمنون يحسبون أن المشركين لا يزيدون على الستمائة وقلّل المسلمين في أعين المشركين حتى كانوا يحسبونهم أقلّ من ثلثمائة، وقد ذكر الله تبارك وتعالى ذلك حيث بيّن هنا أن المسلمين كانوا يرون المشركين مِثْلَيْهِم رَأْي العين، مع أن المشركين كانوا أكثر من ثلاثة أمثال المسلمين، وقد أرى الله عز وجل رسولَه محمـدًا ﷺ في منامه المشركين قليلا ليبشر أصحابـه بذلك فتقوى نفوسهم وعزائمهم على قتال أعدائهـم الذين يتلاقون معهم على غير ميعاد، وعنـدمـا أقبل المشركـون والمسلمـون على المعـركـة قلّل الله المسلمين في أعين المشركين ليستدرجهم إلى أرض المعـركة وقلّل المشركين في أعين المسلمين، ولا شك أن الله تبارك وتعالى فعل ذلك ليقضي أمرا كـان مفعولا فتتم معركة بدر، وينتصر فيها المسلمـون مع قلة عَـدَدهم وعُدَدهـم وينهزم المشركون مـع كثرة عَـدَدهم وعُدَدهم، وفي ذلـك عظة وعبرة لكل ذي بصر أو بصيرة سـواء من حضر المعركة أو سمع بها مـن الموجودين آنذاك أو الذين يـوجدون بعد ذلك إلى يوم القيامة . وفي ذلك يقول الله عـز وجل: ﴿إذ أنتم بالعُدْوة الدنيا وهم بالعُـدْوة القُصْوَى والـرَّكْب أسفل منكم، ولو تـواعدتم لاختلفتـم في الميعاد ولَكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلِكَ من هلك عن بينة ويَـحيَى من حَيَّ عن بينة، وإنّ الله لسميع عليم﴾ إذ يُريكَهُم الله في منـامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنـازعتم في الأمر ولَكنّ الله سلّم، إنـه عليم بذات الصـدور﴾ وإذ يُـرِيكُمـوهُم إذ التقيتم في أعينكم قليـلا ويقلّلكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور﴾ وقوله عز وجل هنا: ﴿ قد كان لكم آيـة في فئتين التقتـا﴾ أي قـد كـان لكم أيها الكـافـرون الجاحـدون المتّبعـون للمتشـابه الـزائغون عن المحكـم عبرة في فرقتين تـواجهتا في ميـدان الحرب،

وقوله عز وجل: ﴿فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾ أي إحدى الطائفتين وهي المؤمنة تقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله والطائفة الأخرى كافرة مكذبة بالله ورسله تقاتل تحت لواء الشيطان، وقوله عز وجل: ﴿يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِم رَأْيَ العين﴾ أي يبصر المؤمنون أعداءهم ويقدّرونهم بأكثر من ستمائة مقاتل إذ كان المؤمنون بضعة عشر وثلثمائة رجل، وهم يرون الكافرين قدرهم مرتين رأي العين لا مناما ولا وهما، مع أن عددهم في الواقع كان بين التسعمائة والألف لكنّ الله قلّلهم في أعين المؤمنين ليقوّي عزيمة المؤمنين على حربهم، وقد روى البخاري من حديث البراء رضي الله عنه قال: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدرا أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النّهر بضعة عشر وثلثمائة اهـ وقد كان رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بالنصر قبل أن تقع المعركة كما قال عز وجل: ﴿وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتَودّون أن غير ذات الشَّوْكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ وقد كان رسول الله ﷺ يحدد أماكن مصارع رؤساء قريش كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قبل المعركة، فقد روى مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يُرِينَا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله» قال عمر: فو الذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ اهـ وقد قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيدا ولم يؤسر من المسلمين أحد، وفي لفت انتباه الناس إلى هذه المعركة يقول الله عز وجل: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي إن في نصر الله للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة لَعِظَةً لأصحاب العقول، ليعلموا أن سنة الله في خلقه أن ينصر المؤمنين برسله، وأن يُنْزِلَ بأسه بالكافرين الزائغين.

قـال تعالى : ﴿زُيّن للنّـاس حبّ الشّهـوات من النّساء والبنين والقنـاطير المُقنطـرة من الذّهب والفضّـة والخيل المسوّمـة والأنعام والحرث ، ذٰلك متـاع الحياة الدّنيا والله عنده حسنُ المآب﴾

لما كـان حبّ الشهوات هـو أحد العـوائق الكبار التي تحول بين الإنسـان وبين سلوك سبيل الراشدين ، وقد نبه عـز وجل فيما تقدم أن أموال الكافرين وأولادهم لا تغني عنهم من عـذاب الله في العاجلة أو الآجلـة شيئا ، وضرب أمثلـة بما أوقعه بـآل فرعـون ومن قبلهم من المكذبين الجاحـدين ، وبما أنزلـه بصناديد المشركين من قـريش يوم بدر، أرشد هنا في هـذا المقام الكريم إلى أن الشريعة تهذّب الطبيعة ، وأن ما جبل عليه الإنسـان طبعا قد وضع الله تبارك وتعالى أحسن السّبل للاستفادة وقضاء الشهوة منه شرعا ، فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عنـد ربك ثوابا وخير أملا ، ولا توجد شهـوة محرمة إلا وقـد يسّر الله لـلإنسان بـدلها شهـوة مبـاحة ، والشرع جـاء لتهذيب وتنظيم الطبع ، وقوله عـز وجل : ﴿زُيِّن للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسَوَّمة والأنعام والحرْث﴾ هذه هي أصـول الشهوات التي يتصارع البشر من أجلهـا ، ويكاد حبّ الجاه والرئاسة لا يخرج عـن دائرتها ، وقد بدأها الله عز وجل بـذكر الميل إلى شهوة النساء لأنها في الواقع أخطـر الشهوات ، وأضرّ فتنة تصيب الناس ، وقد نبّه إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى البخـاري ومسلم من حديث أسامة ابن زيد رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال : «مـا تركت بعـدي فتنة أضرّ على الرجال من النسـاء» . وفي لفظ لمسلم من حديث أسامـة بن زيد وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنهم أن رسـول الله ﷺ قال : «ما تركت بعـدي في النـاس فتنـة أضر على الـرجـال من النسـاء» وفي روايـة لمسلم من

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإنّ الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». والمراد بالشهوة اشتياق النفس إلى الشيء وحرصها على الاستمتاع به وحيازته، وحبّ الشهوة هو فرح الإنسان بتحصيل ما يشتاق إليه من هذه الأشياء المذكورة وتلذّذه بها، فإن كانت حلالا فهي شهوة ممدوحة وإن كانت حراما فهي شهوة قبيحة مذمومة، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك في قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وفي بُضْع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وِزْر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر». وثنى الله عز وجل بالبنين لأن الزينة بهم أتم من الزينة بالبنات لأن مبنى أمر البنات على الستر والحجاب. والقناطير جمع قنطار وهو أكبر ما عرفته العرب من المعايير والموازين ولذلك ضرب الله عز وجل به المثل في قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَأْمَنْه بقنطار يُؤَدِّه إليك﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهنّ قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئا﴾ وقد استعملت العرب موازين كثيرة مختلفة كالدينار والدرهم والرطل، قال في القاموس المحيط: والرطل اثنتا عشرة أوقية، والأوقية إستارٌ وثلثا إستار، والإستار أربعة مثاقيل ونصفٌ، والمثقال درهمٌ وثلاثةُ أسباع درهم، والدرهمُ ستّةُ دَوَانق والدّانِق قيراطان، والقيراط طَسُّوجان، والطَّسُّوج حَبَّتان والحبة سُدُس ثُمُن درهم، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءا من درهم اهـ والمقنطرة أي المتراكبة المتكاملة المتمّمة، والمقصود من هذا الوصف التأكيد كقولهم: ألوف مؤلّفة وإبل مؤبّلةٌ، ودراهمٌ مُدَرْهَمةٌ، والذهب والفضة من المعادن الثمينة التي جعلها الله عز

وجل ثمنا لجميع الأشياء، فمالكهما يحصل بهما على ما يريد، فهما أكمل الوسائل إلى تحصيل مشتهيات النفوس، ولم يزالا مذ أوجدهما الله عز وجل للناس في الذروة في نفوس الناس أفرادًا وجماعات وهما أبرز سمات الغنى وهما من آيات الله عز وجل حيث جبل الناس على شهوتهما مع أنهما من عروق طين الأرض وأحجارها التي لا تأخذ بألبابهم كما يأخذ بها الذهب والفضة، وقد ألف لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني كتابا عن الذهب والفضة سماه: كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء، قال في أوله: الحمد لله خالق الخلق وباسط الرزق وقاسم المعيشة بين عباده بأحسن تقدير، وأتقن تدبير، فلم يَعُلْ عليه صغير، ولم يَعْزُبْ عنه حقير، حتى عمّ الجميع بلطفه، ووسعهم بفضله، وأغناهم بحصاة من أرضه، أخرجها لهم من بين حَجَر ومَدَر، لا ينهشها الكلب، ولا يبتلعها الظّليم، ولا تؤذى شمّا ولا مذاقا، فجعل بها نظام دينهم ودنياهم، ومتزوَّدهم إلى معادهم وأخراهم، فأحلّ بها الفروج، ومَلّك بها الرقاب، ورأَبَ بها الصدوع، وسدّ بها الثغور، وأرقأ بها الدّماء، وفكّ بها الأسرى، وسيَّر بها الحاجّ، وقضى بها الفروض، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلواتك سكن لهم﴾ وقال تعالى: ﴿فأنذرتكم نارا تلظّى﴾ إلى آخر السورة، وقرن المال بالولد، قال عز وجل: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ ثم قال رحمه الله: ولما سمعتُ من تَرْداد ذكر الذهب والفضة في كتاب الله عز وجل وفي الأخبار عن رسول الله ﷺ، وأن الله جعلهما حلية أهل الجنة وجمال ملوك بَرِيّته فقال تعالى: ﴿أولَٰئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يُحَلَّوْن فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرًا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك، نعم الثواب وحسُنت مرتفقًا﴾ وقوله تعالى: ﴿جناتُ عدنٍ يدخلونها يحَلّون فيها من أساور من

ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حريرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿يُطَاف عليهم بصحافٍ من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين﴾ وقال تعالى: ﴿ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً* قواريراً من فضة قدّروها تقديرا﴾ ثم ذكر أن الأعشى قال في مواهب الملوك:

ونَادمْتُ فهْدًا بالمعافِرِ حِقْبة　　وفهدٌ سَمَاحٌ لم تَشُبْهُ المواعدُ
ووالدُهُ نعمانُ من حَفَداته　　رُعَيْنٌ وهمْ قومٌ مُلُوكٌ أمَاجدُ
وأَكْؤُسهمْ صافي اللُّجَين مُكَلَّل　　بدُرٍّ وياقوتٍ عليه العساجدُ

هذا بعض ما ذكره الهمداني صاحب كتاب: صفة جزيرة العرب، في كتابه: الجوهرتين. وقد حرم الإسلام الأكل أو الشرب في آنية الذهب والفضة كما حرم على الرجال لبس الذهب، فقد روى البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ نهانا عن الحرير والدِّيباج والشرب في آنية الذهب والفضة وقال: «هي لهم في الدنيا وهي لكم في الآخرة». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم». وفي لفظ لمسلم: «إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب». وفي لفظ لمسلم: «من شرب في إناء من ذهب أو فضة فإنما يجرجر في بطنه نارا من جهنم». كما روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُرِّمَ لباس الحرير والذهب على ذكور أمّتي وأُحِلَّ لإناثهم». والفضة تسمّى اللُّجَيْن، والذّهب قد يسمى العَسْجَد، ويطلق على الذهب والفضة اسم التِّبر ومنه قول الشافعي رحمه الله:

والتّبر كالتّرب مُلْقًى في أماكنه　　والعود في أرضه نَوعٌ من الحطب

وقوله عز وجل: ﴿والخيل المسَوَّمة﴾ أي وزُيّن للناس حبّ الخيل المسوّمة

وهي المطَهَّمة الحِسَان، والمطهّم هو البارع الجمال التامّ الحسن، قال أبو القاسم الدِّينَوَرِيّ في وصف جواد:

ومُطَهَّمٌ طَرِف العنان مُعَوَّد خَوْضَ المهالك كلّ يوم بِرَازِ
وإذا توغّل في ذُرًى مُتَمَنِّعٍ صَعْبٍ بعيد العهد بالمجتازِ
تركت سنابكه بصُمٍّ صخوره أثرًا يلوح كنقش صدْرِ البازي

وقد أحبّ الناس الخيل مذ عُرِفَت ولا يزالون يحبونها، بل وصف بعضهم ظهرالفرس بأنه أعز مكان في الدنيا حيث يقول:

أعز مكان في الدنا سَرْج سابح

ويقول امرؤ القيس في وصف فرسه:

مِكَرّ مِفَرّ مقْبِل مدْبِرٍ معًا كجُلْمود صخر حطّه السيل من عَلِ

وقد قال بعض الحكماء في الخيل: ظاهرها عزّ وباطنها كنزٌ. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الخيل وحض على اقتنائها لإعلاء كلمة الله حيث يقول عز وجل: ﴿وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ وأشار إلى أن سليمان عليه السلام ذكر أنه يحب الخيل لأن الله ذكرها له بخير، حيث يقول عز وجل: ﴿إذ عُرِضَ عليه بالعَشِيّ الصافِنَات الجِيَاد* فقال إني أحببت حُبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾، وقوله: ﴿عن ذكر ربي﴾ أي بسبب ذكر ربي لها بخير، وقد سمى الخيل خيرا. وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «البركة في نواصي الخيل». كما روى البخاري ومسلم من حديث عروة بن الجعد البارقي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم». وقوله في هذا الحديث: «إلى يوم القيامة» من المعجزات لأنه لا يزال إلى اليوم رغم (الصواريخ والقاذفات) يوجد في جميع جيوش العالم فرق الخيالة والفرسان. وقد روى البخاري ومسلم واللفظ

للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر ولـرجل سِتْـر وعلى رجل وِزْر، فأما الذي له أجـر فرجل ربطها في سبيل الله فأطـال في مـرج أو روضـة فما أصـابت في طِيَلِهـا ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولـوأنها قطعت طِيَلَها فاسْتَنَّت شَـرَفًا أو شَـرَفَيْـن كانت أرواثها وآثارها حسنات لـه، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يُرِدْ أن يسقيها كان ذلك حسنات له، ورجل ربطها تغنّيًا وتعفّفًا ولم ينس حقّ الله في رقـابها ولا ظهورهـا فهي لـه ستر، ورجل ربطهـا فخرا وريـاءً فهي على ذلك وزرٌ». الحديث، وقوله عز وجل: ﴿والأنعام﴾ أي الإبل والبقر والغنم، وقد وصف الله عز وجل مظهرًا من مظاهر زينتها وجمالها حيث يقول: ﴿والأنعامَ خلقها، لكم فيها دفء ومنافع ومنهـا تأكلون* ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون* وتحمل أثقـالكم إلى بلد لم تكونوا بـالِغِيه إلا بِشِقّ الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم* والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينة، ويخلق مالا تعلمون﴾ وقـوله تعالى: ﴿والحرث﴾ أي والبسـاتين والمزارع، وقد روى أحمد والطبراني من حديث سُـوَيْد بن هُبَيْــرة سمعت النبي ﷺ يقول: «خير المال مُهْرة مأمورة أو سِكَّةٌ مَأْبُـورة». والمراد بالمهرة المأمورة: الفرس الكثيرة النسل، والسِّكّة: النخل المصْطَفّ، والمأبـورة: الملَقَّحة. وقوله تعـالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيـا﴾ أي هذه الزينات التي جُبِلْتم على شهـوتها ومِلْتُم لها هي متاع الحياة الدنيا، فاللذة بها لا دوام لها ولا بقـاء وسرعان ما تنقضي وتزول، وقوله عز وجل: ﴿ والله عنـده حسن المآب﴾ أي وعند الله عـز وجل جميل المرجع لعباده الصالحين من اللذات التي لا تزول ولا تفنى في جنات النّعيم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أؤنبّئُكُم بخيْرٍ مِنْ ذالكمْ، للذين اتّقوا عند ربّهم جنّاتٌ تجري من تحتهـا الأنهارُ خالديـن فيها وأزواجٌ مُطهّرةٌ ورِضْـوانٌ من الله، والله بصيرٌ بالعباد* الذين يقولون ربّنا إنّنا آمنّا فاغفر لنا ذُنوبنا وقِنَا عذاب النارِ* الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغْفرينَ بِالأسحارِ.﴾

بعد أن بيّن الله عـز وجل ما تفضل بـه على عباده من لـذات الحياة الـدنيا ونبّه عبـاده إلى أنها لذات فـانية لابقـاء لها ولا دوام بقوله عـز وجل: ﴿ذلك متـاع الحياة الـدنيا﴾ وأشعـرهـم بما أعده للصـالحين من حسن المرجع وجميل المثوبة، أمر نبيه محمدا ﷺ أن يخبر الناس بتفصيل بعض ما عند الله عز وجل من حسن المآب وما أعـد لعباده المتقين من اللـذات الكاملة البـاقية والنعيم الـذي لا يفنى ولا يزول فقـال عـز وجل: ﴿قل أؤنبّئكم بخير من ذالكم؟﴾ أي أأخبركم بأفضـل وأجمل وأحسن ممّـا زُيّن لكم مـن حب الشهـوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث؟ وقولـه عز وجل: ﴿للـذين اتقـوا عندربهم جناتٌ تجري مـن تحتها الأنهارُ خالدين فيهـا وأزواج مُطَهَّرة ورضوانٌ من الله﴾ هو مستأنـف استئنافًا بيانيا كأن سائلا سأل: ماذلك الخير الذي تتصاغر عنده هذه اللذات السّبع المشْتَهَيات عند جميع الناس؟ فكان الجواب: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مُطَهَّرة ورضوان من الله﴾ أي عند الله عز وجل في الدار الآخرة لمن آمنوا بالله عـز وجل وصدّقوا المرسلين وخافوا الله عـز وجل وفارقـوا الـدنيا وهـم مـؤمنـون نعيمٌ لا يزول ولَـذَّات لا تفنى في حدائق الخلد التي أعدها الله عز وجل لعباده الصالحين تجري تحت أشجارها وقصورها أنهار من مـاء غير آسِن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لَـذّة للشاربين وأنهار من عسَل مُصَفًّى ولهم فيهـا من كل الثمـرات، حالـة

كونهم ماكثين في هـذا النعيم أبدا لا يَرِيمُون ولا يتحولون ولا يـزولون عنه ولا يعتريهم مـرض ولا شيخوخـة، ولا ينتابهم فيهـا إزعاج، فهم في دار السـلام عنـد ربهم لهم مـا يشـاءون وعنـد الله المزيـد من النعيم المقيم، ولهم في هـذه الجنات زوجـات مطهرات من سـائر الأرجاس والأنجاس والأقـذار والقذى والأذى، فهُنّ لاَ يَبُلْـن ولا يتغـــوّطن ولاَ يَبْصُقـن ولا يتمخَّطْن ولا يعتريهن حيض ولا نفاس، قاصرات الطّـرف، مقصورات في الخيام، لم يطمثهن قبل أزواجهن إنسٌ ولا جـان، وحتى ما يكـون لهم من أزواجهم المؤمنـات فإنهن يرجعن أبكارا عُرُبًا أترابا، لو أن امرأة منهن اطّلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بين السماء والأرض، وهنّ طـاهرات مطهّرات حِسًّـا ومعنى، فالتمتّع بهن واللذة منهن هو المتاع واللذة على الحقيقة بخلاف التلذذ من نساء الدنيا فهو تلذّذ مع العـوج وسرعة انقضائه وكأن التلـذذ بهن في الدنيا من بـاب المجاز، وهو أشبه شيء بطعام شهي أو شراب لذيذ لا يزيد المتاع والتلذذ به عن وقت وجوده في الفم فإذا ابتلعـه الإنسان ذهبت لذّته وانقضت متعتـه، وقد يجلب بعـد ذلك لصاحبـه الأسقام والأمـراض والعقوبـات والنكبات، وقـوله عـز وجل: ﴿ورضوانٌ من الله﴾ أي وللمتقين عند ربهم زيـادة على ما هم فيه من نعيم الجنة والزوجات المطهرات والخلـود الأبدي السّرمدي في هذا النعيم لذّة تفوق سائر اللذات وهي رضـوان الله عليهم، وقد روى البخاري من حديث أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «إن الله يقـول لأهل الجنة: يا أهل الجنـة، يقولون: لبيك ربنا وسعـديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقـولون: ومـا لنـا لا نَـرْضَى، وقـد أعطيتنا مـا لم تُعْطِ أحـدا من خلقك، فيقـول: أنا أعطيكم أفضـل من ذلك، قالـوا: يـا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا». وقد أشار الله عز وجل إلى أن رضـاه على المؤمنين أكبر من جميع نعيم الجنة حيث يقـول عز

وجل: ﴿وعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكنَ طيّبة في جنات عدن، ورضوانٌ من الله أكبر، ذٰلك هو الفوز العظيم﴾ وقوله عز وجل: ﴿والله بصير بالعباد﴾ هو ترغيب في الخوف من الله عز وجل والحرص على تقواه وطاعته، واتباع رسوله محمد ﷺ و إخلاص العمل لله وحده، وترهيب من الانجراف وراء شهوات الحياة الدنيا، والانقطاع وراء لذاتها، والكفر بالله وتكذيب رسوله ﷺ الذي يؤدي بصاحبه إلى نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة. والعاقل هو الذي يخلص العمل لمرضاة الله لأنه يعلم أن الناقد بصير، ويخفف ظهره من الأوزار لأن العقبة كَئُود، ويكثر من زاد التقوى لأن السفر طويل، وقوله عز وجل: ﴿الذين يقولون ربنا إنّنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ إرشاد من الله عز وجل لعباده الصالحين أن يتوسلوا إليه تبارك وتعالى بصالح أعمالهم وعلى رأسها الإيمان، حيث قدّموا بين يدي دعائهم قولهم: ﴿ربنا إننا آمنا﴾ ثم سألوه عز وجل أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يصونهم من عذاب جهنم حيث قالوا: ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ ولا شك أن التوّسل إلى الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وبالأعمال الصالحة قد أرشد إليه الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، وقد ذكرت في تفسير سورة الفاتحة أن رسول الله ﷺ لفت انتباه المسلمين إلى أن الإنسان المسلم إذا دعا الله تعالى بعد أن يذكر أَرْضَى عمل تقرب به إلى الله عز وجل، وعمله لوجهه الكريم كان حَرِيًّا بأن يُستَجاب دعاؤه، حيث ذكر رسول الله ﷺ قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فانطبقت عليهم الصخرة فلما تضرعوا إلى الله عز وجل بأرجى أعمالهم الصالحة انفرجت عنهم الصخرة، وخرجوا يمشون، الذي أخرجه البخاري ومسلم مطولا من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وكقوله عز وجل: ﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا

فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئـاتنا وتوفّنا مع الأبرار﴾ فإنهم قدّموا ذكر الإيمان قبل الـدعـاء، وكذلك مـا حكـاه الله عـز وجل عن المؤمنين في قـوله تبـارك وتعالى: ﴿إنه كـان فريق من عبادي يقولـون ربّنا آمنّا فاغفـرلنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ والتنبيه إلى هذا النوع من التوسل كثير في كتاب الله عز وجل، أما التوسل بغير أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وبغير الأعمال الصالحة التي قصد بها وجه الله فإنه لا يجوز كما لا يجوز التـوسل بذوات الأنبياء والصالحين في حياتهم أو بعد مماتهم إذ هو من الشرك المحبط للأعمال نعوذ بـالله، وقوله عــز وجل: ﴿الصـابــرين والصـــادقين والقـانتين والمنْفِقِين والمستغفــرين بالأسحار﴾ نصب الصابرين وما عطف عليه يمكن أن يكون على المدح كأنه قيل: أمــدح الصــابـريـن والصـادقين والقـــانتين والمنفقين والمستغفــرين بـالأسحار، ويمكن أن يكـون قولـه: ﴿الصابـرين﴾ نعتا لقـوله: ﴿الـذين يقولون﴾ بـاعتباره منصوبا على المدح أو مجرورا على أنه صفـة للذين اتّقوا أو بدلٌ منه أو صفةٌ للعباد في قوله عز وجل: ﴿والله بصيرٌ بالعباد﴾ وقد وصف الله تبارك وتعـالى هؤلاء المؤمنين المتوسلين إلى الله عـز وجل بإيمانهم الضارعين إليه تبارك وتعالى أن يغفر ذنـوبهم ويحفظهم من عذاب النار بخمس صفات وهي الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفـار بالأسحار، والمراد كونهم صابرين في أداء الأعمال الصالحة التي تقـربهم إلى الله عز وجل وصابرين عن الوقوع في المحظورات فهم يحبسون أنفسهم عن الشهوات المحرمة، وصابرين في كل ما ينزل بهم من المحن والشدائد فهم راضون عن الله عز وجل في جميع أحوالهم حـابسون أنفسهم عن الجزع عنـد وقوع المكـروه بهم، فهم أئمة خير وهدى كما قال عز وجل: ﴿وجعلنا منهم أئمـة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ ولذلك قيل: بالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين. والصفة الثانية كـونهم صادقين، ولا شك أن الصدق يهدي إلى البرّ وأن البرّ يهدي إلى

الجنة. والصفة الثالثة كونهم قانتين أي إنهم يداومون على طاعة الله ويواظبون على العبادة. والصفة الرابعة كونهم مُنْفِقِين أي يبذلون من أموالهم في مرضاة الله، ولا يبخلون على أنفسهم وأزواجهم وعيالهم وأرحامهم وسائر وجوه البر التي تقربهم إلى الله عز وجل. أما الصفة الخامسة فهي الاستغفار بالأسحار، والأسحار جمع سَحَر وهو ثلث الليل الأخير إلى الفجر، ومع أن الاستغفار محبوب مطلوب في جميع الأوقات إلا أنّ وقت السّحر هو أرجى الأوقات لتنزّل الرحمة على عباد الله المستغفرين لأن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة وقت السحر ويقول: من يستغفرني فأغفر له، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: مَن يدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأُعْطِيَه، من يستغفرني فأغفرَ له». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله في السماء الدنيا لشَطْر الليل أو لثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له أو يسألني فأُعْطِيَه ثم يقول: من يُقرض غير عَدِيم ولا ظَلُوم». وفي لفظ: «ثم يبسط يديه تبارك وتعالى يقول: من يقرض غير عَدُوم ولا ظَلُوم». وقد أثنى الله تبارك وتعالى على المستغفرين بالأسحار هنا وفي قوله عز وجل في سورة الذاريات في وصف عباده المتقين حيث يقول: ﴿إن المتقين في جنات وعيون* آخذين ما آتاهم ربّهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين* كانوا قليلا من الليل ما يَهْجَعُون* وبالأسحار هم يستغفرون.﴾ والاستغفار هو أقرب الوسائل إلى مرضاة الله عز وجل وأعظم أسباب رغد العيش وعز الدنيا وسعادة الآخرة وفي ذلك كله يقول الله عز وجل: ﴿وما كان الله مُعَذِّبَهم وهم يستغفرون﴾ ويقول عز وجل: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمَتِّعْكم متاعا حسنا إلى أجل مسَمًّى ويُؤْتِ كلَّ ذي فَضْل

فضله﴾ ويقول في نصيحة هودٍ عليه السلام لقومه: ﴿وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليـه يرسل السماء عليكم مِدْرارًا ويَزِدْكُم قـوةً إلى قوتكم﴾ ويقول في نصيحة نـوح عليه السلام لقومـه: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كـان غفّارا* يـرسل السماء عليكم مِـدْرارًا* ويُمْدِدْكم بأمـوال وبنين ويجعل لكم جنـاتٍ ويجعل لكم أنهارا﴾ وقـد قال رسـول الله ﷺ: «سيد الاستغفـار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنـا عبدك وأنا على عهدك ووعـدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبـوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها في النهـار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهـو من أهل الجنة، ومن قـالها من الليل وهو مـوقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنـة». رواه البخاري من حـديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

قال تعالى : ﴿ شهد الله أنّه لا إلَه إلا هو والملائكة وأُولواْ العلم قائماً بالقسط ، لا إلَه إلاّ هو العزيز الحكيم﴾

بعد أن أثنى الله على المؤمنين المستجيبين لله عز وجل المتوسلين إلى مرضاة الله بإيمانهم بيّن عز وجل هنا أن سبيل المؤمنين هو الصراط المستقيم الذي رضيه الله تبارك وتعالى لخلقه وأنه قد نصب لذلك الدلائل وأقام على صدقه البراهين من إعلانه عز وجل أنه لا إلَه إلا هو وأنه هو القائم بالقسط وأنه العزيز الحكيم وأنه شهد بذلك وقضى به في السموات والأرض ووصّى به عباده وأنزل به كتبه وأرسل به رسله وأن ملائكة الله عز وجل يشهدون بذلك ويقرون به ويدعون إليه ، وأن أولي العلم من أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين يقرون بذلك ويعلنونه ويدعون إليه ويأمرون به ، فإن كلمة التوحيد هي الإعلان الحق بالحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الله الخلق ومن أجلها أنزل الكتب وأرسل الرسل وأقام الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، فأهل توحيده عز وجل إلى الجنة ، وأهل الكفر به إلى النار.
ومعنى : ﴿شهد الله﴾ أي قضى بذلك وحكم ووصّى وأخبر بكلامه وبما أقام في خلقه من آياته في السموات وفي الأرض وفي الأنفس ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به ، وقضى به وحكم ، فقال : ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه﴾ وقال : ﴿أن أنذروا أنه لا إلَه إلا أنا فاعبدون﴾ وقال : ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلَهين اثنين إنما هو إلَه واحد فإيّاي فارهبون﴾ وقال : ﴿ وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ وهذا كثير في القرآن ، يوجب على العبادعبادته وتوحيده ، ويحرّم عليهم عبادة ما سواه ، فقد حكم وقضى أنه لا إلَه إلا هو، ثم قال

رحمه الله: وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارةً، وبفعله تارة، فالقول هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، وأوحاه إلى عباده كما قال: ﴿ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إلَه إلا أنا فاتقون﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إلَه إلا هو بقوله وكلامه، وهذا معلوم من جهة كلّ من بلّغ عنه كلامه، ولهذا قال تعالى: ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة، قل هاتوا برهانكم هـٰذا ذكر مَن معيَ وذكر مَن قبلي﴾ وأما شهادته بفعله فهو ما نصبه من الأدلة الدّالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل وإن لم يكن هناك خبر عن الله، وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد، فإن الدّليل يبيّن المدلول عليه ويظهره، فهو بمنزلة المخْبِر به الشاهد به، كما قيل: سل الأرض من فجّر أنهارها وغرس أشجارها، وأخرج ثمارها، وأحيا نباتها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارها، فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارا، وهو سبحانه شهد بها جعلها دالّة عليه فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها، فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إلَه إلا هو، وهو سبحانه الذي جعلها دالة عليه فإن دلالتها إنما هي بخلقه، وبيّن ذلك فهو الشاهد المبيّن بها أنه لا إلَـه إلا هو، وهـذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة، قال ابن كيسان: ﴿شهد الله﴾ بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إلَه إلا هو. انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله. وقوله عز وجل: ﴿والملائكة وأوْلواْ العلم﴾ أي وأقرّ الملائكة وأهل العلم من الأنبياء والمرسلين بما أخبرهم به الله وشهد به فشهدوا بذلك وآمنوا به، واستيقنوه وأمروا الناس به ليكونوا على صراط مستقيم، و«قائما» في قوله تعالى: ﴿قائما بالقسط﴾ هو منصوبٌ على الحال من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا، فتكون الحال في حيّز الشهادة فيكون المشهود به أَمْرَيْن: الوحدانيةَ والقيامَ بالقسط، والعامل في الحال هو

معنى جملة لا إلَه إلا هو، فإن معناهـا : تفرّد. والقِسْط : العدل، قال الفخر الرازيّ رحمه الله : واعلم أن هذا العدل منه ما هـو متصل بباب الدنيا، ومنه ما هـو متصل بباب الـدين، أما المتصل بـالدنيا فـانظر أوّلا في كيفيـة خِلْقة أعضـاء الإنسان حتى تعـرف عدل الله فيهـا، ثـم انظـر إلى اختلاف أحـوال الخلق في الحسن والقبح، والغنى والفقـر، والصحـة والسُّقْم، وطول العمـر وقصره، واللذة والآلام، واقطع بأن كلّ ذلك عدلٌ من الله وحكمة وصواب، ثم انظـر في كيفية خِلْقـة العناصر وأجرام الأفـلاك، وتقديـر كلّ واحـد منها بقَدْر معيّن وخـاصية معينـة، واقطع بأن كلّ ذلك حكمـة وصوابٌ، أمـا ما يتصل بأمـر الـدين فـانظر إلى اختـلاف الخلق في العلم والجهل، والفَطَـانـة والبَلاَدة، والهداية والغواية، واقطع بأن كل ذلك عدلٌ وقسط اهـ وقال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله : ولفـظ القيام بـالقسط كما يتنـاول القول يتنـاول العمل فيكون التقـدير: يشهد وهو قـائل بالقسط عاملٌ بـه لا بالظلم، فإن هـذه الشهادة تضمنت قـولا وعملا، فإنها تضمنت أنـه هو الـذي يستحق العبادة وحـده فيعبد، وأن غيره لا يستحق العبادة، وأن الذين عبـدوه وحده هم المفلحـون السعداء، وأن المشركين بـه في النار، فـإذا شهد قـائما بالعـدل المتضمّن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق مـوجب هـذه الشهادة، وكـان قـولـه : ﴿قـائما بالقسط﴾ تنبيهـا على جـزاء المخلصين والمشركين، كما في قـولـه : ﴿أفمن هـو قـائم على كل نفس بما كسبت﴾ اهـ وقوله عز وجل : ﴿لا إلَه إلا هو العزيز الحكيم﴾ في تكرير قوله عز وجل : ﴿لا إلَـه إلا هو﴾ إشعـار للمسلمين بأن يشهدوا بما شهـد الله عز وجل به وبما شهد به الملائكة وأولو العلم، وتعليم للمؤمنين بأن يكرروا كلمة التوحيد هذه التي جعلها الله عـز وجل مفتاح الجنة والتي لو وضعت في كِفّة ووضعت السموات والأرض في كِفّـة لرجحت كِفّة «لا إلَـه إلا الله» فقد روى

النسائي وابن حبان والحاكم من طريق دَرّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى ﷺ: يا رب علمني شيئا أذكرك به، وأدعوك به قال: قل: لا إلّه إلا الله، قال: يا رب كلّ عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إلّه إلا الله، قال: إنما أريد شيئا تخصُّني به، قال: يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كِفّة ولا إلّه إلا الله في كِفّة مالت بهم لا إلّه إلا الله». وقد قال الحاكم فيه: صحيح الإسناد. والحديث فيه دَرّاج بن سمعان أبو السمح وإن كان ضعيفا إلا أنه عرف بالصدق في حديثه عن أبي الهيثم كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في التقريب حيث قال: صَدُوق في أبي الهيثم. كما روى الترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه وابن حبان والبيهقي والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الذهبي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سيخلّص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فيَنْشُر عليه تسعة وتسعين سِجِلاّ، كلّ سِجِلّ مثل مَدّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كَتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربّ، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضَرْ وَزْنَك، فيقول: يا ربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تُظْلَم، قال: فتوضع السجلات في كِفّة والبطاقة في كِفّة، فطاشت السجلات، وثَقُلَت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيءٌ». وقوله تبارك وتعالى: ﴿العزيز الحكيم﴾ إشارة إلى كمال قدرته وغلبته وقهره، وكمال علمه وإحاطته بجميع خلقه، فلا إلّه غيره ولا رب سواه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول: شهادة أن لا إلّه إلا الله، وأنه قائم بالقسط، وأنه العزيز

الحكيم، فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك، وتضمنت عدله المنافي للظلم، وتضمنت عزتـه وحكمته المنافية للذل والسفـه، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسّفـه، ففيها إثبـات التوحيـد، و إثبات العـدل و إثبات الحكمـة و إثبات القدرة اهـ وفي هـذه الآية الكريمة ردّ على من زعم أن المسيح ابن الله أو أن العُزَيْـر ابن الله أو جعل لله شريكا؛ لأنـه لا إلّه إلا الله، فلا نِـدّ له ولا شريك ولا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحـد، وقد شهد الله بذلك وشهد به ملائكته وأنبياؤه ورسله وسائر أهل العلم من عباده الصالحين.

قال تعالى : ﴿إنّ الدّين عندَ الله الإسلامُ، وما اخْتلفَ الّذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العِلم بغيا بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريعُ الحساب* فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبَعَنِ، وقل للّذين أوتوا الكتَابَ والأميّين أأسلَمْتُم، فإنْ أَسلَمُوا فقد اهتدوا و إنْ تَولّوا فإنّما عليك البلاغُ، والله بصيرٌ بالعباد﴾ .

بعد أن قرّر الله عز وجل أنه لا إلّه إلا هو وشهد بذلك كما شهد به ملائكته وأولو العلم من أنبيائه ورسله وعباده الصالحين أعلن هنا أنّ الدين الحقّ والشرع المرضيّ عند الله عز وجل هو دين الإسلام المقرر لتوحيد الله عز وجل، الذي بُعث به رسول الله محمد ﷺ المطابق في التوحيد لما بعث الله به جميع النبيين والمرسلين، فلا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا وثنية مرضيّةٌ عند الله، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، وقد أغلق الله تبارك وتعالى جميع الأبواب والطرق بعد بعثة محمد ﷺ إلا الطريق الذي يجيء من جهة محمد ﷺ وقد أُثِرَ في الحديث القدسي أن الله عز وجل قال لرسوله محمد ﷺ: وعزّتي وجلالي لو جاءوا من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، ما فتحت لهم إلا أن يجيئوا من طريقك. ومصداق ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى حيث يقول الله عز وجل لرسوله وحبيبه وسيّد خلقه محمد ﷺ: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ والمراد بالدين هنا الشرع والعقيدة، وقوله: ﴿عند الله﴾ أي الذي رضيه الله لعباده وبعث به رسله وأنزل به كتبه. والمراد بالإسلام هنا: دين محمد ﷺ وشريعته التي بعثه الله عز وجل بها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ يشير إلى أن الله تبارك وتعالى أوضح

دلائل الـدّين الحق، وأزال الشبهات في آيـات محكمات واضحات جليـات، فمن كفر بالحق بعدما تبين كما فعل اليهود والنصارى فإنه يستحق عقوبة الله العزيـز المقتدر، ومعنى: ﴿ومـا اختلف الذين أوتـوا الكتاب إلا من بعـد ما جـاءهم العلم بغيـا بينهـم﴾ أي ومـا تنـازع اليهـود والنصـارى في الإسـلام وحاربـوه إلا بعد ظهور بـراهينه، فقـد كانوا قبل مجيء محمـد ﷺ يبشرون به ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حقدًا وحسدًا أن تكون النبـوة في غير بني إسرائيل، والحقد والحسـد من أقبح الأخلاق المنتشرة في نفوس اليهود والنصارى، وقوله عز وجل: ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ أي ومن يجحد الدين الذي جاء به محمد ﷺ المؤيد بالآيات البـاهـرة والحجج النيرة والمعجزات القـاهـرة فإنّ من يكفـر بـه لن يُفْلِت من عقـوبـة الله، ولن يهرب من حسـابه، وحسـابُ الخلائق عليـه سهل يسير، وقوله عز وجل: ﴿فإن حاجّوك فقل أسلمتُ وجْهيَ لله ومَن اتَّبَعَنِ﴾ أي فإن جادلك أهـل الكتاب وحاولـوا إطفاء نـور الله، واتّبعوا مـا تشابـه من القرآن ابتغاء الفتنـة والصدّ عن سبيل الله وتَشَبُّثًـا بباطلهم واعتقـادهم أن لله ولدا، فأخبرهم أنك أسلمت وجهك لله وحـده لا شريك لـه وأنك ومن معك من المؤمنين منقادون لأمـر الله، وقّافون عنـد شرعه، مقرّون بأن الله إلّـه واحد لا شريك له ولا نِدّ ولا نظير ولا والد ولا ولد ولم يكـن له كفوا أحد، وهذا نظير قـولـه تعـالى: ﴿قل هـٰـذه سبيلي أدعـو إلى الله، على بصيرة أنـا ومن اتّبعني وسبحـان الله وما أنـا من المشركين﴾ وقـولـه عز وجل: ﴿وقل للـذين أوتـوا الكتـاب والأُمّيِّين ءَأَسلمتم﴾ أي وبلّغ اليهود والنصـارى والمشركين من جميع أجناس الناس أن الله يأمرهم بالدخول في دين الإسلام الذي لا يقبل من أحد دينا سواه، وفي هـذا برهان ساطع على عمـوم رسالته ﷺ إلى جميع الخلق من المكلفين، وقد ذكـر الله تبارك وتعالى في مـواضع كثيرة من القرآن أن الله بعث

محمدا ﷺ بالـرسالة العامـة للعالمين، حيث يقول عز وجـل: ﴿تبارك الذي نزّل الفـرقان على عبـده ليكون للعـالمين نذيـرا﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السمٰوات والأرض لا إلٰه إلا هو يحيي ويميت فـآمنوا بـالله ورسـوله النبي الأمي الـذي يـؤمن بـالله وكلماته واتّبعـوه لعلكم تهتدون﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿ومـا أرسلناك إلا كافـة للناس بشيرا ونـذيرا ولَكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ وقد تواترت الأخبار أن رسول الله ﷺ كتب إلى ملوك الآفاق وطوائف بني آدم عربا وعجما من الكتابيين والأميين يدعوهم إلى عبادة الله وحـده والدخـول في دين الإسلام، كما روى البخـاري في صحيحه من حديث جـابر بن عبـد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال: «وكان النبي يُبعث إلى قومـه خاصّة وبُعِثْتُ إلى الناس عامـة». وفي رواية مسلم من حديث جـابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قـال: : «كان كلّ نبيّ يبعث إلى قـومـه خـاصـةً وبعثت إلى كل أحمر وأسـود» وفي روايـة لمسلم من حـديث أبي هـريـرة رضي الله عنـــه أن النبي ﷺ قـال: «وأُرسِلتُ إلى الخلق كافة». كما روى مسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والـذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هـذه الأمة يهوديّ ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت بـه إلا كان من أهل النار». كما روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي ﷺ وَضُوءَه، ويناوله نَعْلَيْـه فمرض فأتاه النبي ﷺ فـدخل عليه، وأبوه قاعـد عند رأسه، فقـال له النبي ﷺ : «يـا فـلان قل: لا إلٰـه إلا الله» فنظر إلى أبيـه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أَطِعْ أبا القاسم، فقال الغـلام : أشهد أن لا إلٰـه إلا الله ، وأنك رسـول الله ، فخرج النبيّ ﷺ وهـو يقول: «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار». وقوله عز وجل: ﴿أأسلمتم﴾

ورد على صورة الاستفهام التقريري والمقصود منه الأمر، يعني: أَسْلِمُوا، وإنما جاء في صورة الاستفهام لإشعارهم بأن أدلة الإسلام ظاهرة وحججه واضحة، فالمفروض ممن له عقل أن يسارع إلى الدخول فيه لينجو من عذاب الله، فلا يتأخر عن الدخول في الإسلام بعد هذه البراهين الساطعة والآيات القاطعة بأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه، ولا يتردد في قبوله إلا بليدٌ عنيدٌ لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة سارع إلى قبولها واستمسك بالحق الذي دلت عليه، قال الفخر الرازي: ونظيره قولك لمن لخّصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان: هل فهمتها؟، فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطَب بليدًا قليلَ الفهم اهـ وقوله عز وجل: ﴿فإن أسلمُوا فقد اهتَدَوْا﴾ أي فإن أطاعوك واستجابوا لدعوتك ودخلوا في دين الإسلام وانقادوا للحق فأفردوا الله عز وجل بالألوهية والربوبية وآمنوا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وسلمت قلوبهم من الزيغ الذي يحمل أهله على اتباع المتشابه فقد أصابوا الحق وسلكوا سبيل الرشاد الذي يؤدي بسالكه إلى جنات النعيم ومرضاة رب العالمين، وقوله عز وجل: ﴿وإن تولَّوْا فإنما عليك البلاغ﴾ أي وإن أعرضوا عن دعوتك ولم يستجيبوا لأمرك لهم بالدخول في الإسلام واستمروا على كفرهم وضلالهم وعنادهم فإنهم هم الذين يتحملون وحدهم وزر كفرهم وعنادهم، أما أنت فقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، على أبلغ وجه وأكمل بلاغ، وهذه هي وظيفتك ووظيفة إخوانك النبيين والمرسلين من قبلك، فما عليك إلا البلاغ وعلينا حسابهم، كما قال عز وجل: ﴿فذكِّرْ إنما أنت مُذَكِّر* لستَ عليهم بمصيطر* إلا من تولى وكفر* فيعذبه الله العذاب الأكبر* إن إلينا إيابَهُم* ثم إن علينا حسابَهُم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفّينّك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإن

أعـرضوا فما أرسلنـاك عليهم حفيظـا إنْ عليك إلا البـلاغ﴾ وكما قال تبـارك وتعالى: ﴿فإن تـوليتم فاعلموا أنّما على رسـولنا البلاغ المبين﴾ وقـد بلّغ رسول الله ﷺ البلاغ المبين. وقد روى مسلم في صحيحه من حـديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال في خطبته يـوم عرفـة: «وقد تـركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تُسْأَلُون عني فما أنتم قـائلـون؟» قـالـوا: نشهـد أنك قـد بلّغت وأدّيت ونصحت. كما روى البخاري ومسلم من حـديث أبي بكرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال في خطبته يوم النحر: «ألا هل بلّغتُ؟» قالوا: نعم قال: «اللهم اشهد، فلْيُبلّغ الشاهدُ الغائبَ فرُبّ مبلَّغٍ أوعى من سامع». وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿والله بصير بـالعباد﴾ تـرغيب وتـرهيب ووعـدٌ ووعيد، فإنـه عـز وجل مطلع على ضمائر عبـاده وخلجـات صـدورهم، فمـن يعمل مثقـال ذرة خيرا يـره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

قـال تعـالى: ﴿إنّ الذيـن يكفرون بـآيـات الله ويقتلـون النّبيين بغير حقّ ويقتلـون الذيـن يأمرون بـالقسط من النّـاس فبشّرهم بعـذاب أليم* أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومـالهم من ناصرين* ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبـا من الكتاب يُدعـون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتـولّى فريق منهم وهم معـرضون* ذلك بأنهم قـالوا لن تمسّنـا النار إلا أيّـاما معـدودات وغـرّهم في دينهم مـا كـانوا يفترون* فكيف إذا جمعنـاهم ليـومٍ لا ريب فيـه ووفّيت كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. ﴾

بعد أن ذكـر الله تبارك وتعالى أن رسـوله محمـدًا ﷺ ليس عليه إلا أن يبلّغ دعـوة الله عز وجل، وأن مـن تولّى وأعـرض عن الاستجـابة لـدين الإسـلام فحسابه على الله عز وجل البصير بجميع أعمال عباده، ذكر هنا بعض قبائح المعْـرِضين للدلالـة على أنه لن يعـرض عن دين الإسـلام إلا من كان معـوجّ السلوك، معاديا لله ورسله من اليهود والنصارى والأميين، وقد ذكر عز وجل هنـا ثـلاثة أوصـاف هي من أخص صفـات اليهـود قبحهم الله، وإن كـان يشاركهـم في الاتصاف بها أو ببعضهـا النصارى والوثنيـون فقال عـز وجل: ﴿إن الـذين يكفـرون بـآيات الله ويقتلـون النبيين بغير حق ويقتلـون الـذين يأمـرون بالقسط من النـاس فبشرهم بعـذاب أليم﴾ والصفة الأولى من هـذه الصفات الثلاث يشترك فيها اليهود والنصارى والوثنيون الأميون، وهي تشعر بأن من كفـر بـدين الإسـلام فقـد كفـر بجميع الأديـان السماويـة، ولا عبرة بادعائه أنـه على ملة إبراهيم عليه السـلام، لأن الله تبارك وتعالى لا يقبل من أحد دينا بعـد بعثة محمد ﷺ إلا الدين المرضيّ عنده وهـو دين الإسلام الذي وصفه بقولـه عز وجل: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ أما الصفـة الثانية من هـذه الصفات القبيحـة فهي قتلهم الأنبياء بغير حق، وهي جـريمة بشعـة

تتقاصر عنها كبائر الجرائم؛ لأن أنبياء الله أنفع الناس للناس، وهم معصومون من الخطايا والمعاصي والسيئات، فمن قتل نبيًّا من الأنبياء كان أبشع القتلة وأعظمهم جُرْمًا، وقد ندّد الله تبارك وتعالى بهذه الجريمة البشعة التي كان يقترفها اليهود مع أنبيائهم ورسلهم في مواضع من الذكر الحكيم، وذكر أنه سلط الذلة والمسكنة عليهم بسبب هذه الجريمة النكراء وأنهم باءوا بغضب من الله، حيث قال في سورة البقرة: ﴿وضُرِبَتْ عليهم الذّلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ وقال عز وجل في الآية الثانية عشرة بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿ضُرِبَتْ عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضُرِبَتْ عليهم المسكنة، ذٰلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أن قوله عز وجل: ﴿بغير الحق﴾ للتشنيع على اليهود لعنهم الله إذ أنّ من سلمت فطرته لا يخطر على باله أن نبيًّا من أنبياء الله يستحق أن يقتل، قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا عبد الصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبي وائل عن عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبيّ أو قتل نبيًّا، وإمام ضلالة وممثّل من الممثلين». أما الصفة الثالثة من صفات هؤلاء الزائغين عن الحق المنحرفين عن الهدى فهي ما ذكره الله عز وجل عنهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ أي ويقتلون من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وفيه لفت انتباه الناس إلى منزلة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عند الله عز وجل وأن وظيفتهم هي المحافظة على شريعة الله تبارك وتعالى وتذكير الناس بلزوم القسط والعدل وترك الانحراف والجور، وهذا من أعظم مصالح العباد في

جميع الأعصار والأمصار، ومن أعظم أسباب دفع البلاء والشر عن الناس، وقد رتب الله تبارك وتعالى لهؤلاء الذين وصفهم بهذه الصفات الثلاث ثلاثة أنواع من الوعيد وهي قوله عز وجل: ﴿فبشرهم بعذاب أليم* أولٓئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ فالعقوبة الأولى لهؤلاء هي إخبارهم بما أعد الله لهم في نار الجحيم من عذاب لا يخطر على البال ولا يدور في الخيال، والعقوبة الثانية أن جميع ما يعملونه من محاسن الأعمال يبطلها الله عز وجل كما قال: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ مع ما يصيبهم من خزي الدنيا والآخرة، والوعيد الثالث هو ما أفاده قوله تبارك وتعالى: ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي وأنهم لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ولن يشفع فيهم أحد، فما لهم من شافعين ولا صديق حميم، ثم ذكر الله تبارك وتعالى صورة من صور انحراف اليهود تبيّن قبيح سلوكهم، وتقصم ظهورهم في دعواهم أنهم على الحق حيث أشار تبارك وتعالى إلى أن أحبار السوء من اليهود يهجرون العمل بالأحكام المشروعة في التوراة كرجم الزاني الذي استبدلوه بالتحميم وإركاب الزانيين على حمار مقلوبين للتشنيع عليهما إن كان مرتكب الجريمة من الأغنياء، أما إن كان من الفقراء فإنهم يقيمون عليه الحد، وعندما دُعُوا إلى الدخول في الإسلام والاحتكام إلى شرع الله المنزل على محمد ﷺ لم يستجيبوا لدعوة الحق، وبهذا يتضح سوء سلوكهم، ويظهر قبح انحرافهم عن أحكام الله عز وجل في الوقت الذي يتباهون فيه بأنهم من علماء أهل الكتاب وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريق منهم وهم معرضون﴾ وكما قال عز وجل في نظرائهم من المنافقين: ﴿وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾ وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما

معدودات وغـرّهـم في دينهم ما كانـوا يفترون﴾ بيان للسبب الـذي من أجله يفعلون القبائح ويرتكبون الجرائم وهو ما افتراه لهم أحبار السوء بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يعذبهم على خطايـاهم، وقد ذكرت في تفسير الآية الثمانين من سورة البقـرة وهي قوله عـز وجل فيها: ﴿وقالـوا لن تمسنا النار إلا أيـاما معدودة﴾ فقلت: وقد افترى لهم أحبار السوء منهم مبادئ التمييز العنصري فكتبوا لهم التلمـود زعما منهم أنه شرح للتـوراة واستنباط من أصـولها مع أن بعض نصـوص التلمود قـد يخالف بعض نصـوص التـوراة، فزعمـوا لهم في التلمود أنّ اليهـود أحب إلى الله من الملائكة، وأنهم من عنصر الله فهـم أبناء الله وأحباؤه، وأطلقوا اسم «الأُمَمِيِّ» على كل من ليس بيهودي، وقرروا لهم أن الموت جزاء الأممـي إذا ضرب اليهوديّ، وأنه لـولا اليهود لارتفعت البركـة من العـالم واحتجبت الشمس، وانقطع المطـر، وأن اليهود يَفْضُلـون الأمميين كما يَفْضُل الإنسانُ البهيمـةَ، إلى آخر هذه المبـادئ التلمودية التي كـونت نفسية اليهـود الممتلئـة بـالغـرور والافتراء، والتـي جـرفت الكثير من النصـارى في تيارهم، وقد سقت هناك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما فتحت خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سمّ، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعـوا لي مَن كان هنا من اليهود» فجُمِعُـوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟» فقالوا: نعم يـا أبا القـاسم، فقال لهم رسـول الله ﷺ: «من أبـوكم؟» قالـوا: أبونـا فـلان، فقال رسـول الله ﷺ: «كـذبتم بل أبـوكم فـلان» فقالـوا: صـدقتَ وبَرِرْتَ، فقال: «هل أنتم صادِقِيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذَبناك عرفت كـذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالـوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفوننـا فيها، فقال لهم رسـول الله ﷺ: «اخسئـوا فيها، والله لا نخلفكم فيهـا أبـدا» ثم قـال لهم:

«فهل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالـوا: نعم، فقال: «هل جعلتم في هـذه الشاة سمّاً؟» فقالـوا: نعم، فقال: «مـا حملكم على ذلك؟» فقالـوا: أردنا إن كنت كـذّابا أن نستريح منك، وإن كنت نبيّـا لم يضرّك اهـ وقـد طالبهم الله تبـارك وتعالى في آيـة سـورة البقرة بـدليل على دعواهم هـذه الكاذبة الخاطئة حيث قال عز وجل: ﴿قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهـده أم تقولـون على الله ما لا تعلمـون﴾ وهنا يُعَجِّب الله عـز وجل من سـوء مصيرهـم، إذا جمع الخلق وحشرهم من قبـورهم ليـوم الفصل والجزاء وجُـوزِيَـتْ كلّ نفس بما اقترفت واجترحت وعملت ولا يظلم ربـك أحـدا، وهناك يعرف هؤلاء اليهـود ومن على شاكلتهم من المغرورين المفترين على الله الكـذب كيف يضمحلّ بـاطلهم وتـذهب زخـارفهم التي زخـرفهـا لهم شيـاطينهم، وجُـوزوا بما اكتسبـوه واقترفـوه من كفـرهم وافترائهم وغـرورهم وقتلهم أنبيـاء الله ورسله والآمـرين بـالمعـروف والناهين عن المنكـر، وسيعلم الذين ظلمـوا أي منقلب ينقلبون، يوم لاينفع الظالمين معـذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الـدار، وكما قال عـز وجل: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيـامة فـلا تُظْلَمُ نفس شيئـا وإن كـان مثقـال حبـة من خـردل أتينـا بها وكفى بنـا حاسبين﴾

قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاءُ وتنزع الملك ممّن تشاءُ وتعزُّ من تشاءُ وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير* تولج اللّيل فى النّهار وتولج النّهار في الليل وتخرج الحي من الميّت وتخرج الميّت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب. ﴾

قال الفخر الرازي في تفسيره: اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، ثم قال لرسوله: ﴿فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وجهيَ لله ومن اتَّبَعَنِ﴾ ثم ذكر من صفات المخالفين كفرهم بالله، وقتلهم الأنبياء والصالحين بغير حق، وذكر شدّة عنادهم وتمرّدهم، في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ ثم ذكر شدّة غرورهم بقوله: ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ ثم ذكر وعيدهم بقوله: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أمر رسول الله ﷺ بدعاء وتمجيد يدلّ على مباينة طريقه وطريق أتباعه لطريقة هؤلاء الكافرين المعاندين المعرضين، فقال معلّما نبيّه كيف يمجّد ويعظّم ويدعو ويطلب: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ اهـ والظاهر من السياق يشعر أن هذا المقام الكريم قد سيق لقطع أطماع اليهود في النبوة، حيث أشار الله عز وجل في الآيات السابقة إلى أن الحامل لليهود ومن على شاكلتهم على عداوة رسول الله ﷺ والكفر بدين الإسلام هو البغي والحسد والغرور وما افتراه لهم أحبار السوء منهم أنهم أحق الناس بالنبوة والملك وهم لا يَرْضَوْن أن تخرج النبوة من بني إسرائيل، فردعهم الله عز وجل ببيان أن النبوة والملك وجميع ما ينزل على الناس من الخير هو بيد الله وحده لا يتحكّم فيه أحدٌ سواه عز وجل، وكما قال عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هٰؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا* أولٓئك الذين لعنهم الله ومن يلعن اللهُ فلن تجد له نصيرا*

أم لهم نصيب من الملك فإذًا لا يؤتون الناس نَقِيرا* أم يحسُدون الناس على ما آتـاهم الله من فضله فقـد آتينا آل إبـراهيم الكتاب والحكمـة وآتيناهم ملكًـا عظيما* فمنهم من آمن بـه ومنهم من صدّ عنه، وكفـى بجهنم سعيرا﴾ وقد شابه اليهودُ الوثنيين من أهل مكة الـذين يريدون أن تكون النبوة في رجل ذي مال كثير وهـم لا يؤمنون بمحمـد ﷺ لأنه ليـس ذا مال حيث ذكـر الله عز وجل قـولهم: ﴿وقالوا لـولا نُزِّل هـذا القرآن على رجل من القـريتين عظيم* أَهُمْ يَقْسِمون رحمة ربّك نحن قسمنـا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيـا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهـم بعضا سُخْريا، ورحمة ربّك خير مما يجمعـون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَأُنـزِلَ عليه الذكـر من بيننا، بل هُمْ في شَكّ من ذكري بل لـمّا يذوقوا عـذابِ * أم عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الـوهاب* أم لهم ملك السمٰوات والأرض ومـا بينهما فليرتقوا في الأسبـاب* جُنْدٌ ما هنـالك مهزوم من الأحزاب﴾ كما أن في قولـه عز وجل: ﴿قل اللهم مالك الملك تـؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعـز من تشاء وتذل من تشـاء﴾ إشارة إلى تحقيق انتقـال الملك والعـزّ إلى أمة النبي الأمي العـربي الهاشمي القرشي محمـد بن عبد الله ﷺ وقد كـانوا قبل مجيئـه أقلّ الأمم شأنا وأبعدهم عن الملك، بل كانـوا كما وصفهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي كما جـاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه ابن إسحـاق، مُصَرِّحا فيه بالتحديث، من طريق محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبدالرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمـة رضي الله عنها أن جعفر بن أبي طالب قـال للنجاشي: أيها الملك ، كنـا قوما أهل جـاهلية، نعبـد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار ويأكل القويُّ منّا الضعيف، فكنـا على ذلك حتى بعـث الله إلينـا رسـولا مِنّـا، نعـرف نَسَبَـه وصدقه وأمـانته وعفافه. الحديث. وعندمـا كان المسلمون في أضيق العيش

وشـدة الخوف كـان رسـول الله ﷺ يبشّر المسلمين بـأن رايتهم سترتفع على الكثير من أنحـاء الـدنيـا وستكـون العـزة للمسلمين في الأرض، فقـد روى البخاري في صحيحه من حديث عديّ بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكـا إليه الفاقة، ثم أتـاه آخر فشكا قطع السبيل، فقـال: «يا عديّ هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أُنْبِئْتُ عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لَتَرَيَنّ الظّعينة ترتحل من الحيرة حتى تطـوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله» قلت فيما بيني وبيني نفسي: فـأين دُعّـار طَيِّئ الـذين قـد سَعَّـرُوا البلاد. «ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنّ كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هُرْمُز؟ قال: «كسرى بن هـرمز، ولئن طالت بك حياةٌ لَتَرَيَنّ الـرجل يخرج ملء كفّه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فـلا يجد أحدا يقبله منه». الحديث، والمراد بـالظعينـة: المرأة في الهودج، والمراد بدُعّـار طَيِّئ: قُطّـاع الطـريق من طَيِّئ، لأن بـلادهم بين العـراق والحجـاز فـلا يمـرّ عليهم أحـد إلا سرقـوه وأخافوه. وقوله: سعّروا البـلاد، أي أوقدوا فيها نار الفتنة وملئوا الأرض شرا وفسادا. وقد أنجـز الله عز وجل لرسوله ﷺ ما وعـد، فلم يطل الزمان حتى وصل مُلْكُ المسلمين إلى الصين شرقا وإلى المحيط الأطلسي غربا وإلى أصقاع أوروبا شمالا وإلى المحيط الهندي جنوبا، وحتى وقف هارون الرشيد أمام بيته فرأى سحابة فقـال: سيري أينما شئت وامطري أينما شئت فسيأتي خراجك.

ومعنى قولـه عز وجل: ﴿قل اللهم مـالك الملك تؤتي الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن تشـاء وتعـز من تشـاء وتذلّ من تشـاء بيـدك الخير﴾ أي أيها النبي الكريم ادع ربـك وقل: يا الله يا مـالك الملك، أي ياذا السلطـان على جميع الكائنات، يا مَلِكَ الملوك وما ملكوا، يا من له ملك السموات والأرض، وله الملك كلّـه، يـا من يتصرف في خلقـه كيف يشاء ويفعـل ما يـريـد، لا رادَّ لقضـائك ولا معقب لحكمك، فجميع نـواصي عبادك بيـدك، أنت المعطي

وأنت المانع، لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، لا يذل من واليت ولا يعزّ من عاديت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ، تهب من تشاء ما تشاء من الملك أو النبوة أو الغنى أو الجاه أو العافية أو البنين أو ما شئت أن تمنحه من حظوظ الدنيا ولذاتها ومتاعها من فضلك وتمنع من تشاء من الملك أو النبوة أو الغنى أو الجاه أو العافية أو البنين أو ما شئت أن تمنعه بعدلك، والعزيز من أردت عزته، والذليل من أردت ذلّته، تعطي وتمنع بحكمتك ومشيئتك، وجميع مَن عُبِدَ سواك لا يملكون من قِطْمِير، والخير كلّه في يديك، تتفضل بخيرك على من تشاء، وتَقْسِم رحمتك وحدك على من تريد، وأنت أعلم حيث تجعل رسالتك، فلا يعترض على حكمك إلا شقي محروم مطرود من رحمتك . وقوله عز وجل: ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ تأكيد لما تقدم في الآية الكريمة من أنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وأنه لا يصل إلى أحد خير إلا منه جلّ وعلا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي تصرّف الليل والنهار بحكمتك في نظام دقيق محكم متقن عجيب لا يختل طرفة عين، حيث يستويان في وقت معين من السنة ثم يبدأ النهار يأخذ من الليل قدرا محدودا معينا كل يوم فيزيد النهار وينقص الليل، وهكذا إلى أمد معين محدود في نظام دقيق ثم يبدأ الليل يأخذ من النهار قدرا محدودا معينا محسوبا (بالثواني) كل يوم فيزيد الليل وينقص النهار، وهكذا دواليك حتى يستويا مرة أخرى، وفي هذا الاختلاف بين طول الليل وقصره وطول النهار وقصره من الحكم البالغة والمنافع العظيمة لشئون العباد والبلاد ومتاع الحياة الدنيا ما لا يحيط به إلا الله عز وجل، وقد اتعظ بذلك أصحاب العقول كما قال عز وجل: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ وقد لفت الله انتباه الناس إلى هذه الآية الكونية

العظيمة في مقامات كثيرة من الـذكر الحكيم حيث قال في سورة لقمان: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويـولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾ وقـال في سورة فـاطـر: ﴿يولج الليل في النهـار ويولج النهار في الليل وسخـر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْمِير﴾ وقد تقدم القول في ذلك عنـد تفسير قوله تبـارك وتعالى في سـورة البقرة: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ الآيـة الرابعة والستين بعد المائة.
وقـوله عـز وجل: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الـزرع من الحب والحب من الزرع والنخلـة من النـواة، والنواة من النخلـة، والمؤمن من الكـافـر، والكافـر من المؤمن، والطير من البيضـة والبيضـة من الطير، والحيوان مـن النطفة والنطفة من الحيـوان، ولا شك أن المادة (الخام) أي مادة الحياة الموجودة في النواة والحبـة والبيضة والنطفة لا تخرجها عن كونها مواتـا، ولذلك يقول تبارك وتعـالى: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحـابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾ وكما قال عز وجل: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمـواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾،
وقولـه عز وجل: ﴿وتـرزق من تشاء بغير حسـاب﴾ أي وتهب لمن تشاء من الرزق ما تشاء لا ينقص ذلك مما عنـدك شيئا لأن خزائنك لا تنفد ولا يغيض عطاؤك شيئـا من خزائنك، قـال ابن جريـر رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين: اللهم يا مالك الملك تـؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشـاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، دون من ادّعى الملحدون أنـه لهم إلَه وربّ وعبـدوه دونك، أو اتخذوه شريكا معك أو أنـه لك ولـدٌ، وبيـدك القدرة التي تفعل هـذه الأشيـاء وتقـدر بها على كل شيء، تولج الليل في النهار وتولج النهـار في الليل فتنقص من هذا وتزيد في

هذا، وتخرج من ميت حيا، ومن حي ميتا، وترزق من تشاء بغير حساب من خلقك، لا يقدر على ذلك أحد سواك ولا يستطيعه غيرك. اهـ

قال تعالى: ﴿ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذٰلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتّقوا منهم تقاة، ويحذّركم الله نفسه، وإلى الله المصير* قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض، والله على كلّ شيء قدير* يوم تجدُ كلّ نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملتْ من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذّركم الله نفسه، والله رءوفٌ بالعباد* قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيمٌ* قل أطيعوا الله والرسول فإن تولّوا فإنّ الله لا يحب الكافرين﴾

بعد أن أوضح الله تبارك وتعالى للمؤمنين صورا من قبائح سلوك اليهود والنصارى والوثنيين، وفضح نواياهم الخبيثة، ومقاصدهم الشريرة وحقدهم على دين الإسلام وعلى سيد الأنام محمد ﷺ حذّر المسلمين من موالاتهم ومحبتهم، لأن محبة عدوّ الله وعدوّ المؤمنين لا تصدُرُ إلا من قلب غير مطمئنّ بالإيمان، ولذلك كان أوثق عرى الإيمان هو الحبّ في الله والبغض في الله، ولا شك أنّ من أحمق الحُمْق أن يدّعي أحد محبة الله ومحبّة الشيطان كما قال الشاعر:

تودّ عدُوّي ثم تزعم أنني ... صديقُك ليس النَّوْكُ عنك بعازب

أي أتحبّ عدوي وتواليه ثم تدّعي أنني صديقك وأنك تحبّني، فأنت إذًا أحمق، إذ النّوك بضم النون وفتحها هو الحُمْق والسَّفَه، ومعنى: ليس النوك عنك بعازب، أي ليس الحمق عنك ببعيد . والمعروف من التجارب الإنسانية أن من أحبك أحبّ أحبابك وعادى أعداءك، وقد أراد الإسلام أن يكون المسلمون يدا واحدة على أعدائهم، لا يتمكن أعداؤهم من الوصول إلى أسرار المسلمين أو خططهم العسكرية أو غيرها من طريق من يواليهم من

معسكر المسلمين، لذلك حذّر الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم من موالاة أعداء الله ومحبتهم حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل* إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسّوء وودوا لو تكفرون* لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم، يوم القيامة يفصل بينكم، والله بما تعملون بصير* قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خَبَالا ودُّوا ما عَنِتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وأشار الله تبارك وتعالى إلى أن موالاة المؤمن للكافر فيها فتنة في الأرض وفساد كبير حيث قال عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولَئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم

وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير* والـذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبير﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿والمؤمنون والمؤمنـات بعضهم أولياء بعـض﴾. وقولـه عـز وجل: ﴿لا يتّخذ المؤمنـون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي لا يجوز لمؤمن أن يوالي كافرا مهما كانت صلته به، ولا شك أن المؤمن لن يرضى بكفر الكـافر ولن يحب دينه، فإنه لو أحب دين الكافر أو رضي به كان كافرا خارجا من ملة الإسلام، كما أن حسن معاملة المؤمن للكـافر الذي لا يحارب المسلمين غير منهي عنها لقـوله تبارك وتعـالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الـذين لم يقاتلـوكم في الدين ولم يخرجـوكم من ديـاركم أنّ تبرّوهم وتقسطــوا إليهم، إن الله يحب المقسطين﴾ وأثنى الله عـز وجل على من يطعم الأسير حيث جعل من أفضل أعمال البررة إطعام الأسير حيث يقول: ﴿ويطعمـون الطعام على حبه مسكيناويتيما وأسيرا﴾ وقـد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحـابه بالإحسان إلى الأُسَارَى. إنما المنهيّ عنـه هو محبة الكافرين ومصادقتهم واتخاذ بطانـة منهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ هـذا وعيد شـديـد لمن يوالي أحـد الكافـرين، وظـاهـره يفيد أن مـن فعل ذلك بـرئ الله منه، ومن بـرئ الله منـه صـار إلى الهلاك، وهذا النص من نصـوص الوعيـد التي يرى بعض أهل السنـة عدم تأويلهـا لما تضمنته من شـدة التحذيـر حتى يجتنب المسلم موالاة الكفـار في سائر الأحـوال، خوفا من سـوء المآل، وقوله عـز وجل: ﴿إلا أن تتقوا منهم تُقَاةً﴾ أي إلا أن يكـون المسلم في قبضتهم ويجبروه على التلفظ بكلمـة الكفر أو نحوهـا من الأقوال، فإنه إن خـاف على نفسه جاز له أن يعطيهم بلسـانه ويكون قلبه مطمئنا بالإيمان كما قال عز وجل: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْـرِهَ وقلبـه مطمئن بالإيمان ولَكـن من شرح بالكفـر صـدرا فعليهم غضبٌ من الله ولهم عـذاب عظيم﴾ والتُّقَـاة والتَّقِيَّـة بمعنى واحد، أمّـا مـا

اشتهر عنـد بعض أهل الأهواء من مـذهبهم الخبيث الذي يسمونـه « التُّقْيَة» فهو ليس من هـذا الباب بل هي تُكَـأَة يتوكّأون عليهـا ليست من الإسلام في شيء، فإنهم إذا تكلمـوا بباطل فقيل لهم: هـذا باطل، قـالوا: قلنـاه تقية. وقوله عز وجل ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ تأكيد للوعيد السابق وتهديد لمن تسوّل لـه نفسه مـوالاة الكفـار، أي ويحذركم الله نقمته وسطـوتـه وعذابـه لمن والى أعـداءه وعادى أوليـاءه، وقـوله عـز وجل: ﴿وإلى الله المصير﴾ أي ومـرجع جميع الخلائق إلى الله وحده لا إلى غيره وسيجـزي كل عامل بما عمل، وقـوله عز وجل: ﴿قل إن تخفوا ما في صـدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ أي أخبرهم يا محمد أن جميع مـا توسـوس به صدور النـاس وما يعلنـونه عنـد الله عز وجل علمه، فهو يعلم السرائر والضمائر والظواهر ولا تخفى عليـه خافية، ولو قال قـائل: ذِكْـرُ العلم بخفيـات السرائر والضمائر ظاهـر، فما وجـه ذكـر العلم بالظواهـر وهي ظاهرة للخلق؟ فالجواب: أن الغرض من ذِكْره هـو تقرير أن علمه عز وجل بما خفي وبما ظهر في رتبـة واحدة ليس بينهما تفاوت فكلاهما ظاهر عنده عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ويعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ هو مستـأنف ليس معطوفـا على جواب الشرط لأن علمه عـز وجل بما في السماوات وما في الأرض لا يتوقف على شرط، فلذلك جيء به مستأنفا وهو من ذكـر العام بعـد الخاص لتأكيد الخاص وتقريـره، وقولـه عز وجل: ﴿والله على كل شيء قـديـر﴾ أي كما أن علمـه عـز وجل محيط بهم في سـائر الأحوال والأزمان ما ظهر منهم ومـا بطن، ومحيط بجميع ما في السموات وما في الأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغـر من ذلك في جميع أقطار الأرض والسموات، فإنّ قـدرته نـافذة في جميع ذلك، قـال ابن كثير رحمه الله: وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يُبْغِضُه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم وهو قادر على معاجلته بالعقوبة وإن أنظر من أنظر

منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر اهـ وقوله عز وجل: ﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير مُحْضَرًا وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمَدًا بعيدا﴾ أي يوم المصير والمرجع إلى الله عز وجل تجد كلّ نفس ما عملته من الخير أمامها مشاهَدًا لم يَغِبْ منه شيء فتفرح الفرح الذي لا يعقبه حزن أبدا، وتجد كلّ نفس ما عملته من السوء أمامها مشاهدا لم يغب منه شيء فتنزعج وتتمنى من بغضها لهذا العمل القبيح يوم الحسرة والندامة أنها لم ترتكبه ولم تعص الله ورسوله وتقول: ياليت بيني وبين هذا العمل بُعْدَ المشرقين، وكما تقول كل نفس لشيطانها: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. فخذوا حذركم أيها العقلاء قبل فوات الأوان. وقوله عز وجل: ﴿ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾ أي ويكرر الله عز وجل لكم هذا التحذير وأنتم في دار العمل لرأفته بعباده حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وأقام الحجة ونصب الآيات فله الحمد وله الشكر وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن الجميل، وقوله عز وجل: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم﴾ بيان وميزان لكل من ادّعى حبّ الله ليعرف بواسطة هذا الميزان هل حبّه صحيح أو دعوى كاذبة، فإن كان متّبعا لمحمد ﷺ ومقتديا به، ومصدّقا لخبره، ومقتفيا لأثره ظاهرًا وباطنا فحبّه صحيح ودعواه صادقة، ولْيُبْشِرْ بحب الله له ومغفرة ذنوبه، أما إذا كان غير متّبع لرسول الله ﷺ وغير مصدّق لما جاء به عن الله عز وجل وغير ملتزم لشريعته ﷺ فإن دعواه حُبَّ الله دعوى كاذبة، وفي هذه الآية ردع عظيم لأولئكَ المبتدعة الذين يدَّعون حُبَّ النبي ﷺ بإحداث بدع في دين الله لم يشرعها رسول الله ﷺ ولم يعملها أحد من أصحابه رضي الله عنهم، كإقامتهم موالد ومواسم كعاشوراء والإسراء والمعراج وغيرها، وقد روى

البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ». وفي رواية لمسلم عنها رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ». كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه مُنْذِرُ جيش يقول: صَبّحكم ومَسّاكم، ويقول: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» ويَقْرِنُ بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول: «أما بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشرّ الأمور محدثاتها وكلّ بدعة ضلالة». الحديث. وقوله عز وجل ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تَوَلَّوْا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أي قل للناس كافة: انقادوا لأمر الله وأمر رسوله محمد ﷺ فإن تعرضوا وتخالفوا عن أمره فالله يعاديكم ولا يحبكم؛ لأنكم تكونون كافرين والله لا يحب الكافرين.

قال تعالى : ﴿إنّ الله اصطفى آدمَ ونوحًا وآل إبراهيمَ وآل عمرانَ على العالمين* ذرّيةً بعضها من بعضٍ ، والله سميعٌ عليمٌ* إذ قالت امرأتُ عمرانَ ربِّ إني نذرتُ لك ما في بطني مُحَرَّرًا فتقبّل منّي إنك أنت السميعُ العليمُ* فلما وضعتها قالت ربِّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعتْ وليس الذّكر كالأنثى وإني سمّيتها مريم وإنّي أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم﴾ .

بعد أن قرّر الله على أبلغ وجهٍ وأكمله أن الدين عند الله الإسلام وأوضح سبب تأخّر اليهود والنصارى عن الدخول في دين الإسلام وأنّ الحامل لهم على ذلك هو حقدهم وحسدهم وبغيُهم تحكّما في رحمة الله واستكبارا أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل ، لفت الله عز وجل انتباه اليهود والنصارى وغيرهم إلى أن محمدا ﷺ من ذرية إبراهيم المصطفَيْنَ الأخيار، فليس لبني إسرائيل مزيد اختصاص بإبراهيم خليل الرحمن فإن إبراهيم عليه السلام قد ولد له لصلبه ولدان عظيمان أحدهما بِكْره إسماعيل الذبيح عليه السلام ، والثاني إسحاق أبو يعقوب ويعقوب هو إسرائيل ، عليهما السلام ، الذي تنتمي إليه جميع أسباط بني إسرائيل ، أما إسماعيل عليه السلام فلم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخرهم بل فخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي المكي ﷺ ، قال ابن كثير في قصص الأنبياء من تاريخه : فلم يوجد من هذا الفرع الشريف ، والغصن المنيف ، سوى هذه الجوهرة الباهرة ، والدّرّة الزاهرة ، وواسطة العقد الفاخرة ، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة ، وقد ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال : «سأقوم مقاما يرغب إليَّ الخلق كلّهم حتى إبراهيم» اهـ ومهما

كابر اليهود والنصارى فلن يتمكنوا من نفي نسب إسماعيل من إبراهيم عليهما السلام لأنه لا يزال منصوصا في التوراة التي بأيدي اليهود والنصارى وأن إسماعيل قد ولد لإبراهيم، ولإبراهيم من العمر ستٌ وثمانون سنة، ولذلك جاء التنصيص في هذا المقام على اصطفاء آل إبراهيم والمراد إبراهيم وذريته من الأنبياء والمرسلين لا عموم ذريته فإن فيهم المحسن والظالم لنفسه كما قال عز وجل: ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتَمَّهُنَّ قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذرّيتي قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾ ولمّا كانت اليهود والنصارى قد ضلوا في المسيح عليه السلام ضلالا كبيرا، فادعت اليهود أنه ولد زنا وأنّ أمه زانية، وقالوا على مريم بهتانا عظيما، ففرّط اليهود لعنهم الله أشنع التفريط في عيسى وأمه، كما أن النصارى قد أفرطوا وغلَوْا في المسيح فجعلوه ابنا لله سبحانه، واتخذوه وأمّه إلّهين من دون الله، وجاءوا بقول تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا، أن دعَوْا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا، لذلك نصّ الله عز وجل هنا على اصطفاء آل عمران لبيان درجتهم الشريفة الرفيعة من غير تفريط ولا إفراط، وبسط الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم من كتابه العظيم قصة ولادة مريم أم المسيح عليه السلام، العذراء البتول الطيبة الطاهرة سيدة نساء العالمين، كما بسط قصة ولادتها للمسيح عليه السلام ليدرأ بذلك في نحور اليهود والنصارى، وفي ذلك من تقرير توحيد الله عز وجل وأنه لا إلّه إلا هو وأن محمدا عبده ورسوله الذي أنزل الله عليه هذا الذكر الحكيم الذي يفضح مواقف اليهود والنصارى من المسيح ابن مريم، وفي ذلك إعجاز حيث تفضل على نبيّ الأميين ببيان الحقيقة التي ضيعها الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من أحبار السوء ورهبانهم ومعنى: ﴿اصطفى﴾ أي اختار

واجتبى، وأصل الاصطفاء هـو أخذ ما صفا من الشيء كـالاستصفاء، والله تبارك وتعالى يخلق ما يشاء ويختار، ويصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، فمن اختاره الله عز وجل واصطفاه عصمـه من المعاصي والسيئات وربَّاه على عينه واصطنعـه لنفسه، وآدم هو أبو البشر عليـه السلام وقد خلقـه الله بيده وأسجد له ملائكته واجتباه وهـداه، وعلمه الأسماء كلها، ونوح عليه السلام هو آدم الثاني فهـو أبو جميع البشر الموجودين على الأرض بعـد الطوفان، لأن الله تبارك وتعالى جعل ذريته هم الباقين وهو أول رسول يحذّر قومه من الشرك بالله، إذ لم يكن قبل قومه شرك في الأرض، وإنما حدث الشرك في قومه الذين بعثه الله عز وجل إليهم، وإبراهيم هو خليل الرحمن. وقوله عز وجل: ﴿وآل إبـراهيم﴾ أي وإبراهيم وآلـه يعني من المرسلين والأنبياء، والمراد بعمـران في قولـه عز وجل: ﴿وآل عمران﴾ هو عمـران والد مريم، وبينـه وبين عمران والد مـوسى قريب من أَلْفَيْ سنـة، وقد نصّ الله تبارك وتعـالى على اسم والد مريم في قـوله عز وجل: ﴿ومـريم ابنت عمران التي أحصنت فـرجها﴾ ولا شك أن آل عمران والـد موسى وهارون قـد دخلوا في قولـه عز وجل: ﴿ وآل إبراهيم﴾ وإنما خصّ بالذكر هنا عمـران والد مريم وجد عيسى عليه السلام لأمّـه لأن المقـام لتحقيق البيـان عـن عيسى وأمـه وإبطـال دَعَـاوَى اليهـود والنصـارى فيـه عليه السـلام. ومعنى اصطفـائهم على العـالمين أي تفضيل هـؤلاء المصطَفَيْن الأخيار على جميع البشر، وليس لعمـران والد مـريم مِن آلٍ سوى مريم وابنها المسيح عليه السلام، وقد كان عمران هذا موصوفا بالتقوى في بني اسرائيل، ومحبـوبا لـدى كبرائهم كما كانت زوجتـه أم مريم كـذلك، وقولـه عز وجل: ﴿ذريّة بعضهـا من بعض﴾ أي إن هؤلاء المصطفين من آل إبـراهيم وآل عمـران جعلهم الله عـز وجل على منهج واحـد في تـوحيـد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر فكلّهم كانوا على دين الإسلام، وهم جميعا

على كلمة سواءٍ، يَحُسُّ من يعرف طريقتهم أنهم أبناءٌ صالحون لآباء صالحين، وقوله: ﴿ذرية﴾ نصب على الحال من الآلَيْن، وقوله: ﴿بعضها من بعض﴾ جملة في موضع نصب صفة لقوله: ﴿ذرية﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿ذريّة﴾ لفت انتباه الناس إلى أن عيسى عليه السلام من ذرية عمران والدِ مريم من جهة أمه ففيه تنديدٌ باليهود الذين فرّطوا فيه وبالنصارى الذين أفرطوا فيه، وثناءٌ على عيسى عليه السلام وعلى أمه، وقد صار من المعروف في الأساليب البلاغية أنك إذا رأيت شخصا يسلك منهج آبائه قلت: ذريةً بعضها من بعض. وقوله عز وجل: ﴿والله سميع عليم﴾ تقرير لاصطفائه من يشاء، وقوله عز وجل: ﴿إذ قالت امرأة عمران ربّ إني نذرت لك ما في بطني محرَّرًا فتقبّل مني إنك أنت السميع العليم﴾ استئناف لبسط الثناء على آل عمران مع الثناء على زوجته وتقرير إخلاصها لله عز وجل، وإشعار أن عمران والد مريم قد مات وهي في بطن أمها إذ لو كان حيّا ما قررت زوجة عمران نذر ما في بطنها وتحريره لخدمة بيت الله. والنذر هو إيجاب شيء على النفس قربانا، ومعنى: ﴿محرّرا﴾ أي مفرّغا لعبادتك وخدمة بيتك المقدّس خالصا من شواغل الدنيا التي تشغل عن التفرغ والانقطاع عن المسجد، وكأنها تلزم نفسها بأن تتولى بنفسها أو وكيلها جميع ما يحتاجه هذا المحرّر من نفقات الحياة الدنيا وضرورياتها، وقد كان التحرير لخدمة بيت الله قاصرا على الذكور دون الإناث، وقوله عز وجل: ﴿فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي اقبل مني هذا النذر على رضًا منك لأنك لا يخفى عليك سرّي وعلانيتي، وتعلم أني لا أريد بذلك إلا وجهك الكريم، وقوله عز وجل: ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى﴾ أي فلما ولدتها قالت معتذرة متحزنة متوجعة على فوات مقصودها: رب إني ولدت النّسمة التي كانت في بطني أنثى، لعلمها أن الأنثى لا تصلح أن تحرّر لخدمة بيت المقدس، وقوله

عـز وجل: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ قـرأ عبـد الله بن عـامر وأبـو بكـر عن عـاصم: ﴿وضعتُ﴾ بضـم التاء وقـرأ البـاقون بسكـون التاء، فعلى القـراءة الأولى يكون المقصـود أنها دفعت التوهـم أن يخطر على بـال أحد أنها تخبر الله عـز وجل بـذلك مع تـأكيـد القصـد من الإخبـار وأنـه للتفجع على فـوات مقصودها. وعلى القراءة الثانية يكون المقصود الإشعار بعظمة ما ولدت، أي وإن كانت أنثى فإنها تفضل نسـاء العالمين كما أنها تفضل الكثير من الـذكور المؤمنين. وقولـه عز وجل: ﴿وليس الـذكر كـالأنثى﴾ أي والأنثى لا تصلح لخدمة بيـت المقدس بخـلاف الذكر، فـإنه لا يضره الاختـلاط بالـرجال ولا ينتابـه حيض يمنعه من قربان المسجـد حينا من الدهر كما يضرهـا الاختلاط بالرجال. وقوله تعالى: ﴿وإني سميتها مريم﴾ أي وإني أطلقت على مولودتي اسم مريم، و قـد استدل به كثير من العلماء على جواز التسميـة في نفس يوم الـولادة، قـال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيـة: فيـه دليل على جـواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قَبْلَنا، وقد حُكِيَ مقرّرًا وبذلك ثبتـت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: «وُلِـدَ لي الليلة ولد سميته بـاسم أبي إبراهيم». أخـرجاه، وكذلك ثبت فيهما أن أنـس بن مالك ذهب بأخيـه حين ولدتـه أمّه إلى رسـول الله ﷺ فحنّكه وسماه عبـد الله، وفي صحيح البخاري أن رجـلا قال: يا رسـول الله ولد لي الليلة ولـد فما أسمّيه؟ قال: «سمّ ابنك عبد الرحمن» وثبت في الصحيح أيضـا أنه لما جاءه أبو أُسَيْد بابنه ليحنكه فذُهِلَ عنه فأمر به أبوه فرُدّ إلى منزلهم، فلما ذَكَرَ رسول الله ﷺ في المجلس سماه المنـذر. فأمـا حديث قتـادة عن الحسن البصري عن سَمُـرة بن جنـدب أن رسول الله ﷺ قـال: «كل غـلام مرتهن بعقيقتـه يـذبح عنه يـوم السـابع ويسَمَّى ويحلق رأسـه». فقـد رواه أحمد وأهل السنن وصححـه الترمذي، وروي «ويُدْمَى» وهو أثبت وأحفظ والله أعلم اهـ وقوله «ويُدْمَى»

أي بدل ويسمّى. وقوله عز وجلّ: ﴿وإنّي أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي وإني أحصّنها بك وأحصّن ذريتها بك من عدوّنا الشيطان المطرود من رحمة الله، ولم يكن لمريم ذرية قط إلا عيسى عليه السلام، وقد استجاب الله تبارك وتعالى لأم مريم فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فَيَسْتَهِلّ صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم يمسّه الشيطان يوم ولدته أمّه إلا مريم وابنها». هذا، ولا شك أن عمران والد مريم غيرُ عمران والد موسى وهارون وقد حاول بعض أعداء الإسلام في عصرنا أن يلبّسوا على بعض الأغرار بأن القرآن ذكر أن مريم هي بنت عمران والد موسى وهارون ولذلك قال: ﴿يا أخت هارون﴾ مع أن بين مريم وموسى قرونا متطاولة، وجهل هؤلاء أو تجاهلوا أن هارون المذكور مع مريم غيرُ هارون أخي موسى، وأنّ عمران والد مريم غير عمران والد موسى وهارون، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرءون: ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فَرُحْتُ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسَمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم» اهـ وقد نسب إلى محمد بن كعب القرظي الإسرائيلي أنه زعم أن مريم أمّ المسيح هي أخت

موسى وهارون، وهذا من أفحش الخطأ الذي نسب إلى محمد بن كعب القرظي، والمعصوم من عصمه الله .

قال تعـالى : ﴿فتقبّلها رَبُّها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نبـاتًا حسنًا وكفّلها زكـريّا كلّما دخل عليها زكـريّا المحراب وجد عندهـا رزقا قال يا مـريم أنّى لكِ هٰذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشـاء بغير حساب* هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لي من لدنك ذرّية طيّبة إنّك سميع الدّعاء* فنادته الملائكة وهـو قـائم يصلّي في المحـراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصـدّقـا بكلمـة من الله وسيّدًا وحصورًا ونبيّـا من الصّالحين* قال ربّ أنّى يكون لي غـلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقرٌ قال كذٰلك الله يفعـل ما يشاء* قال ربّ اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلّم النـاس ثلاثـة أيّام إلا رمـزًا، واذكر ربّك كثيرًا وسبّح بـالعشيّ والإبكار﴾

يبيّن الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم أنه استجاب دعوة امرأة عمران فرضي عن مريم وأحبّهـا وجعلها سيّدة نساء العالمين، ونشّأهـا تنشئة حسنة وعصمها من الشيطان وربّـاها على عينه تربية كريمـة حيث يقول عز وجل : ﴿فتقبّلهـا ربّها بقَبُول حسن وأنبتهـا نباتـا حسنـا﴾ ولا يلزم من تقبّل الله عـز وجل مريم بقبـول حسن أن تخدم في بيت المقدس لأن الله عـز وجل قد يقبل من الإنسان صدق نيته ويكافئه مكافأة عليها كما وقع في قصة إبراهيم لما أمره الله عز وجـل في منامه أن يـذبح ولـده إسماعيل عليه السـلام فلما أسلما وتلّه للجبين ناداه الله عـز وجل : يا إبراهيم قـد صدّقت الـرؤيا إنا كـذلك نجزي المحسنين، وصار يطلق على إسماعيل اسم الـذبيح وإن لم يُذبح لاستسـلامه للذبح وانقيـاده لأمر الله عز وجل، وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿وكفّلها زكـريا﴾ بتشـديد الفـاء أي جعل الله عز وجل زكـريـا كافـلاً لها لِيُتْمِها، وهي قـراءة عـاصم وحمزة والكسائي، وقـرأ الباقـون بتخفيف الفاء، أي وضمّهـا زكريـا وتولّى الإنفـاق عليها واهتـم بتربيتها والقيـام بمصالحهـا، وقد أشـار الله عز

وجل إلى أن كفالة زكريـا لها تمت بالاقتراع بين شيوخ بني إسرائيل أيّهم يكفل مريم لتخاصمهم في ذلك لشدة حرصهـم عليها بسبب ما ألقاه الله عز وجل في قلوبهم من حبهـا وتكريمها حيث يقـول عز وجل: ﴿ومـا كنتَ لَدَيْهِم إذ يُلْقُون أقلامهم أيّهم يكفل مريم ومـا كنت لديهم إذ يختصمون﴾ وقد يسّر الله تبارك وتعـالى لزكريا أن تقع القـرعة له في كفـالة مريم، لتكون في كفـالة نبي كـريم ورسـول عظيم تقتبس منـه العلم النـافع والعمل الصـالح والسلـوك السَّوِيِّ، ولأن زكـريا عليـه السلام كان زوج أختهـا أو خالتهـا، وقد وصف رسـول الله ﷺ يحيى بن زكـريا وعيسى ابن مـريم بأنهما ابنـا خـالة فقـد روى البخاري ومسلم من حـديث أنس بن مالك عن مـالك بن صَعْصَعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلـة أسري به قـال: «ثم صَعِد حتى أتى السماء الثـانية فـاستفتح، قيل: من هــذا؟ قــال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قــال: محمـد: قيل أَوَ قَـدْ أرسل إليـه؟ قال: نعم، قيل: مـرحبًا بـه ولنعم المجيء جـاء، قال: ففتـح لنا، فلما خلَصْتُ، فإذا يحيى وعيسـى وهما ابنا الخالـة، قـال: هذا يحيى وعيسى فسلّـم عليهما». الحديث وقد قضى رسـول الله ﷺ للخالة بالحضانة في قصة بنت حمزة بن عبد المطلب لما اختصم فيها علي وزيد وجعفر عندما تَبِعَتْ رسولَ الله ﷺ بعـد توقيعه صلح الحديبية وهي تنادي: يـا عمّ ياعمّ، فقـد روى البخـاري من حـديث البراء رضي الله عنه في بـاب عمرة القضاء في سياق كتابة صلح الحديبية قال: فخرج النبيّ ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يـا عَمّ يا عَمّ، فتنـاولها عليّ فأخذ بيـدها وقـال لفاطمـة عليها السلام: دونَكِ ابنـة عمك، حملتها، فاختصم فيها علي وزيـد وجعفر فقال علي: أنـا أخـذتها وهي بنت عمي، وقـال جعفر: هـي ابنة عمي وخـالتهـا تحتي، وقال زيد: بنت أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتهـا، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». الحديث. وقـوله عز وجل: ﴿كلما دخل عليها زكـريا المحراب

وجد عندها رزقا قال يا مـريم أنّى لك هٰذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حسـاب﴾ أي وقد أنزلها زكريـا عليه السلام في أكرم غـرفة من قصره وقد لاحـظ زكريـا أنه كلما دخل عليهـا القصر وجد عندهـا ألوانـا من الرزق لم يجلبها لها، ولا علم له بمصدرها، فاستغرب ذلك وخاطبها قائلا: يا مريم أنّى لك هذا؟ من أين جاءك هـذا الرزق؟ قالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. والمحراب في اللغـة القصر. ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿يعملون لـه ما يشاء من مَحَاريب وتَمَاثيل وجِفَـانٍ كالجَوَابِ وقُدُورٍ رَاسِيات﴾ وقوله عز وجل: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب﴾ وقد قال أبو عبيـدة: المحراب أشرف بيوت الدار، ومنه قـول وَضّاح اليمن ونسبه الفخر الرازي إلى عمر بن أبي ربيعة:

ربّـــة محـــراب إذا جئتـــها　　　لم أدنُ حتـــى أرتقـــي سُـــلّما

واحتج الأصمعي على أن المحراب هـو الغرفـة بقوله تعـالى: ﴿إذ تسوّروا المحراب﴾ على أنّ التّسوّر لا يكون إلا من علو. أمّا ما يعرفه الناس في عصرنا والعصور السابقة من التجاويف في جدران المساجد على سمت القبلة ليتبين النـاس منها جهـة القبلـة فإنه غير مـراد في الآيـة بلا شك وإن أطلق النـاس عليها اسم المحراب، وقد يكتبون فوقها هذه الآية الكريمة ﴿كلما دخل عليها زكريـا المحراب وجـد عندهـا رزقا﴾ وهـذه التجاويـف المذكورة محدثـة بعد الصدر الأول في مساجد المسلمين للدلالـة على القبلة، وتسميتها بالمحاريب ليست بالوضع اللغوي الحقيقي، ولم يَرِدْ عن رسول الله ﷺ خبر ثابت يحدّد نوع الرزق الـذي كان زكريا يجده عنـد مريم في المحراب، والمهمّ هـو أنه كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقـا جديدا لا علم له بمصدره وليس له من سبب ظاهر، وقد كان زكـريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عِتِيًّا وقطع من الشيخوخـة شوطا كبيرا، قـد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيبًـا، وهو

مظهـر من مظاهـر تحوّل الإنسان من القـوة إلى الضعف كما قال عـز وجل: ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشَيْبَة﴾ وعلى حد قول ابن دُرَيْد في مقصورته:

أمـا تَـرىْ رأسـيَ حاكَـى لونُه   طُرَّةَ صُبْـح تحـت أذيـال الدُّجـا
واشتعل المبْيَـضّ في مُسْـودّه   مثل اشتعال النار في جمر الغَضَـا

ومع أن زكـريا عليه السـلام قد صـار إلى هذا الحال من الكِبَر فـإن زوجته كانت عاقرا في شبابها، فلم تحمل أيام شبابها، وقد صارت عجوزا تجمع بين السّببين المنافيين للحمل عـادةً، والظاهر من سياق القـرآن العظيم يشعر أن زكريا عليـه السلام كان مشتغل القلب بذكر صـلاح بني إسرائيل، وأنه كان يـرى تعنّتهـم كشأنهم مع الأنبيـاء والمرسلين، وأنـه كـان يخشـى أن يشتـد انحرافهم عن الصراط المستقيم بعد مـوته، وقد وهن عظمه، ولم يـر في قومه من هو أهل لحمل الرسالة بعـده، وكانت بنو إسرائيل تَسُوسُهم الأنبياء كلما هلك نبيّ بعث الله نبيـا آخر، ونظـرا إلى أن زوجته كـانت عاقـرا، فمِن غير المعتاد أن تلـد امرأة مثلها فاهتم بـذلك اهتماما شديـدا، فلما دخل المحراب على مريم ووجد عندها هذا الرزق الـذي لا يعلم له مصدرا، ولا سببا ظاهرا وسألها: أنّى لك هذا؟ قـالت: هو من عنـد الله، سُرْعَان ما تـداعت معاني هذه الحقيقـة في نفسه مع ما يتمناه من أن يمـنّ الله عليه بولد صـالح يَسُوس بني إسرائيل، وإن كـانت أسبـاب ولادة ولـد له مـن زوجته الصـالحة هـذه مفقودة لأنها كانت عـاقرا من أيام شبابها فكيف وقـد صارت عجوزا تجاوزت سنّ اليأس؟ غير أن الرزق الذي منحه الله لمريم حرّك في نفسه الأمل أن يرزقه الله ولدا مع انقطاع الأسباب، فدعا ربه بصوت خافت، وقام يصلي في قصره وقـال في دعائه: ﴿رب هب لي من لـدنك ذرية طيبـة إنك سميع الدعـاء﴾ وقال: رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا، وقد عوّدتني أن تجيب دعائي ولم أكن بـدعائك رب شقيـا، وإني خفت وأشفقت على بني إسرائيل

أن يفسـدهم من يتولى أمـرهم من بعدي، وكـانت امرأتي في شبـابها عاقـرًا، وأنت على كل شيء قـديـر فهب لي مـن عنـدك وامنحني ولـدا يـرث النبـوة والحكم من بعـدي كما يـرث ذلك من آل يعقوب واجعلـه ربِّ رَضِيًـا، إنك سميع الدعاء، فاستجاب الله دعاءه وخاطبته الملائكة قائلين له: يا زكريا إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى لم يجعل الله له من قبل سَمِيًّا يكون مُصَدِّقا بكلمة من الله وسيدا وحَصُورا ونبيا من الصالحين، فقـال زكريا: كيف يجيئني الولد وأنا وزوجتي بهذا الحال من الكِبَر؟ فنُودِيَ: كـذلك الله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، وقد خلقك الله من قبل ولم تك شيئا، قد جئتَ إلى بطن أمك نطفة لا أثر لصورة الإنسان فيها، فسأل الله عـز وجل أن يجعل له علامة يعرف بها أن الولـد قريب الحصـول، قال: آيتك أن تَعْجَـزَ عن النطق لمدة ثلاثـة أيام وأنت صحيح سَـوِيّ، فخـرج في الحال على قـومـه من القصر ليبشرهم بما تفضل الله به عليـه ويأمرهم بتسبيح الله وتمجيـده والإكثار من ذكره صبـاحا ومسـاء، فعجز عن النطـق وصار يـرمـز إليهم ويشير بما يريـده من أمـرهم بالتسبيح والتحميد والتمجيد لله عز وجل. وإلى ذلك كله يشير الله عز وجل هنا في هذا المقام بقـوله: ﴿هُنَالِكَ دعا زكريا ربّـه قال ربّ هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الـدعاء* فنادته الملائكة وهـو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مُصَـدِّقـا بكلمـة مـن الله وسيـدا وحَصُـورًا ونبيـا من الصالحين* قال ربّ أنّى يكـون لي غلام وقد بلغني الكِبَـرُ وامرأتي عـاقر قال كذٰلِكَ الله يفعل مـا يشاء* قال ربّ اجعل لي آية قـال آيتك ألا تكلم الناس ثـلاثـة أيّـام إلا رَمْـزًا واذكـر ربك كثيرا وسبّح بـالعشي والإبكـار﴾ وقـولـه: ﴿هنالك﴾ أي عندمـا أخبرته مريم أن الرزق الذي عندهـا لم تجلبه يد البشر، وقـولـه: ﴿من لدنك﴾ أي من عنـدك، وقـولـه: ﴿ذرّية طيبـة﴾ أي ولـدا صالحا، وقولـه: ﴿يبشّرك بيحيى﴾ أي يخبرك خبرا يسرّك بأنك ستنجب ولدا

اسمه يحيى. وقوله: ﴿مصدقا بكلمة من الله﴾ أي مُقِرًّا برسول يُبْعَثُ يكون إيجاده بكلمة من الله، وهو في باب المعجزة أشدّ من يحيى لأن يحيى جاء من أبوين وإن كانا طاعنين في السن بخلاف الرسول الكلمة فإنه بلا أب أصلا وإنما كان بكلمة الله الذي قال له: كن، فكان، وكانت هذه البشارة بعيسى كذلك في هذا الوقت المبكر من حياة مريم، وقوله تعالى: ﴿وسيدًا﴾ أي شريفا كريما عالما فقيها متبوعا حليما، وقوله تعالى: ﴿وحَصُورا﴾ الحَصُور يطلق على معان كثيرة منها أنه الذي يصون نفسه عن الخطايا والدنس، ومنها أنه الذي لا يقدر على قربان النساء، ومنها أنه الضيّق الصدر، والذي يليق بيحيى عليه السلام هو المعنى الأول أي أنه الذي يصون نفسه عن الخطايا والدنس، أما ما ذكر عن يحيى عليه السلام بأنه كان لا قدرة له على قربان النساء أخذًا من قوله تعالى: ﴿وحصورا﴾ فهو قول لا دليل عليه ولم يثبت عن رسول الله ﷺ من طريق صحيح، وهو نقص في الرجولة ينزه الله عز وجل أنبياءه عنه، مع أن الحصور يطلق على معان كما مرّ، وقد ذكر القاضي عياض في (الشفاء) يرد مقالة من ادعى على يحيى عليه السلام أنه كان لا قدرة له على المباشرة فقال: بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقّاد العلماء وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام اهـ وقوله تعالى: ﴿ونبيا من الصالحين﴾ بشارة أخرى عظمى لزكريا عليه السلام، وليس قول زكريا عليه السلام: ﴿ربِّ أنى يكون لي غلام﴾ الآيتين، شكًّا في قدرة الله، وإنما هو استفهام عن الطريق الذي سيجيء بواسطته الولد، هل هو من طريق زوجته العاقر أو من غيرها؟ والرمز: الإشارة، وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة زكريا ويحيى بزيادة تفصيل في سورة مريم حيث يقول: ﴿كٓهيعٓصٓ* ذِكْرُ رحمت ربك عبده زكريا* إذ نادى ربه نداء خَفِيًّا* قال رب إني وهَن العَظْم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا*

وإني خِفْتُ الموالي من ورائي وكـانت امرأتي عـاقـرًا فهب لي من لدنك وَليًّـا* يرثني ويَـرِثُ مِن آل يعقوب واجعلـه ربّ رَضِيًّا* يا زكـريا إنـا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل لـه مِن قبلُ سَمِيّا* قـال رب أنّى يكون لي غـلام وكانت امرأتي عـاقرا وقد بلغت من الكبر عتيـا* قال كذٰلِكَ قـال ربكَ هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا* قـال ربي اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثـلاث ليال سَـوِيّا* فخـرج على قومه من المحـراب فأوحى إليهم أنْ سَبِّحُوا بُكْرة وعَشِيّا﴾ وقال عز وجل في سـورة الأنبياء : ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين* فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجـه إنهم كانـوا يسارعـون في الخيرات ويدعـوننا رَغَبًـا ورَهَبًا وكـانوا لنـا خاشعين﴾

قال تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريمُ إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساءِ العالمين* يا مريمُ اقنتى لربّك واسجدى واركعى مع الرّاكعين* ذٰلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض مناقب آل عمران وأثنى على زوجته أم مريم بالثناء الحسن الجميل في صدق إيمانها بالله، وشدة حرصها على مرضاته عز وجل، وإخلاصها العبادة لله وحده، كما أثنى على ابنتها مريم التي عرفت فضل الله عليها وهي صغيرة السنّ، وذكر فضله عز وجل عليها بتيسير كفالة عبده الصالح النبي الكريم والرسول العظيم زكريا عليه السلام لها وتنشئتها في هذا البيت النبوي، وما تفضل الله عز وجل عليها به من الرزق الذي جعله الله عز وجل مع قول مريم: هذا من عند الله حيث كان سببا لدعوة زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، وأن الله عز وجل استجاب له ووهب له يحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورًا ونبيا من الصالحين، جرّد الكلام في هذا المقام لبيان اصطفاء مريم وطهارتها وتفضيلها على نساء العالمين حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ وقوله عز وجل: ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم﴾ إلى آخر الآيتين هو من باب عطف قصة على قصة، حيث عطف قصة البنت الصالحة على قصة أمها الصالحة، وجرى ذكر زكريا وزوجته وولده يحيى للإشعار بعمق أهل هذا البيت في الطهارة وصدق العبادة لله عز وجل و إخلاص التوحيد له، للتنديد باليهود الذين قالوا على مريم بهتانا عظيماً، وبالنصارى الذين جعلوها وابنها إلٰهين من دون الله، وجعلوها والدة لإلٰهٍ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وقوله عز وجل:

﴿قالت الملائكة يا مريم﴾ صريح في أنّ الملائكة خاطبوا مريم عليها السلام، ولا يلزم من مخاطبة الملائكة لمريم أن تكون نبية، لأن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا من الرجال كما قال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر﴾ الآية وكما قال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى﴾ وقد يبعث الله عز وجل المَلَك لمخاطبة غير نبي، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم مَلَكًا، فأتى الأبرَص فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: لونٌ حسَن وجِلْد حسَنٌ، ويذهب عني الذي قد قَذِرَني الناس، فمسحه فذهب عنه قَذَرُه، وأُعْطِيَ لونا حسنًا. قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل، أو قال: البقر ــ شكّ الراوي ـ فأُعْطِيَ ناقةً عُشَرَاء، فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأقرعَ، فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: شعرٌ حسن، ويذهب عنّي الذي قَذِرَني الناس، فمسحه، فذهب عنه وأُعْطِيَ شعرا حسنًا، قال: فأي المال أحبّ إليك قال البقر، فأُعْطِيَ بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: أن يرُدّ الله إليّ بصري فأُبْصِرَ الناس، فمسحه فردّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحبّ إليك؟ قال: الغنم، فأُعْطِيَ شاةً والدا، فأنتج هذان، وولّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، ثم إنّه أتى الأبرَص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بَعِيرًا أتبلّغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرةٌ، فقال: كأنّي أعرفك، ألم تكن أبرص يَقْذَرُك الناس، فقيرا فأعطاك الله؟ فقال: إنما وَرِثْتُ هذا المال كابرًا عن

كابرٍ، فقال: إن كنت كاذبـا فصيّرك الله إلى ما كنتَ، وأتى الأقرعَ في صورته وهيئته فقال لـه مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل مـا ردّ هذا، فقال: إن كنت كاذبـا فصيّرك الله إلى ما كنتَ، وأتى الأعمى في صـورته وهيئتـه فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفـري فلا بلاغ لي اليـوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالـذي ردّ عليك بصرك، شاةً أتبلّغ بها في سفـري، فقال: قد كنتُ أعمى فـردَّ الله إليّ بصري، فخذ ما شئت، ودع مـا شئت، فوالله لا أَجْهَدُك اليوم بشيء أخذتَه لله عز وجل، فقال: أَمْسِكْ مالَك، فإنّما ابْتُلِيتُم، فقـد رضي الله عنك وسَخِط على صـاحبيك» فهـذا الحديث الصحيح المتفق عليـه يثبت أن الله عز وجل قـد يبعث ملكًـا لأحد من عبـاده ليس بنبيّ ولا رسولٍ، كما روى مسلم في صحيحه من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلا زار أخًـا له في قـرية أخرى فأرصـد الله تعالى على مَـدْرَجَته ملَكًا، فلما أتى عليـه قال: أين تريد؟ قـال: أريد أخًا لي في هذه القـرية، قـال: هل لك عليـه من نعمة تَـرُبُّها عليـه؟ قال: لا، غير أني أحببتـه في الله تعـالى، قال: فإني رسـول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببتَـه فيه. فهـذا الحديث الصحيح أيضـا يثبت أن الله تعالى قـد يرسل ملَكًا إلى بعـض الناس ويخاطبهم وليسـوا بأنبياء. وقـد بشرت الملائكةُ مـريمَ هنا بثـلاث بِشارات، البِشارة الأولى: أن الله اصطفاهـا، أي اجتباها واختارهـا حيث جعلها ذريةً طيبـة لأبـوين طيّبين وتقبّلهـا بقبـول حسن وأنبتهـا نباتـا حسنـا، وخصّهـا بكرامـات عظيمة وإخـلاص التوحيـد لله وشكر نعم الله عـز وجل في صغر سنها، والبِشـارة الثانية: أن الله عـز وجل طهّرهـا ونقاها من أدنـاس اليهود وأرجاسهم وطيّبهـا وعصمها من كل سـوء، وحيث جعلها الصديقـة الطيبة الطـاهرة العـذراء البتول المنقطعـة إلى الله عز وجل وحـده لا شريك له، أمـا البِشارة الثالثة: فهي أن الله عز وجل اصطفـاها وفضلها على نساء العالمين،

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثَّرِيد على سائر الطعام، كَمَلَ من الرجال كثير، ولم يَكْمُلْ من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسِيَة امرأة فرعون». كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على طفل، وأرعاه على زوج في ذات يده» يقول أبو هريرة على إثر ذلك: ولم تركب مريم بنت عمران بعيرا قط. وهذا يشعر أنه لا معارضة بين هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة وبين ما يقتضي تفضيل مريم على عموم نساء العالمين، فحديث أبي هريرة يفيد تفضيل نساء قريش على من ركب الإبل من النساء ومريم لم تركب الإبل قط فلا تكون نساء قريش أفضل منها، وحديث عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه يشعر بتفضيل مريم على خديجة رضي الله عنها بقرينة تقديم مريم عليها في الذكر، وإن كانت الواو العاطفة لا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا كما هو مقرر في علم أصول الفقه، وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يَحْصُر كاملات النساء في مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، ويشعر بتقديم مريم على آسية رضي الله عنهما. وقوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي وبعد أن بشّرت الملائكة مريم بالبِشارات الثلاث السابقة قالت الملائكة لمريم: اثْبُتِي على ما أنت عليه من طاعة الله وإخلاص العبادة له وأديمي ذلك واسكني لله عز وجل واخشعي واخضعي له وكوني من القانتين الرّكّع السّجود، لتستمري على أعلى درجات السلوك الإنساني في الطهارة والعفاف

ودوام الحب لله عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ أي ما قصصته عليك من الأخبار العظيمة عن قصة هذا البيت السعيد بيت عمران والد مريم وما كان من زوجته عندما حملت بمريم وما كان من نذرها، وماذا قالت عند ولادتها، وماذا كافأها الله عز وجل به، وماكان من تنشئة مريم في كفالة زكريا، وقصة الرزق الذي ساقه الله عز وجل لمريم في قصر زكريا، وما ترتب على هذا الرزق؟ ودعاء زكريا ربّه أن يهب له ذرية طيبة، واستجابة الله تعالى له وتفضله عليه بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين، وآية زكريا، وأصل النبأ في اللغة هو الخبر العظيم، وهذه الأخبار التي قصها الله عز وجل وألقاها إلى رسوله وأنزلها إليه في القرآن العظيم من خفيّ أخبار بني إسرائيل التي لم يكن رسول الله ﷺ ولا قومه يعلمونها، فهي برهان ساطع على أن محمدًا هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا. وقوله عز وجل: ﴿وما كنتَ لديهم إذ يُلْقُون أقلامهم أيُّهم يَكْفُل مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾ تقرير وتأكيد على أن هذه الأخبار مما أوحاه الله وألقاه وأنزله على نبيه محمد ﷺ على أبلغ وجه حيث يقص هذا القصص على نبيه الأمي كأنه كان مشاهدًا لكل هذه التفصيلات الدقيقة حيث يقول: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ أي وما كنت ثاويا مقيما مشاهدا لرؤساء بني إسرائيل وهم يقترعون على من يكون الكفيل لمريم بسبب موت أبيها وحبّهم له ولها، ويلقون سِهَامهم وقِدَاحَهم للاقتراع على ذلك بسبب حرص كل واحد منهم على أن يكون هو الكفيل لها، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وذلك من الله عز وجل وإن كان خطابا لنبيه ﷺ فتوبيخ منه عز وجل للمكذبين به من أهل الكتابين، يقول: كيف يشكّ أهل الكفر بك منهم وأنت تُنْبِئُهم هذه الأنباء ولم تشهدها، ولم تكن معهم يوم فعلوا هذه الأمور،

ولستَ ممن قـرأ الكتب فعَلِم نبأهم، ولا جـالَسَ أهلها فسمع خبرهم؟ اهـ
وكما قال عز وجل: ﴿وما كنتَ تتلواْ من قبله من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذًا لارتـاب المبطِلُون * بل هـو آيات بيّنـات في صدور الـذين أوتوا العلم، ومـا يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾.

قال تعـالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يـا مريـم إن الله يبشّرك بكلمة منـه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقرّبين* ويكلّم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين﴾ .

بعد أن بسط الله تبـارك وتعالى قصة ولادة مريم وتنشئتهـا ومخاطبة الملائكة لها بالبشارات الثلاث المتقدمة ، وأمرها بإدامة الاستقامة والطاعة والخشوع لله عز وجل ، وما لفت به انتباه الناس عامة وأهل الكتابين خاصة إلى ما في هذه الأنباء من الآيات الشاهدات على أن محمـدا هو رسول الله ﷺ حقّا وصدقا ، شرع في بسط قصـة ولادة المسيـح عليـه السـلام ، حيث قـال : ﴿إذ قـالت الملائكـة يا مـريم إنّ الله يبشّركِ بكلمة منـه اسمه المسيح عيسى ابن مـريم وجيها في الـدنيا والآخـرة ومن المقرّبين* ويكلّـم الناس في المهد وكهـلاً ومن الصالحين﴾ وهذه هي طـلائع البشائر للصديقة البتول مريم بـولدها المسيح عليه السلام ، وظاهر السِّياق الكريم يشعر أن جمعا من الملائكة حضروا هذه البشائر و إن كان الذي تولى مخاطبة مريم وتمثّل لها بشرًا سويا هو جبريل عليه السلام حيث وصف الله عز وجل المكان الذي جاءتها البشارة بعيسى فيه وما تمّ في ذلك حيث يقول في سورة مريم : ﴿ واذكـر في الكتاب مريم إِذِ انتبَذَتْ من أهلها مكانا شرقيا* فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها رُوحنا فتَمَثَّلَ لها بشرا سويّا* قالت إني أعوذ بالرحمن منكَ إن كنتَ تقيا* قال إنما أنا رسول رَبّك لأهب لك غلامـا زكيّا* قالت أنّى يكـون لي غلام ولم يَمْسَسْني بشرٌ ولم أكُ بغيّا* قـال كذٰلِكِ قال ربكِ هـو عليّ هيّن ولنجعله آية للنـاس ورحمة منا وكـان أمرا مقضيّـا﴾ ولا مـانع من نسبة الكـلام إلى هـذا الـوفد الكـريم من الملائكة و إن كان المتحدث هو رئيس هـذا الوفد المبارك روح القُدُس جبريل

عليه السلام، ولـه نظائر كثيرة في كتاب الله وفي الأساليب العـربية الفصيحة البليغة، وأعـراف الناس وعـاداتهم في مختلف أعصارهم وأمصـارهم، والمراد بالكلمة في قـوله تعالى: ﴿إنَّ الله يبشّرِكِ بكلمة منه﴾ أي بـولد عظيم له شأن كبير وسُمِّيَ الولد كلمة لأنه وجد بكلمة من الله حيث قال له: كن، فكان، وصـار يطلق على عيسى عليه السـلام كلمـة الله على سبيل التغليب، أعني صار علما بـالغَلَبة، وإن كـان لا يتم شيء إلا إذا قال الله لـه: كن، فيكون. وقـوله عـز وجل: ﴿ اسمـه المسيح عيسى ابن مـريم﴾تعريف لمريم عليهـا السلام باسم ولدها الذي بُشِّرَتْ به، وفي نسبتـه إليها للتنبيه على أنه يولد من غير أب، إذ المعروف أن الإنسان ينسـب إلى أبيه، وفي هذا تنديـد بالنصارى الـذين اتخذوا المسيح ولـدا لله، تعـالى الله عما يقولـون علـوا كبيرا، كما أن في نسبته إلى مريم تمييزاً لمسيح الهدى عن مسيح الضلالة الدجال، ولفظ المسيح قيل هو عبرانيٌ ومعناه: المبارك، وقيل إنما سمي مسيحا لأنه يمسح ذا العاهة فيبرأ بإذن الله، وقيل: لأنـه كـان مسيح القـدمين أي لا أَخْمَصَ لهما، وقيل: لأن الله مسحه بـالبركة أي خلقه خلقا مبـاركا حسنًا، وقيل: هـو مأخوذ من السياحة وهي الذهاب في الأرض والتنقل فيهـا للدعوة، قال الفيروزآبادي في القامـوس المحيط في مادة (سـاح): والسّياحـة بالكسر والسُّيـوح والسَّيَحَان والسَّيْح: الـذّهاب في الأرض للعبـادة ومنه المسيح ابن مـريم وقد ذكـرت في اشتقـاقه خمسين قـولا في شرحي لصحيح البخـاري وغيره اهـ وقال في مـادة (مسح): والمسيح عيسى ﷺ لبركتـه، وذكـرت في اشتقـاقـه خمسين قـولا في شرحي لمشارق الأنـوار وغيره اهـ وقال ابن منظور في لسان العـرب: قال ابن سِيـدَه: والمسيح عيسى ابن مـريم صلى الله على نبينـا وعليهما، قيل: سُمّي بذلك لصـدقه، وقيل: سُمّي بـه لأنه كان سـائحًا في الأرض لا يستقـر اهـ وقيل: سُمّي المسيح مسيحا لأنـه خرج من بطن أمـه ممسوحا بـالدهن، كما

سُمّي الدجال مسيحا لأنـه كان ممسوح العين، وسيقتل مسيحُ الهُدَى عيسى ابن مريم مسيحَ الضلالة الدجـالَ كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ عندما ينزل في آخر الـزمان. أمـا عيسى عليه السـلام فقيل: هو مشتق من العيـس وهو بياض تعلـوه حمرة، وتُسمّى الإبل البيض التي يخالطُ بيـاضَها شُقْـرةٌ عيسًا، وقيل: هو اسم غير مشتق وهو اسم عبرانيّ أو سريانيٌّ، وقـد حرّفة المحرفون وقلبوه وقالوا: يسوع. وقد اشتملت طلائع البشائر على سبع بشارات في قوله عـز وجل: ﴿يبشّركِ بكلمـة منه اسمـه المسيح عيسى ابن مـريم وجيهـا في الدنيا والآخرة ومن المقربين* ويكلّـم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين﴾ فالبشـارة الأولى بالـولد والثـانية بتسميتـه، والثالثـة بكونـه وجيها في الـدنيا والآخرة، والرابعة بكونه من المقربين، والخامسة بكونه يكلّم الناس في المهد، والسادسة بكـونه يعيش إلى سن الكهولة وفيـه إشارة إلى أنه لا يعيش إلى سنّ الشيخوخة، وقد كان كما ذكر الله عـز وجل، والسابعة بكونه من الصـالحين.

ومعنى كونه: ﴿وجيها في الدنيا والآخـرة﴾ أي ذا شرف ووجاهة ومنزلة عالية في الدنيا بما يُنزله الله عليه من الوحي والشريعة وما يؤتيه من المعجزات، وفي الآخرة حيث يشفع عند الله فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه فيقبل الله منه أسوة بإخـوانه من أولي العـزم من المرسلين عليهم الصلاة والسـلام، يقال للـرجل الذي يعظّمه الملوك والناس: وجيـه، وَوَجُهَ فلان إذا عُظِّم، ومنه قول بعض الصحابة رضي الله عنهم: كان الرجل من أصحاب محمد ﷺ إذا حفظ البقرة وآل عمران وَجُهَ في أصحاب رسول الله ﷺ. و﴿وجيهًا﴾ منصوب على الحال والتقديـر: إن الله يبشركِ بهذا الولـد وجيها في الدنيـا والآخرة، والمقصـود أنه حال من «كلمة» فإنها وإن كانت نكرة لكنها صالحة لأن ينتصب بها الحال، وتذكير الحال باعتبار معنى «كلمـة» إذ المراد بها الولد كما أشرتُ، وقد وصف الله تبارك وتعالى في كتابـه الكريم رسوله موسى ﷺ كذلك بـأنه كان عند الله

وجيها، حيث يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوْا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ ومعنى كونه من المقربين أي من أهل المنزلة العالية في الفردوس الأعلى مع إخوانه أولي العزم من المرسلين، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويكلّم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي ويخاطب بني إسرائيل لتعريفهم بنفسه، وللبرهان على طهارة أمه وهو حديث عهد بالولادة، والمهد: مَضْجَعُ الصبيّ في رضاعه وما يُمْهَد للرضيع ويوطّأ له لينام فيه من الفراش، وجملة: ﴿ويكلم الناس﴾ في موضع نصب على الحال المعطوفة على قوله عز وجل: ﴿وجيها﴾ كأنه قيل: وجيها ومكلّما الناس في المهد، وقد ساق الله تبارك وتعالى كلامه الذي تكلم به في المهد في سورة مريم حيث يقول: ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا: يا مريم لقد جئت شيئا فريًّا* يا أخت هارون ما كان أبوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وما كانت أمّك بغيّا* فأشارت إليه قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبيّا* قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا* وجعلني مباركًا أين ما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا* وبرّا بوالدتي ولم يجعلني جبّارًا شقيًّا* والسلام عليّ يوم وُلِدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حيّا﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جُرَيْج، وكان جريج رجلا عابدا، فاتخذ صَوْمَعةً، فكان فيها، فأتته أمّه وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا ربّ، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفَتْ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يارِبّ، أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفَتْ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أي ربّ، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه الموِمسَات، فتذاكر بنو إسرائيل

جُرَيْجًا وعبادتهُ، وكانت امرأة بَغيٌّ يُتَمَثَّل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم، قال: فتعرّضَتْ له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعِيًا كان يأوي إلى صومعته، فأمْكَنَتْه من نفسها، فوقع عليها، فحَمَلَتْ، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زَنَيْتَ بهذه البَغِيّ، فولدت منك، فقال: أين الصّبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتّى أصلّي، فصلّى، فلما انصرف أتى الصبيَّ فطعن في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلانٌ الرّاعي، قال: فأقبلوا على جريج يقبّلونه ويتمسّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبينا صبيٌّ يرضع من أمه فمرّ رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمّه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثّدي وأقبل إليه، فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثَدْيِه فجعل يرتضع» قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يَمُصُّها، قال: «ومرّوا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرّضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حَلْقَى، مرّ رجلٌ حسن الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأَمة وهم يضربونها ويقولون: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جبّارا، فقلتُ: اللهم لا تجعلني مثله، وإنّ هذه يقولون لها: زَنَيْتِ، ولم تزْنِ، وسرقْتِ، ولم تسرقْ، فقلت: اللهم اجعلني مثلها». وقوله: ﴿وكهلا﴾ هو منصوب على الحال من فاعل يكلم كأنه قيل: يكلم الناس حالة كونه في المهد وحالة كونه كهلا. والكهل هو ما كَمُل

شبابه واجتمعت قوته قبل سنّ الشيخوخة، مأخوذ من قول العرب: اكتهل النبات، إذا قوي وانتهى منتهاه، ومنه قول الأعشى:

يُضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بعميم النبت مُكْتَهِل

والغالب أن يصير الرجل كهلا فيما بين الثلاثين والأربعين، وقد تمتد قوته إلى الخمسين. وفي قوله عز وجل: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلا﴾ تنديد بالنصارى الذين جعلوا عيسى إلَها، لأن الإلّه منزه عن هذه الأحوال التي تدل على الفناء والزوال، وقوله عز وجل: ﴿ومن الصالحين﴾ إشعار ببلوغه أكمل الدرجات العالية، قال الفخر الرازي: فإن قيل: كون عيسى كلمة من الله تعالى، وكونه وجيها في الدنيا والآخرة، وكونه من المقربين عند الله تعالى، وكونه مكلما للناس في المهد وفي الكهولة، كلّ واحد من هذه الصفات أعظم من كونه صالحا، فلم ختم الله أوصاف عيسى بقوله: ﴿ومن الصالحين﴾؟ قلنا: إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحا، لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظبا على النهج الأصلح والطريق الأكمل، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين، في أفعال القلوب وأفعال الجوارح، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذي يدل على أرفع الدرجات اهـ.

قال تعـالى : ﴿قالت ربّ أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قـال كذٰلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضـى أمرا فإنما يقول له كن فيكـون* ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل* ورسولا إلى بنى إسرائيـل أنّى قد جئتكم بآية من ربّكم أنّى أخلق لكم من الطّين كهيئـة الطّير فأنفخ فيه فيكـون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأُحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم، إنّ فى ذٰلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾

لما سمعتْ مريم عليها السلام من روح القدس جبريل ﷺ البشارة بكلمة الله المسيح العظيم الشأن قالت متعجّبة غير منكرة ولا شـاكّةٍ في قدرة الله عز وجل الذي عرفـت نعمته عليها حيث كان يسوق لها ألـوان الرزق العجيب : أنّى يكون لي ولـد ولم يمسسني بشر وليس في تاريخ الإنسـانية كلهـا أن جاء ولدٌ من امرأة بلا زوج وهي نقيةٌ طـاهرةٌ في الذروة من العفاف؟ مع علمها أن الله عـز وجـل خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حـواء مـن غير أمّ، وقـد سارعت بـالضراعة إلى الله قائلة : ربّ كيف يـوجد هذا الولـد مِنّي؟ فأجابها جبريل عن أمر الله عز وجل قائلا لها : ﴿كذٰلِكِ الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرا فإنما يقـول له كن فيكون﴾ أي هكـذا يخلق الله منكِ ولدًا لك من غير أن يمسّك بشرٌ فيجعلـه آيـة للنـاس على كمال قدرتـه وأنـه لا يعجـزه شيء من الخلق، فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ويبتدع ما يريد، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه، فمهما أراد إيجاد شيء من الخلق أوجـده على الوجه الذي يـريد، لا يحتاج إلى سبب لأنه الربّ المهيمن على كل شيء فإذا قال للشيء كن فيكون.
ومما يلفت الانتباه أن زكريا عليه السلام لما قال: ﴿ربّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾ أجيب بقولـه : ﴿كذٰلِكَ الله يفعل ما يشاء﴾ وأنّ

مـريم عليها السـلام لما قـالـت: ﴿ربّ أنّى يكون لي ولـد ولم يمسسني بشرٌ﴾ أجيبت بقولـه: ﴿كذٰلِكِ الله يخلق ما يشـاء﴾ ولا شك أن ولادة العذراء من غير أن يمسّهـا بشرٌ أبدع وأغـرب وأظهـر وأدلّ على القدرة من ولادة عجـوز عاقـر من زوج بلغ من الكبر عتيّا، لـذلك جاء البيـان البليغ في جانب إيجاد عيسى بقولـه: ﴿يخلق﴾ وفي جانب إيجاد يحيى بقـوله: ﴿يفعل﴾ لأن الخلق ينبئ عن الاختراع والإيجاد وهو أنسب بهذا المقـام من مطلق الفعل الذي وقع في جـواب تعجّب زكـريـا عليه السـلام، كما أن في ذلك تنـديـدا بمن جعل عيسى إلٰها أو ابن إلٰـه لأنـه مخلـوق خلقـه ربّ السمـوات والأرض فهل يليق بإنسـان عنده ذرة من عقل أن يعبـد مخلـوقًا مثلـه؟ وقولـه تعالى: ﴿ويعلمـه الكتاب والحكمة التوراة والإنجيل* ورسـولا إلى بني إسرائيل﴾ هذه هي بقية البشائر التي بشرت الملائكة بها مريم عليها السلام بولادة المسيح وصفاته قبل أن تحمل بـه، وبها تبلغ هذه البشـائر اثنتي عشرة بشارة، وقـوله عـز وجل: ﴿ويعلّمه الكتاب﴾ أي ويعرّفه الكتابـة والخط الذي يخطّه بيده، وفيه لفت انتباه إلى نعمة معرفة الخط والكتابـة، أمّا عدم تعليم النبي ﷺ الخطّ والكتابة فلتمام المعجزة الكبرى حيث يبعثه الله عز وجل معلما للأمم وهو أمّي مبعوث بالكتـاب المهيمن على سائر كتب النبيين، وقـوله: ﴿والحكمـة﴾ هي الفهم والعقل عن الله عز وجل، وإدراك العلوم النافعة، وسلوك الطريق المستقيم، ومعـرفـة السنـة التي يـوحيهـا الله عـز وجل إليـه في غير كتـاب. وقـولـه: ﴿والتوراة﴾ أي ويعلّمـه نصوص التـوراة المنزلة على كبير أنبيـاء بني إسرائيل موسى عليـه السلام ويعرّفه مقـاصدها، وقولـه: ﴿والإنجيل﴾ أي ويعلمه الإنجيل الذي ينزله عليه، وقوله: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل﴾ أي ويبعثه الله عـز وجل رسـولا إلى بني إسرائيـل، وهـذه هي أكبر البشـائر الاثنتي عشرة، وأخّرها في الـذكر لاتصالها بما يقوله عيسى عليه السـلام لبني إسرائيل عندما

يبعثه الله عـز وجل إليهم بعـد أن يبلغ أشدّه، وقـد ذكر الله تبـارك وتعالى في سورة مـريم ما يفيد أنه بعـد تمام بشارتها واطمئنانها، نفَخَ فيهـا جبريل عليه السلام فحملت بعيسى عليه السلام وأنه لما ألجأها المخاض ووجع الولادة إلى جـذع النخلة أدركهـا خـوف مـا ستلقاه من اليهـود وهـم قـوم بُهْتٌ فطمأنها جبريل عليه السلام وعلّمها ما تحتاجه لنفسها وما تفعله وتقوله لقومها حيث يقول الله عـز جل في ذلك: ﴿فحَمَلَتْه فانتبـذت به مكـانا قصيّا* فأجـاءها المخاض إلى جـذع النخلة قالت يـا ليتني مِتُّ قبل هٰذا وكنت نسيـا منسيا* فناداهـا من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربّك تحتك سريا* وهُـزِّي إليك بجذع النّخلـة تُسَاقِطْ عليك رُطَبًـا جَنِيًا* فكلي واشربي وقَـرِّي عَيْنًـا فإمّا تَـرَيِنَّ من البشر أحدًا فقـولي إني نذرت للرحمن صـومًا فلن أكلم اليوم إنسيـا* فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئـت شيئا فريّا* يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَـوْءٍ وما كـانت أمّك بغيّا* فأشارت إليـه قالـوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيا* قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا* وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصـاني بالصـلاة والزكـاة ما دمت حيّـا* وبرّا بـوالدتي ولم يجعلني جبّارا شقيّا* والسـلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّـا.﴾ وقوله عـز وجل: ﴿أنّي قد جئتكم بـآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئـة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾ هذا شروع في بيان قصة ما وقع لعيسى عليه السلام بعد أن بلغ أَشُـدّه حيث أرسله الله عز وجل إلى بني إسرائيل فلما جاءهـم أخبرهم بأنه قـد جاءهم مُرْسَـلا إليهم من الله عز وجـل بمعجزات مؤيّدة له بأنه رسول من رب العالمين، والمراد بالآية في قوله: ﴿قد جئتكم بآية من ربكم﴾ جنس الآية فهي تشمل أكثـر من آية، ولذلك فسّرهـا بأنواع من الآيات وهي أنـه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير فينفخ فيـه فيكون طيرا بإذن الله ويبرئ الأَكْمَـهَ والأبـرص ويحيى الموتى بإذن الله وينبّئهم بما يأكلـون ومـا

يدخـرون في بيوتهم ، ثم قـال عن هذه الأنـواع من المعجزات : ﴿إنّ في ذٰلك لآيةً لكم﴾ ومعنى قـوله عز وجـل : ﴿ أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾ أي أصـوّر أمامكم من الطين شكل طير ثم أنفخ فيه فيطير بإذن الله ، وأنتم تنظـرون إليه وتشاهدونـه بأعينكم ، وقد أَذِن الله عز وجـل لعيسى عليه السلام في تصـوير صـورة الطير من الطين والنّفخ فيه ليطير بإذن الله لتكـون هذه المعجزة الحسيّة آيـة ظاهرة على أنـه رسول من رب العالمين ، وهذه هي الآيـة الأولى ، أما الآية الثانية والآية الثـالثة فقد أخبر الله عز وجل عنهما بقولـه : ﴿وأبرئ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ﴾ والأَكْمَـهُ هو من وُلِدَ ممسوح العينين لا حَدَقـة لعينه ، وشفاء الأكمه وإبراؤه ليبصر لا طـاقة لأحد من الأطباء قديما وحـديثا عليه ، فهو من أظهر المعجـزات الحسية ، والأبرص هو المصاب بـالبَرَص وهو داء معروف يظهر في بيـاضٍ يصيب ويعتري جلد الإنسان يعجز نُطُسُ الأطباء عن علاجه قديما وحـديثا ، أما الآية الرابعة فقد أخبر الله عز وجل عنها بقوله : ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ أي وأنادي بعض الموتى فيقـومون وأنتم تنظـرون وتعـود لهم الحياة بعـد الموت ، وقولـه : ﴿بإذن الله﴾ هو قيد في إبـراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وقيّد بـه هذه الأفعال الخارقة لنفي توهّم الألوهية فيه ، فهـو ردّ على النصارى الذين زعموا أنه فعل هذه الأفعـال بوصفه إلٰها ، تعـالى الله عما يقولـون علوّا كبيرا ، وقد قيـد الله عز وجل بهذا القيد هذه المعجـزات في سورة المائدة حيث يقول : ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني﴾ وقـد ذكرت في تفسير قـوله عز وجـل في سورة البقرة : ﴿وإن كنتم في ريـب مما نزلنـا على عبدنـا فأتوا بسـورة من مثله﴾ أن معجزات كل نبي كانت تنـاسب أعلى ما وصل إليه قومـه في العلم ليعرفوا أن هذه المعجـزة تفوق كل ما وصلوا إليـه ، وأنها ليست من قدرة البشر وإنما هي

من مالك القُوَى والقُـدَر، وأشرت إلى أن من بُعِثَ إليهم عيسى عليه السلام كانوا أبصر الناس في عصرهم بالطب فجعل الله عز وجل معجزة عيسى عليه السلام من جنـس ما برعـوا فيه فكـانت معجزتـه أنه يبرئ الأكمـه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصـور من الطين كهيئـة الطير ثم ينفخ فيه فيكـون طيرًا بإذن الله. أمـا الآية الخامسـة من الآيـات الحسيـة التي أيّد الله تعـالى بها عبده ورسـوله عيسى ابن مريم عليـه السلام فهي أنـه يخبرهم بما يأكلون وبما يـدّخرون في بيـوتهم، أي يقول لأحـدهم: أنت أكلت اليوم كـذا وتدّخـر في بيتك لغدك كـذا، مما يقطعـون بأنه لا علم لغيرهم بـه، وقد أخبرهم عيسى عليه السـلام بأن هذه آيـة ينتفع بها من يشرح الله صدره لـلإيمان، وفي ذلك يقـول الله عز وجل: ﴿وأُنَبِّئُكُم بما تأكلـون وما تَـدَّخِرُون في بيـوتكم، إن في ذٰلك لآيَةً لكم إن كنتم مـؤمنين﴾، وقوله عـز وجل: ﴿إن في ذٰلك لآية لكم إن كنتم مـؤمنين﴾ قال ابن جريـر رحمه الله: يعني بذلك جـل ثناؤه: إن في خلقي من الطين الطيرَ بإذن الله، وفي إبـرائي الأكمـه والأبـرص، وإحيـائي الموتى، وإنبـائي إياكم بما تأكلـون وما تدّخـرون في بيوتكم، ابتـداءً من غير حسـاب وتنجيم ولا كهـانـة وعرافـة، لعبرةً لكم ومُتَفَكَّـرًا تتفكـرون في ذلك فتعتبرون به أنى محقّ في قولي لكم: إني رسـول من ربكم إليكم، وتعلمون به أني فيما أدعـوكم إليه من أمـر الله ونهيـه صادق ﴿إن كنتم مـؤمنين﴾ يعني إن كنتم مصدّقين حجج الله وآياتـه، مقرين بتوحيده، وبنبيّـه موسى، والتوراة التي جاءكم بها اهـ.

قال تعالى: ﴿ومصدّقا لما بين يديّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذى حُرّم عليكم، وجئتكم بآية من ربّكم فاتّقوا الله وأطيعون* إنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه، هٰذا صراط مستقيم* فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر قال منْ أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون* ربّنا آمنا بما أنزلت واتّبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾

بعد أن بيّن عيسى عليه السلام لبني إسرائيل المعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة المصدّقة له بأنه رسول من رب العالمين بيّن هنا مضمون الرسالة التي جاء بها من عند الله، فقال: ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعونِ* إن الله ربّي وربّكم فاعبدوه هٰذا صراط مستقيم﴾ وقوله: ﴿ومصدّقا﴾ منصوبٌ على الحال من ﴿جئتكم﴾ أي جئتكم بهذه المعجزات وجئتكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومحلاً لكم بعض الذي حرّم عليكم. ومعنى: ﴿ومصدّقا لما بين يديّ من التوراة﴾ أي ومؤمنا بكتاب الله الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو التوراة ومقرّا بها وأنها من عند الله، وهذا الذي قاله عيسى عليه السلام مُشْعِر بأن رسل الله يصدق بعضهم بعضًا، ويؤمنون بجميع كتب الله، وفيه تنديد باليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام وكذبوه، مع أن التوراة فيها إشارة إلى أن الله عز وجل سيرسل لهم مسيحا، لكنهم أَبَوْا أن يكونوا أتباع المسيح الحق، ليكونوا أتباع المسيح الدجال لعنه الله ولعنهم، وقوله عز وجل: ﴿ولأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم﴾ أي ولأرفع عنكم بعض الإصر ولأخفف عليكم فأبيح لكم بأمر من الله عز وجل بعض ما كان محرّما عليكم في التوراة، حيث جعل الله عز وجل لكل نبي شرعة ومنهاجا يلائم أمته ويقوم بصلاح معاشها ومعادها، وكذلك يشرح لهم عيسى عليه

السلام الوجه الصحيح فيما يختلفون فيه من المسائل ويبين لهم الحق والصواب فيما اختلفوا فيه، كما قال عز وجل في سورة الزخرف: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعونِ* إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هٰذا صراط مستقيم﴾ ولا يقول قائل: كيف يكون مصدقا لما بين يديه من التوراة ثم يعلن أنه يُحِلّ بعض ما حُرّم فيها؟ إذ لا معارضة ألبتة في ذلك ولا تناقض لأننا معشر المسلمين نؤمن بالتوراة والإنجيل وسائر كتب الله مع جزمنا بأن شريعتنا قد نسخت سائر أحكام الكتب السماوية السابقة سوى أصول الدين التي تطابقت عليها جميع النّبوّات كما أشار إلى ذلك قوله عز وجل: ﴿شرع لكم من الدين ما وَصَّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجا﴾، وقوله عز وجل: ﴿وجئتكم بآية من ربّكم﴾ يمكن أن تكون هذه الجملة تأكيدا لقوله تعالى في مطلع المقام السابق: ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾ لتحريك قلوبهم بسبب بلادة نفوسهم، ويمكن أن تكون هذه الجملة مؤسِّسة لتعريفهم بأن درب عيسى عليه السلام في رسالته درب مسلوك وهو منهج النبيين والمرسلين حيث يؤيدهم الله عز وجل بآياته، وهم يقرءون ذلك في كتبهم، ثم جرَّد عيسى عليه السلام لهم ما يدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله وحده وتقواه عز وجل في السّر والعلن، بطاعة أوامره والانتهاء عن زواجره، وطاعة عبده ورسوله عيسى ابن مريم الذي جاءهم بسعادة الدنيا والآخرة لمن أطاعه، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿فاتقوا الله وأطيعونِ* إن الله ربي وربكم فاعبدوه هٰذا صراط مستقيم﴾ وهذه هي خلاصة دعوة الأنبياء والمرسلين، فإنهم جميعا جاءوا لتحقيق تقوى الله عز وجل وطاعة المرسلين والإقرار بأن الله عز وجل هو وحده ربّ كلّ شيء

وسيده ومليكه ومصلحـه، والمهيمن عليه والقائم على كل نفس بما كسبت، فعلى كلّ عاقل أن يخلـص العبادة لله وحده ويـوقن بأنه لا إلـه إلا الله وأنه لا شريك له ولا نِدّ ولا نظير ولا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحد. ولا شك أن من التزم بهذا المنهج النبـوي سار على صراط مستقيم، وطريق قويم. وقـوله عـز وجل: ﴿ فلما أحسّ عيسى منهم الكفـرَ قال مَن أنصـاري إلى الله﴾ أي فلما أظهـر اليهـود الكفـر بعيسـى عليـه السـلام، وأصرّوا على عـدم الإيمان والانقيـاد له، وفعلـوا معه أفعـالا من كفـرهم به أصبح يحسّ معهـا أنهم لن يؤمنـوا به وأنهم مصمّمون على قتله، وتمالأوا مـع الرومان الوثنيين عليـه قال عيسى عليه السـلام موجّها كلامه للحـواريين: من أنصاري إلى الله؟ أي مَن أنصاري في الـدعوة إلى إخلاص العبـادة لله وحده وتأييـد دين الله، وإعلاء كلمة الله، ومما يدلّ على أنّ كلامه كان موجّها إلى الحواريين قوله تبارك وتعالى في سورة الصـف: ﴿يا أيها الذيـن آمنوا كونـوا أنصار الله كما قـال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾. وقوله عز وجل: ﴿قال الحواريون نحن أنصـار الله﴾ أي قال السابقون الأولون من أتباعه عليه السلام: نحن أنصار الله بتـأييدك في الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحـده لا شريك لـه، وإعـلاء كلمـة الله، والتمسك بـدينـه، والالتـزام بشرعه، والـوقوف عنـد حدوده، والسّير على الصراط المستقيـم. والحواريون جمع حـواريّ، والحواريّ في الأصل هـو الـوزيـر أو من يصلح للخـلافـة أو الناصر، أو الخالص، أو هو ناصر الأنبيـاء، أو القَصّار لأنه يُحَوِّر الثياب أي يُبَيِّضها، وذكـر البخاري في صحيحـه عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: وسُمّي الحواريون لبياض ثيـابهم. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «إنّ لكل نبي حـواريًّ، وإن حواريّ الـزبيرُ بن العـوام». والمتبادر من القـرآن العظيم

يشعر أن الحواريين هم السابقون الأولون من أمة عيسى عليه السلام وكبار أصحابه وخواصّهم رضي الله عنهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الحواريين في كتابه الكريم في مواضع، فذكر ما ألقى الله عز وجل في نفوسهم من المسارعة إلى الإيمان بعيسى عليه السلام وتأييده ونصرته وتصديقه فيما جاء به عن ربه عز وجل حيث يقول: ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أي ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم تصديق عيسى ابن مريم، ولا شك أنهم ليسوا بأنبياء ولا معصومين من الخطأ، ولذلك ذكر الله عز وجل عنهم أنهم قالوا لعيسى ابن مريم: هل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السماء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون* ربّنا آمنّا بما أنزلتَ واتّبَعْنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي صدّقنا بالله واشهد أنت يا عيسى علينا بأننا مسلمون حنفاء لله غير مشركين به، فنحن على ملتك وملة أبيك إبراهيم خليل الرحمن، وفيه لفت انتباه نصارى نجران وغيرهم إلى بطلان مذهب من أشرك بالله أو قال: اتخذ الله ولدا، وتصديقٌ لرسوله محمد ﷺ الذي جاء بدين الإسلام، الذي هو دين جميع النبيين والمرسلين عليهم السلام، وقوله تعالى: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وهذا خبرٌ من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا: ﴿ربنا آمنّا﴾ أي صدّقنا ﴿بما أنزلت﴾ يعني بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك، ﴿واتّبعنا الرسول﴾ يعني بذلك صِرْنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به، وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك، وقوله: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ يقول: فأَثْبِتْ أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقروا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلك، واتّبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأَحِلّنا محلّهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصدّ عن سبيلك،

وخالف أمرك ونهيك، يُعرّف خلقه جل ثناؤه بذلك سبيل الذين رضي أقوالهم وأفعالهم ليحتذوا طريقهم، ويتّبعوا منهاجهم، فيصلوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذّب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة، في دعواهم على أنبياء الله أنهم كانوا على غيرها، ويحتجّ به على الوفد الذين حاجّوا رسول الله ﷺ من أهل نجران بأنّ قِيلَ مَن رضي الله عنه من أتباع عيسى كان خلاف قِيلِهم، ومنهاجهم غير منهاجهم اهـ

وقال ابن كثير رحمه الله: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأَشَجّ حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن سِمَاك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ قال: مع أمة محمد ﷺ، وهذا إسناد جيد اهـ، ولا شك أن أمة محمد ﷺ سيشهدون للأنبياء يوم القيامة بأنهم بلّغوا أممهم، بعد أن يشهد كلّ نبي على أمته أنه بلّغهم رسالة الله التي أرسله بها، ويكون رسول الله ﷺ شاهدا على أمته كما قال عز وجل: ﴿وكذٰلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ وقد ذكرت في تفسيرها ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُدعَى نوحٌ عليه السلام يوم القيامة فيقول: لبيك وسَعْدَيْك يا رب، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمّته، فيشهدون أنه قد بلّغ، ويكون الرسول عليكم شهيدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وكذٰلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

قال تعالى : ﴿ومَكروا ومكَـرَ الله والله خيرُ الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفـروا وجاعلُ الذين اتّبعوك فوق الـذين كفـروا إلى يوم القيـامـة ثم إليّ مـرجعكم فأحكُم بينكم فيما كنتم فيـه تختلفون* فأما الذين كفـروا فأعذّبهم عذابا شديدا في الـدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين* وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم، والله لا يحبّ الظالمين﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل أن عيسى عليه السـلام قد أحسّ من قومه الكفر وأنهم قد أصرّوا على ضلالهم، وأنـه عليه السلام دعا أتبـاعه إلى تأييد دين الله والاستمساك به وأن الحواريين قد استجابوا له، أشار هنا إلى أن اليهود لعنهم الله لم يقفـوا عند كفـرهم وعنادهم بل تَعَـدَّوْا ذلك إلى الكيد لـه والعمل على التخلص منه بقتلـه، وتعاونـوا في هذا الإثم الـذي عزمـوا عليه مع الـرومان الوثنيين الـذين كـانوا يحكمون فلسطين وقتئـذ، وتمالأوا عليه، واتفـق اليهود والرومان على أخذه والفتك به، فلما أحاطوا بمنزله، وظنّوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله تبارك وتعالى من مكرهم وشرهم وكيدهم، فألقى شبهه على شخص من مبغضيـه فحسبوه عيسى عليـه السلام فأخـذوه، وقتلوه، وصلبـوه، أما عيسى عليـه السلام فقـد رفعه الله إليـه، وخيَّب مكر الكـافرين، وردّ كيـد الكائدين، وفي ذلك يقـول الله عز وجل هنـا في هذا المقام: ﴿ومكـروا ومكر الله والله خير الماكرين* إذ قال الله يا عيسى إني متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكُمُ بينكـم فيما كنتم فيه تختلفون* فأمـا الذين كفـروا فأعذّبهم عذابًـا شديدًا في الـدنيا والآخرة وما لهم نـاصرين* وأمّا الذين آمنـوا وعملوا الصّالحات فيـوفّيهم أجورهم، والله لا يحبّ الظالمين﴾ وهكـذا قضى الله عز

وجل أن ينصر رسُله والمؤمنين، وأن يخزي أعداءه الكافرين، وقد نصّ الله عز وجل على أن عيسى عليه السلام لم يُقْتَل ولم يُصْلَب، وإنما شُبِّه لليهود الذين كانوا يعرفونه أما الرومان الوثنيون الذين جاءوا لأخذ عيسى عليه السلام فما كانوا يعرفونه، وفي بيان مكر الله بهم وتخييب سعيهم، وما ألقى الله عز وجل من شَبَهِ المسيح على الشخص الذي كان يتقرب منه وهو يُبْغضه ويتمالأ مع اليهود والرومان عليه يقول تبارك وتعالى في اليهود: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما* وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وما صلبوه ولّكن شُبِّه لهم، وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه، ما لهم به من علم إلا اتّباع الظنّ، وما قتلوه يقيناً* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيماً﴾. وإن تعجب فعجبٌ أن يصدّق النّصارى اليهودَ في أنّهم قتلوا المسيح وصلبوه وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أنّ عيسى إلّه أو ابن إلّه، كيف يخطر على بال من به أدنى مُسْكَة من عقل أن يعتقد أنّ الإلّه يصلب أو يقتل؟ مع أن إنجيل متى وإنجيل مرقُص يقرّران أنّ الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه، ففي الإصحاح (الفصل) السادس والعشرين من إنجيل متى في الفقرة السابعة والأربعين من هذا الإصحاح يقول: وفيما هو يتكلم إذا يهوذا واحدٌ من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعِصِيّ من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشّعب. وفي الفقرة الثامنة والأربعين: والذي أَسْلَمَه أعطاهم علامةً قائلا: الذي أقبّله هو هو. وفي إنجيل مرقص في الإصحاح الرابع عشر في الفقرة الثالثة والأربعين منه: وللوقت فيما يتكلم أقبل يهوذا واحدٌ من الاثني عشر ومعه جمع كثير بسيوف وعِصِيّ من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ. وفي الفقرة الرابعة والأربعين: وكان مُسَلِّمُه قد أعطاهم علامةً قائلاً: الذي أقبّله هو هو أمسكوه وامضُوا به بحرص. وقد جاء في أناجيل النصارى المعتمدة عندهم

أن الله أوقع الشك حتى في قلوب الحواريين فصاروا يتردّدون هل هذا هو يسوع الذي أُخذ ليُقْتَل ويُصْلَب أو غيره؟ وقد كان بين المسيح عليه السلام وبين يهوذا الإسخريوطي الذي دخل على المسيح ليُسَلِّمه لليهود والرومان شبه كبير فصاروا لا يدرون عن الذي أُخِذ أهو المسيح أم يهوذا الإسخريوطي؟ وقد نقلت الأناجيل الأربعة التي بيد النصارى الآن، وهي مَتَّى ومرقص ولوقا ويوحنا، قولَ المسيح عليه السلام لأصحابه ليلة عَزْمِ أعدائه على تبييته: كلّكم تَشُكُّون فيّ هذه الليلة. كما جاء في الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل مَتَّى في الفقرة الواحدة والثلاثين، وكما جاء في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقص في الفقرة السابعة والعشرين، وقد جاء في إنجيل برنابا التصريح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظنا أنه المسيح لأنه أُلْقِيَ عليه شَبَهُه، وقد ذكر (جورج سايل) الإنجليزي في ترجمته للقرآن في سورة آل عمران في الصفحة الثامنة والثلاثين أن يهوذا الإسخريوطي كان يشبه المسيح في خَلْقه، وذكر عن فرقة من أقدم فرق النصارى وهم «السّيرنثيّون والكوبوكراتيّون» أنهم أنكروا صلب المسيح، وصرّحوا بأن الذي صُلِب هو يهوذا الإسخريوطي الذي كان يشبهه شبها تامّا اهـ والنصارى مطبقون على أن يهوذا الإسخريوطي فُقِدَ بعد حادثة الصلب ولم يظهر في الوجود، وقوله عز وجل: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ أي ودبّر اليهود تدبيرا سيئا لقتل عيسى عليه السلام ودبّر الله عز وجل لحفظ عيسى عليه السلام وصيانته من شر اليهود والرومان، والله تعالى خير المدبّرين، وقد سقت في تفسير قوله عز وجل: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما الاستهزاء والمكر بأن يُظْهِر الإنسان الخير والمراد شرّ فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرّم وأما إذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلا حسنًا، قال

الله تعالى: ﴿ وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمَنَّا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم﴾ فإنّ الجزاء من جنس العمل اهـ وقوله عز وجل: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا﴾ أي وعندما مكر اليهود وجاءوا مع جنود من الرومان لأخذ المسيح عليه السلام لقتله قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام: إني سألقي عليك النوم وأرفعك إلى السماء وأخلّصك من اليهود الكافرين الحاقدين الحاسدين، وجمهور أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى رفع المسيح إلى السماء بجسده وروحه، ويفسرون التوفي في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك ورافعك إليّ﴾ بأنه إلقاء النوم عليه إلى أن رفعه الله إلى السماء على حدّ قوله تعالى: ﴿الله يتوفَّى الأنفسَ حين موتها والتي لم تَمُتْ في منامها﴾ وقوله عز وجل: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي يُنِيمُكم بالليل، ويعلم ما اكتسبتم بالنهار، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجلين تنازعا في أمر نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام فقال أحدهما: إن عيسى ابن مريم توفاه الله ثم رفعه إليه، وقال الآخر: بل رفعه الله إليه حيّا، فما الصواب في ذلك؟ وهل رفعه بجسده أو روحه أم لا؟ وما الدليل على هذا وهذا؟ وما تفسير قوله تعالى: ﴿إني متوفّيك ورافعك إليّ﴾؟ فأجاب: الحمد لله، عيسى عليه السلام حيّ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماما مُقْسِطًا، فيَكْسِرُ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية» وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال، ومن فارقت روحُه جسدَه لم ينزل جسده من السماء، وإذا أُحْيِيَ فإنه يقوم من قبره، وأما قوله تعالى: ﴿إني متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا﴾ فهذا دليل على أنه لم يَعْنِ بذلك الموتَ، إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر

المؤمنـــين فإنّ الله يقبض أرواحهم ويُعْـرَج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصيةٌ، وكذلك قوله: ﴿ومطهّـرك من الذين كفروا﴾، ولو كـان قد فارقت روحُـه جسدَه لكـان بدنـه في الأرض كبدن سـائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء، وقد قـال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وما قتلوه ومـا صلبوه ولَكن شُبِّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شَكّ منه ما لهم به من علم إلا اتّباع الظن وما قتلوه يقينا* بل رفعه الله إليه﴾ فقولـه هنا: ﴿بل رفعه الله إليه﴾ يبيّن أنه رفع بدنـه وروحه كما ثبت في الصحيح أنـه ينزل بـدنه وروحه. إذ لـو أريد مـوته لقال: ومـا قتلوه ومـا صلبوه بل مـات اهـ وقـوله تعـالى: ﴿وجاعِلُ الـذين اتبعوك فوق الـذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ يفيـد أن الله تبارك وتعالى قضى أنّ من آمن بعيسى عليه السلام وصـدّقه وأقر أنه عبدالله ورسولـه وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منـه يعزّه الله ويـؤيّده ويرفـع منزلته فـوق كل كافـر في الحياة الدنيـا فما بالك بما أعـدّه الله للمؤمنين في دار كـرامته، وهـذا كقولـه تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ وكقـوله تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ وكقوله تعالى: ﴿إنـا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقـوم الأشهاد﴾ وكقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنـوا كونوا أنصار الله كما قال عيسـى ابن مريم للحـواريين من أنصاري إلى الله قـال الحواريون نحن أنصار الله فـآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفـرت طائفة فأيّدنـا الذين آمنوا على عـدوهم فأصبحوا ظـاهرين﴾ ولا شك أنـه بعد إرسـال محمد ﷺ الذي نسخ الله بشريعته الشرائع السابقة لا يكـون الإنسان مُتَّبِعًا لعيسى عليه السلام إلا إذا اتّبع محمـدا ﷺ، وقد حكم الله وقضى أن من ادّعى أن عيسى إلّه أو ابن إلّه أو أنّ الله ثالث ثلاثة فهـو كافر مشرك يحرّم الله عليه الجنة، وقد خطب بذلك عيسى عليـه السلام في بني اسرائيل حيث قال الله فيـه: ﴿لقد كفـر الذين قـالـوا إنّ الله هـو المسيح ابن مريم وقـال المسيح يـا بني إسرائيل

اعبدوا الله ربي وربّكم إنه من يُشركْ بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار* لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إلّه إلا إلّه واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون لَيَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ولا يتنافى قوله تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ مع ما قد يحدث للمؤمنين من أن يُهْزَمُوا في حرب أو أن يمسّهم قرح فإن الله تبارك وتعالى قد يبتلي المؤمنين ليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، والمؤمن عزيز بالله في حالة نصره، وفي حال هزيمته، كما قال كعب بن زهير في أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم:

ليسوا مَفَاريح إن نالت رماحُهُمُو قوما وليسوا مَجَازيعًا إذا نِيلوا

وكما قال حسان رضي الله عنه:

نَسْمُو إذا الحرب نالتنا مخالِبُها إذا الزّعانِف من أظفارها خشَعوا

لا يفخرون إذا نالوا عدوّهمو وإن أُصِيبوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ

كأنهم في الوَغَى والموتُ مُكْتَنِع أُسْدٌ بحَلْية في أرْساغِها فَدَعُ

وقوله عز وجل: ﴿ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون* فأمّا الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين* وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين﴾ أي ثم مردّكم إلى الله وحده فيقضي بينكم فيما تنازعتم فيه، حيث آمن المؤمنون وكفر الكافرون، فأما الكافرون فلهم خزي الدنيا والآخرة وما لهم من شافعين، وأما المؤمنون فلهم عزّ الدنيا والآخرة، والله عدو للكافرين.

قـال تعـالى : ﴿ذٰلك نتلـوه عليك من الآيـات والـذّكـر الحكيم* إنّ مثل عيسى عند الله كمثـل آدم خلقه من تراب ثـم قال له كن فيكـون* الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين* فمن حـآجّك فيه من بعد مـا جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنـاءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين* إنّ هٰذا لهو القصص الحقّ، وما من إلٰه إلا الله ، وإنّ الله لهو العزيز الحكيم* فإن تولّوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾

بعد أن ذكر الله عـز وجل ألوانا من صور اصطفـاء آل عمران وبسط قصة ولادة مريم العذراء البتـول، وكفالة زكريـا لها وما كان من شأنه، ومـا دعا به ربّه، وما تفضل الله عز وجل به عليه حيث وهب له يحيى مصدقا بكلمة من الله، ثم بشـارة الملائكة لمريم بمنـزلتهـا عند الله ثـم بشارتها بأن تلـد المسيح بكلمة من الله ثم ذكر صفات المسيح عليه السلام وخلاصة دعوته إلى الله عز وجل وكفر اليهود به ، وإيمان الحواريين به وتأييـدهم له، ومكر اليهود لقتل عيسى عليـه السلام وتنجيـة الله له منهم ورفعـه إلى السماء وما قضى الله عـز وجل به من نصرة أوليائه وإذلال أعدائه، لفت انتبـاه الناس هنا إلى أنه يقص على رسـوله ﷺ القصص الحقّ فيما ذكـره من هـذه الأخبار المتقـدمة فقـال : ﴿ذٰلك نتلـوه عليك من الآيـات والذّكـر الحكيم﴾ أي هـذا الذي قصصنـاه عليك يا محمد عن آل عمران وكيفية ميـلاد عيسى عليه السلام ودعوته نقرؤه ونقصه عليك بما أوحينا إليك من الآيات المتلوة والقرآن العظيم المحكم المتقن الذي لا يتطرق إليـه الشك ولا يناله الارتياب، ثم ضرب مثلا لتقـرير حقيقة إيجاد عيسى عليه السـلام من غير أب فقال تبـارك وتعالى : ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ أي إنّ إيجاد الله عز وجل عيسى من غير أب سَهْلٌ على الله تبارك وتعـالى الذي أوجد آدم من غير

أب ولا أم، فآدم قد خلقه الله تعالى من تراب وقال له: كن، فكان بَشَرا سَوِيًا وإنسانا كريما، فمن أوجد إنسانا من غير أبوين لا يُعْجزُه إيجاد إنسان من غير أب، فمن كان له عقْل فليعقل هذا المثل الحقّ، لأن الأمثال التي يضربها الله عز وجل لا يعقلها إلا العالمون، ولا يستفيد منها إلا المستبصرون، فلو كان عند نصارى نجران أو غيرهم مُسْكةٌ من عقل لأذعنوا للحق، وقوله عز وجل: ﴿كن فيكون﴾ هو شبيه قوله تبارك وتعالى في بشائر مريم بالمسيح: ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إن إيجاده عز وجل للأشياء لا يتوقف على مادة، بل شأنه عز وجل أنه يقول للشيء الذي يريد إيجاده: ﴿كن فيكون﴾ أي فيوجد في الحال بأمر الله عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين﴾ هو تهجين لليهود والنصارى لموقفهم من عيسى عليه السلام حيث فرّط اليهود وأفرط النصارى حيث قامت مذاهبهم فيه على الامتراء والشك والارتياب، وكما قال عز وجل: ﴿ذٰلك عيسى ابن مريم، قول الحق الذي فيه يمترون* ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ وقوله عز وجل: ﴿فلا تكن من الممترين﴾ لا يدل على أن رسولَ الله المعصومَ من الخطايا يقع فيما وقع فيه هؤلاء الممترون، إذ أن من المقرر في علم الأصول أنّ النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، بل المقصود من هذا النهي هنا هو توبيخ الممترين في عيسى عليه السلام على حد قول القائل: إياكِ أعني واسمعي يا جارة. وقوله عز وجل: ﴿فمن حاَجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوْا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ هذه هي آية المباهلة، وهي تشعر بأن البيان عن الحق قد بلغ الغاية القصوى، فمن لم يؤمن بعد هذه الدلائل الواضحة والحُجَج اللائحة كان معاندًا فادْعُهُ إلى المباهلة، وقوله عز وجل:

﴿فمن حآجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي فمن جادلك في عيسى عليه السلام من بعد هذه الدلائل الواضحات والحجج الظاهرات والبراهين الساطعات، وقوله عز وجل: ﴿فقل تعالوا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ أي فقل يا محمد لمن حاجّك في عيسى بعد هذه البينات: أقبلوا وتعالَوْا وهَلُمُّوا نجمع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل أي نتضرّع إلى الله في الدعاء فنجعل لعنة الله على الكاذبين أي نَقُل في دعائنا وضراعتنا وابتهالنا إلى الله: اللهم اجعل لعنتك على الكاذب من الفريقين.

وإنما طُلِبَ ضمُّ الأبناء والنساء في المباهلة لأنه أتمّ في الدلالة على ثقة المباهِل بحاله ويقينه من صدق نفسه حيث يُعَرِّض أعزّته ومن يُقَدّمهم على نفسه للخطر لو لم يكن واثقا من كذب خصمه ولأجل أن يهلك خصمه مع أعزته جميعا لو تمت المباهلة، وهذا من أبرز الأدلة على صدق رسول الله ﷺ وكذب النصارى وغيرهم ممن يفتري على الله الكذب، ولذلك امتنع نصارى نجران عن المباهلة ولم يَرْوِ أحدٌ قط لا من المسلمين ولا من النصارى أنهم أجابوا إلى المباهلة، بل أسلم بعضهم لله رب العالمين ودخلوا في دين الإسلام، فعندما طلب الله تبارك وتعالى من حبيبه ورسوله وسيد خلقه وإمام أنبيائه ورسله محمد ﷺ أن يباهل نصارى نجران بادر رسول الله ﷺ إليهم، وقرأ عليهم آية المباهلة، فخافوا أن يباهلوا رسول الله ﷺ وأيقنوا أنّ ما جاء به هو الحقّ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسّيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعِنَاه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فَلاَعَنَنَا لا نفلحُ نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا، فقال: «لأبعثنّ معكم رجلا أمينا حقّ أمين»

فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرّاح» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة» وفي لفظ للبخاريّ من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث لنا رجلا أمينا، فقال: «لأبعثنّ إليكم رجلا أمينا حقّ أمين» فاستشرف له الناس، فبعث أبا عبيدة بن الجرّاح. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ابعث إلينا رجلا أمينا، فقال: «لأبعثنّ إليكم رجلا أمينا حقّ أمين حَقَّ أمين» قال فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجرّاح. وفي رواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنّ أهل اليمن قَدِموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلا يعلّمنا السنّة والإسلام، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة». هذا وقد قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرَّقّي أبو يزيد حدثنا فرات عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينّه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عِيَانا، ولو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ورأَوْا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية المباهلة هذه بعد سياق حديث أحمد هذا: وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم به، وقال الترمذي: حسنٌ صحيح اهـ وقوله في الحديث: لئن رأيت رسول الله ﷺ، الظاهر أن أبا جهل لعنه الله قال: لئن رأيت محمدا، فعبّر ابن عباس عنه بقوله: رسول الله ﷺ، وهذا من الأساليب العربية الفصيحة ومنه قول الله عز وجل عن اليهود لعنهم الله: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾. وقوله عز وجل: ﴿إنّ هذا لهو القصص الحقّ

وما من إلَـه إلاّ الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ هـذه جملٌ ثلاثٌ اشتملت كل واحـدة منها على ضروب من البـلاغة والفصاحـة في تأكيد الحقيقـة التي تدلّ عليها ، وتثبت أنّ من انحرف عنهـا فقد انحرف عن الصراط المستقيم ، وتبيّن أن هـذه الأنباء التي يقصهـا رسـول الله ﷺ بما أوحى الله إليه من هـذا القرآن العظيم عن عيسى عليه السلام وعن أمـه الصديقة العذراء البتول هي القصص الحقّ الـذي لا يتجـاوز الحقيقـة بحـال ، فمن يسمعـه يكن كمن شـاهد هـذه الأحداث عنـد وقوعهـا ، وأن ما يـدعيه اليهـود لعنهم الله على عيسى وأمـه وما يـدّعيه النصـارى لعنهم الله في عيسى وأمه هـو محض افتراء وقصصٌ مختلق ، ودعـاوى كاذبـة ، وقد أكـد الله تبارك وتعالى هـذا المعنى في قوله عز وجل : ﴿إن هٰذا لهو القصص الحق﴾ بألوان التأكيد حيث أكّده بإنّ واللام واسميـة الجملة ووصف القصص بأنـه الحق . كما أنّ قولـه عز وجل : ﴿وما من إلَه إلا الله﴾ المسوق لتأكيد الـرّد على النصارى الذين جعلوا المسيح وأمـه إلَهين من دون الله ، قد حصر الألـوهيّة الحقّـة في الله وحده على طـريق النفي والإثبات ، فلا إلَه إلا الله ، وقد زاد في تـأكيد ذلك بـ(من) الاستغراقية للتنصيص على العموم إذ من المقرر في علم أصـول الفقه أن النكرة إذا وقعت في سيـاق النفي وجُـرَّتْ بـ(من) كـانـت نصـا في العمـوم واستغـرقت جميع الأفراد ، فقوله عز وجل : ﴿وما من إلَه إلا الله﴾ نصّ في نفي الألوهية عن أي فرد وُصِفَ بها وحصرها في الـواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلـد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، كما أنّ قوله عز وجل : ﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ قد سيقت فيـه أدوات التأكيد التي سيقت في قـوله عـز وجل : ﴿إن هٰذا لهو القصص الحقّ﴾ وقد ذيّلت بقـوله : ﴿العزيـز الحكيم﴾ لتأكيد كمال قـدرته وعزتـه وحكمته ، وفيه تنديـد بالنصارى أيضـا الذين اتخذوا المسيح إلَها وهم يصدّقون اليهود لعنهم الله في دعواهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه . فالإلَه الحق

هو العـزيز الحكيم القاهر فـوق عباده لا يغلبه غالبٌ ولا يهرب منـه هارب، ولذلك قال في مطلع هذه السورة لإبطال شبـه النصارى وتقرير أنه لا إلّه إلا الله: ﴿هـو الذي يصـوركم في الأرحـام كيف يشاء، لا إلّـه إلا هـو العزيـز الحكيم﴾ وقولـه عز وجل: ﴿فإن تولّـوا فإنّ الله عليم بالمفسدين﴾ هـو وعيد وتهديد لمن أدبر عن سماع هذه القوارع والحجج والبراهين بأن الله لهم بالمرصاد ولن يفلتوا من عـذابه. وكان مقتضى السيـاق أن يقال: فإن الله عليم بهم، لكن مقتضى الحال يقتضي وضع الظاهر موضع الضمير لبيان أنه لا يُعْرِض عن دين محمد ﷺ إلا من يـريد الفساد في الأرض كما قـال عز وجل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدُوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾

قال تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون* يا أهل الكتاب لمَ تُحَاجُّون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده، أفلا تعقلون* ها أنتم هٰؤلاء حاججتم فيما لكم به علمٌ فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علمٌ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يباهل مَن عانَدَ الحقّ وأصرّ على أن عيسى إلٓه أو ابن إلٓه ، أمره أن يدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى كلمة الحق التي يعرف كلّ منصف من أهل الكتاب أنّها دعوة جميع المرسلين، وهي إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة وتحريم الشرك بجميع صوره وأن لا يتّخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، ولن يستطيع أهل الكتاب من اليهود أو النصارى أن يكابروا وينكروا أن توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة هو وصية جميع الأنبياء والمرسلين لأقوامهم وأنها دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من الأنبياء والمرسلين، فقد تكرر في التوراة التي بيد اليهود والنصارى أنّ الله إلٓه واحد، ومن ذلك ما جاء في الفقرة التاسعة والثلاثين من الإصحاح الرابع من سفر التثنية : فاعلم اليوم وردّد في قلبك أنّ الربّ هو الإلٓه في السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ليس سواه. وفي الإصحاح الخامس من سفر التثنية في الفقرات السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة : أنا هو الربّ إلٓهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورةً مّا مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ لأني أنا الرّب إلٓهك إلٓه غيور. وفي

إنجيل متّى في الإصحاح الثاني والعشرين في الفقرة الواحدة والثلاثين والثانية والثلاثين: أفما قرأتم ما قيل لكم من قِبَل الله القائل: أنا إلّه إبراهيم وإلّه إسحاق وإلّه يعقوب. وفي الإصحاح الثاني عشر من إنجيل مرقس في الفقرة السادسة والعشرين: أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العُلَّيْقة كيف كلمه الله قائلا: أنا إلّه إبراهيم وإلّه إسحاق وإلّه يعقوب. وفي الفقرة الثامنة والعشرين إلى الثانية والثلاثين منه: فجاء واحدٌ من الكتبة وسمعهم يتحاورون. فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله: أيّة وصيّة هي أوّل الكلّ؟ فأجابه يسوع: إنّ أوّل كلّ الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرّبّ إلّهنا ربّ واحد وتحبّ الرّبّ إلّهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كلّ قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي تحبّ قريبك كنفسك، ليس وصيّة أخرى أعظم من هاتين، فقال له الكاتب: جيّدا يا مُعَلِّم، بالحق قلتَ، لأنه الله واحدٌ وليس آخر سواه. وفي يوحنا في الإصحاح السابع عشر في الفقرة الثانية منه: وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلّه الحقيقي وحدك. فهذه شواهد حقّ في كتب أهل الكتاب تقرر أنّ الله هو وحده لا شريك له المستحقّ لأن يُفْرَدَ بالعبادة والتوحيد، وأنه لا يحل لأحد أن يعبد إلّها سواه، ولما وجه رسول الله ﷺ الدعوة إلى ملوك العالم بعد صلح الحديبية ضمّن كتبه إلى ملوك أهل الكتاب هذه الآية الكريمة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس أن نبيّ الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبّار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دِحْيَة الكلبيّ وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بُصْرَى ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما

كشف الله عنه جنود فارس مشى من حِمْصَ إلى إيلِيَاء شكرًا لما أبلاه الله، فلما جاء قيصرَ كتابُ رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي هاهنا أحدا من قومه، لأسألهم عن رسول الله ﷺ، قال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تِجَارًا في المدّة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، قال أبو سفيان: فوجَدَنَا رسولُ قيصر ببعض الشام، فانْطُلِقَ بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلِيَاء فأُدْخِلْنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس مُلكه، وعليه التّاج، وإذا حوله عظماء الرّوم، فقال لِتُرْجُمانه: سلهم أيهم أقرب نسبًا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم إليه نسبًا، قال: ما قَرَابَةُ ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عمى، وليس في الرّكْب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري، فقال قيصر: أدْنُوه، وأمر بأصحابي فجُعِلُوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبيّ فإن كذب فكَذِّبوه، قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ من أن يَأْثُرَ أصحابي عني الكذب لكَذَبْتُه حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يَأْثُرُوا الكذب عنّي فصَدَقْتُه، ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا، فقال: كنتم تتّهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من مَلِك، قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: فيزيدون أو يَنْقُصُون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتدّ أحدٌ سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل يَغْدِر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مُدّة نحن نخاف أن يغدر. قال أبو سفيان: ولم يُمْكِنّي كلمة أدْخِل فيها شيئا أنتقصه به لا أخاف أن تُؤْثَرَ عني غيرها، قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم، قال: فكيف

كانت حربه وحربكم؟ قلت: كانت دُولاً وسِجالاً، يُدَال علينا المرة ونُدَال عليه الأخرى، قال: فماذا يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، فقال لترجمانه حين قلت ذلك له: قل له: إني سألتك: عن نسبه فيكم فزعمت أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تُبْعَث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا، فقلتُ: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله، قلت: رجل يَأتَمُّ بقولٍ قد قِيلَ قبله، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن لِيَدَعَ الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: هل كان من آبائه من مَلِك؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت يطلب ملك آبائه، وسألتك: أشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟ فزعمت أنّ ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمّ، وسألتك: هل يرتد أحد سَخْطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب لا يَسْخَطه أحد، وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون، وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل وأنّ حربكم وحربه تكون دُولاً ويدال عليكم المرة وتُدَالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة، وسألتك: بماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة النبي، قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظنّ أنه منكم، وإن يَكُ ما قلتَ حَقّا فيوشك أن يَمْلِك موضع قدميّ هاتين، ولو أرجو أن أَخْلُص إليه لتجشّمت لُقِيَّه ولو كنت عنده

لغسلت قدميه. قال أبو سفيـان: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرئ، فإذا فيه: «بسـم الله الرحمن الرحيـم، من محمد عبد الله ورسـوله إلى هِـرَقْل عظيم الروم، سـلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعـوك بدِعَايـة الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسلـم يـؤتـك الله أجـرك مـرتين. فـإذا تَـولَّيْـتَ فعليك إثم الأَرِيسِيّين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمـة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك بـه شيئا، ولا يتخـذ بعضنا بعضـا أربابـا من دون الله، فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته عَلَتْ أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثـر لَغَطُهم فلا أدري ماذا قالوا، وأُمِر بنا فأُخْـرِجْنا، فلما أن خرجت مع أصحابي وخلـوت بهم قلت لهم: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، هذا مَلِكُ بني الأصفـر يخافه. وفي لفظ قال أبو سفيان: فما زلت موقنـا بأمر رسـول الله ﷺ أنه سيظهـر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام، وقد عُثِـرَ في القرن الماضي على كتاب بأحـد أديرة سيناء فيـه: بسم الله الرحمن الـرحيم من محمـد رسول الله إلى المقـوقس عظيم القبط، سـلام على من اتبع الهدى أما بعد: أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين فإن تَوَلَّيْت فإن عليك إثم أهل القبط، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابا من دون الله فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمـون. وقد ذيل بختم: محمد رسول الله. وكـان الختم ثلاثة أسطر، في سطر كلمة «محمد» وفوقها كلمة «رسول» وفوقها كلمة «الله». وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في زاد المعـاد وابن كثير في السيرة النبويـة وغيرهما هذا الكتاب. وقوله عز وجل: ﴿إلى كلمة﴾ المقصود من هذه الكلمة هي الجمل الثلاث التي فَسَّـرَتْها: وهي: أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئـا ولا يتخذ بعضنـا بعضـا أربابـا من دون الله. ومن شـأن العرب أنهم قـد يطلقـون على القصيدة أو الخطبة أو النصيحة كلمةً، كما قـال ابن مالك في أَلْفِيَّتِه: وكِلْمَةٌ

بها كلام قـد يُؤَمّ. أي قد تطلق الكلمة ويـراد ويقصد بها الكلام، وقولـه عز وجل: ﴿فإن تَوَلَّـوْا فقولوا اشهـدوا بأنّا مسلمون﴾ أي فإن أعـرضوا عن دين الإسلام فقولوا لهم: اعترفوا واشهدوا علينـا بأننا مستمسكون بالإسلام وأنكم كافرون مكـذّبون بالمرسلين. وقد كـان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآيـة في الركعة الثـانية من سنـة الفجر كثيرا، فقـد روى مسلم في صحيحه من حـديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كـان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجـر: قولوا آمنـا بالله ومـا أنزل إلينـا، والتي في آل عمران: تعـالوا إلى كلمـة سواء بيننـا وبينكم. ولما ادّعَت اليهود أن إبراهيم عليه السلام منهم، وادّعَت النصارى أن إبراهيم عليه السلام منهم وتخاصموا في ذلك فوبخهم الله تعالى وفضحهم بما يـدلّ على جهلهم واستغـراقهم جميعا في الضـلال حيث قـال: ﴿يـا أهل الكتاب لم تُحَاجُّـون في إبراهيم وما أُنْـزِلَت التوراة والإنجيل إلا من بعـده أفلا تعقلون﴾ وقـوله عز وجل: ﴿هـا أنتم هؤلاء حـاجَجْتُم فيما لكم به علم فلم تُحَاجُّـون فيما ليس لكم بـه علـم والله يعلم وأنتم لا تعلمـون﴾ قـال الفخـر الرازي: يحتمل في قولـه: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكـم به علم﴾ أنه لم يصفهم في العلم حقيقة وإنما أراد أنكم تستجيزون محَاجَّتَـه فيما تَدَّعون علمه فكيف تحاجـونـه فيما لا علم لكم بـه ألبتـة، ثم حقق ذلك بقـولـه: ﴿والله يعلم﴾ كيف كـانـت حـال هـذه الشرائع في المخـالفـة والموافقـة ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ كيفيـة تلك الأحوال اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيرهـا: هذا إنكار على من يُحَاجّ فيما لا علم له به فإن اليهـود والنصارى تحاجّوا في إبراهيم بلا علم ولو تحاجّوا فيما بأيـديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم وإنما تكلمـوا فيما لا يعلمون فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجليتها ولهذا قال تعالى: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

اهـ ولا مـانع أن يشمل قولـه عز وجل: ﴿حـاجـجتم فيما لكم به علـم﴾ ما قـالت اليهود في النصـارى: إنهم ليسـوا على شيء. ومـاقالت النصـارى في اليهود: إنهم ليسـوا على شيء، فقد صدقوا في ذلك وكـان جدالهم على علم فيه.

قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين* إنَّ أولَى النّاس بإبراهيم لَلّذين اتّبعوه وهـٰذا النبيّ والذين آمنوا، والله وليّ المؤمنين* ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضِلّونكم وما يضلّون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾

بعد أن قرّر عز وجل بالبرهان جهل أهل الكتاب الذين يحاجّون في إبراهيم وهم يكفّر بعضهم بعضًا وتدّعي كلّ طائفة منهم أنّ إبراهيم كان على ملّتهم، وهذا يدلّ على غباوتهم وبلادتهم، وكونهم عن العقل والعلم بمَعْزِل، صرّح هنا بما نطق به البرهان المتقدم فقال عز وجل: ﴿ما كان إبراهيم يهوديّا ولا نصرانيا﴾ إذ جميع العقلاء وأهل العلم يعلمون أن إبراهيم عليه السلام متقدم في التاريخ قبل اليهودية وقبل النصرانية فكيف يكون يهوديّا على ملّة اليهود المحدثة بعد موته بأكثر من ألف سنة؟ أو كيف يكون على ملة النصارى، والنصرانية إنما أَحْدِثَتْ بعده بحوالى ثلاثة آلاف سنة؟ ومما تجدر الإشارة إليه هنا كذلك هو أن موسى عليه السلام لم يأت باليهودية، فهذا الاسم مُخْتَرَع بعد موته بزمن طويل، وكذلك جميع أنبياء بني إسرائيل لم يكونوا يهودًا، وكذلك عيسى ابن مريم عليه السلام لم يأت بالنصرانية بل جميع رسل الله من أولهم إلى خاتمهم محمد ﷺ إنما جاءوا بالحنيفية المسلمة المبرّأة من الشرك المنزّهة لله عن النّدّ والنظير والشبيه والسّميّ والولد، وقد بينت في تفسير قوله عز وجل: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هُودًا أو نَصَارَى﴾ أننا لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ إطلاق كلمة اليهود على سبيل المدح، ولم تُستعمل في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ إلا على سبيل الذم، كما بينت هناك أن كلمة النصرانية محدثة، وأنه لا يعرف على التحديد متى أطلقت هذه الكلمة على أهل الإنجيل. ولم توجد هذه الكلمة

في كتب النصارى إلا في أوائل القـرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليـه السلام في عهـد الإمبراطور «تـراجـان» الموجود في العـام السـادس بعد المائة من ميـلاد المسيح عليه السلام، وأنه قد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ مع أنها نسبة إلى نصرانة قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل بفلسطين وتسمى هذه القرية أيضا الناصرة ونصوريـة. وقوله عز وجل: ﴿ولكن كـان حنيفا مسلما﴾ تحقيقٌ لملّة إبـراهيم عليه السـلام التي بعث الله بها جميع النبيين والمرسلين، وقد كـرّر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريـم هذه الحقيقة ليبين للناس كَذِبَ اليهود المدَّعين أن إبـراهيم كـان على ملتهم أو أنهم على ملـة إبـراهيم، وكَـذِبَ النصـارى المدَّعين أن إبراهيـم كان على ملتهم أو أنهم على ملة إبـراهيم حيث يقـول عز وجل في سورة البقـرة: ﴿ وقالـوا كونوا هـودًا أو نصارى تهتـدوا، قل بل مِلَّةَ إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿إنّ إبراهيم كان أمّة قـانتا لله حنيفـا ولم يك من المشركين* شاكـرًا لأنْعُمِه، اجتبـاه وهداه إلى صراط مستقيم* وآتينـاه في الدنيـا حسنة وإنـه في الآخرة لمن الصـالحين* ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿قل صـدق الله فاتبعوا مِلّـة إبراهيم حنيفا ومـا كان من المشركين﴾ وقد ذكرت في تفسير قـوله عز وجل: ﴿قل بل مِلّة إبـراهيم حنيفا﴾ أن أصل الحنيف في الشرع هو المستقيـم على الحق، المائل عن الباطل، ومعنى قـوله: ﴿مسلما﴾ أي منقادًا لأمر الله ملتزما بشرعه، ولا يـراد بالإسلام في هذا المقام الشرعة والمنهاج الذي بعث الله به محمدا ﷺ، لأنها خاصة بأمة محمد ﷺ كما قال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا﴾ فإن لفظ الإسلام يطلق على هـذا الدين الـذي بعث الله بـه خاتم المرسلين محمـدا ﷺ، ويطلق على الحنيفيـة مِلّـة إبراهيـم وجميع الأنبياء والمرسلين، مـن إخلاص التـوحيـد لله

والإيمان بكتبه ورسلـه وملائكتـه واليوم الآخـر والقدر خيره وشره مـن الله عز وجل واتِّباع الوصايا العشر التي تضمنها قوله تعالى: ﴿قل تعالَوْا أتْلُ ما حَرَّم رَبُّكم عليكم ألاّ تشركـوا به شيئا وبـالوالـدين إحسانا ولا تقتلـوا أولادكم من إملاق نحن نـرزقكم وإياهم ولا تقربـوا الفواحش ما ظهر منهـا وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ذٰلكـم وصّاكم به لعلكم تعقلون* ولا تَقْرَبُـوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه وأوفـوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلّف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُرْبَى وبعهد الله أوفـوا، ذٰلكم وصّـاكم بـه لعلكم تـذكـرون* وأنّ هٰـذا صراطي مستقيما فـاتَّبِعُوه ولا تَتَّبِعُـوا السُّبُل فتَفَـرَّقَ بكم عن سبيله، ذٰلـك وصّاكم بـه لعلكم تَتَّقُون﴾. فهذه الوصـايا العشر اتفقت عليها جميع شرائع النبيين والمرسلين، وتُسَمَّى الإسـلامُ بالمعنى العـامّ، أما الإسلام بـالمعنى الخاص بأمـة محمد ﷺ فهو الـذي جاء بـه القرآن العظيم والسنة النبـوية وهـو أكمل الشرائع وأتمها وأوفاهـا وأبقاها فلن ينسخ حتى ينسخ الليل والنهـار والشمس والقمر، وفي قوله عز وجل في وصف خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿كان حنيفا مسلما وما كـان من المشركين﴾ تنديـد بـاليهود الـذين قـالـوا: عُزَيـرٌ ابن الله، واتخذوا أحبارهم أربـابا من دون الله، وشبّهوا الله بخلقـه، وتنديد بالنصـارى الذين قـالوا: المسيح ابن الله، وجعلـوه وأمّـه إلٰهين من دون الله وقـالوا: الله ثـالـث ثلاثة، واتخذوا رهبانهم أربـابا من دون الله، إذ كلّ من أشرك بالله لم يكن على مِلّة إبراهيم لأن إبراهيم عليه السلام لم يك من المشركين، وقد سقت قريبا في تفسير قولـه تبارك وتعالى: ﴿قل يـا أهل الكتاب تعـالَوْا إلى كلمةٍ سـواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذ بعضنـا بعضا أربابا من دون الله﴾ كثيرا من نصوص التوراة التي بِيَدِ اليهود والنصارى والأناجيل التي بِيَدِ النصارى المقـررة بأن الله إلٰه واحد لا شريك له، فهـذه النصوص تكذب

اليهود والنصارى الـذين أشركوا بالله فيما يزعمونـه أنهم على ملّة إبراهيم أو أن إبراهيم على ملّتهم، لأنه لا يكون على ملّة إبراهيم إلا من أخلص التوحيد لله عز وجل فهم أولى النـاس بإبراهيم عليه السـلام ولذلك قال عـز وجل هنا: ﴿إنّ أَوْلَى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهٰذا النبيّ والذين آمنوا﴾ أي إنّ أحقّ الناس بـإبراهيم عليـه السلام ثلاثـة أصنافٍ من النـاس، الصّنف الأول هم الذين آمنـوا بإبراهيم عليـه السلام عندمـا بعثه الله عز وجل واتبعـوا شريعته حتى بعث الله عـز وجل بعده رسـولا بشريعة جـديدة خـاصة بـه وبقومـه، والصنف الثاني شخص واحـد هو محمد ﷺ الذي جعله الله عـز وجل أشبه الناس بإبـراهيم عليه السـلام خَلْقًا وخُلُقًـا وهو دعـوة إبراهيم عليـه السلام حيث قـال: ﴿ربنا وابعـث فيهم رسولا منهم يتلـواْ عليهم آيـاتك ويعلمهم الكتـاب والحكمة ويـزكيهم إنك أنت العزيـز الحكيم﴾ أما الصنف الثـالث فهم عامّة المؤمنين الصادقين من أتباع الأنبياء والمرسلين لأنهم جميعا على نَهْج ملّة إبراهيـم عليه السلام، حيث يؤمنـون بالله وكتبه ورسله ومـلائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره وهم منقادون لأمر الله عـز وجل وقّافون عند شرعه، مؤتمرون بأوامره منزجرون عـن زواجره. وقوله عز وجل: ﴿والله وليّ المؤمنين﴾ أي والله عـز وجل نـاصر المؤمنين ومعينهم على عـدوهم، ومـوفّقهم للخير ومكرمهم ومعاملهم بجـوده وإحسانه، وقوله عـز وجل: ﴿ودّت طائفة من أهل الكتاب لـو يضلّونكم ومـا يضلّون إلا أنفسهم ومـا يشعرون﴾ هـو تنبيه للمؤمنين إلى حرص طائفة من أهـل الكتاب من اليهود والنصارى على الصّدّ عن سبيل الله وأنهم لم يكتفوا بما هم عليه من العدول عن الحق والإعراض عن قبـول الحجج والبراهين بل يجتهـدون في إضـلال المؤمنين المستجيبين لمحمـد رسـول الله ﷺ بإلقاء بعض الشبهـات، كقولهم: مـا فائدة إرسـال محمد مـا دامت التوراة موجـودة ومحمد مُقِرٌّ بها؟ وقد تجاهلوا أن محمـدا ﷺ قد بعثه الله

عز وجل بالشريعة الكاملة الصالحة لجميع الأمم والشعوب، الناسخة لما سواها من الشرائع السابقة، وقد بشّر به النبيون والمرسلون حتى وقف آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل يبشر به ويقول: ﴿إنّي رسول الله إليكم مُصَدِّقا لما بين يديّ من التوراة ومُبَشِّرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وقد أكد الله تبارك وتعالى حرص كثير من أهل الكتاب على إضلال المؤمنين وصدّهم عن سبيل الله حيث يقول عز وجل: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يَرُدُّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ وقوله عز وجل: ﴿وما يُضِلّون إلا أنفسهم﴾ أي وما يعود تمنّيهم إضلال المسلمين إلا على أنفسهم بالوبال والهلاك؛ لأن الله وليّ المؤمنين يثبّتهم على الهدى ويمكّن الحقّ من قلوبهم فلا يضرهم كيد اليهود وغيرهم من أهل الكتاب ولا يحيق المكر السَّيِّئ إلا بأهله، والإضلال يرد في اللغة بمعنى الإلقاء في الحيرة والشك والريبة، كما يرد بمعنى الإهلاك والتضييع، ومنه قول النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني:

فآب مضلّوهُ بعينٍ جليّةٍ وغُودر بالجولان حَزمٌ ونائل

أي فرجع مهلكوه وقاتلوه أو فرجع دافنوه الذين أضلوه في الأرض حيث يصير ترابًا منثورًا وأجزاء متفرقة مبعثرة، ومنه قوله عز وجل: ﴿وقالوا أإذا ضَلَلْنا في الأرض أإنّا لفي خَلْق جديد﴾، فاليهود ومَن على شاكلتهم يحرصون على إيقاع المسلمين في الحيرة والشك والارتياب ويودّون إهلاكهم وتضييعهم، والله يحفظ المؤمنين من شرورهم، ويرُدّ كيد اليهود إلى نحورهم، وقوله عز وجل: ﴿وما يشعرون﴾ أي إنهم لا يدرون ولا يعلمون أن هذا يضرهم وحدهم ولا يضر المؤمنين، وفي هذه الآية الكريمة بشارةٌ من الله عز وجل لأصحاب حبيبه ورسوله محمد ﷺ برسوخهم في الإيمان وثباتهم على

دين الإسلام بعون من وليهم فاطر السموات والأرض، وأنهم لن يصيبهم من مكر اليهود سوءٌ، وأن اليهود لعنهم الله مخذُولون مدحورون، وما أحسن قول الشاعر:

إذا كان عون الله للعبد مُسْعِفًا تَأَتَّى له من كل شيء مرادُه

وإن لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولُ ما يقْضِي عليه اجتهادُه

قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون* يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون* وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجهَ النّهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون* ولا تُؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم قل إنّ الهدى هدى الله أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم أو يحاجّوكم عند ربّكم، قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم* يختصّ برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل حرص طائفة من أهل الكتاب على إضلال المؤمنين، وبشّر المؤمنين بأنه وليّهم وناصرهم ومحبط كيد أعدائهم، وبّخ هنا أهل الكتاب من اليهود والنصارى على استمرارهم على الكفر، وعدم إيمانهم بما يشاهدونه من المعجزات التي أيّد الله تبارك وتعالى بها رسوله ﷺ، القاطعة بأنه رسول ربّ العالمين، وقوله عز وجل في مخاطبتهم: ﴿يا أهل الكتاب﴾ ليس مدحًا لهم بل هو غايةٌ قصوى في الذم والتوبيخ، إذ المفروض فيمن كان من أهل الكتاب أن يكون أسرع الناس إلى تصديق رسل الله المؤيّدين بالمعجزات، فإذا لم يذعنوا للآيات التي يؤيد الله بها المرسلين كان وصفهم بأنهم أهل الكتاب للتوبيخ والتنديد والذم، كما تقول لمن ينحرف في سلوكه وكان أبوه صالحا: يا ابن الرجل الصالح، وأنت لا تريد الثناء على هذا المنحرف وإنما تريد توبيخه على عدم سلوكه منهج أبيه في الصلاح والاستقامة، ولذلك كرر الله تعالى في هذا المقام نداء اليهود والنصارى بأهل الكتاب توبيخا لهم وتقريعا لأنهم صاروا كمثل الحمار يحمل أسفارا، كما قال عز وجل: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثمّ لم يَحْمِلُوها كمَثَلِ الحمار يحمل أسفارًا، بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم

الظّالمين﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون﴾ شروع في بيان ألوان من قبائح محاولاتهم إضلال المسلمين والصدّ عن سبيل الله، وقد رسم إخوان القردة والخنازير مخطّطاتٍ للكيد للإسلام يخلطون فيها الحق بالباطل، ويكتمون ما يعلمونه من صدق رسول الله ﷺ، واللّبس: الخلط، كما تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿ولا تلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ وقد كان من مخطَّطَاتهم عندما يُجَابَهُون بالآيات والبراهين وبما يُذَكَّرون به من الأوس والخزرج أنصار رسول الله ﷺ حينما يقول الأنصار لليهود: ألستم أنتم الذين كنتم تذكرون لنا قرب ظهور النبي وأنكم ستؤيدونه وتقاتلوننا معه؟ فخطّط لهم شياطينهم أن يقولوا: نحن نقرّ أنه رسول الله ولكنه مبعوث إلى العرب وحدهم. ولا شك أن هذا من خلط الحق بالباطل، فإقرارهم بأنه رسول الله هو حق، وقولهم بعدم عموم رسالته هو باطل، وهم يعلمون بطلانه لكنهم رأوا أن هذا اللّون من التّلبيس والتخليط أخطر أثرًا في الصد عن دين الإسلام من إنكاره جملة وتفصيلاً، لأن الغِرَّ وبخاصة مِن رِعَاعِهِم يظنون فيهم الإنصاف إذا قالوا ذلك فلا يدخلون في دين الإسلام اعتقادا منهم أن محمدا رسول الله إلى العرب خاصّة، وقوله عز وجل: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمِنُوا بالذي أُنْزِلَ على الذين آمنوا وَجْهَ النّهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ هذه مكيدة خبيثة، ودسيسة خطيرة، ومكر كُبّارٌ رسموهُ وقرّروه ليلبّسوا على ضعفاء العقول من رعاعهم وغيرهم أمر دينهم حيث اشْتَوَرُوا بينهم أن يظهروا الإيمان بالنبي محمد ﷺ أوّل النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ليشيع بين المسلمين أن هؤلاء اليهود آمنوا ودخلوا في دين الإسلام فتتوجه الأنظار إليهم فإذا جاء آخر النهار أظهروا الكفر بمحمد ﷺ ورجعوا إلى اليهودية ليقول الرّعاع الجهلة من الناس: إنما رجع هؤلاء إلى

اليهـودية بسبب اطـلاعهم على عيب في الإسلام ونقيصـة في دين المسلمين، فيقع في قلوبهم الشك في الدين الحق وينصرفـون عن دين الإسلام، وفي قوله تعالى: ﴿طـائفة من أهل الكتاب﴾ ولم يقل: طـائفة منهم، مع أن مقتضى السيـاق أن يأتي بضميرهم لسبق ذكـرهم حيث قـال: ﴿يـا أهل الكتـاب لم تلبسون الحقّ بالباطـل وتكتمـون الحـقّ، وأنتم تعلمـون﴾ لكـن مقتضَى الحـال يقتضـي التنصيص على أنّ هـذه الطـائفة الماكـرة الخبيثـة من أهل الكتاب المنحرفين عن الحق وفي قـوله تعالى: ﴿آمِنُوا بالـذي أُنْزِلَ على الذين آمنوا﴾ تنصيصٌ على أن هؤلاء اليهود الماكرين يوافقون على أن أتباع محمد ﷺ هم المؤمنون وهـذا من فضل الله على المسلمين حيث أطبقت الأمم والشعوب من سائر أنحـاء الأرض مع اختلاف أديانهم على أن يطلقوا على أتبـاع رسول الله ﷺ اسم المسلمين وأن دينهم هو دين الإسلام، وهذه آية من آيات الله عز وجل لإظهار دينه على الدين كله ولو كره المشركون. والمراد بوجه النهار أوّله، قال ابن جـرير رحمه الله: وسُمِّي أوّله «وجهًا» لـه لأنه أحسنه وأوّل ما يـواجه النّاظر فيراه منه، كما يقال لأول الثوب «وَجْهُه» وكما قال ربيع بن زياد:

من كـان مسـرورا بمـقتل مالك ... فليأت نسـوتَنَا بوجـه نهـار اهـ

وهـذا البيت من قصيدتـه في رثـاء مالـك بن زهير حينما قُتِلَ، وبعد هـذا البيت يقول ربيع بن زياد:

يجد النسـاء حواسِـرًا يَنْدُبْـنَه ... يبكين قبْل تَبَلُّج الأسـحـار

قد كُنّ يَخْبأْن الوجـوه تسـتّرا ... فاليـوم حيـن بَـرَزْن للنُّظّـار

وكما قال لبيد:

وتضيء في وجه النهـار منيـرةٌ ... كجُـمانةِ البحـريّ سُلَّ نظامها

وقد روي: وتـضيء في وجه الظـلام الخ، وقوله عز وجـل: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ هـذه صورةٌ أخـرى من صـور صـدّ اليهود رعـاعهم عن

الدخول في دين الإسلام حيث قالوا لهم: لا تصدقوا نبيّا من غير بني إسرائيل المقرين بكتب العهد القديم وحده، فلا تصدقوا القرآن ومن أنزل عليه ولا تصدقوا أهل الإنجيل لأنه زيادة على الكتب التي يقرّ بها اليهود، وفي ذلك زيادة تضليل لأتباعهم ورعاعهم حيث أظهروا أنه ليس التمييز العنصري وحده هو المانع لهم عن الدخول في الإسلام بل المانع هو أنهم لن يقروا إلا لمن اقتصر إقراره على التوراة وملحقاتها من الكتب المنسوبة للأنبياء قبل عيسى، وقوله عز وجل: ﴿قل إنّ الهدَى هُدَى الله﴾ أي أخبر يا محمد اليهود والنصارى وغيرهم بأنّ دين الله الذي بعث به محمدا ﷺ هو الدين الحق، وهو سبيل الرشاد، ومن وفّق إليه وسار على منهجه فقد هُدي إلى الصراط المستقيم، لأنه دين الله الذي رضيه لخلقه، وحتّمه على عبيده وصانه من التحريف والتبديل، بخلاف اليهودية والنصرانية والوثنية فإنها هوى وليست هُدًى، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فمن يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليّا مرشدا، ولذلك أمر الله عز وجل المؤمنين بأن يسألوه كل يوم مرات متعددة يقولون في كل ركعة من ركعات صلواتهم: ﴿اهْدِنَا الصراط المستقيم* صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وقوله عز وجل: ﴿أن يُؤْتَى أحَدٌ مثلَ ما أوتِيتُم أو يُحاجُّوكم عند ربكم﴾ تنديدٌ باليهود الذين يحسدون المسلمين على نعمة الله عليهم بما آتاهم من القرآن العظيم المنزّل على النبي الكريم محمد ﷺ وبما ألهمهم من الحجة البالغة على اليهود الذين يكرهون أن يتفضّل الله على أحد سواهم، أو يُنَزَّل على أحد من غير بني إسرائيل كتابٌ يفضحُ سلوكهم، ويقيم الحجة على انحرافهم وتبديلهم وتغييرهم وحقدهم وحسدهم، وقوله عز وجل: ﴿قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس إنزال رحمة الله على خلقه بأيديكم، تَحْجُرُونها على من تشتهون، إنما الأمور كلّها بيد الله

وحـده، تحت تصرفه ومشيئتـه، وعلمـه وحكمتـه ورحمته، يهدي من يشـاء فضلا ويضل من يشـاء عدلا، وهو أعلم حيث يجعل رسالتـه، وكما قال عز وجل: ﴿قل اللهم مـالك الملك تؤتي الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن تشـاء وتعز من تشـاء وتذل من تشـاء بيدك الخير إنك على كل شيء قـدير﴾ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿والله واسع عليم﴾ أي والله عز وجل ذو سعةٍ بفضله على من يشاء أن يتفضل عليـه من عباده وهـو عز وجل ذو علم بمن هـو أهلٌ منهم للفضل وله الحجة البالغة والحكمة التامـة، وقوله عز وجل: ﴿يختص برحمته من يشـاء والله ذو الفضل العظيم﴾ أي والله عـز وجل يجعل رحمته مقصـورة على من يشاء ويختار من عباده، فيستعمل من يرضى عنه في طاعته، ويخصه بهدايتـه، وييسّر له أسبـاب مـرضاتـه ويجعله أهـلا لتنـزّل رحمته، بخـلاف المنحرفين عن دينه الصادّين عن سبيله، فإنه يخذلهم ولا يؤيدهـم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله عـز وجل: ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾: ولـذلك حكمـةٌ ورحمةٌ هـو أعلم بها، كما خصّ بعض الأبـدان بقُوى لا تـوجـد في غيرها وبسبب عـدم القـوة قد تحصل لـه أمـراضٌ وجـوديّـة، وغير ذلك من حكمتـه اهـ وقـال ابن كثير رحمه الله في تفسيرهـا: أي اختصكم أيها المؤمنـون مـن الفضل بما لا يُحَدّ ولا يُـوصَف بما شرّف به نبيكم محمـدا ﷺ على سائر الأنبياء، وهـداكم به إلى أكمل الشرائع اهـ ولا شك أن توفيق الله عز وجل لبعض عباده لأن يعملوا بعمل أهل الجنة حتى يموتوا على الإسـلام، ويمنّ عليهم بجنات النعيم هو أبـرز مثال لرحمة الله وفضله، ولذلك سمّى الله عز وجـل الجنة رحمة، حيث يقول: ﴿ يُدْخِلُ من يشـاء في رحمتـه، والظـالمين أعـدّ لهم عـذابـا أليما﴾ وقـد روى مسلم في صحيحـه من حديث أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «احتجّت الجنة والنـار فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، وقـالت الجنّة:

فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما: أنّك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وأنك النـار عذابي أعذّب بك من أشاء، ولِكِلَيْكُمَا عليّ مِلْـؤُها».

نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفـاتـه العُلَى أن يـدخلنـا في رحمتـه وهـو أرحم الراحمين.

قال تعالى : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائما، ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون* بلى من أوفى بعهده واتّقى فإنّ الله يحبّ المتّقين* إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى بعض قبائح أعمال اليهود وأقوالهم ذكر عز وجل هنا أن أهل الكتاب ليسوا سواءً، فإن بعضهم شرح الله صدره للحق وهداه إلى الصراط المستقيم كعبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه، وهؤلاء المهتدون من أهل الكتاب صاروا مثلا أعلى في الأمانة، أما من استمر على عناده وضلاله واغتراره بما سطّره أحبار السوء لهم في التلمود من أن جميع ما تحت يد الأميين من المال هو ملك لليهود وعليهم أن يستردّوه بكل حيلة، وأن يستخلصوه من الأميين بكل طريق، من سلب ونهب وربا وسرقة ودعارة وخيانة، مهما قلّ هذا المال أو كثر، وقد سقت بعض النصوص التلمودية التي ملأت قلوب اليهود شرّا وبغيا وافتراءً واغترارا عند تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لن تمَسَّنا النار إلا أياما معدودة﴾، وأن هذا التلمود قد اشتمل على أسوأ مبادئ التمييز العنصري ومن نصوصه أن سرقة اليهودي أخاه اليهوديّ حرام ولكنها جائزة بل واجبة مع الأمى؛ لأن كل خيرات العالم خلقت لليهود فهي حق لهم، وعليهم تملّكها بأي طريق، وفي التفريق بين من هداهم الله عز وجل من أهل الكتاب فتخلّصوا من المبادئ التلمودية واستجابوا لدين الإسلام، وصاروا قدوة في حفظ الأمانة وصيانتها وبين من خذلهم الله عز وجل فاستمروا على ضلالهم وانغماسهم في المبادئ التلمودية

التي تحضهم على الخيانة، يقول الله عز وجل هنا: ﴿ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَأْمَنْه بقنطار يُؤَدِّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ليسوا سواءً، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ أي إن تأتمنه على المال الكثير بإيداعه عنده يحافظ لك عليه ولا يخنك فيه ويسلّمه لك متى طلبته منه، ومعنى: ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما﴾ أي ومنهم الذي إن تأتمنه على المال مهما قلّ حتى ولو كان دينارًا واحدا يخنك فيه ولا يحافظ لك عليه، ولا يسلّمه لك متى طلبته إلا أن تلحّ عليه بالتقاضي والمطالبة والتمكن من استرداده بقهر وغلبة بواسطة الحاكم أو نحوه مما لا حيلة لليهوديّ في مقاومته، وهذه خصال شرّ الناس، وقد ذكر رسول الله ﷺ في صفات أهل النار الخائنَ الذي لا يخفى له طمع وإن دقّ إلا خانه، كما جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، وفيه: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسِطٌ متصدّق موفّقٌ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قُربى ومُسلم، وعفيفٌ متعفّفٌ ذو عيال» قال: «وأهل النار خمسةٌ: الضّعيف الذي لا زَبْرَ له الذين هم فيكم تبعًا لا يبتغون أهلا ولا مالا، والخائن الذي لا يَخْفَى له طَمعٌ وإن دق إلا خانه، ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك» وذكر البخل أو الكذب، والشّنظير الفحّاش. وقوله في الحديث: «الذي لا زَبْرَ له» أي لا عقل له يحفظه من الشر وقوله: «لا يبتغون أهلا ولا مالا»، أي لا يسعون في تحصيل منفعة دينية ولا دنيوية ولا نفسية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأمّيّن سبيل﴾ أي إنّ تأصّل الخيانة في نفوسهم إنما هو بسبب

اعتقادهم أنه لا إثم عليهم ولا حرج فيما يظلمون به مَن سِوَى اليهود ممن يطلقون عليهم اسم الأمميين سواء كانوا من الأميين العرب أو كانوا من العجم من غير أهل الكتاب، وتخصيص ما ذكروه من رفع الحرج عنهم في أذى الأميين لا يمنع من اعتقادهم رفع الحرج عنهم في أذى غير العرب الأميين؛ لأن القاعدة الأصولية أن تخصيص الشيء بالذكر لا ينفي الحكم عما عداه إذا كان القيد قد خرج للغالب أو لبيان الواقع. ونصوص التلمود وهو كتاب فقههم الذي وضعه لهم أحبار السوء منهم لا يفرّق في وجوب إلحاق الأذى بين العرب والعجم، فالجميع عند اليهود أمميون ويطلقون عليهم أنهم كلاب وخنازير، مع أن اليهود هم إخوان القردة والخنازير لعنهم الله وقبحهم في الدنيا والآخرة وأهلك أعوانهم وأنصارهم، وإخبار الله تبارك وتعالى عن مقالة اليهود هذه في هذه الآية الكريمة من المعجزات لأنها من خواص أسرارهم لعنهم الله ولا تزال إلى اليوم مجهولة عند الكثير من علماء العرب والعجم الذين لا يكادون يعرفون عن التلمود شيئا، بسبب حرص اليهود على كتمان أسرارهم كما هو شأنهم في أسرار الماسونية وما يعرف في عصرنا باسم (بروتوكولات حكماء صهيون). والعجيب أن ما يدبرونه من مخططات إجرامية شريرة ضدّ الإنسانية ينسبونه إلى الله عز وجل افتراءً عليه جل وعلا ولذلك ذيّل الآية الكريمة هنا بقوله عز وجل: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ وقوله: ﴿وهم يعلمون﴾ أي وهم مستيقنون أن هذا الذي يزعمونه من رفع الحرج عنهم في أذى الأميين ليس موجودا في التوراة التي بأيديهم، ولا في كتب الأنبياء الملحقة بالتوراة، وإنما هو من وضع أحبار السوء وكَهَنَةِ الأذى من شيوخهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإنّ الله يحب المتقين﴾ أي ليس الأمر كما يدعي هؤلاء اليهود من أنه ليس عليهم في أموال الأميين حرج ولا إثم ولكن من أوفى بعهده وأدّى

الأمانة لمن ائتمنه ، وخاف الله في سره وعلانيته ، ووقف عند حدوده ، وصدّق رسله وآمن بما جاء به جميع الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم خاتمهم و إمامهم وسيدهم محمد رسول الله صلى الله عليهم جميعا وسلم فإنه يكون أهلا لمحبة الله عز وجل لأنه يكون في زمرة المتقين والله يحب المتقين ، أما دعوى اليهود بأنهم أبناء الله وأحباؤه وهم ينقضون العهد والميثاق ويخونون الأمانة فهي دعوى كاذبة وهم بها يفترون على الله الكذب ، ويستحقّون بها غضب الله وسخطه ومقته ولعنته . وقوله عز وجل : ﴿إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولَئك لا خَلاَقَ لهم في الآخرة ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم﴾ أي إنّ الذين يستبدلون ويعتاضون ويأخذون ثمنا قليلا في نظير نقضهم لعهد الله الذي أخذه على الأنبياء والمرسلين وألزمت به الرسل أممهم ، بأن يصدّقوا كل نبي يرسله الله إليهم ، ويقفوا عند حدود الله ، ويؤدّوا الآمانات إلى أهلها ، ولا يفتروا على الله الكذب ولا يحلفوا بالله إلا وهم صادقون ، أولئك الذين يستبدلون ويعتاضون ويأخذون ثمنا قليلا من حطام الدنيا الفاني وعرضها الزائل ، عوضًا عن تركهم عهد الله الذي عهد إليهم ووصيته التي أوصاهم بها في الكتب التي أنزلها الله إلى أنبيائه ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك لاحظ لهم في جنات النعيم التي يزعمون أنها لهم خاصة ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة بما يُدْخِل عليهم الأملَ في النجاة من النار، ولا بما يشعرهم في تخفيف العذاب عنهم ، ولا ينظر إليهم بعين رحمته وجوده وإحسانه ، ولا يزكيهم أي ولا يطهّرهم من دنس ذنوبهم ورجس كفرهم ، ولهم عذاب أليم أي عقاب موجع في نار جهنم ، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولَئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ أنّ أهل السنة

والجماعة يثبتون صفة الكلام لله عز وجل على الوجه الذي يليق برب العزة ذي الجلال، ومن كلامه تبارك وتعالى القرآن الذي سمعه جبريل من الله عز وجل وألقاه على رسول الله محمد ﷺ، وسقت أدلة كثيرة صريحة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على صحة مذهب أهل السنة والجماعة وبطلان مذهب أهل الأهواء المنكرين إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين صَبْرٍ يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان» فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ إلى آخر الآية، فدخل الأشعث بن قيس فقال: ما يحدّثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا، قال: فيّ أُنْزِلَتْ، كانت لي بئر في أرض ابن عمّ لي، فأتيت رسول الله ﷺ فقال: «بيِّنَتُكَ أو يمينه» قلت: إذًا يحلف عليها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين صبْرٍ وهو فيها فاجرٌ يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان». وقد أورده البخاري في تفسير هذه الآية من سورة آل عمران، وفي كتاب الأيمان والنذور في باب قول الله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ وقوله جل ذكره: ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضَةً لأيمانكم أن تَبَرُّوا وتَتَّقُوا وتُصْلِحوا بين الناس والله سميع عليم﴾ وقوله جل ذكره: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنّ ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ وفي لفظ لمسلم من طريق جامع بن أبي راشد وعبد الملك بن أَعْيَنَ سمعا شقيق ابن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال عبد الله : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ إلى آخر الآية ، وفي رواية للبخاري من حديث عبد الله بن أبي أوفى أنّ رجلا أقام سلعة له في السوق فحلف بالله : لقد أعْطِيَ بها ما لم يُعْطَهُ ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت هذه الآية : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ الآية . والظاهر من سياق القرآن الكريم وهذه الأحاديث الصحيحة أن الآية تحمل على اليهود وعلى من حلف على يمين غموس يقتطع بها حق مسلم ، نظرا لموقعها من السياق ولعموم لفظها .

قال تعـالى: ﴿وإنّ منهم لفريقـا يلوون ألسنتهـم بالكتاب لتحسبـوه من الكتاب ومـا هو من الكتـاب ويقولـون هو من عنـد الله وما هـو من عند الله ويقولـون على الله الكذب وهم يعلمون* مـا كان لبشر أن يؤتيـه الله الكتاب والحكم والنّبوة ثمّ يقول للنّاس كونوا عبادًا لي من دون الله ولّكن كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسـون* ولا يأمركم أن تتّخذوا الملائكة والنبيّين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾.

بعـد أن ذكـر الله تبـارك وتعـالى صـورًا من ضـلالات اليهـود والنصـارى وافتراءاتهم، وما تحاوله طوائف من أهل الكتـاب من وضع مخطّطات إجرامية لصدّ الرّعاع عن الدخول في دين الإسلام، وما طمأن به المسلمين من أنّ هذه المحاولات اليهـودية لن تزعزع مـن عقائد أصحاب رسول الله ﷺ ولن تُـزلزل أقدامهم الراسخة في الحق الثابتة على الهدى، وذكر ما توعّد به الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا، ذكر هنا قاصمة من قواصم ظهور اليهود وعملا بشعا من أعمالهم الملتـوية لبيان شنـاعتهم وتقبيح أمرهم وفظاعـة جرأتهم في الافتراء على الله، والاستهتـار بعقـول النّـاس حيث يقـول عـز وجل: ﴿وإنّ منهم لفـريقا يلـوون ألسنتهم بـالكتاب لتحسبـوه من الكتـاب وما هـو من الكتاب﴾ أي وإن مـن أهل الكتاب لفـريقا أي طـائفة وجماعة وهـم اليهود وبخـاصة من كـان منهم حـول مـدينة رسـول الله ﷺ فإنهم كـانوا يحاولـون الاستـدلال على ما يفترونـه من الكذب وعلى أن الحق معهم بجمل يكتبـونها بأيديهم، ويدخلونها بين صفحات كتبهم الدّينية التي ينسبونها إلى أنبياء بني إسرائيل ثم يأخذون في قـراءة ما كتبـوه بأيديهم على الطريقـة التي يقرؤون بها كتبهم الدينية بليّ ألسنتهم بالتطريب والإتيـان بنغمات صوتية خاصة مع غنّة شديدة ومدّ بالخياشيم ليظنّ من يسمع قراءتهم هذه أن هذا الذي يقرءونه هو

من الكتب التي ينسبونها إلى الأنبياء ، ومع أن هذا اللون من الكذب هو أقبح الكذب وأفحشه وأبشعه فإنهم لم يكتفوا بهذا التضليل والتدجيل بل كانوا إذا انتهوا من قراءتهم لما افتروه قالوا لمن يسمعهم من المسلمين أو رعاعهم : هذا كلام الله المنزّل على أنبيائه . والواقع أنه ليس بكلام الله ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي ويدّعون لمن يسمع قراءتهم لما افتروه أنَّ هذا هو كلام الله المنزل على الأنبياء والمرسلين . وما هو بكلام الله ، وهم يفترون على الله الكذب وهم مستيقنون أنهم كاذبون على الله ، مجترئون في الافتراء ، ولذلك كانوا أقبح الناس جرما وأفحشهم ظلما كما قال عز وجل : ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته ، إنه لا يفلح الظالمون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحِيَ إليّ ولم يُوحَ إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته ، أولَئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته ، إنه لا يُفلح المجرمون﴾ . وكما قال عز وجل : ﴿ومَنْ أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أولَئك يُعرَضون على ربهم ويقول الأشهادُ هُؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين* الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهم بالآخرة هم كافرون﴾ والمراد بالكتاب في قوله عز وجل : ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ هو ما يكتبونه بأيديهم من عند أنفسهم ، والمراد بالكتاب في قوله عز وجل : ﴿لتحسبوه من الكتاب﴾ أي من كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله ، وكما قال عز وجل : ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هـٰذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً فويلٌ لهم ممّا كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون﴾ وأصل اللّيِّ هو عطف الشيء وتحريفه وإمالته عن

استقامته إلى الاعوجاج، يقال: لويتُ يده إذا فتلْتها، ومنه قول فرعان بن أصْبَح بن الأعرف في ولده مُنازِل:

تحوّل مالي ظالما ولَوى يدي لوَى يَدَهُ الله الذي هو غالبه

ومن ليِّ ألسنة اليهود قولهم لعنهم الله في خطابهم لرسول الله ﷺ: راعنا، وقولهم له ﷺ: السام عليكم، بدل: السلام عليكم، وقد بين الله تبارك وتعالى في جملة انحرافاتهم وسوء أفعالهم وأقوالهم الليّ بألسنتهم حيث يقول عز وجل: ﴿من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَع وراعِنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا في الدين﴾. وقوله عز وجل: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله﴾ كان الكلام من أول السورة إلى هذا المقام الكريم لتحقيق التوحيد وتقرير الرسالة وتقريع أهل الكتاب على شركهم بالله ومخالفة ملة إبراهيم إمام الحنفاء وفضح مخططات اليهود الإجرامية ضد دين الإسلام، الذي هو دين الله الذي ارتضاه لخلقه وبعث به سيد رسله محمدا ﷺ، ولما كان سبب نزول صدر هذه السورة إلى هذا المقام هو ما أثاره نصارى نجران من الشّبه على أن عيسى هو ابن الله وما يزعمه النصارى عامةً من أن عيسى وأمّه إلهان من دون الله بسَطَ الله عز وجل قصة اصطفاء الله لآل عمران وميلاد مريم وعيسى عليهما السلام وأقام الأدلة القاطعة والحجج الثابتة على أن عيسى عبد من عبيد الله وأن الذي أوجده من غير أب هو الذي أوجد آدم من غير أب ولا أم، ذكر هنا ما يؤكّد بطلان ادعاء النصارى أن عيسى إلَهٌ، وأن هذا القول العاطل الباطل من مفتريات النصارى على المسيح ابن مريم عليه السلام حيث يندّد عز وجل بعقولهم مشيرا إلى أن من له أدنى مُسْكة من عقل لا يصدّق أن رجلا من بني آدم يتفضل الله عز وجل عليه بإيتائه الإنجيل، ويرزقه العلم والنبوة ثم يدعو الناس إلى عبادته من دون الله مع أن

أوّل دعوة يـوجهها الرسول إلى قـومه أن يقول لهم : اعبدوا الله مـا لكم من إلّه غيره واجتنبوا الطـاغوت ، ولذلك يقـول عز وجل : ﴿وإذ قـال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلّهين من دون الله قال سبحانك ما يكـون لي أن أقول مـا ليس لي بحق ، إن كنتُ قلتُه فقـد علمتَهُ ، تعلم مـا في نفسي ولا أعلم مـا في نفسك ، إنك أنت علاّم الغُيـوب* ما قلت لهم إلا مـا أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربّكم﴾ والبشر هـو الإنسان . وقوله عز وجل : ﴿ما كـان لبشر أن يؤتيـه الله الكتاب والحكم والنبـوة ثم يقـول للناس كـونوا عبادا لي من دون الله﴾ أي ما يتأتّى في العقل أن يصطفي الله إنسانا ينزل عليه الكتـاب ويرزقـه العلم والنبوة ويـرسله إلى قـومه لتخليصهم من الشرك بـالله فيقـول لهم : اعبدوني وأشركـوا بالله . ويعبّرُ عن هـذا النوع من النفي بـالنّفي التام ، لأن نحو قولك : ما كان لزيد أن يفعل هذا ، يجيء على قسمين : قسم يكـون النّفي فيـه من جهـة العقل ويعبّر عنه بـالنفي التـام أي مـا يتأتى ولا يتصـوّر حـدوثه وحصـولـه ، كهـذه الآية ، لأن الله تعـالى لا يعطي الكتـاب والحكم والنبوة لمن تتأتى منـه هذه المقـالة الشنيعة البشعـة ، ونحوه قولـه عز وجل : ﴿ما كـان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ ونحـو قوله عز وجل : ﴿ومـا كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ والقسم الثـاني يكـون النفي فيـه بمعنى مـا ينبغي ، كقـول أبي بكرٍ الصدّيـق رضي الله عنه : مـا كان لابن أبي قحـافة أن يتقـدم فيصلّي بين يـدي رسـول الله ﷺ . وقولـه عـز وجل : ﴿ولّكن كـونـوا ربّانيين بما كنتم تعلّمـون الكتاب وبما كنتم تدرسـون﴾ أي ولكن من آتاه الله الكتاب والحكم والنبـوّة فإن الذي يتطابق فيـه العقل والشرع والطبع أن يقول لهم : ﴿كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون* ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ وإن الذي يخطـر ببالـه أن الرسـول المبعوث من الله عـز وجل لدعـوة عباد الله إلى

توحيد الله يخون الرسالة ويدعو إلى عبادة نفسه أو عبادة الملائكة والنبيين من دون الله، الذي يخطر بباله ذلك جاهل بالله عز وجل جهلا مُطْبقا وجاهلٌ برسل الله جهلا مطبقًا، وهو في نفس الحال ينسب إلى الله عز وجل عدم العلم بما يصطفي ويختار، ولا يتأتّى ذلك إلا من كافر فاجر جاهل، فكيف يخطر ذلك ببال من يدّعي أنه من أهل الكتاب؟ ومعنى: ﴿كونوا ربّانيين﴾ أي كونوا حكماء حلماء علماء بإخلاص العبادة لله وحده ومعرفة حقوق ربكم عليكم ووضع الأمور في مواضعها وأدّوا لكل ذي حق حقّه، والربانيون جمع ربّاني، وهو منسوب إلى رَبّان، والرَّبّان هو المعلم للخير ومن يسوس الناس ويعرّفهم أمور دينهم وأسباب سعادتهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقال علي رضي الله عنه: الربانيون هم الذين يغذّون الناس بالحكمة ويربونهم عليها اهـ وقوله عز وجل: ﴿بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي بسبب كونكم صرتم علماء معلمين غيركم الذي أنزله الله على رسولكم من الكتاب، وبسبب كونكم صرتم دارسين لهذا الدين الذي تفضل الله عليكم به لتخرجوا من الظلمات إلى النور ومن الشرك إلى التوحيد، وفيه حضّ على وجوب نشر العلم ودراسته وتدريسه فإنّ من سلك طريقا يلتمس فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وقوله عز وجل: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمين﴾ قوله: ﴿ولا يأمركم﴾ بالنصب معطوف على قوله: ﴿ثم يقول للناس كونوا عبادا لي﴾ وتوسيط الاستدراك بين المعطوف والمعطوف عليه للمسارعة إلى تحقيق الحق في بيان ما يليق بشأن الرسول ويحقّ صدوره عنه، وتخصيص التنديد بمن اتخذ الملائكة والنبيين آلهة لأن أهل الكتاب هم أكثر من عبد الملائكة والنبيين من دون الله مع اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله. وقوله عز وجل: ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ صريح في كفر من يتخذ

الملائكة والنبيين أربابا، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ لهؤلاء الذين انتكست فطرتهم وانقلبت موازينهم، وانطمست بصائرهم فصاروا يظنون أن أنبياء الله المبعوثين بالتوحيد يدعون إلى عبادة أنفسهم أو عبادة الملائكة والنبيين، ولا يُسْتَكْثَر على هؤلاء المجرمين أن يظنوا أن رسل الله يأمرون من أسلم أن يعود إلى الكفر وعبادة الطاغوت. وهذا لا يخطر ببال أحد من العقلاء، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنُنّ به ولتنصرنّه، قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين* فمن تولّى بعد ذٰلك فأولٓئك هم الفاسقون* أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرْهًا وإليه يُرجعون* قُل آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنّبيون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون* ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين. ﴾

بعد أن بيّن الله بالدليل القطعي أن رسل الله عز وجل إنما جاءوا بتوحيد الله تبارك وتعالى وأنه المعبود بحق لا شريك له ونزّه رسله أن يناقضوا التوحيد، وأنه يستحيل أن يقع من الرسل أن يدعوا أحدًا لعبادتهم أو عبادة الملائكة، أو يأمروا من أسلم بالكفر، وفي هذا تقرير لتوحيد الله عز وجل وتنزيهه عن الشريك بأبلغ برهان وأقوى دليل، ذكر هنا أن جميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام يصدّق بعضهم بعضا لأن الله عز وجل قد أخذ عليهم العهد والميثاق بذلك، وأن رسل الله عليهم الصلاة والسلام قد أعلنوا لأممهم هذه الحقيقة، والمقصود من ذلك تقرير الرسالة على أكمل وجه، وأنه لا عذر لمن يدّعي أنه من أتباع النبيين ثم يكذّب سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدًا ﷺ فمن أعرض عن الحق الذي جاء به محمد ﷺ فأولٓئك هم الفاسقون، لأن الله لا يقبل من أحد دينا سوى دين الإسلام. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا﴾: يخبر تعالى أنه أخذ

ميثاق كلّ نبي بعثـه من لدن آدم عليـه السلام إلى عيسى عليـه السلام : لمهما آتى الله أحدهم من كتـاب وحكمة ، وبلغ أيّ مَبْلَغ ثم جاء رسـولٌ من بعده ليؤمننّ به ولينصرنّه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتّباع من بعث بعـده ونصرته ، ولهذا قـال تعـالى وتقـدس : ﴿وإذ أخذ الله ميثـاق النبيين لما آتيتكم من كتـاب وحكمـة﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتـاب وحكمـة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن بـه ولتنصرنّه قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري﴾ اهـ وقال ابن جرير رحمه الله : معنى ذلك : الخبر عن أخذ الله الميثاق من أنبيـائه بتصديق بعضهم بعضا ، وأخـذ الأنبياء على أممها وتُبّـاعها الميثاق بنحـو الذي أخـذ عليها ربّها من تصـديق أنبياء الله ورسلـه بما جاءتها بـه ؛ لأن الأنبياء عليهم السـلام بذلك أرْسِلَت إلى أممهـا ، ولم يدّع أحـدٌ ممن صـدّق المرسلين أن نبيا أُرسل إلى أمـة بتكذيب أحـد من أنبياء الله عـز وجل وحججـه في عبـاده ، بل كلّهـا ــ وإن كـذّب بعض الأمم بعض أنبيـاء الله بجحودها نُبُوّته ـ مقرّةٌ بأنّ من ثبتت صحةُ نبـوّته فعليها الدّينونة بتصديقه ، فـذلك ميثاق مقـرٌّ به جميعهم اهــ وقـال شيخ الإسلام ابن تيميـة في رسالتـه المسماة بالتـدمريـة : والله تعالى جعل من دين الـرسل أنّ أولهم يبشّر بآخـرهم ويؤمن به ، وآخرهم يصدّق بأولهم ويؤمن به . قال الله تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمنن بـه ولتنصرنه قال أأقـررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قـالوا أقررنـا قال فاشهـدوا وأنا معكم من الشاهـدين﴾ قال ابن عبـاس : لم يبعث الله نبيا إلا أخـذ عليه الميثـاق لئن بعث محمد وهـو حيّ ليؤمنن بـه ولينصرنّه ، وأمـره أن يأخذ الميثاق على أمتـه لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمننّ بـه ولينصرنه . وقال شيخ الإسلام ابـن تيمية رحمه الله أيضا في جـواب من سأله عن مـن عزم على فعل محرم عـزما جـازما فعجـز عن فعله هل يأثم بمجـرد العزم أم لا؟ وبعـد

تمهيد في أحوال القلوب والأدلة، ووقوع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى، وعظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال، وأشار إلى أن إبليس هو رأس أئمة الضلال وأن محمدا رسول الله ﷺ هو رأس أئمة الهدى قال رحمه الله: فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم، كما قال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر، وهو شفيع الأولين والآخرين في الحساب بينهم، وهو أول من يستفتح باب الجنة، وذلك أن جميع الخلائق أخذ الله عليهم ميثاق الإيمان به، كما أخذ على كل نبيّ أن يؤمن بمن قبله من الأنبياء، ويصدّق بمن بعده، قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه﴾ الآية، فافتتح الكلام باللام الموطّئة للقسم التي يؤتى بها إذا اشتمل الكلام على قَسَم وشرط، وأدخل اللام على (ما) الشرطية ليبيّن العموم، ويكون المعنى: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبيّ المصدَّق الإيمانُ به ونصرُهُ، كما قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه اهـ والتعبير بقوله: لئن بعث محمد وهو حيّ، مع علم الله عز وجل أن محمدا ﷺ لن يبعث وأحدٌ من الأنبياء حيٌّ على الأرض، فالمقصود به تأكيد بعثته ﷺ لكل نبي من الأنبياء ليؤكّدوا على أممهم وجوب المبادرة والمسارعة إلى تصديقه والاستجابة له ﷺ وذلك لعموم دينه وشموله وكماله وبقائه إلى يوم القيامة وحيث خصه الله عز وجل بإرساله للعالمين ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري﴾ أي أأذعنتم لما أخذته عليكم من الميثاق وقبلتموه والتزمتم به، والإصر هو العهد والميثاق الشديد المؤكد. وقوله عز وجل: ﴿قالوا أقررنا﴾ أي قالوا: أذعنّا لأمرك والتزمنا بعهدك وقبلنا هذا الميثاق، وقوله عز وجل: ﴿قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾أي فكونوا

شهداء على أممكـم بأنكم بلغتموهم الميثـاق الذي أخذه الله عليكـم بالإيمان برسولي ونصرته وأنا شاهد معكم عليهم وكفى بالله شهيدا. وفي هذا الإخبار من التحذير والتأكيد مـا يحمل ذوي العقول على المسارعة والمبادرة إلى الإيمان بمحمد رسـول الله ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿فمن تـولى بعد ذٰلك فأولٰئك هم الفـاسقون﴾ أي فمن أعـرض عن الإيمان بمحمد ﷺ وعن نصرتـه بعد هـذا البيـان الشافي الكـافي فهؤلاء المعـرضـون المكذبـون هم الفاسقـون الخاسرون المنحـرفون عن وصـايا أنبيـاء الله ورسله، وقـوله عـز وجل: ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السّمٰـوات والأرض طوعا وكرهًا و إليه يُـرجعون﴾ هذه الآيـة هي ختـام المسك للآيـات التي أنـزلها الله عـز وجل للـرد على ما أثـاره نصارى نجـران وغيرهـم من اليهود والوثنيين من الشّبه، وهي ثـلاث وثمانون آية، أكّـد الله عز وجل فيهـا أن الدين عند الله الإسـلام وأن الله لن يقبل من أحد مهما كان دينـا سواه، وأنه لن يدخل أحد الجنة بعـد بعثة رسول الله ﷺ بهذا الدين إلا من طريقه، وأن عيسى عبـد الله ورسوله ليس إلٰها ولا ابن إلٰه، وأنـه يجب على جميع الأمم أن تسـارع إلى كلمـة الحق فـلا يعبـدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله. قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآيـة الكريمة: يقـول تعالى منكرًا على من أراد دينًـا سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك لـه، الذي لـه أسلم من في السمـوات والأرض، أي استسلم لـه من فيهما، طوعًا وكـرها، كما قال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السمـوات والأرض طوعًا وكرهًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أو لم يـروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجّدا لله وهم داخرونَ* ولله يسجُدُ ما في السمٰوات وما في الأرض من دابـة والملائكـة وهـم لا يستكبرون* يخافــون ربّهم من فـوقهم ويفعلون ما يؤمرون.﴾ فالمؤمن مستسلـم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم

لله كرهًـا، فإنه تحت التّسخير والقهر والسلطـان العظيم الذي لا يخالفُ ولا يمانع اهـ وقوله عز وجل: ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنّبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية في تفسير شبيهتها وهي قولـه تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿قولـوا آمنا بالله وما أنزل إلينـا وما أنزل إلى إبـراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط وما أوتي موسى وعيسى ومـا أوتي النبيون من ربهم لا نفـرق بين أحد منهم ونحن له مسلمـون﴾ وقد ذكرت في تفسيرهـا أنّ هاتين الآيتين الكريمتين آيـة البقرة وآية آل عمران هـذه من المتشابه المثاني الذي ذكره الله عـز وجل بقوله: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتـابا متشـابها مثاني﴾، على أن لكل واحـدة من هاتين الآيتين الكريمتين المتشـابهتين من الخواص والسّمات ما ينـاسب المقـام الذي وردت فيه، وقوله عز وجل: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي ومن يرغـب في دين غير دين الإسلام فقد ضيّع نفسه في الدنيا ولن يستجيب الله لـه إذا دعاه، ولن ينتفع بعمل يعمله كصلة الأرحام وإطعام الطعام والإحسـان إلى الأيتام كما قال عز وجل: ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والذين يـدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كبـاسط كفيـه إلى الماء ليبلغ فـاه ومـا هـو ببالغـه، ومـا دعـاء الكافرين إلا في ضلال﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلنـاه هباءً منثـورًا﴾ وكما قـال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حـديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «من أحـدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ». وفي روايـة لمسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمـرنا فهو ردّ».
وقد حكم الله عز وجل بخسران أعداء الإسـلام في الآخرة، وقضى بشقاء كلّ من أعـرض عن هذا الـدين الحنيف. وإذا كان مجرّد طلب وابتغـاء غير دين

الإسـلام يوجب الـرّدّ والخسران فلا شكّ أن تكـون حالُ من تـديّن بغير دين الإسـلام أفظع وأبشـع وأقبح . نسأل الله بأسمائه الحسنى أن يثبّتنـا بـالقـول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

قال تعالى: ﴿كيف يهدى الله قومًا كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنّ الرّسول حقٌّ وجاءهُم البيِّناتُ، والله لا يهدِى القوْمَ الظالمين* أولَئك جزاؤُهم أنَّ عليهمْ لَعْنةَ الله والملائِكةِ والنَّاسِ أجمعِينَ* خالِدينَ فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العَذابُ ولاَ هُمْ ينظرونَ* إلاَّ الّذين تابوا مِنْ بعدِ ذٰلك وأصلحُوا فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ* إنَّ الّذينَ كفروا بعد إيمانِهم ثمّ ازدادُوا كفرًا لن تُقبل توبتهم وأولَئكَ هم الضّالون* إنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّارٌ فلن يُقبل من أحدهمْ ملْءُ الأرض ذهبًا ولو افتدى به أولَئكَ لهم عذابٌ أليمٌ وما لهم من ناصرينَ* لَنْ تنالُوا البرّ حتّى تُنفِقوا ممّا تُحبّون، وما تُنفقوا من شيءٍ فإنّ الله به عليمٌ﴾.

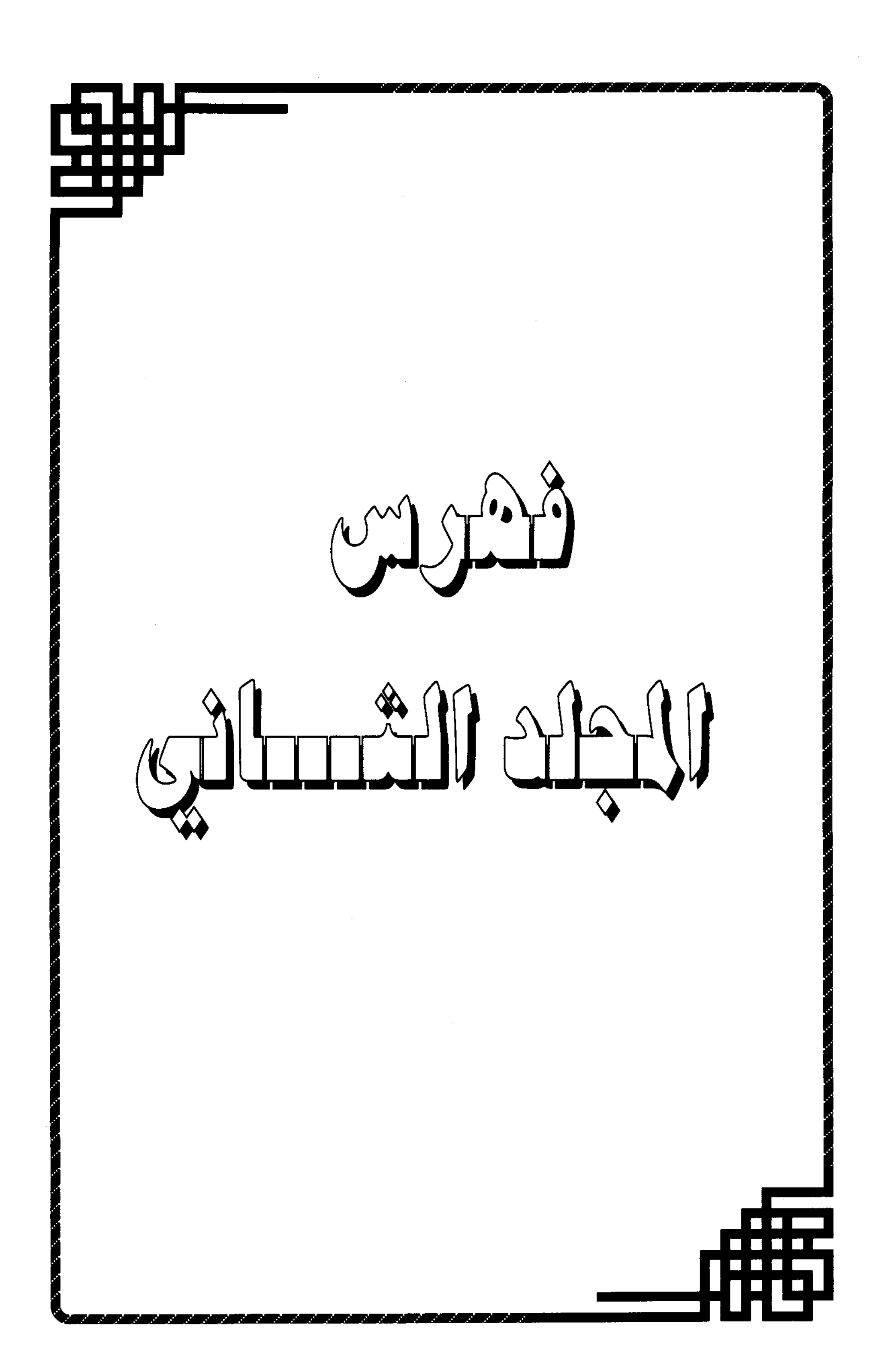
بعد أن قرر الحقّ جلّ وعلا أن الدين عند الله الإسلام وندّد أشدّ التنديد بأهل الكتاب الذين يَصُدُّون عن هذا الدين الحق، دين الله الذي أسلم له من في السموات والأرض طوعا وكرها بلسان الحال أو بلسان المقال، وأن الإسلام هو دين جميع النبيين والمرسلين، وأن من ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، بيّن هنا الوعيد الشديد لأئمة الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم ممن عرف الحقّ وشهد الحجج والبراهين والمعجزات التي أيّد الله بها رسوله محمدا ﷺ ثم استمر على ضلاله وكفره أو أسلم ثم ارتد عن الإسلام، وأن هؤلاء يستحقون لعنة الله ولعنة كلّ لاعن في السموات أو في الأرض، وأن بصائرهم قد انطمست فصارت غير متأهّلة لهدى الله عز وجل، وأن من هؤلاء من علم الله عز وجل أنهم يموتون على الكفر، وأن منهم من يتوب، وأن من تاب منهم قبل الله توبته. وفي تصدير الكلام بقوله عز وجل: ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا﴾ لإراحة بال رسول الله ﷺ من شدة حرصه على هداية هؤلاء وإسلامهم، كما قال عز وجل: ﴿فلعلّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾

وكما قال عز وجل: ﴿لعلّك باخعٌ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾ . وقد مرّ مثلُ الوعيد الذي جاء في هذا المقام حيث قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولَئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون* إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولَئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولَئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ . وهي توضّح أن الذين لا يهديهم الله أبدًا هم من عَلِم جل وعلا أنهم يموتون على الكفر، وأن قلوبهم لن تقبل الهدى، أما من علم الله أن قلوبهم تقبل الهدى فهم الذين أشار إليهم في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولَئك أتوب عليهم وأنا التوّاب الرحيم﴾ وذكرهم هنا بقوله عز وجل: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذٰلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم* وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ قال رحمه الله: فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تُقْبَلَ توبتهم وأولَئك هم الضالّون﴾ وقال تعالى: ﴿إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ قيل: إنّ القرآن قد بيّن توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقّ وجاءهم البينات، والله لا يهدي القوم الظالمين* أولَئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون* إلا الذين تابوا من بعد ذٰلك وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم﴾ وقوله: ﴿كيف

يهدي الله﴾ أي إنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين، ولهذا قال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً، لا يحصل له الهدى إلى أيّ دين ارتدّ، والمقصود أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا. وكذلك قال في قوله: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْرِهَ﴾ ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتدّ، قال: ﴿ثم إنّ ربّك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا إنّ ربّك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ﴾ وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ثم ذكر من لا تُقبل توبته ومن مات كافرا، فقال: ﴿إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تُقبل توبتهم وأولَئك هم الضالون* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقْبَل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به، أولَئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ وهؤلاء الذين لا تُقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا، قيل: لنفاقهم، وقيل: لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل: لن تُقبل توبتهم بعد الموت، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تُقبل توبتهم حين يحضرهم الموتُ، فيكون هذا كقوله: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّارٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين: ﴿ازدادوا كفرا﴾ ثبتوا عليه حتى ماتوا. قلت: وذلك لأن التائب راجعٌ عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر فقوله: ﴿ثم ازدادوا﴾ بمنزلة قول القائل: ثم أصرّوا على الكفر، واستمرّوا على الكفر، وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم، ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب

ورجع عن كفره فلم يزْدَدْ، بل نقص، بخلاف المُصِرِّ إلى حين المعاينة فما بقي له زمانٌ يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه. وفي الآية الأخرى قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ وذكر أنّهم ﴿آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا﴾ قيل: لأن المرتد إذا تاب غُفر له كفره فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه فعوقب بالكفر الأول والثاني، كما جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قيل: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». فلو قال: إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال: ﴿إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم﴾ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك وهو المرتدّ التائب، فهذا إذا كفر وازداد كفرا لم يغفر له كفره السابق أيضا، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفرًا فلا يدخلون في الآية اهـ وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفّار فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به﴾ أي من مات على الكفر فلن يُقْبَل منه خير أبدا ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربةً، وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضا ذهبا ما قُبِلَ منه كما قال تعالى: ﴿ولا يُقْبَلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلال﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عذاب أليم﴾ فمن مات كافرا لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبا، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ووزنها من جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها ذهبا ما تُقبّل منه، وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث

أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيتَ إلا أن تشرك». وقوله عز وجل: ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ بعد أن بيّن الله عز وجل أن الإنفاق في وجوه الخير لن ينفع الكافر لأن الكفر قد أحبط عمله، أشار تبارك وتعالى هنا إلى أن الذين ينتفعون بما يبذلون لله هم المؤمنون الباحثون عن البر الراغبون فيه الطالبون للجنة، وعرّفهم أفضل الطرق إلى ذلك وهو الإنفاق من المال على حبه، وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحَاء، وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإنّ أحبّ أموالي إليّ بَيْرُحَاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو برّها وذُخْرها عند الله تعالى فضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بخ بخ، ذاك مالٌ رابح، ذاك مالٌ رابحٌ، وقد سمعتُ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. اهـ والحمد لله رب العالمين.


فهرس
المجلد الثاني

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الذي حرم عليكم» الآيات الأربع	٣٧٦
قوله تعالى : «ومكروا ومكر الله» الآيات الأربع	٣٨١
قوله تعالى : «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم» إلى قوله : «فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين»	٣٨٧
قوله تعالى : «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلاّ الله» الآيات الثلاث	٣٩٣
قوله تعالى : «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا» الآيات الثلاث	٤٠٠
قوله تعالى : «يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله» الآيات الخمس	٤٠٦
قوله تعالى : «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك» الآيات الثلاث	٤١٢
قوله تعالى : «وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب» الآيات الثلاث	٤١٨
قوله تعالى : «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة» الآيات الخمس	٤٢٤
قوله تعالى : «كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم» الآيات السبع	٤٣٠